تاريخ الأدب العربي

للمدارس الثانوية والعليا

تأليف

أحمد حسن الزيات

عضو مجمع اللغة العربية

مزيدة ومنقحة

بآخر الكتاب ذيل لغوى يفسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة — القاهرة

تاريخ الأدب العربي

للمدارس الثانوية والعليا

تأليف

أحمد حسن الزيات

عضو مجمع اللغة العربية

مزيدة ومنقحة

بآخر الكتاب ذيل لغوى يفسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

الفهرس

مقدمة

صفحة

الباب الثالث — العصر العباسى

صفحة

الأدباء

الخطابة والخطباء

الشعراء

تاريخ الأدب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبنا هذا الكتاب على خير ما رجوناه من التمحيص والتلخيص ، وحجزنا القلم عن وجهه ومَرَادُ القول رحب ومجال البحث مستفيض ؛ فأجملنا على رغمنا حال الأدب فى العصور الخمسة ، ولا سيما فى العصر العباسى وهو أرقى عصور الإسلام ، ومشرق نور الحضارة ، ومهبط وحى العلم ، وريّق شباب اللغة ، وقوفاً بالطالب عند درسه ، وترفيهاً منا عن نفسه ، واجتزاء ببسط الغرض ونهج السبيل ليمعن فيها الناشىء البارئ بلغته مُسَدَّد الخطىء مؤيّد العزيمة ، حتى يقف على أطوار لسانه ، ويكشف عن أسرار بيانه . ولا نَكْذِبُ الله فقد كان لمنهاج التعليم فى هذا البلد وزهادةِ الناشئين فى الإفاضة ، أثر قوىّ فى هذا الإيجاز . فكلمتنا للمتعقب ، إذا رأى فى هذا الموجز إجمالا أو إغفالا ألا يبسط بالنكير لسانه ، فإن هذا العلم فى العربية وليد ، والبحث فيه طريف جديد . ونحن إنما كتبناه لناشئة الأدب لا لفحوله ، وألممنا فيه بأصوله لا بفصوله . كلمتنا للمتعلم ، إذا استوعاه بالدرس ، واستقراه بالحفظ ، ألا يقف فى الطلب عندَه ، وألا يَقْصِرَ عليه جهده ، فانما هو عجالة لهفان وبُلالة صادٍ وعلالة مَشُوق .

* * *

ذلك ما قدمنا به الطبعة الأولى لهذا الكتاب منذ خمسة وأربعين عاما . وإنه ليثلج صدورنا أن نقول اليوم إن دراسة تاريخ الأدب فى الديار المصرية وفى غيرها من الأقطار العربية ، قد أخذت تنتشر وتتسع وتتعمق ؛ فمناهجه تنقح وتعدل ، ومباحثه تحقق وتحلل ، ومدرسوه يتقصون فى تفصيله ، ودارسوه يتبارون فى تحصيله . لذلك نزعنا فى هذه الطبعة إلى شىء من التعمق والبسط ، راجين أن يكون فى هذا العمل بعض الغناء لشباب العرب فى العراق ولبنان وشرقى الأردن والسعودية واليمن والجمهورية العربية المتحدة والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب

مقدمة

أدب اللغة

أدب اللغة ما أثِرَ عن شعرائها وكتّابها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيلة الدقيقة، وتصوير المعانى الرقيقة، مما يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان . وقد يطلق الأدب على جميع ما صنف فى كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء.

والآداب العربية أغنى الآداب جمعاء؛ لأنها آداب الخليقة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية . فما كانت لغة مُضَرَ بعد الإسلام لغة أمة واحدة، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التى دخلت فى دين الله أو فى كنَفه . أودعوها معانيهم وتصوراتهم، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم؛ ثم جابت أقطار الأرض تحمل الدين والأدب والحضارة والعلم، فصرعت كل لغة نازلتها وَوَسِعَتْ علوم الأولين وآداب الأقدمين، من يونان وفُرس ويهود وهنود وأحباش، واستمسكت على عَرْك الخطوب تلك القرون الطويلة، فشهدت مصارع اللغات حولها وهى مرفوعة الرأس رابطة الجأش ترث نتاج القرائح وثمار العقول من كل أدب ونِحْلة، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار، تتألف، ثم تتشعب، ثم تتجمع، ثم تصب فى محيط واحد هو اللغة العربية .

تاريخ الأدب

تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر فى مختلف العصور، وعما عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسَن ونقد مؤلفاتهم وبيان

تأثير بعضهم فى بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب [1] .

ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص ، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو وصف مسلسل مع الزمن لما دوّن فى الكتب وسجل فى الصحف ونقش فى الأحجار تعبيراً عن عاطفة أو فكرة ، أو تعليما لعلم أو فن ، أو تخليداً لحادثة أو واقعة . فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين و بيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم فى الفن الذى تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعا أو تأخرها .

فائدة تاريخ الأدب

لتاريخ الأدب الأثر البالغ فى حياة الأمة . فإن المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب أحد الآساس التى يبنى عليها الشعبُ وحدته ومجده وفخره . فإذا حرمتَ شعباً آدابه وعلومه الجليلة الموروثة فقطعتَ سياق تقاليده الأدبية والقومية حرمتَه قوام خصائصه ونظام وحدته ، وقدته إلى العبودية العقلية وهى شر من العبودية السياسية ، لأن استعباد الجسم مرض يمكن دواؤه ، ويرجى شفاؤه ، أما استعباد الروح فموت للقومية التى لا يقدر على إحيائها طبيب .

---

(١) تاريخ الأدب بهذا المعنى علم حديث النشأة ، ابتدعه الإيطاليون فى القرن الثامن عشر وظل مجهولا فى الشرق حتى اشتد خلاطه بالغرب ، فكان أول من نقله إليه المغفور له الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه فى دار العلوم .

أما العرب فقد توسعوا فى تأليف كتب التراجم للأدباء والشعراء والعلماء وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى تدل على تبريزهم فى هذا النوع . ككتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وتاريخ الحكماء للقفطى ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، ودمية القصر للباخرزى ، وخريدة القصر للكاتب الأصفهانى ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقرى ؛ ولكن نسبة هذه الكتب إلى تاريخ الأدب كنسبة الحجارة إلى القصر المشيد ؛ لأنها أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة فى الصناعة والغرض والأسلوب ، ولا تذكر ما عرا النظم والنثر من تحول وتقلب . وما نجده من ذلك فى كتاب العمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والفهرست لابن النديم ، ليس إلا نبذا يسيرة ولمحاً وجيزة وردت مبعثرة لا صلة بينها ولا رابط ، ولذلك أسباب سنذكرها عند الكلام على مذاهب العرب فى التاريخ . راجع تفصيل ذلك فى كتابنا : (فى أصول الأدب) ، القاهرة سنة ١٩٥٠ .

تقسيم تاريخ الأدب

التاريخ الأدبى وثيق الصلة بالتاريخ السياسى والاجتماعى لكل أمة ، بل قل إن كليهما لازم للآخر مؤثر فيه ممهد له . غير أن الأول إنما يسبق الثانى كما تسبق الفكرة العمل والرأى العزيمة : فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولاً على ألسنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم ، وصفاء النفس منهم ؛ ثم ينتقل تأثرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة .

لذلك آثرنا أن نجارى كثرة كتابنا فى تقسيم تاريخ أدابنا إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهى :

(١) العصر الجاهلى ، ويبتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين فى منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينتهى بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م .

(٢) عصر صدر الإسلام والدولة الأموية ، ويبتدئ مع الإسلام وينتهى بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ ﻫ .

(٣) العصر العباسى ، ومبدؤه قيام دولتهم ومنتهاه سقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦ ﻫ .

(٤) العصر التركى ، ويبتدىء بسقوط بغداد وينتهى عند النهضة الحديثة سنة ١٢٢٠ ﻫ .

(٥) العصر الحديث ، ويبتدىء باستيلاء محمد على على مصر ولا يزال .

العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة

العرب أمة من الأمم التى اصطلح المؤرخون [1] على أن يسموها سامية

---

(١) أول من استعمل هذا الاصطلاح هو المؤرخ الألمانى فردريك سلوسر فى كتابه التاريخ العام وقد توفى سنة ١٨٦٠ .

(نسبة إلى سام بن نوح) وهى البابلية والأشورية والعبرانية والفينيقية والآرامية والحبشية . امتهدت هذه الشعوب فى الأصل مهداً واحداً نشأت فيه وتفرقت منه . وتعيين هذا المهد لا يزال موضع الخلاف وموضوع البحث : فبعض يقول إنه العراق ، وبعض يرجح أنه جزيرة العرب ، وآخرون يزعمون أنه الحبشة . ومهما يكن الخلاف فى مهد الساميين فقد نزحوا منه فى غابر الدهر ، فسكن البابليون والأشوريون العراق ، والفينيقون سواحل سورية . والعبرانيون فلسطين ، والأحباش الحبشة ، والعرب شبه جزيرتهم . وهى واقعة إلى طرف الجنوب الغربى من آسيا . ويحدها من الشمال سورية ، ومن الشرق الفرات وجهة من المحيط الهندى أيضاً ، ومن الغرب البحر الأحمر . ثم يقسمها جبل السراة الممتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام قسمين : غربيا وشرقيا ؛ فالغربى يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطىء البحر الأحمر فيسمى الغور لانخفاضه أو تهامة لحره والشرقى يصعد إلى أطراف العراق والسماوة فيسمى نجداً لارتفاعه ، وما فصل بين الغور ونجد يدعونه الحجاز لحجزه بينهما . أما ما ينتهى به نجد فى الشرق حتى يصل إلى الخليج العربى من بلاد اليمامة الكويت والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد ؛ وما يمتد وراء الحجاز إلى الجنوب يسمى اليمن إما لوقوعه على يمين الكعبة ، وإما ليمنه .

وفى هذه الأقسام توزع الشعبان العربيان : شعب قحطان ، وشعب عدنان. فأما القحطانيون فسكنوا اليمن وكانت لهم فيه عمارة عظيمة وحضارة زاهرة . فلما نَبَتْ بهم مرابعه تمزقوا فى البلاد ، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فغلب اليهود على يثرب ، وكان من أعقابه الأوس والخزرج . ثم احتل حارثة ابن عمرو وهو خزاعة ، الحرم . ومال عمران بن عمرو نحو عمان ، فبنوه أزد عمان. واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة وهم أزد شنوءة ؛ ووقف رواد جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه فكان منهم الغساسنة . ونزل بنو لخم بالحيرة ومنهم نصر

ابن ربيعة أبو المناذرة . وأما العدنانيون فسكنوا الحجاز وما ياسره إلى ريف العراق ، فأقامت بطون قريش فى مكة وضواحيها ، وبطون كنانة فى تهامة ، واحتلت ذبيان ما بين تيماء وحوران . وسكنت ثقيف الطائف ، وهوازن شرقى مكة ، ونزل بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة ، وبنو تميم بادية البصرة . واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية . وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من اليمامة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق فالأبلة ، فهيت .

والمؤرخون يرجعون العرب إلى ثلاث طبقات :

بائدة : وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم ، فلم يسجل لهم التاريخ إلا صفحات مشوهات لا تنفى ظناً ولا تثبت حقيقة . وأشهر قبائلهم : عاد وثمود وطَسْمٌ وجَدِيسُ . « فأما ثمودُ فأُهْلِكوا بالطاغية ، وأما عادٌ فأهلكوا بريح صَرصر عاتية [1] » وأما طسم وجديس فتفانوا كما يزعمون فى حادثة نسائية خرافية .

وعاربة : وهم اليمنيون المنتمون إلى يَعرُب بن قحطان المذكور فى التوراة باسم يارح بن يقطان . ويزعم العرب أنه أصل لسانهم ، ومصدر بيانهم ، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت فى قوله :

تعلمتُمُ من منطق الشيخ يَعرُبٍ أبينا فصرتم مُعربين ذوى نفْرِ
وكنتم قديماً ما لكم غيرَ عُجمة كلامٌ وكنتم كالبهائم فى القفْرِ

ومن اليمنيين بطون حمير — وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك . وبطون كهلان — وأشهرهم همدان وطىء ومذحجُ وَكندة ولخْمْ . ومن لخم بنو المنذر فى الحيرة والأزْد . ومن الأزد الأوس والخزرج فى المدينة والغساسنة فى الشام . وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال .

ثم **مستعربة** : وهم ولد اسماعيل عليه السلام ، نزل بالحجاز حوالى القرن

---

(١) قرآن كريم .

التاسع عشر قبل الميلاد ، ثم صاهر ملوك جُرهم ، فكان له بنون وأعقابٌ ضلوا فى مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان ، وإليه ينتهى عمود النسب العربى الصحيح . وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومُضر وأنمار واياد . فمن ربيعة عبد القيس ، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل . ومن مضر انشعبت قيس عيلان وبطون اليأس بن مضر . فأما قيس عيلان فأشهر بطونها هوازن وغطفان؛ ومن غطفان عبس وذبيان ابنا بغيض . وأما أولاد اليأس فافترقوا ، فمنهم بطون تميم بن مر ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة ، وبطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة قريش : ثم انقسمت قريش إلى بطون شتى . فمنهم جُمحُ وسهم ومخزوم وعبد الدار وعبد مناف . ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم ، ومن هاشم عبد المطلب : وبنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب والد على رضى الله عنه ثم العباس . فالعلويون ينتسبون إلى على ، والعباسيون إلى العباس . وأما الأمويون فليسوا من بنى هاشم وإنما هم من بنى عبد شمس أخيه .

وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة ، وما نتجمل به من بيان ، وما ندرسه من أدب ، وما نعتقده من دين .

أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية فى الجاهلية .

إن لجو الإقليم أثراً طبيعياً قوياً فى حياة أهله ، فهو الذى ينهج لهم سَنَنَ معاشهم ونظام اجتماعهم ، ويكوِّن الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم . والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يَجُودها الغيث وتواتيها العيون ؛ فهى لا تصلح للزروع الدورية ، ولا تلائم الحياة الحضرية . ومن ثَمّ كان أهلها بدواً [1] بالفطرة يعيشون تحت الخيام على رعى الأنعام فيَطعمون من لحمها ولبنها ، ويكتسون

(١) يدل على أن البداوة خصيصة العرب فى التاريخ القديم أن لفظ العرب يراد به فى اللغات السامية معنى البدو والبادية

بصوفها ووبرها ، ويتتبعون بها مواقع القَطر ورياض الأرض يُسيمونها فيها ، ويرددونها بين أوديتها وفيافيها ؛ إلا قريشا فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام ، وإيلافهم رحلة اليمن والشام ؛ وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الخصب والمطر ، ووفرة ما تغله أرَضوهم من الحب والثمر. فإذا أخلَفَتْ السماء وأمحلت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والغزو . وجريرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشعُّث الألفة . ولم يُنكب الجاهليون بمثل الحرب والجدب ، فهم لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة ، ويتبجحون باللّسن والفصاحة ، ويؤثرون الذكر ويئدون[1] الأنثى ، ويتكاثرون بالنفر العديد ، ويعتزون بالقرابة الواشجة .

ثم كان من إلفهم حياة الظعن والتجوال ؛ وتوزع همهم بين الجدال والقتال ، أن غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية ، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية . وإنما كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة ، لا مجتمع الشعب والأمة ؛ والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف ، فلم تكن أُلجرْشيّة[2] كحكومة الإغريق ، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس : اللهم إلا في الحيرة والشام فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين : فاللخميون في الحيرة يتبعون الأكاسرة ، والغسانيون في الشام يتبعون القياصرة . وإذن فمعاني الحضارة والرأي العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا ألفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً . والنظام العسكري حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم ، لأن المرءوسية

---

(١) لم يكن وأد البنات عاما في جميع العرب وإنما كان خاصا ببعض قبائل تميم وأسد ، يفعله من يفعل منهم خشية الفقر وإلى ذلك أشار الكتاب في قوله : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) .

(٢) الألجرشية Oligarchie حكومة ينحصر السلطان فيها في يد بعض الأسر القوية.

والتجرد عن الشخصية — وهما الركنان الأساسيان فى العسكرية — يضادان إعجاب العربى بنفسه واعتداده بشخصه. والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقشف، فلم يكن للعرب ما كان للأغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد، وإنما كان بقية أثرية من دين إبراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار، فحالت فى نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان[1] ونصبها على الكعبة تقرباً بها إلى الله على زعمهم. وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب. أما القلة فكان بعضها على اليهودية فى اليمن وفى يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفى قبائل طيىء والغساسنة بالشام.

أما الأسرة وهى نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال الأسرة المصرية الريفية اليوم: تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق. وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله: يملك عليهم الموت والحياة والبيع والانتفاء، فربما وأد ابنته خوف الفقر، وانتفى من ابن أمته خوف العار. وكان للزوجه المكانة السامية الثانية فى الأسرة، يجلها الزوج فى نفسه، ويشاركها فى أمره، ويتغنى باسمها فى شعره، ويفخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه. وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة، وللرجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد خلاف ذلك. ثم كان لهم أنواع أخرى من الزواج هى أشبه شىء بالمسافحة لا يعقدها إلا أولو الدعارة من الشباب. ويقرب من هذه الأنواع زواج كانت تعقده السيوف والأسنة. وذلك أن أحدهما يلقى رجلا معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من أحلافها، فيقتتلان، فإذا قهره أخذها منه سبية واستحلها بذلك. وكانوا

---

(١) الصنم ما كان على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب، والوثن ما كان حجراً عطلا من الصنعة.

يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف ، ويحلون التزوج من امرأة الأب ، ويحرمون البناء بالبنت والأخت والعمة والخالة . أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة لجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض . ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد .

وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة في اليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال على حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من السدود ، وأحيوه من الأرض ، وعمروه من المدن . ولكن درجة رقيهم ، وحقيقة علومهم ، لا تزالان سراً مطوياً في جوف الأرض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل [1] .

أما العدنانيون فقد كسبتهم قوة الملاحظة ، وكثرة التجارب ، واضطرار الحاجة ، طائفةً من العلم المبنى على التجربة والاستقراء والوهم . فعرفوا الطب والبيطرة والخيل لا تصالها بالحرب ؛ ولا حظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث ، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ؛ وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار ، محافظة على عصبيتهم ، وتحدثاً بمفاخرهم ، وتخليداً لمآثرهم ؛ ومهروا في الفراسة [2] والقيافة ووصف الأرض ، لكشف الدّعى فيهم ، وطلب الهارب

---

(١) تدل الدلائل على أننا الآن في بدء عهد موفق لكشف آثار المتقدمين . فقد كان من نتائج الحرب العالمية الأولى أن انبسط النفوذ الإنجليزى والفرنسى في بلاد العرب . وهب الأثريون المؤرخون من رجالهم ينقبون عن آثار الشرق القديم في خرائب فلسطين وسورية ولبنان والعراق .

وقد بدت تباشير النجاح في كشف الأستاذ مونتيه الفرنسى لآثار جبيل وهى أقدم مدينة فينيقية .

(٢) الفراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية ، كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه ، فيستدلون باتساع الجبين على الذكاء ، وبعرض القفا على الغباء ، وبضيق العين على الشح ، وبغلظ الشفتين على الإسراف في الحب والبغض إلخ .

والقيافة قسمان : قيافة الأثر ، وهى الاهتداء إلى الهارب بآثار قدمه . وقيافة البشر ، وهى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه .

منهم . ثم قادهم الجانب الروحى فيهم إلى الاعتقاد بالكهانة[١] والعرافة والزجر ، ففزعوا إلى الكهان فى أمراضهم ، واستفتوا العرّافين فى أغراضهم ، حتى ذهب الإسلام بكل ذلك .

وجملة القول أن المجتمع العربى خارج القبيلة كان مفككا من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية ، مرتبطاً من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية . ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كوّنوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم؛ فإن لغتهم وهى صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعانى التى تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينهما إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزاءه[٢] . ووضع اللفظ للشىء دليل على وجوده وعلمه . ولعمرى ما يكون التمدن اللغوى إلا بعد تمدن اجتماعى راقٍ فى حقيقته وإن لم يَرْقَ فى شكله ، عام فى أثره وإن لم يعم فى أهله .

(١) الكهانة والعرافة مطالعة الغيب والإخبار بالحوادث الماضية والآتية وقد يخصون الكاهن بعلم المستقبل ، والعراف بعلم الماضى . وكانوا يزعمون أن لهم أتباعاً من الجن يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار ، فاشتد إعتقاد العرب فيهم وكثر التجاؤهم إليهم ، يستشيرونهم فى المعضلات ، ويستقضونهم فى الخصومات ، ويستطبونهم فى العلل ، ويستعبرونهم فى الرؤى . ومن أشهرهم الكاهنان شق وسطيح ، والعرافان الأبلق الأسدى عراف نجد ورباح ابن عجلة عراف اليمامة .

والزجر هو الإستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث ، فكان الرجل يعمد إلى الطائر مثلا فيرميه بحصاة أو يصيح به فإن ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به ، وإن ولاه مياسره تشاءم منه وتطير .

(٢) تجد الأمثلة على ذلك فى كتاب فقه اللغة للثعالبى وكتاب المخصص لابن سيده .

البَابُ الأول

العصر الجاهلي

الفصل الأول

نشأة اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية ، انشعبت هى وهن من أرومة واحدة نبتت فى أرض واحدة . فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط ، وزاد هذا الاختلافَ انقطاعُ الصلة وتأثير البيئة وتراخى الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة .

ويقال إن أحبار اليهود هم أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه فى أثناء القرون الوسيطة ، ولكن علماء المشرقيات من الأوربيين هم الذين أثبتوا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة علمية لا إبهام فيها ولا شك.

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والكنعانية والعربية ، كما يردون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية . فالآرامية أصل الكلدانية والأشورية والسريانية ، والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية ، والعربية تشمل المضَرية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة . والراجح فى الرأى أن العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم ، لأنها بانعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغير تبعاً لأحوال العمران .

وليس فى مقدور الباحث اليوم أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية ، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهى فى وفرة الشباب والنماء . والنصوص

الحجرية التى أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الغناء ؛ وحدوث هذه الأطوار التى أتت على اللغة فوحّدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأدلة العقل والنقل ، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين ، فكان من الطبيعى أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال ، ومن كثرة الحل والترحال ، وتأثير الخلطة والاعتزال ، اضطراب فى اللغة كالترادف ، واختلاف اللهجات فى الإبدال والإعلال والبناء والإعراب ، وهَنات المنطق كعجعجة [١] قُضاعَة ، وطمطمانية حِمْير ، وفحفحة هذيل ، وعنعنة تميم ، وكشكشة أسد ، وقطْعَةِ طيىء ، وغير ذلك مما باعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها .

ولغات العرب على تعددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين : لغة الشمال ولغة الجنوب . وبين اللغتين بون بعيد فى الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » . على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى ، فإن القحطانيين جلوا عن ديارهم بعد سيل العرم — وقد حدث عام ٤٤٧م كما حققه غلازر الألمانى — وتفرقوا فى شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة ، وبما كانوا عليه من رقى ، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم فى العراق والشام ، كما أخضعوهم من قبل لسلطانهم فى اليمن . فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسى وتجارى يقرب بين اللغتين فى الألفاظ ، ويجانس بين اللهجتين فى المنطق ، دون أن تتغلب إحداهما على الأخرى ، لقوة القحطانيين من جهة ، ولاعتصام العدنانيين

(١) العجعجة قلب الياء جيما بعد العين وبعد الياء المشددة فيقولون فى الراعى : راعج وفى كرسى : كرسج . والطمطمانية جعل أم بدل أل فى التعريف فيقولون فى البر . أمبر ، وفى الصيام : أمصيام . والفحفحة جعل الحاء عينا فيقولون : أعل الله العلال ، بدل : أحل الله الحلال . والعنعنة إبدال العين من الهمزة إذا وقعت فى أول الكلمة . فيقولون فى أمان . عمان . والكشكشة جعل الكاف شينا فى خطاب المؤنث فيقولون فى عليك : عليش . والقطعة حذف آخر الكلمة فيقولون يا أبا الحسا فى الحسن .

بالصحراء من جهة أخرى . وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس الميلاد ، فأخذت دولة الحميريين تدول وسلطانهم يزول بتغلب الأحباش على اليمن طوراً وتسلط الفرس عليه طوراً آخر . وكان العدنانيون حينئذ على نقيض هؤلاء تهيأ لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال ، بفضل الأسواق والحج ، ومنافستهم للحميريين والفرس ، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب والتجارة ، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير الذليلة المغلوبة ، ثم جاء الإسلام فساعد العوامل المتقدمة على محو اللهجات الجنوبية وذهاب القومية اليمنية ، فاندثرت لغة حمير وآدابهم وأخبارهم حتى اليوم .

لم تتغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب ، وإنما استطاعت كذلك أن تبرأ مما جنته عليها الأمية والهمجية والبداوة من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع ، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمها :

(١) **الأسواق** : وكان العرب يقيمونها فى أشهر السنة للبياعات والتسوّق وينتقلون من بعضها إلى بعض ، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول ، والمفاوضة فى الرأى ، والمبادهة بالشعر ، والمباهاة بالفصاحة ، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق ، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعيه ، وطمعاً فى تكثير مشايعيه . والرواة من ورائه يطيرون شعره فى القبائل وينشرونه فى الأنحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته .

وأشهر هذه الأسواق عكاظ[1] ومجنة وذو المجاز . وأولاهن أشهر فضلا

---

(١) عكاظ قرية بين نخلة والطائف . بينها وبين مكة ثلاث مراحل اتخذت سوقا سنة ٥٤٠ الميلاد ، ثم بقيت فى الإسلام إلى أن نهبها الخوارج سنة ١٢٩ هـ . ومجنة موضع أسفل مكة على أميال منها . وذو المجاز بمنى خلف عرفات . وقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال =

وأقوى أثراً فى تهذيب العربية . كانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر إلى العشرين منه ، فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج . وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج ، لأنها متوجَّهُهُم إلى الحج ، ولأنها تقام فى الأشهر الحرم ، وذلك ولا ريب سر قوتها وسبب شهرتها . وكان مرجعهم فى الفصل بينهم إلى محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه .

(٢) أثر مكة وعمل قريش :

كان لموقع مكة أثر بالغ فى وحدة اللغة ونهضة العرب ، لأنها كانت فى النصف الثانى من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التواجر من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها فى أسواق الشام ومصر . وكانت جواد مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة وعيرهم الدثر آمنين ، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة فى العلم ، وقوة فى الفهم ، وثروة فى المال ، وخبرة بأمور الحياة . وهى مع ذلك متجرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر ليقضوا مناسكهم ويشتروا مرافقهم مما تنتجه أو تجلبه . ذلك إلى أن قريشاً أهلها وأمراءها كانوا لمكانتهم من الحضارة وزعامتهم فى الحج ، ورياستهم فى عكاظ ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران

= هذه المجامع باحتشادهم فى الجمناسيوم الألعاب البدنية الأولمبية التى كانوا يقيمونها كل أربع سنين كلما حجوا هيكل المشترى Jupiter فى أولمبية . وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم فى أثنائها على نحو ما يفعل العرب فى الأشهر الحرم . فلما استوثق لهم الأمر وتأيد الملك كانت عاقبة أمرها أن أصبحت أندية لإنشاد أشعارهم وعرض أفكارهم . ومن أثر ذلك إطلاق لفظ الجمناسيوم على دور التعليم فى أوربا وعلى الأخص فى ألمانيا .

أشد الناس بالقبائل ارتباطاً ، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً . كانوا يختلطون بالحبشة فى الجنوب ، وبالفرس فى الشرق ، وبالروم فى الشمال . ثم كانوا على أثارة من العلم بالكتب المنزلة : باليهودية فى يثرب وماجاورها من أرض خيبر وتيماء ، وبالنصرانية فى الشام ونجران والحيرة ؛ فتهيأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللسان والفكر . ثم سمعوا المناطق المختلفة ، وتدبروا المعانى الجديدة ، ونقلوا الألفاظ المستحدثة ، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات ، فكانت أعذبها لفظاً ، وأبلغها أسلوباً ، وأوسعها مادة [1] ، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فأتم لها الذيوع والغلبة .

---

(١) ذكر صاحب العقد الفريد أن معاوية قال يوما لجلسائه أى الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط يا أمير المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا من رته العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر ، وتيامنوا عن فشفشة تغلب ؛ ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير . قال من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش .

الفصل الثانى

النثر

النثر أسبق أنواع الكلام فى الوجود لقرب تناوله ، وعدم تقيده ، وضرورة استعماله . وهو نوعان : مسجّع إن التزم فى كل فقرتين أو أكثر قافية ، ومرسل إن كان غير ذلك . وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة ، وفعل الوراثة ، وقلة الاختلاط بالأعاجم . أللهم إلا هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية فى الترقيق والتفخيم والإبدال والإمالة . ولم يُعن الرواة من منثورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص .

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عمن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير . وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية ، كقولهم : وافق شَنٌّ طَبقَةَ . ولأمر ما جدع قَصِيرُ أنفه . ويداك أوكتا وفوك نفخ . وقد تعاقب العلماء على جمعها وشرحها. وأشهر هؤلاء الميدانى المتوفى سنة ٥١٨ هـ ، فقد جمع كتابه : [مجمع الأمثال] من نحو خمسين كتاباً ، وكاد يستوعب فيه المأثور من القديم والمشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم .

والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو . وهى ثمرة الحُنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة ، كقولهم : الخطأ زاد العَجول . من سلك الجَدد أَمِن العثار . عِيٌّ صامت خير من عى ناطق .

والخطبة والوصية كلتاهما يزاد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، إلا أن الأولى

تكون على ملأ من الناس فى المجامع والمواسم . والأخرى تكون لقوم معينين فى زمن معين ، كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت .

مميزات النثر الجاهلى

يمتاز النثر فى الجاهلية بجريانه مع الطبع ، فليس فيه تكلف ولا زُخْرُف ولا غُلوُ . يسير مع أخلاق البدوى وبيئته ، فهو قوى اللفظ ، متين التركيب ، قصير الجملة ، موجز الأسلوب ، قريب الإشارة ، قليل الاستعارة ، سطحىُّ الفِكرة . وربما تساوَقت فيه الحِكم واطّردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة .

الخطابة

الخطابة كالشعر لُحمتُها الخيال وسُدَاها البلاغة . وهى مظهر من مظاهر الحرية والفروسية ، وسبيل من سُبل التأثير والإقناع . تحتاج إلى ذَلاقة اللسان ، ونَصاعة البيان ، وأَناقةِ اللهجة ، وطلاقة البديهة . والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء ، وأولو غيرة ونجدة . فكان لهم فيها القدم السابقة والقِدْحُ المُعَلّى . وقد دعاهم إليها ما دعا الأمَم البدوية من الفخر بحسبها ونِجَارِها ، والذّود عن شرفها وذمارها ، وإصلاح ذات البين بين الحيّين ، والسفارة بين رءوس القبائل وأَقيالهم ، أو بين الملوك وعمالهم . وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة ، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أَزرها ، وشاعر يرفع ذكرها . وربما اجتمع الصفتان فى واحد .

أما أُسلوبها فكان رائع اللفظ ، خلاب العبارة ، واضح المنهج ، قصير السجع ، كثير الأمثال . وهم إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور وأذْيع . ومَن عاداتهم فيها الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهر دابة ،

ورفع اليد ووضعها ، والاستعانة على العبارة بالإشارة ، واتخاذ المخاصر بأيديهم، والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها .

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة ، جهير الصوت، سليم المنطق ، ثبتَ الجنان . وأشهر خطبائهم فى هذا العصر قسّ بن ساعدة الايادى ، وعمرو بن كلثوم التغلبى ، وأكثم بن صيفى التميمى ، والحارث بن عباد البكرى، وقيس بن زهير العبسى ، وعمرو بن معد يكرب الزُّبيدى ، وحسبنا أن نترجم لخطيبين من أعلامهم وقوفاً بالطلب عند الغرض من هذا المختصر .

الخطباء

قس بن ساعدة الإيادى

المتوفى سنة ٦٠٠ م

حياته : هو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحَكَمُها . كان يؤمن بالله ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة . ويقال إنه أول من خطب على شرف، واتكأ على سيف ، وقال فى خطبه أما بعد . سمعه النبى صلى الله عليه وسلم فى عكاظ فأثنى عليه . ويروى أنه قال فيه : « رحم الله قساً ! إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده » . وكان يفد على قيصر من حين إلى حين فيكرمه . ولكنه صدف عن الدنيا وعاش على الكفاف يعبد الله ويعظ الناس حتى توفى سنة ٦٠٠ م، وقد عمّر طويلا .

أسلوبه : إن صح ما أثر عنه من النثر فقد كان أسلوبه مطبوعاً مسجوعاً ، شديد الروعة ، متخير اللفظ ، قصير الفواصل . يعمد فيه إلى ضرب الأمثال واستنتاج العبر من مصارع الطغاة وظواهر الكون . وله شعر يجمع إلى الجزالة رقة التعبير وَقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه .

قال من خطبته فى سوق عكاظ :

أيها الناس ! اسمعوا وعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، **وكل ماهو آت آت** . ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مُدْحاة ، وأنهار مجراة . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ يامعشر إياد ، أين الآباء والأجداد ، وأين الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا وأطول آجالاً ؟ طحنهم الدهر بكلكله ، ومزقهم بتطاوله .

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

ومن حكمه : مَن عيرّك شيئاً ففيه مثله . ومن ظَلمك وجد من يظلمه . وإذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك . وكن عفّ العَيْلة مشترك الغنى . ولا تشاور مشغولا وإن كان حازماً ، ولا جائعا وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً .

ومن شعره قوله يرثى أخوين له وقد وقف على قبريهما بدير سمعان :

خليلىَّ هُبا طالما قد رقدتما أجدَّ كما لا تقضيان كراكما !
ألم تعلما أنى بسمعان مفردٌ ومالىَ فيه من حبيب سواكما ؟
أقيم على قبريكما لست بارحاً طَوالَ الليالى أو يجيبَ صداكما
جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما كأن الذى يسقى العقار سقاكما !

فلو جُعلت نفسٌ لنفس وقايةً   لجدتُ بنفسى أن تكون فداكما

سأبكيكما طول الليالى وما الذى   يرد على ذى عَولة إن بكاكما!

عمرو بن معد يكرب الزبيدى

المتوفى سنة ٦٤٣ م

حياته: عمرو بن معد يكرب الزبيدى فارس اليمن وخطيب العرب وبطل القادسية، ينتهى نسبه إلى قحطان ويكنى أباثور. لقى النبى صلى الله عليه وسلم لدَى منصَرفه من تبُوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه، ولكن قلبا شاب فى الجاهلية الجهلاء، ورتع فى الدماء والأشلاء، واستهتر فى اللهو والصهباء، لا يقبل على الدين بإخلاص وصدق، فارتد بعد إسلامه. ثم رجع إلى الحق وجاهد فى سبيل الله حق جهاده. ثم شهد القادسية وعمره على ماقيل عشر سنين ومائة، فأبلى فيها بلاء حسناً. ثم توفى فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٣م.

صفته ومنزلته: كان قوياً بديناً أكولا، وكان سيداً مطاعاً وبطلا شجاعاً وخطيباً شاعراً؛ يعد فى الطبقة الثانية من الشعراء، وفى الأولى من الخطباء، ويغلب فى شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة. يقال إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سَراة العرب إلى أنُوشِروْان بالمدائن ليكون كلامهم بين يديه مصداقاً لدعواه فى العرب وافتخاره بهم وتفضيله اياهم فألقى هذه الخطبة:

إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، ومِلاك النُّجعة الارتياد، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من إعتساف الحيرة. فاجتبذ طاعتنا بلفظك؛ واكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يلِن لك قيادُنا. فإنا أناس لم يوقّصْ صَفاتَنَا قِراعُ مناقير من أراد لنا قضما، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما.

ومن شعره قوله فى أُبىٍّ الْمُرادى وقد توعده :

أعاذلَ شِكتى بدنى ورمحى وكلُّ مُقَلِّصٍ سلس القيـــاد
أعاذل إنما أَفنى شبـــابى وقرّح عاتقى ثقل النجـــاد
تمنانى ليلقـــانى أُبىٌّ ودِدْت وأينما منى ودادى
ولو لاقيتنى ومعى سلاحى تـكشف شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتـــلى ! عَذِيرَكَ من خليلك من مُراد !

وقوله :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن ردِّيت بُردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا بغة وَعَدَّاءً عَلَنْدَى !
نَهْداً وذا شُطَبٍ يَقُدّ البيض والأبدان قدا
كم من أخ لِي صالح بوّأته بيدىَّ لحدا
ما إن جزعت ولا هَلِع ت ولا يرد بكاى رشدا
ذهبَ الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

نماذج من النثر الجاهلى

من الأمثال

قالت العرب فى أمثالها :

(إذا سلمتِ الجلة فالنيّبُ هَدَرٌ) أى إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به .

(إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدل بنفسه إذا مُنى بمن هو أدهى منه .

(إنك لا تجني من الشوك العنب) أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلا .

(ذكرني فوك حمارَيْ أهلي) أصله أن رجلا خرج يطلب حمارين ضلاَّ له ، فرأى امرأة فأعجبته، فنسي الحمارين. فلما أسفرت عن وجهها رأى فمها قبيحاً فقال هذا المثل .

(تجشَّأ لقمان من غير شِبَع) يضرب لمن يدَّعي ما ليس يملك .

(رمتني بدائها وانسلَّتْ) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُعير هو به

(ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعني) يضرب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار

(أسَرَّ حَسْواً في ارتغاء) يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو يجر النفع إلى نفسه . وأصله أن الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن .

(أوسعتهم سبًّا وأودَوْا بالإبل) . . أصله أن رجلاً أُغِيرَ على إبله فأُخذت ، فلما توارى المغيرون بها صعد أكَمَةً وجعل يسبهم، ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله ، فقال هذا المثل .

(أحَشَفاً وسوء كِيلَةٍ ؟ . .) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .

(قد يحمل العَيْر من ذعر على الأسد) يضرب لمن يأخذه الدهش والرَّوع فحمله على ما ليس من طبعه .

(قبل الرِّمْي يُراش السهم . .) يضرب للاستعداد للأمر قبل نزوله .

من الحكم

ومن حكم العرب قولهم : مصارع الرجال تحت بروق الطمع . كَلْمُ اللسان أنكى من كلم السنان . رب عَجلة تهب ريثاً . العتاب قبل العقاب . التوبة

تغسل الحوبة . من سلك الجدد أمن العثار . أول الحزم المشورة . رب قول أنفذ من صول. أنجز حرما وعد . أترك الشر يتركك . من ضاق صدره اتسع لسانه. يدك منك وإن كانت شلاء . رب ملوم لاذنب له . مِن مأمنه يؤتى الحذِر .

الخطب

قال هانىء بن قبيصة الشيبانى لقومه يحرضهم ، وهو يدلك على مذهب الجاهليين فى النثر من تفكك المعانى وضعف ارتباط الجمل :

يامعشر بكر ! هالك معذور ، خير من ناج فرور . إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره . الطعن فى ثغر النحور ، أكرم منه فى الأعجاز والظهور . يا آل بكر ، قاتلوا فما من المنايا بد ! .

وخطب عبدالمطلب عند سيف بن ذى يزن بعد انتصاره على الحبشة قال : وإن الله تعالى أيها الملك أحلك محلا رفيعاً ، باذخاً شامخا ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، ونبل أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم معدن وأطيب موطن . فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذى به تخصب ، وملكها الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى إليه تلجأ العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعده خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا بكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة .

من الوصايا

أوصى زهير بن جناب الكلبى بنيه قال :

يا بنى قد كبرت سنى ، وبلغت حرصاً من دهرى ، فأحكمتنى التجارب ،

والأمور تجربة واختبار. فاحفظوا عنى ما أقول وعوه. إياكم والخور عند المصائب، والتواكل عند النوائب ، فإن ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا ، ولكن توقعوها ، فإن الإنسان فى الدنيا غرض تعاوره الرماة . فمقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابد أن يصيبه .

وأوصت أعرابية ابنتها ليلة زفافها قالت :

أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك . ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل . ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس .

أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه . فاحملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً : اصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتعهدى موقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدئى عند منامه . فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مبغضة . ثم اتقى مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير . وكونى أشد الناس له إعظاماً ، يكن أشدهم لك إكراماً. واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت . والله يخير لك .

وأوصت أعرابية ولدها قالت :

أى بنى ! اياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين . وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً . وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ،

وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلَمته حتى يهى[1] ما اشتد من قوته . وإياك والجود بدينك والبخل بمالك . وإذا هززت فاهزز كريماً يلنْ لهزتك ، ولا تهزز لئيماً فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها . ومثّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودّته بشرَه وخالفَ ذلك منهُ فِعلُهُ ، كان صديقه منهُ على مثل الريح فى تصرفها . والْغَدْرُ أقبح ما تعامل به الناس بينهم . ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحُلة رَيْطَتها وسربالها[2] .

---

(١) يهى : يضعف .

(٢) كل ثوب رقيق يشبه الملحفة . والسربال القميص .

الفصل الثالث

الشعر

تعريفه وأوليته

الشعر هو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلة البديعة والصور المؤثرة البليغة . وقد يكون نثراً [1] كما يكون نظما . والشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع ، وعدم احتياجه إلى رقى فى العقل ، أو تعمق فى العلم ، أو تقدم فى المدنية . ولكن أوليَّته عند العرب مجهولة ، فلم يقع فى سماع التاريخ إلا وهو محكم مُقَصَّد وليس مما يَسوغ فى العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة فى شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس ، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت مَناحيه[2] . والمظنون أن العرب خَطوْا من المرسل إلى السجع [3] ومن السجع إلى الرجز ، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد . فالسجع هو الطور الأول

---

(١) العرب يعرفونه بهذا المعنى كما عرفه العبران واليونان والفرنج فقالوا : «الشعر شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا . وقال حسان لابنه : «شعر ورب الكعبة» حين سمعه يصف زنبوراً لسعه بقوله : كأنه ملتف فى بردى حبرة» فهم يطلقون الشعر على النثر المسجوع المشتمل على الخيال المؤثر فى الوجدان . وعلى هذا النحو سموا القرآن شعراً والرسول شاعراً .

(٢) مما يدل على أن الشعر قديم العهد قول امرىء القيس :

عوجا على الطلل القديم لعلنا   نبكى الديار كما بكى ابن حزام

وقول عنترة :   هل غادر الشعراء من متردم   وقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معاراً   أو معاداً من قولنا مكرورا

(٣) قال الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن : إن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان عثورهم عليه فى الأصل بالاتفاق غير مقصود إليه فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسماع تألفه والنفوس تقبله تتبعوه وتعلموه وتكلفوا له .

من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة ، وتقييداً للحكمة ، وتعمية للجواب ، وفتنة للسامع . وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشعراء الأولون ، زعموا أنهم مهبط الالهام ، وأنجياء الآلهة ، فكانوا يسترحمونها بالأناشيد ، ويستلهمونها بالأدعية ، ويخبرون الناس بأسرار الغيب فى جمل مقفاة موقعة أطلقوا عليها اسم السجع تشبيها لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة .

فلما ارتقى فيهم ذوق الغناء ، وانتقل الشعر من المعابد إلى الصحراء ، ومن الدعاء إلى الحداء ، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز[1] .

ثم تعددت الأوزان بتعدد الألحان ، فكان للحماسة وزن ، وللغزل وزن ، وللهزج وزن ، وهكذا إلى سائر الأوزان التى حصرها الخليل بن أحمد فى خمسة عشر وزناً[2] سماها بحوراً .

فأنت ترى أن الشعر مصدره الغناء ، وفى أخذهم السجع من هديل الحمامة ، والرجز من إيقاع مشى الناقة ، ولفظ الشعر من (شير) العبرية بمعنى الترتيلة أو التسبيحة ، وقولهم إلى الآن : أنشد الشعر بمعنى ألقاه ، مايؤيد ذلك .

الشعر والعرب

العرب أشعر الساميين فطرة ، وأبلغهم على الشعر قدرة ، لاتساع لغتهم للقول ، وملاءمة بيئتهم للخيال ، وصفاء قريحتهم ، وسذاجة معيشتهم ، وقوة عصبيتهم ،

---

(١) الرجز أول ما نظمه العرب للحداء : والغالب فى الظن أنه مأخوذ من سير الجمل وهزته ، لشدة الموافقة بين تقطيعه وخطوه . ويزعم العرب أن أول من قاله مضر بن نزار حين سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول : وايداه ! وايداه ! وكان من أحسن خلق الله صوتاً ، فأصغت الإبل إليه وجدت فى السير . فقطعوا على هذا الوزن لحن الحداء وسموه الرجز . ومن أمثلته قول الراجز :

دع المطايا تنسم الجنوبا   إن لها لنبأ عجيبا   حنينها وما اشتكت لغوبا
يشهد أن قد فارقت حبيبا   ما حملت إلا فتى كئيبا   يسر مما أعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا   إذن لآثرنا بهن النيبا   إن الغريب يسعد الغريبا

(٢) زاد الأخفش عليه بحرا بعد ذلك سماه المتدارك .

وكمال حريتهم ، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل ، ويعوق الذهن عن التفكر ، فهم بين الصحراء والسماء فى فضاء من اللانهاية يملأ الذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة . وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة ، وطباع ثائرة ، يستفزهم الرغبُ والرهبُ ، ويزدهيهم الطرب والغضب ، فلم يتركوا شيئاً يجول فى النفس أو يقع تحت الحس الا نظموه ، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم ، وسجل وقائعهم وسيرهم ، وشاهد صوابهم وخطأهم ، ومادة حوارهم وسمرهم . وكانوا كلهم يروونه ، وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر[1] حتى روى عنهم من الشعر الوجدانى مالم يرو عن أمة من أمم الأرض مثله . فلا بدع إذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم ، والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم . والأمثال فى التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر فى نفوسهم ومنزلة الشاعر من قلوبهم ، كحديث الأعشى مع المحلَّق وحسان مع بنى عبد المدان ، والحطيئة مع بنى أنف الناقة

أنواع الشعر وأغراضه

أنواع الشعر ثلاثة : شعر غنائى أو وجدانى Lyrique وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره . وشعر قصصى Eptque وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية فى شكل قصة ، كالإلياذة والشاهنامة . وشعر تمثيلى Dramatique وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلا منهم بما يناسبه من الأقوال . وينسب إليهم

---

(١) على أن من الشعراء من كانوا يروون وينقحون فسموهم عبيد الشعر لذلك . كزهير وعدى بن الرقاع والحطيئة . قال عدى بن الرقاع :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وقال سويد بن كراع :

أبيت بأبواب القوافى كأنما أصادى بها سربا من الوحش نزعا

ما يلائمه من الأفعال . والغنائى أسبق هذه الأنواع إلى الظهور ؛ لأن الشعر أصله الغناء كما علمت . والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره ، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه[1] .

ولما كان الشعر مادته الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ؛ والعربى لا يرى من المناظر غير وجوه البادية ، ولا يسمع من الأقاصيص إلا البطولة والحرب ، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة ، أبدع فى وصف ماشاهده من حيوان وسهل وجبل ، وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل ، وتفنن ما شاء له الحب فى التشبيب والغزل . فالشعر العربى غنائى محض ، لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه ، والتعبير عن شعوره وحسه . والعواطف تتشابه فى أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق فى أكثر الألسنة . ومن ثم نشأ فيه التكرار ، وتوارد الخواطر ، والسرقة ، ووحدة الأسلوب ، وتشابه الأثر . وكان من الحق أن يقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاداً من لفظنا مكروراً

أما الشعر القصصى والتمثيلى فلا أثر لها فيه ، لأن مزاولتهما تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال ؛ وتطلب الإلمام بطبائع الناس ، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم ؛ وتفتقر إلى التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصارا للقول وأقلهم تعمقا فى البحث . وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة ، وحرمتهم طبيعة أرضهم ، وبساطة دينهم ، وضيق خيالهم ، واعتقادهم بوحدانية إلههم ، كثرة الأساطير وهى من أغزر ينابيع الشعر القصصى ، فزخرت بحور الشعر العربى بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل

(١) جاء فى كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ، وكتاب (فى الأدب الجاهلى) والمجمل فى تاريخ الأدب العربى : أن الشعر القصصى أسبق من الغنائى ، وهو زعم لا مصدر له ولا دليل عليه . فإن العلماء يكادون يجعلون الغنائى أصلا والقصصى والتمثيلى شكلين من أشكاله .

والوصف والاعتذار والحكمة ، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة[1] التي تعلن المفاخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة[2] لليونان ، والإينياد للرومان ، ومها بهاراته للهنود ، والشاهنامة للفرس .

مميزات الشعر الجاهلي

وعوثة الصحراء وخشونة العيش ، وحرية الفكر ، وطبيعة الجو ، وسذاجة البدو ، كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ومازه بسمة ظاهرة . فمن خصائصه الصدق في تصوير العاطفة ، وتمثيل الطبيعة ، فلا تجد فيه كلفا بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء ؛ فكثر لذلك الايجاز ، وقل المجاز ، وندرت المبالغة. وضعفت العناية بسياق الفكر على سنن المنطق واقتضاء الطبع : فعلائق المعاني واهنة واهية ، ومساق الأبيات مفكك مضطرب . فإذا حذفت أو قدمت أو أخرت لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص ؛ وذلك لأن البدو بطبيعتهم يعوزهم النظر

(١) قال صاحب المثل السائر في معرض كلامه عن الإطالة وعجز الشاعر عنها : « إني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة . فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال . ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامة ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم . وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

(٢) الإلياذة ملحمة يونانية نظمها هوميروس في حروب طروادة ، وهي تمثل الحضارة اليونانية القديمة أصدق تمثيل . والإينياد L'énéide ملحمة نظمها فرجيل أكبر شعراء الرومان (٧٠ — ١٩ قبل الميلاد) قلد بها إلياذة هوميروس فأبدع . والمهابهاراته ملحمة هندية نظمها (فياسه) أحد كهان الهنود باللسان السنسكريتي قبل الميلاد بقرون يصف فيها الحروب التي نشبت بين البانداس والكوروس ؛ وهي تبلغ مائتي ألف بيت : والشاهنامة ملحمة فارسية نظمها الحسن بن إسحق الفردوسي المتوفى سنة ٤١١ هـ في تاريخ الأكاسرة وأخبارهم ، ووصف الحرب التي اشتعلت بين أهل إيران وأهل طوران . وقد نقلها إلى العربية نثرا الفتح بن علي البنداري الأصبهاني وقدمها إلى خزانة أحد الملوك الأيوبيين . وقد نشرها وقدم لها وأتمها وعلق عليها الدكتور عبد الوهاب عزام سنة ١٩٣٢ بالقاهرة .

الفلسفى فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة لا ينظمها سلك ولا تجمعها علاقة. ومن ثمّ كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة . ومنها استعمال الغريب ومتانة التركيب وجزالة اللفظ ؛ لتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة البادية فى طباعهم ونظام اجتماعهم . والابتداء بذكر الاطلال والديار ، لأنهم أهل خيام ومضارب، وألاّف انتجاع وظعن ، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه فيه، وأحبة ترحلوا عنه . فتهيجه الذكرى فيحييّه ويبكيه . والشعر الجاهلى على الجملة كثير التشابه قليل التنوع يجرى فى حَلْبة واحدة من السماع والتقليد .

الرواية والمعلقات

المروىّ من الشعر الجاهلى على قصر عهده المعروف يفوت الجمع وتضيق عنه الحافظة . على أن كثيرين من رواته ذهبت بهم حروب الفتح فذهب معهم شطر كبير منه . قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله . ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » ولكن هذه الكثرة متهمة وروايتها مُريبة ، فإن الشعر لم يدَون إلا فى أوائل القرن الثانى للهجرة و إن فى نقله على الألسنة ، طوال هذه الأزمنة ، مَظنة للتبديل والاختلاق والتزيد . وفيما رُوِى عن حماد الراوية وخلف الأحمر من عَبثهما بالشعر وافتعالها إياه مساغ لهذا الظن . ولعل القصائد التسع والأربعين التى جمعها أبو زيد القرشى فى جمهرة أشعار العرب أصح الشعر القديم رواية وأصدقه تمثيلا لأسلوبه ومناهجه . وأبعد هذه القصائد مدى فى الرواية ، وأوفرها حظاً من الحفظ والعناية ، المعلقات أو المذهّبات أو السُّموط . وهنّ على الرأى الغالب سبع قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب اختارتها فكتبتها بماء الذهب على القباطى ، ثم علقتها بالكعبة إعجاباً بها و إشادة بذكرها . وقد بقى بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام : وأصحابها هم امرؤ القيس ، وزهير بن أبى سُلمى ، وطرفة ابن العبد ، ولبيد بن ربيعة ، وعنترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث

ابن حلزة . ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة . فمن المتقدمين أبو جعفر النحاس[1] المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ومن المتأخرين المستشرق الألمانى[2] نولدكى Noeldeke على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سُنة فى الجاهلية بقى أثرها فى الإسلام . فمن ذلك تعليق قريش الصحيفة التى وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بنى هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله (ص) حين أجمع على الدعوة ؛ وتعليق الرشيد عهدَه بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين فالمأمون . فلم لا يكون الأمر كذلك فى هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر فيهم ومكانة الشعراء منهم ؟ على أن لهذا الأمر نظائر فى أدب الإغريق ، فإن القصيدة التى قالها بَنْدار زعيم الشعر الغنائى يمدح بهادياجوراس قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا فى لنوس[3] .

نماذج من الشعر الجاهلى

قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى ، والطيرُ فى وُكناتها لِغيثٍ من الوَسْمىّ رائده خال

تحاماهُ أطرافُ الرماح تحامياً وجادَ عليه كلُّ أسْحَمَ هطال

بعِجْلِزة قد أتْرَزَ الجرىُ لحمَها كُمَيْتٍ كأنها هراوةُ منوال

ذَعرْت بها سِربا نقياً جلودُه وأكْرُعه وَشْىُ البُرود من الخال

---

(١) قال أبو جعفر النحاس فى شرحه للمعلقات : واختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع ، فقيل إن العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال علقوها وأثبتوها فى خزائنى . وأما قول من قال إنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة .

(٢) وضع الأستاذ نولدكى كتاباً فى هذا الموضوع رجح فيه أن المعلقات معناها المنتخبات؛ وإنما سماها حماد الرواية بهذا الاسم تشبيها لها بالقلائد التى تعلق فى النحور ؛ واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط ومن معانى السموط القلائد . وشايعه على هذا الرأى الأستاذ كليمان هيار الفرنسى مؤلف كتاب الأدب العربى بلغته .

(٣) انظر دائرة معارف لاروس فى كلمة (بندار) :

كأن الصُّوارَ إذْ تجاهدْنَ غدوةً ... على جمزَى ـ خيل تجول بأجْلال
فجال الصُّوار ، واتقَّين بقرْهَبٍ ... طويل القرا والرَّوق أخنسَ ذَيال
فعادَيْتُ منه بين ثور ونعجةٍ ... وكان عِدائى إذ رَكِبتُ عَلَى بالى
كأنى بفتخاء الجناحيْن لقوَةٍ ... على عجل منها أطأطئُ شملال
تَخطفُ خِزّانَ الأنيعَم بالضحَى ... وقد حَجَرَتْ منها ثعالب أورَال
كأنَّ قلوب الطيرِ رطباً ويابساً ... لدى وَكرها ـ العُنَّابُ والحَشَفُ البالى
فلو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفانى ـ ولم أطلب ـ قليلٌ من المال
ولـكنما أسعى لمجـــد مُؤثَّلٍ ... وقد يدرك المجدَ المؤثلَ أمثالى
وما المرء مادامت حُشاشةُ نفسِه ... بمُدرِك أطرافِ الخُطوب ولا آل

وقال النابغة الذُّبيانى من قصيدته التى يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

أتانى ـ أبَيْتَ اللَّعنَ ـ أنَّك لُمْتنى ... وتلك التى تَسْتكُّ منها المسامع
مقالةُ أنْ قد قلت : سوفَ أنالهُ ، ... وذلكَ من تلقاء مِثلك رائعُ
لعمرى ـ وما عمرى عَلَىَّ بهيِّن ـ ... لقد نطقت بُطْلا عَلَىَّ الأقارعُ
أقارعُ عوْفٍ ، لا أحاول غيرَها ... وُجوهُ قُرودٍ تبتغى مَنْ تجادع
أتاكَ امرُؤٌ مستبطنٌ لىَ بُغْضَةً ... له من عدوٍّ مثل ذلك شافعُ
أتاك بقوْل هَلْهَلِ النسج كاذبٍ ... ولم يأتِ بالحق الذى هو ناصعُ
أتاك بقول لم أكن لأقوله ... ولو كُبِلتُ فى ساعدىَّ الجوامع
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وهل يَأثمَنْ ذو أمّة ، وهو طائع
بمصطحباتٍ من لِصافٍ وثَبْرَةٍ ... يرونَ إلالاً ، سَيْرُهنَّ التدافع
سماماً تُبارى الرِّيحَ خوصاً عيونُها ... لهُنَّ رزَايا بالطريق ودَائعُ

عليهنَّ شعثٌ عامِدُون لحجِّهمْ　　　فهُنَّ كأطراف الحَنِىّ خواضعُ
لَـكلفتَنى ذنب امرىء ، وَتركته　　　كذى العُرِّ يُـكوَى غيرهُ وهو راتع
فإن كنت لاذو الضِّغْن عنى مُـكذّبٌ　　　ولا حَلِفى عَلَى الْبرَاءةِ نَافعُ
ولا أنا مأمونٌ بشىء أقولهُ　　　وأنت بأمر — لا محالة — واقعُ
فإنك كالليل الذى هو مُدركى　　　وإن خِلتُ أنَّ المنتأى عنك واسع
خطاطيفُ حُجْن فى حبال متينةٍ　　　تُمَدُّ بها أيدٍ إليك نوَازعُ
أتُوعِدُ عَبْداً لم يخُنك أمانةً　　　ويُترَك عبدٌ ظالمٌ وهو ضالع
وأنت ربيعٌ يُنعِشُ النَّاسَ سَيبُه　　　وسَيفٌ أُعِيرَتْهُ المنِيَّة قاطع
أبىٰ اللهُ إلا عدلهُ ووَفاءهُ　　　فلا النُّـكرُ معروفٌ ولا العُرف ضائع
وتُسقى إذا ما شئْتَ غيرَ مُصَرَّدٍ　　　بزوراءَ فى حاناتها المسكُ كانع

وقال دُريد بن الصِّمة(١) فى رثاء أخيه :

أرثَّ جديدُ الحبْل منْ أمِّ معْبَدِ　　　بعاقبةٍ ، أم أخلفتْ كلَّ موعِدِ
وكانت ، ولم أحْمدْ إليك نوالهاَ　　　ولم ترْجُ منَّا ردَّةَ اليوم أوغَدِ
كأنَّ حمولَ الحىِّ إذ متَع الضُّحى　　　بناصية الشَّحناء عَصْبةُ مِذوَدِ
أو الأثأبُ الْعَمُّ المُحَرَّمُ سُوقهُ　　　بكابة لم يُخْبَطْ ، ولم يتعَضدِ
فقلت لعارض وأصحاب عارض　　　ورهط بنى السوداء والقومُ شُهَّدى
علانيةً : ظُنوا بألْفىْ مُدَجَّج　　　سَراتهُمُ فى الْفارِسىِّ المُسَرَّدِ

---

(١) دريد بن الصمه شاعر فارس سيد ، أدرك الإسلام ولم يسلم . قتل بنو غطفان أخاه عبد الله لأن دريداً أغار عليهم واستاق إبلهم ، فنزل عبد الله فى بعض الطريق ليقتسم الغنيمة فنهاه دريد مخافة أن تلحق بهم غطفان المنهوبة ، فأبى ؛ وبقى حتى أدركته الخيل فقتله عبس. وأراد دريد إنقاذه فلم يغن عنه ، وبقى دهره حزينا يرثيه حتى لامته فى ذلك إمرأته أم معبد فطلقها ، وقال فيها وفى رثاء أخيه القصيدة .

وقلت لهم : إنَّ الأحاليفَ هـذه مطنّبةٌ بين السِّتـار وثهمَدِ
ولما رأيت الخيْلَ قُبْلاً كأنها جرادٌ يُبارى وجْهَةَ الريح مُغتدى
أمرتُهمُ أمرى بمُنْعرَجِ اللِّوى فلم يستبينوا الرُّشد إلا ضُحى الغد
فلما عَصونى كنت منهم وقد أرى غوَايتهم أنى بهمْ غيرُ مُهتـدى
وهل أنا إلا من غزّية ؟ إن غوت غوَيتُ وإن ترشدْ غزّيةُ أرشُدِ
دعانى أخى والخيل بينى وبينَه فلما دَعانى لم يجدنى بقُعْدُدِ
أخ أرضعتنى أُمُّه مِنْ لبانها بثَدْى صفاء بيننا لم يُجدد
فجئْتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه كوقْـع الصَّياصى فى النسيج المُدّد
وكنْت كذاتِ البَوِّ رِيعتْ فأقبلت إلى قِطَـع من جلد بَوٍّ مُجَلّدِ
فطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنهنهتْ وحتى علانى حالكُ اللون أسود
قِتالَ امرىء آسى أخاهُ بنفسِه ويعلم أن المرء غـيرُ مُخلد
تنادَوْا فقالوا : أردْتِ الخيلُ فارساً ! فقلتُ : أعَبدُ الله ذلـكم الرّدِى ؟
فإن يكُ عبـدُ الله خلىّ مكانَه فما كان وقّافا ولا طائشُ اليد
ولا برماً إمّا الرياحُ تناوحَتْ برَطْبِ العِضاه والضّريع المُنضّدِ
وتخْرج منه صِرَّةُ القُرِّ جزأةً وطُولُ السَّرى دُرِّىّ عَضْبٍ مُهنّد
كميشْ الإزارِ خارجٌ نصفُ ساقِه صبـورٌ على الضراءِ طَلّاعُ أنْجُدُ
قليلٌ تشـكّيه المصيباتِ ذاكرٌ من اليوم أعقابَ الأحاديث فى غد
ذا هَبَط الأرضَ الفضاء تَزَيّنتْ لرُؤْيتـه كالمـأْتم المتَلَبّد
وكم غارةٍ بالليـل واليوم قبلهَ تداركها منّى بِسيدٍ عمَرّدِ
سليم الشظى عَبْلُ الشّوى شَنَجُ النَّسا طويلُ القرا نَهدٌ أسيلُ المقَـلد

يفوتُ طويل القوم عَقْدُ عذاره ... مُنيفٌ كجذع النخلة المتجرِّد
وكنتُ كأنى واثق بمُصدَّرٍ ... يُمَشِّى بأكناف الجُبَيْل فثهمد
له كلُّ منْ يَلْـقىَ من الناس واحداً ... وإن يَلْق مَثْنَى القوْم يفرَحْ ويَزْدَدْ
وهَوَّن وجْدى أننى لم أقُل له: ... كذَبت ولم أبخل بما مَلَـكتْ يدى

وقال علقمة بن عَبدَة التميمى (١):

طحا بك قَلْبٌ فى الحسانِ طروبُ ... بُعَيدَ الشَّباب عَصْرَ حان مشيبُ
يكلفُنى لَيْلَى، وقد شطّ ولْيُها ... وعادت عوادٍ بيننا وخُطوب
مُنعَّمةٌ، ما يُستطاع كلامها، ... على بابها مِن أن تُزارَ رَقيب
إذا غاب عنها البَعْلُ لم تُفش سِرَّهُ ... وتُرضِى إياب البعل حين يؤُوب
فلا تعـــدِلى بينى وبين مغمَّر ... سَقتكِ روايا المُزْنِ حين تصوب
سقاكِ يمانٍ ذو حَبِىٍّ وعارضٍ ... تروحُ به جُنْحَ العشىِّ جنوب
وما أنت؟ أم ما ذكرها؟ ربَعيَّةٌ ... يُخطُّ لهـا من ثرمدَاءَ قَليب
فإن تسألونى بالنساء فإننى ... بصيرٌ بأدواءِ النساء طبيب
إذا شابَ رأسُ المرء أو قلَّ ماله ... فليس له من وُدِّهنَّ نصيب
يُرِدْنَ ثراءَ المـال حيث عَلِمنَه ... وشرْخُ الشباب عندهُن عجيب
فدعْها وسلِّ الهمَّ عنكَ بجسرةٍ ... كهمِّك فيها بالرِّدافِ خبيب
إلى الحارثِ الوهاب أعملتُ ناقتى ... بكلـكلها والقُصْرَيَـيْنِ وجيب

وقال عبد يغوث الحارثى اليمنى (٢):

ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا ... فما لـكما فى اللوم خيرٌ ولا ليا
ألم تعلما أن المـلامة نفعُها ... قليل، وما لومى أخى من شِماليا

---

(١) شاعر جاهلى من طبقة امرىء القيس ومعاصريه، توفى قبل الإسلام بزمن طويل.
(٢) شاعر فارس من طرائق قومه، أسرته تيم الرباب يوم الـكلاب وهو يوم بين تيم واليمن

فيا راكباً إمّا عرضتَ فبلِّغنْ | نداماى من نجران أنْ لا تلاقِيا
أبا كرِب والأيْهَمَيْنِ كليهما | وقيساً بأعلى حضرمَوت اليمانيا
جزى الله قومى بالكلاب ملامة | صريحهمُ والآخرين المواليا
ولو شئت نجتنى من الخيل نَهْدَةٌ | ترى خلفها الُحوَّ الجيادَ توَاليا
ولكننى أحمى ذمار أبيكمُ | وكان الرماح يختطفن لمُحاميا
أقول وقد شدُّوا لسانى بنِسْعَةٍ | أمعشر تَيْمٍ أطلقوا عن لِسانيا
أمعشر تيم قد ملكتم فأسْجِحُوا | فإن أخاكم لم يكن من بوَائيا
فإن تقتلونى تقتلوا بىَ سيِّداً | وإن تُطلِقونى تحربونى بماليا
أحقاً عبادَ اللهِ أن لستُ سامعاً | نشيد الرِّعاء المعزبين المتاليا
وتضحك منى شيخةٌ عبشميةٌ | كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانيا
وقد علمت عِرسى مليْكة أننى | أنا الليثُ معدُوًّا عَلَى وعادِيا
وقد كنت نحَّارَ الجزور، ومُعْمِلَ الْ | مَطىِّ، وأُمضى حيث لاحىَّ ماضيا
وأنحرُ للشَّرب الكريم مطيَّتى | وأُصدعُ بين القَيْنَتَيْنِ ردائيا
وكنتُ إذا ما الخيلُ شمَّصها الْقنا | لبيقاً بتصريف القناة بنانيا
وعادية سَوْمَ الجراد وَزعتها | بكفِّى وقد أنحوْا إلىّ العواليا
كأنىَ لم أركبْ جواداً ولم أقل | لخيْلِىَ: كرِّى نفِّسى عن رجاليا
ولم أسبأْ الزِّق الروىِّ، ولم أقل | لأيْسار صِدق أعظموا ضوء ناريا

وقال ذو الإصبع العدوانى:

لىَ ابنُ عمّ على ما كان من خُلق | مختلفان: فأقليه، ويقليني
أزرى بنا أننا شالتْ نعامتُنا | فخالنى دُونه، وخلتهُ دونى
ياعمرُو إلا تدعْ شتمى ومنقَصَتى | أَضربْكَ، حتىتقول الهامة: اسقونى

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسبٍ   عني ، ولا أنت ديَّاني فتخزوني
ولا تقوتُ عيالي يوم مسغبةٍ   ولا بنفسك في العزَّاء تكفيني
إني لعمرك ما بابي بذي غَلَقٍ   عن الصديق ، ولا خيري بممنون
ولا لساني على الأدنى بمنطلق   بالفاحشات ، ولا فتكي بمأمون
عفٌّ يؤوس إذا ما خفتُ من بلدٍ   هُونًا فلستُ بوقاف عَلَى الهُون
عني إليك ، فما أُمّي بَرَاعيةٍ   ترعى المخاض ، وما رأيي بمغبُون
كلّ امرىء راجع يوماً لشيمته   وإن تخلّق أخلاقا إلى حين
إني أبيٌّ أبيٌّ ذو محافظةٍ   وابن أبيّ أبيّ مِنْ أبيين
وأنتمُ معشرٌ زيدٌ عَلَى مائة   فأجمعوا أمركم كلاًّ فكيدوني
فإن علمتمْ سبيل الرشد فانطلقوا   وإن جهلتم سبيل الرشد فأتوني
ماذا عَلَيّ وإن كنتم ذوي رحمي   ألا أحبكم إن لم تحبوني
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم   ولا دماؤكم جَمْعًا تَرَوِّيني
اللهُ يَعلمني ، والله يَعلمكم   والله يجزيكم عني ، ويجزيني
قد كنت أوتيكم نُصحي ، وأمنحكم   وُدّي على مُثبت في الصدر مَكنون
لا يُخرجُ الكره مني غيرَ مأبيةٍ   ولا ألينُ لمن لا يبتغي ليني

وقال الأفوهُ الأوْدي :

البيتُ لا يُبتنى إلا له عَمَد   ولا عِماد إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فإنْ تجمّعَ أوتادٌ وأعمدةٌ   وسَاكن بَلغوا الأمر الذي كادوا
لا يصلحُ الناس فوضى لاسرَاة لهم   ولا سَراة إذا جهَّالهم سادُوا
تهدى الأمُور بأهل الرأي ما صلحت   فإنْ تولّتْ فبالأشرار تنقادُ
إذا تولىّ سراة الناس أمرهم   نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

وقال ودّاك بن ثُمَيل المازنى :

رويد بنى شيبان بعضَ وعيدكم ... تُلاقوا غداً خيْلى على سفَوان
تلاقوا جياداً لاتحيد عن الوغى ... إذا ماغدتْ فى المأزق المتدانى
عليها الكماةُ الغرُّ من آل مازن ... ليوث طعان عند كل طعانِ
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرُهم ... عَلَى ماجنتْ فيهم يد الحدثان
مقاديم وصّالون فى الرّوع خطوهم ... بكلّ رَقيق الشَّفْرتين يمان
إذا استُنجدُوا لم يسألوا منْ دعاهمُ ... لأية حرب أمْ بِأَىِّ مَكان

وقال زهير بن أبى سُلْمى يمدح هَرم بن سنان :

وأبيضَ فيّاض يَدَاهُ غمامة ... عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ فواضلُه
أخى ثقةٍ لا يهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وقال أيضا :

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوههم ... وأنديةٌ ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يُشْفى بأحلامها الجهل
على مكثريهم رزقُ من يعتريهمُ ... وعند المقِلين السماحة والبذل
سعى بعدهم قوم لكى يدركُوهُم ... فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا
فما كان من خير أتوه فإنما ... توَارثَهُ آباء آبائهم قبل
وهل يُنْبتُ الُخطّىَّ إلا وشيجهُ ... وتُغرَس إلا فى منابتها النخل ؟

وقال الأعشى يمدح المحلق :

لعمرى لقد لاحت عيونٌ كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّقُ
تشَبُّ لمقرورَيْن يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق

رضيعَىْ لبــانٍ ثدى أمٍ تقاسما ... بأسحم داج عَوْضُ لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متنَ الهنـدُوانى رونق
يداه يدا صــدق فــكفٌ مُبيدةٌ ... وكفٌ إذا ماضُنّ بالمــال تُنفِقُ

وقال تأبط شراً يمدح ابن عم له و يفخر بما يتمدح به الجاهليون من الصفات:

إنى لَمُهْدٍ من ثنائى فقاصــدٌ ... به لابن عم الصدق شمس بن مالك
أهزُّ به فى ندوة الحى عِطْفَهُ ... كما هز عطفى بالهجـان الأوارك
قليل التشــكى للمهـم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظــل بموماة ويمسى بغــيرها ... جُحيشاً ويَعْرورِى ظهور المهالك
ويســبق وفد الريح من حيث ينتحى ... بمُنخرق من شــدِّه المتدارك
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالىء من قلب شيْحانَ فاتك
ويجعــل عينيه ربيئة قلبــه ... إلى سلَّةٍ من حد أخلق صائك
إذا هزه فى وجــه قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضــواحك
يرى الوحشة الإنس الأَنيس ويهتدى ... بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوابك

وقال عمرو بن الهذيل العبدى :

ولا ترْج خيراً عند باب ابن مَسمعٍ ... إذا كنت من حيٍّ حنيفة أو عِجْل
ونحن أقمنــا أمر بكر بن وائل ... وأنت (بثاج) ما تمرُّ وما تحْلى
وما تستوى أحساب قوم تُورِّثتْ ... قديما وأحســاب نبتْنَ مع البقل

وقال لبيد بن ربيعة يرثى النعمان .

ألا تســألان المرء ماذا يحاول ... أنحبٌ فيقضى أم ضلالٌ وباطل؟
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بلى، كلُّ ذى لبٍّ إلى الله واسل
ألا كلُّ شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محــالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويْهيةٌ تصفر منهــا الأنامل

وكل امرىء يوماً سيعلم غَيْبه إذا حُصِّلت عند الإله الحصائل
إذا المرء أسرى ليلةً حال أنه قضى عاملا ، والمرء ما دام عامل
فقولا له إن كان يقسم أمره ألمَّا يعظْك الدهر ؟ أمك هابل
فتعلم أنى لست مدرِك ما مضى ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
وإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون مَعَدٍّ فلْتزعك العوذال

وقال عَدِىّ بن زيد العبادِى :

أيها الشامت المعيِّر بالدهـ ـر أأنت المبرَّأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م أمْ أنت جاهل مغرور ؟
من رأيت المنون خلدن أم منْ ذا عليه من أن يُضام خفير ؟
أين كسرى كسرى الملوك أبوسا سان أم أين . قبله سابور ؟
وأبو الحضر إذ بناه وإذ دجْـ ـلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلْـ ـساً فللطير فى ذراه وكور
وتبين رب الخورْنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قَلبه فقال وما غبـ ـطة حى إلى الممات يصير ؟
ثم بعد الفَلاح والملك والأمة م وارتهمُ هناك القبور
ثم أصحوا كأنهم ورق جفّ م فألْوَتْ به الصَّبا والدّبور

وقال امرؤ القيس فى معلقته يصف الليل .

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أَعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مُغار الفتل شدّت بيذْبل

وقال فيها يصف جواده :

وقد أغتدى والطير فى وُكناتها　　بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفرٍّ مقبل مدبر معاً　　كجلمود صخر حطه السيل من عل
له أيطلا ظبى وساقا نعامةٍ　　وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال طرفة بن العبد يصف السفينة :

كأن حدوج المالكية غدوة　　خلايا سفين بالنواصف من (ددِ)
عدولية أو من سفين ابن يامنٍ　　يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومُها بها　　كما قسم الترْبَ المفايِل باليد

وقال أبو صعترة البولانى :

فما نطفة من حبّ مزن تقاذفت　　به جنبتا الجودىِّ والليل دامس
فلما أقرّته اللصاب تنفست　　شمالٌ لأعلى مائه فهو قارس
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ،　　ولكننى فيما ترى العين فارس

وقال الأعشى :

ما روضةٌ من رياض الحَزن معشبة　　خضراء جاد عليها مسْبِل هطِل
يضاحك الشمس منها كوكب شرِق　　مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشرَ رائحة　　ولا بأحسن منها إذْ دنا الأُصُل

وقال المتلمس جرير بن عبد العزّى من قصيدة :

وكنا إذا الجبار صعّر خدّه　　أقمنا له من خده فتقوّما
لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا　　وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليعلما
ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى　　جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت إلا مثلَ قاطع كفه　　بكف له أخرى فأصبح أجذما
فلما استقاد الكفّ بالكف لم يجد　　له دركا فى أن تبينا فأحجما
يداه أصابت هذه حتف هذه　　فلم تجد الأخرى عليها مقدما
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى　　مساغا لنابَيْه الشجاع لصمّما

الفصل الرابع

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

كل قبيلة كانت تحرص على أن يكون لها شاعر وقائد وخطيب ، ولكن الشاعر كان أكرم عليها وأحب إليها من هذين . فكانت إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهنئها القبائل . وذلك لأن الشعراء يقودون قومهم بقولهم ، وينضحون عنهم يوم حفلهم ، ويخلدون مآثرهم على الدهور ، وينقشون مفاخرهم فى الصدور ، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا صلة . على أن نفراً منهم تكسبوا بالشعر فغض ذلك من أقدارهم ، و إن لم يغض من أشعارهم ، كالنابغة مع النعمان ، وزهير مع هرم بن سنان ، والأعشى مع الملوك والسوقة[1] . وكان لكل شاعر راوية يلازمه ملازمة التلميذ لمعلمه . ينهج طريقه وينشر شعره. ونابغو الشعراء قضوا عهد الثقافة والمرانة فى الرواية ، فكان امرؤ القيس راويةَ أبى دؤاد الإيادى ، وزهير راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب بن علس .

والشعراء باعتبار الزمان أربع طبقات: جاهليون ، وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً يذكر ، كامرىء القيس وزهير وأمية بن أبى الصلت ولبيد . ومخضرمون ، وهم الذين اشتهروا بالشعر فى الجاهلية والإسلام ، كالخنساء وحسان بن ثابت . وإسلاميون : وهم الناشئون فى الإسلام الباقون على سليقتهم فى العربية ، وهم شعراء بنى أمية . ومولدون : وهم الذين فسدت

---

(١) انتجع الأعشى أطراف البلاد بشعره حتى قصد ملوك العجم فأثابوه . وفى ذلك يقول :

وطوفت للمال آفاقه ... عمان وحمص وأوريشلم

أتيت النجاشى فى أرضه ... وأرض النبيط وأرض العجم

فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بنى العباس .

وهم باعتبار الإجادة فى رأى النقاد ثلاث طبقات : امرؤ القيس وزهير والنابغة ، وهم رجال الطبقة الأولى . والأعشى ولبيد وطرفة ؛ وهم رجال الطبقة الثانية ؛ وعنترة ودريد بن الصمة وأمية بن أبى الصلت ، وهم رجال الطبقة الثالثة . وهذا التقسيم لا يخلو من ضلال وتحكم ، لاختلاف الذوق وجهل القدماء بقواعد النقد.

امرؤ القيس

نشأته وحياته

هو الملك الضِّليل ذو القروح جندح بن حجر الكندى ، ولد أثيلَ المنبت كريم الأبوة والأمومة : فأبوه سليل الملوك من كندة ، وملك بنى أسد . وأمه أخت كليب ومهلهل ابنى ربيعة . فشب فى حجر النعيم ودرج فى مهد السراوة ؛ إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الراح ويغازل النساء ويعشق اللهو ويقول الشعر . ثم أطلق لنفسه العنان فى المجون ، وقعد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة فطرده أبوه ، وكان أصغر أولاده . فخرج فى زمرة من أخلاط العرب وذؤبانهم يرتادون الرياض والغُدُر . فإذا صادفوا غديراً خيموا عليه وطفقوا يلعبون ويعاقرون ويصيدون ؛ حتى إذا نضب الماء وذوى العشب تحولوا عنه إلى غيره . ولم تزل تلك حاله حتى بلغ دمون من أرض اليمن . وهناك أتاه نعى أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم . فقال امرؤ القيس : « ضيعنى أبى صغيراً ، وحمّلنى دمه كبيراً . لا صحو اليوم ولا سكر غداً . اليوم خمر ، وغداً أمر » ثم آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدّهن بدهن حتى يقتل من بنى أسد مائة ويجز نواصى مائة . فلما أجنه الليل شام برقاً فقال :

أرقت لبرق بليـــل أهل ... يضىء سناه بأعلى الجبـــل

أتانى حديث فكذبته بأمر تزعزع منه القلل
بقتل بنى أسد ربهم ألا كل شىء سواه جلل

فلما كان من الغد استنجد أخواله بكراً وتغلب وسار إلى بنى أسد فأوقع بهم. ثم طلبوا أن يفدوه بمائة من وجوههم فأبوا ؛ فتخاذلت عنه بكر وتغلب . وطلبه المنذر بن ماء السماء لموجدة كانت فى نفسه على قومه ، وأمده كسرى أنو شروان بجيش من الأساورة فتفرقت جموعه خوفا من المنذر. وسار هو فى القبائل يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه . فلجأ إلى السموءل بن عاديا اليهودى فاستودعه دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ليوصله إلى قيصر . فلما بلغ قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان أكرم وفادته وطمع أن يكون امرؤ القيس قوة له فى العرب ، يربص له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة . فجهزه بجيش وسيره ، ثم بدا له فأعاده . ونزلت بامرىء القيس علة جلدية فتقرح جسمه وتهرأ لحمه. والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجنود دخل الطماح الأسدى على قيصر فوشى به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه . فبعث إليه قيصر بحلة وشى مسمومة وقد بلغ أنقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه . ويستدلون على ذلك بقوله :

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ليلبسنى من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة فيالك نعمى قد تحولت أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

ولما غشيته سكرة الموت قال : رب جفنة مثعنجرة ، وطعنة مسحنفرة ؛ وخطبة محبرة ، تبقى غداً بأنقرة ! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة ٥٦٠ م (١)

(١) من الغلو أن تحدد التواريخ لوفيات الشعراء والخطباء من الجاهليين فإن القوم لم يكونوا على شىء من العلم بتاريخ ولا بغيره ، وإنما كانوا يؤرخون بحوادثهم المعروفة .

شعره

نشأ امرؤ القيس نجدياً وإن كان يمنياً ، فترعرع بين بنى أسد فى صميم العرب الخلّص،فسمع الأشعار ورواها ، وتطلعت نفسه إلى مساجلة الشعراء فقال الشعر على حداثة سنه . وكان جزل الألفاظ كثير الغريب جيد السبك سريع الخاطر بديع الخيال بليغ التشبيه . وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته فاستنبط المعانى الجديدة ، ونهج المذاهب الحديثة. وارتسمت فى شعره مُحدثات عصره فنسبت إليه لنبوغه وتفوقه وجاهه . فقالوا إنه أول من وقف على الأطلال وبكى على الديار وشبَّب بالنساء ، وشبههن بالمها والظباء ، وأجاد وصف الليل والخيل لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره . وإنك لتجد فى شعره صورة كاملة من حياته وخلقه . ففيه عزة الملوك ، وتبذل الصعلوك ، وعربدة الماجن ، وحمية الثائر ، وشكوى الموتور ، وذلة الشريد . وهو باجماع الرواة زعيم الجاهليين للأسباب التى مرت بك .

نماذج من شعره

من خير ما أثر عنه معلقته التى سارت فى الناس مسير المثل. نظمها فى حادثة وقعت له مع ابنة عمه عنيزة ، ثم استطرد إلى وصف الليل ونعت الفرس وذكر المجون والصيد . قال فى مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومَل

وقد مر شىء منها فى النماذج . ومنها فى الغزل :

أفاطمُ مهلا بعضَ هذا التدلل　　وإن كنت قد أزمعتِ هجرى فأجملى
أغرك منى أن حبَّك قاتلى　　وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى　　بسهميك فى أعشار قلب مقتل
فإن كنت قد ساءتك منى خليقة　　فسُلِّى ثيابى من ثيابك تنسل
تسلّت عمايات الرجال عن الصبا　　وليس فؤادى عن هواها بمنسَل

وقال من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمرو بن قميئة إلى قيصر :

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرت به العينان بُدلت آخرا
كذلك جَدّى: لا أصاحب واحداً ... من الناس إلا خاننى وتغيرا
تذكرت أهلى الصالحين وقد أتت ... على جمل بنا الركاب وأعفرا
ولما بدت حوران والآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تَقَطَّع أسبابُ اللُّبانات والهوى ... عشية غادرنا حَماة وَشيزَرا
بكى صاحبى لما رأى الدربَ دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

النابغة الذبيانى

نشأته وحياته

هو أبو أمامةَ زياد بن معاوية ، ولقب بالنابغة لأنه لم يقل الشعر حتى احتنك ، ثم فجىء الناس بشعر بذّ به الشعراء وكان له منه مادة لا تنقطع فشبهوه بالماء النابغ . وهو أحد سَرَاةِ بنى ذبيان ومن ذوى مثالتهم ، ولكن تكسبه بالشعر غض من قدره وطأطأ من إشرافه . اتصل بالنعمان بن المنذر فاستخلصه إليه وأسبغ نعمته عليه حتى أكل وشرب فى آنية الذهب والفضة من جوائزه . ومازال النابغة يَتَبَسّط على النعيم ، ويَتَفَيَّأ ظلال الخفْض ، حتى دَرَج بالنميمة بينهما بعض حساده متذرعين إلى الوشاية بقصيدته فى وصف المتجردة زوج النعمان . فوقَرت السعاية فى نفس الملك فتوعده ، فنجا الشاعر بنفسه إلى الشام ولاذ بعمرو بن الحارث الأصغر الغسانى ، فنزل منه فى جناب مريع وأمن شامل ،

فزاد ذلك فى حقد النعمان عليه لالتجائه إلى أعدائه ومنافسيه . وما زال النابغة عند بنى غسّان يصلهم بالدر ويصلونه بالذهب حتى بلغه أن النعمان عليل ، فرجع يطلب الشفاعة إليه ، ويرجو البراءة عنده ، مقدماً بين يديه مع شفيعيه تلك القصائد الخالدة فى الاعتذار ، فاستلّت ما فى نفس الملك وأحلّته منه فى المكان الأول ، وبقى فى حال حسنة حتى أرعشه الكِبر وقيده الهرَم وسئم الحياة وقال :

المرء يأمل أن يعيـ ش وطول عيش قد يضرُّه
تفنى بشاشته ويبـ قى بعد حلو العيش مرُّه
وتخونه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بى إن هلكـ تُ وقائل : لله دَرُّه

وكانت وفاته فى السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة .

شعره

النابغة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يشقُّ غبارهم ، ولا تلحق آثارهم ، وهم امرؤ القيس وهو وزهير . ويمتاز من صاحبيه ببديع كنايته ، ودقيق إشارته ، وصفاء ديباجته ، وقلة تكلفه ، وموافقة شعره لهوى النفوس . ولهذا لم يغنّ الناس بشعر أحد فى الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما غنوا به من شعره . وقد أجاد فى وصف ليل الخائف ، واعتذار الجانى ، ومدح المنعم ، إجادة لا يتعلق بها درَك ، إلا أنه كان يُقوِى[1] فى شعره ويقول : إن فى شعرى عاهة

---

(١) أقوى الشاعر إذا خالف بين القوافى برفع بيت وجر آخر . كقول النابغة فى قصيدة المتجردة

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

لا أدريها ؛ حتى سمع مغنياً يغنى بأبيات من شعره فيها إقواء ، ففطن إلى ذلك ولم يعد إليه . وقد عرف شعراء العرب له تلك المكانة السامية فى الشعر فقدموه فى عكاظ واحتكموا إليه فى الخصومات الأدبية فكان يقضى بينهم موفّقَ القضاء مطاع الحكم .

نموذج من شعره

قال من قصيدته فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى :

كلينى لهمٍّ يا أُميمة ناصب ... وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكب
وصدر أراح الليل عازبَ همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب
علىّ لعمرو نعمة بعد نعمةٍ ... لوالدهِ ليست بذات عقارب
وثقت له بالنصر إذْ قيل قد غزتْ ... كتائب من غسّان غير أشائب
إذا ماغَزَوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدى بعصائب
فهم يَتساقوْن المنيةَ بينهم ... بأيديهمُ بيضٌ رقاقُ المضارب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب
لهم شيمةٌ لم يعطها الله غيرَهم ... من الجود ، والأحلامُ غير عوازب
رقاق النعال طيبٌ حُجزاتُهم ... يُحيّون بالرّيحانِ يوم السباسب
ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده ... ولا يحسبون الشرّ ضربةَ لازب

زهير بن أبى سُلمى

نشأته وحياته

نشأ زهير بن أبى سلمى بن ربيعة بن رباح المزنى فى أقارب أبيه من بنى غطفان ، ولزم بشامة بن الغدير خال أبيه ، وكان رجلا مقعداً عقيما حكيما قد اشتهر بسداد الرأى وجودة الشعر ووفرة المال ، فاغترف من شعره وتأثر بعلمه وحكمه ، وظهر ذلك جليا فيما رصع به شعره من درر الحكمة . ولما مشى الحارث بن عوف وهرم ابن سنان المرّيان بالصلح بين عبس وذبيان وأطفآ نار الحرب باحتمالهما ديات القتلى عن الحيّين ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير ، استفزته هذه الأريحية فمدحهما بمعلقته . ثم تابع مدحه لهرم بن سنان وأطنب فى ذلك حتى أقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسأله ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً . فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، وأصبح إذا رآه فى ملأ من الناس قال عِمُوا صباحاً إلا هرماً ، وخيرَكم استثنيت . وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم : أنشدنى بعض مدائح زهير فى أبيك ، فأنشده . فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم القول . فقال : والله ونحن كنا نحسن له العطاء . فقال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم وكان زهير على جِدّته رحب الأناة راجح الحصاة سديد الرأى شديد الورع مؤثراً للسلم مؤمناً بالله واليوم الآخر . يشهد بذلك قوله فى معلقته :

فلا تكتُمنَّ اللهَ ما فى صدوركم ليخفى ومهما يُكتَمِ اللهَ يُعْلمِ
يؤخَّرْ فيوضع فى كِتاب فيدَّخر ليوم حساب أو يعجَّل فيُنْقَمِ

وقد عمرَّ زهير حتى نيَّف على المائة كما يؤخذ من قوله :

بدالىَ أنى عشت تسعين حجة تباعاً وعَشراً عِشتها وثمانيا

وتوفى قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة وقد أسلم ولداه كعب وبُجير .

شعره

بيت زهير عريق فى الشاعرية : فأبوه وخاله ، وأختاه سلمى والخنساء ، وولداه كعب وبجْيْره ، من الشعراء المذكورين ، وذلك ما لم يكن لغيره . وهو كما علمت أحد الثلاثة الفحول . وفى الناس من يفضله على امرىء القيس والنابغة ، لأن شعره يمتاز بصدق اللهجة ، وخلوه من الحوشىّ والتعقيد ، وبعده عن سخف القول وهُجْر الحديث ، وجمعه الكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ. وهو واحد من الشعراء فى إجادة المدح وضرب المثل وإرسال الحكمة . وزهير من عبيد الشعر الذين تعملوه ونقحوه . وله قصائد تعرف بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها فى أربعة أشهر ويهذبها فى أربعة ، ثم يعرضها على خاصة الشعراء فى أربعة ، فلا ينشدها الناسَ إلا بعد حول .

تحليل موجز لمعلقته

موضوع معلقته كما علمت مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرّيين على سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان . ولكنه افتتحها على عادة الجاهليين بالوقوف على أطلال الأحبة وتحيتها ونعتها وتنسُّم الذكريات من خلال آثارها ، فوقف على الدمن البكم الدوارس من ديار أمّ أوْفى بعد أن أتى على عهده بها عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة :

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا عِمْ صباحاً أيها الربع واسلم

ثم تمثلت فى خاطره ظعائن الحبائب متحملات تغشيهن سدول صفيقة النسج ، وكلّه وردية الحواشى ، فيتبعهن ببصره الحزين وقلبه الواله ، فيصف ما سلكنه من طُرُق وما نزلنه من منازل حتى يبلغن المنزل الذى أردنه ،

وما أجمل أسلوبه فى استحضار هذه الذكرى ، حتى لكأنها ماثلة للعيون فلو تَبَصَّر صاحبه قليلا لرآها :

تَبَصَّرْ خليلى هل ترى من ظعائن   تحمّلن (بالعلياء) من فوق (جرثم)
تلَوْن بأنماط عِتـــــاق وكِلَّة   وِرَاء حواشيها مشاكهة الدم
بكرْن بكوراً واستحرن بسحرة   فهن لوادى الرس كاليد فى الفم
وفيهن مَلْهى للصديق ومنظرٌ   أنيــق لعين الناظر المتوسم
فلما وردن المــاء زُرقاً جِمامه   وضعن عِصىَّ الحاضر المتخيم

ثم انتقل على طريقة الاقتضاب إلى الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء العشيرة فقال لهما :

يميناً لَنِعم السيدان وجدتما   على كل حال من سَحِيلٍ ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعـد ما   تفانوا ودقوا بينهم عِطر مَنْشِمِ
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً   بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبح يجرى فيهمُ من تلادكم   مغانم شتى من إفال المُزَنَّم

ثم قطع المدح مؤقتاً ليدعو الخصوم إلى السلم فى لين ورفق ، ولكنه ذكر الحرب فاشتد وأنكر ما تجر على الناس من أوزار وأضرار :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم   وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم
متى تبعثــوها تبعثوها ذميمة   وتضرَ إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحا بثفالها   وتلْقَحْ كِشافاً ثم تحمل فتتئم
فَتُغْلِلْ لكم ما لا تُغل لأهلها   قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ثم عاد إلى رجُليه فمضى فى مدحهما على ما رأيا من صدع لم يحدثاه، ووصف همّ ابن ضمضم بالجناية وعزمه عليها :

وكان طوى كشحاً على مستكنة | فلا هو أبداها ولم يتجمجم
وقال سأقضى حاجتى ثم أتقى | عدوى بألف من ورائى مُلَجم
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة | لدى حيث ألقت رحلهاأم قشعم
لدى أسد شاكى السلاح مُقَذَّفٍ | له لِبَد أظفاره لم تُقَلَّم
رعوا ما رعوامن ظِمئهم ثم أوردوا | غماراً تسيل بالرماح و بالدم
فقضَّوا منايا بينهم ثم أصدروا | إلى كلإٍ مُسْتَوْبِلٍ متوخَّم

ثم غلبت عليه نزعته الإنسانية وطبيعته الفلسفية فوقف موقف الحكيم يتبرم بالحياة ويفكر فى الموت ويعظ بالتجارب :

رأيت المنايا خبْط عشواء من تصب | تمته ومن تُخطىء يعمَّر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه | ولو نال أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف من دونِ عرضه | يفره ، ومن لا يتَّقِ الشتم يشتَم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله | يعد حمده ذماً عليه و يندم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة | وإن خالها تخفى على الناس تُعلم
وكائن ترى من معجِب لك شخصه | زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده | فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإن سفاه الشيخ لا حِلْم بعده | وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

الأعشى

نشأته وحياته

هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جَنْدل أحد أمراء الشعر المتكسبين به القائلين فى أكثر ضروبه . نشأ باليمامة فى قرية تسمى منفوحة ، وثقف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيَّب بن علس ، حتى إذا حصُف عقلُه وارتاض لسانه ، انتجع أطراف البلاد وغشى أبواب الملوك يمدحهم و يستجديهم . وفدعلى بنى عبد المدان ملوك نجران فأكرموا ثواءه وأجزلوا عطاءه،واكتسب من خلاطهم إدمان العقَار ، والتأثر ببعض الأفكار ، فظهر شىء من ذلك فى شعره ولا سيما وصف الخمر . وطال عمر الأعشى حتى ابيضت عيناه من الكبر . وسمع بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فصنع فى مدحه قصيدة وعزم الرحلة إليه بالحجاز ، فأوجس القرشيون خيفة من إسلامه : وقال لهم أبو سفيان : والله لئن أتى محمداً أو اتبعه لَيَضْرِّمَنَّ عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل،ففعلوا،وأخذها الأعشى ورجع ؛ حتى إذا دنا من اليمامة سقط من فوق ناقته فدقت عنقه .

شعره

من الرواة وذوى البصر بالشعر من يجعل الأعشى رابعاً لامرىء القيس وزهير والنابغة . ويقولون : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهِب ، والأعشى إذا طرب . وهذا وإن كان موضعاً للخلاف يدل على مكانة الرجل . وفى الحق أنك تجد فى شعره مالا تجد فى شعر غيره من رونق الحسن ، وطلاوة الأسلوب ، والبراعة فى وصف الخمر والإجادة مع الطول . . . وكان لشعره جَلَبَةٌ فى السمع وروعة فى النفس وأثر فى الناس ، فسمى لذلك صَنَّاجة

العرب . ولقد أعز بشعره وأذل ؛ وقصته مع المحلق[1] ، وفرَق القرشيين من إسلامه يدلان على ذلك .

نموذج من شعره

من جيد شعره قصيدته اللامية التى عدها بعضهم من المعلقات ومطلعها :

ودّع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟

ومنها :

أبلغ يزيد بنى شيبان مألُكَةً ... أبا ثبيتٍ أما تنفكُّ تأتكل
ألست منتهياً عن نحت أثْلتنا ... ولست ضائرها ما أطّت الإبل
كناطحٍ صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعَل
لقد زعمتم بأنا لانقاتلكم ... إنا لأمثالكم ياقومنا قُتُلُ
قالوا الطراد ، فقلنا تلك عادتنا ، ... أو تنزلون فإنا معشر نُزُل

ومن قصيدته التى أعدها لمدح الرسول قوله :

ألم تغتمضْ عيناك ليلة أرمدا ... وبتَّ كما بات السليم مسهداً
وما ذاك من عشق النساء وإنما ... تناسَيْت قبل اليوم خلة مهْدَداً
ولكن أرى الدهر الذى هو خائن ... إذا أصلحت كفّاى عاد فأفسدا
شباب وشيبٌ وافتقار وثروة ... فلله هذا الدهر كيف تردّدا !

---

(١) المحلق رجل من مغمورى العرب وفقرائهم ، كان أبا لثمانى بنات عوانس لم يتقدم لخطبتهن أحد لمكان أبيهن من الخمول والفقر . فاقترحت عليه امرأته أن يضيف الأعشى عله يشيد بذكره فى شعره فينبه . فأضافه ونحر له ناقة على فقره ، فمدحه الأعشى بقصيدة بليغة مر شىء منها فى النماذج وأنشدها فى عكاظ فلم يمض عام حتى لم تبق جارية من بناته إلا وهى زوج لسيد كريم .

ومنها :

فآليت لا أرثى لهـا من كلالة ولا من وجىً حتى تلاقى محمدا
متى ماتُناخِى عند باب ابن هاشم تُراحى وتلقى من فواضله ندى
نبىٌّ يرى مالا يرون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
له صدقاتٌ ما تُغِبُّ ونائل وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

عنترة العبسى

نشأته وحياته

هو أبو المغلِّس عنترة بن عمرو بن شداد العبسى ، نَجَلَه أب شريف وأم حبشية تدعى زُبَيْبَة ، فهو من هُجناء العرب وأغربتهم ، فانتفى منه أبوه منذ ولادته على عادتهم فى أبناء الإماء ، ولـكنه نزع بنفسه عن حال العبودية ، وأخذ يروض نفسه على الطراد والفروسية حتى غدا مِسْعَر حرب وقائد كتيبة . واتفق أن بعض أحياء العرب أغاروا على عبس فاستاقوا إبلهم ، وتبعهم العبسيون وعنترة فيهم . فقال له أبوه : كرٍّ ياعنترة . فأجابه وهو يحقد عليه استعباده إياه : ألعبد لا يحسن الـكرّ ؛ وإنما يحسن الحلب والصَّرَّ . فقال : كرّ وأنت حرّ . فـكرّ وقاتل قتالا شديداً حتى هزم المغيرين واسترجع الإبل ، فاستلحقه أبوه . وأخذ اسمه منذ يومئذ يسير وذكره يطير حتى أصبح مضرب المثل فى الإقدام والجرأة. وله فى تعليل شهرته وشجاعته رأى حصيف لا بأس بذكره . قال له قائل : أنت أشجع الناس وأشدهم ، فقال له : لا . قال فلماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أُقْدِمُ إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأُحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعا لا أرى لى منه مخرجا . وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه فأقتله .

قاد عنترة كتائب عبس فى حرب داحس والغبراء فأحسن القيادة ، وبلغ أوج السيادة . ثم تنفس به العمر حتى وهن عظمه ورق جلده وقتـل حوالى سنة ٦١٥ م .

شعره

لم يرو عن عنترة فى حال رقّه من الشعر جيد ولا ردىء . لأن العبودية ترين على القلوب وتطفىء ضرام العواطف، فلما استلحقه أبوه وحالفه الفوز فى حربه ، واستولى حب عبلة على قلبه ، جاش الشعر فى صدره وجرى على لسانه فى الفخر والحرب والحب ، فجاء بالمعجب المطرب . تجد لشعره حلاوة الغزل ومتانة الفخر ، إلا أن أكثره مدخول النسب لا يمتّ إليه إلا بتشابه الأسلوب والغرض . فمن شعره الذى لا دَخَلَ فى أصله معلقته الرقيقة الفخمة التى نظمها دفاعاً عن شاعريته وإثباتاً لفصاحته : فقد حدثوا أن رجلاً من عبس سابّه فذكر سواده وأمّه . فقال له عنترة : « إنى لأحضرُ البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدى ، وأفضل الخطة الصماء » . فقال له السابُ . أنا أشعر منك . فقال : ستعلم ذلك . ثم غدا على الناس بمذهّبته المشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه .

نموذج من شعره

قال من معلقته :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ... ركد الهواجر بالمشُوف المعلَم
فإذا سكرت فإننى مستهلك ... مالى ، وعرضى وافر لم يكلَم
وإذا صحوت فلا أقصِّر عن ندًى ... وكما علمتِ شمائلى وتكرّمى
ومدجّج كره الكماة نزاله ... لا مُمعنٍ هرباً ولا مستسلم
جادتْ يدایَ لهُ بعاجل طعنةٍ ... بمثقّفٍ صدق الكعوب مقوّم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم
فتركته جزَر السباع ينشنه يقضمن حسن بَنانه والمعصم
لما رأيتُ القومَ أقبل جمعهم يتذامرُونَ كررتُ غيرَ مذمَّم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لَبانِ الأدهم
ما زلت أرميهم بثُغرة نحره ولبَانه حتى تسربل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلَبانه وشكا إلىّ بعبرة وتَحَمْحُم
لو كان يدرى ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علم الكلامَ مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقْمهاَ قِيلُ الفوارس ويْك عنتر أقدِم!
والخيل تقتحم الغبار عوابساً ما بين شَيْظَمة وأجرد شيْظم

وقال أيضاً :

بكرتْ تخوفنى الحتوفَ كأننى أصبحت عن غَرض الحتوف بمعزِل
فأجبتها إن المنية منهلٌ لابد أن أُسْقَى بكأس المنهل
فاقْنَىْ حياءك لا أبالك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أُقْتل
إن المنية لو تمثلُ مثلتْ مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل
إنى امرؤ من خير عبسٍ منصباً شطرى ، وأحمى سائرى بالمُنْصُل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت أُلفيت خيراً من مُعِم مُخْول
والخيل تعلم والفوارس أننى فرقت جَمْعَهُم بضربة فيصل
والخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقَى فوارسها نقيعَ الحنظل
ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

طرفة بن العبد

نشأته وحياته

نشأ طرفة بن العبد بن سفيان البكرى يتيما من أبيه ، فكفله أعمامه . فأهملوا تربيته وأساءوا أدبه . فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل ، عاكفاً على اللهو والخمر ، مولعاً بالوقوع فى أعراض الناس . وقد دعاه نزق الشباب أن يهجو الملك عمرو بن هند على اضطراره إلى رصائه ، وافتقاره إلى حبائه . فاحتقدها عليه عمرو وأضمر له السوء . حتى إذا جاءه مع خاله المتلمس يستجديان فضله ـ وكان المتلمس قد هجاه أيضاً ـ هش للقائهما يريد أن يؤمنهما ، وأمر لكل منهما بصلة وأحالهما بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفياها منه . فلما كانا فى طريقهما إلى العامل ، داخل المتلمسَ من الصحيفة وسواس وهمٌّ ، فالتمس من يقرأها له فإذا فيها : « باسمك اللهم ، من عمرو بن هند إلى المكعبَر ، إذا أتاك كتابى هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه ثم ادفنه حيًّا » فألقى الصحيفة فى النهر ، ثم قال لطرفة : معك والله مثلها . فقال : كلا . ما كان ليكتب لى مثل ذلك . وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين فقتله وعمره ست وعشرون سنة (١) .

شعره

كان طرفة منذ الحداثة متوقد الذهن ، مضطرم الشعور ، حاد البادرة ؛ فنبغ فى الشعر وعُد من فحوله وهو دون العشرين . ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته . ولعله كان مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره . يمتاز طرفة بصدق

---

(١) بدليل قول أخته الخرنق ترثيه :

عددنا له ستا وعشرين حجة ... فلما توفاها إستوى سيداً ضخما

فجعنا به لما رجونا إيابه ... على خير حال لا وليدا ولا قحما

الوصف ، والبعد عن الغلو فيه ، إلا أنه كان معقد التراكيب مبهم المعنى غريب اللفظ ، وتجد ذلك كله واضحاً فى معلقته التى ابتدأها بالغزل ، واستطرد إلى وصف ناقته فوصفها بخمسة وثلاثين بيتاً من عيون الشعر ومبتكره ، ثم أمعن بعد ذلك فى الفخر بنفسه ، وهى من أمتن الشعر وأبلغه ، وهاك تحليلها بإيجاز .

تحليل موجز لمعلقته

ابتدأها طرفة بذكر أطلال (خولة) وتشبيهها ببقية الوشم فى ظاهر اليد ؛ ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبة غداة ظعنها فوصفها وصفاً موجزاً ، ثم نعتها هى نعتاً جميلاً هاج فى صدره الهم فنجا من تذكاره واحتضاره على ناقة وصف أعضاءها وأوضاعها فى إسهاب وإغراب وإجادة :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره   بهوجاء مرقال تروح وتغتدى
تبارى عتاقاً ناجياتٍ ، وأتبعتْ   وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ مُعَبَّد
صُهابيّةُ العُثْنون مُوجَدةُ القرا   بعيدة وخْد الرّحل موّارة اليد
وأتلعُ نهّاضٌ إذا صعّدتْ به   كسكّان بُوصِيٍّ بدجلة مُصْعِدِ

ثم يفرغ لنفسه فيصفها باللهو فى السلم وبالمخاطرة فى الحرب فيقول :

إذا القوم قالوا : منْ فَتى ؟ خلت أننى   عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحَلّال التلاع مخافة   ولكِنْ متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغنى فى حلقَة القوْم تَلْقَنى   وإنْ تلتمسنى فى الحَوَانيتِ تصطد
ومَا زالَ تَشرابى الخمور ولذتى   وبَيْعى وإنفاق طريفى ومُتْلَدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها   وأفرِدْت إفراد البعير المعبّد
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى   ولا أهل هذاك الطراف الممدّد

ألا أيهذا الزاجري أحضرَ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدى؟
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدى

ثم يعلن فى صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هى الخمر والحب والنجدة؛ ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهب الموت .

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى لعمرك لم أحفل متى قام عُوَّدى
فمنهن سبق العـاذلات بشربة كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تزبد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد
وكرِّى إذا نادى المضاف مُحَنَّباً كسيد الغضى ذى السوْرَة المتورد

ثم يدعوه استعجاله اللذة ومبادرته اللهو وإتلافه المال واقتحامه الخطر انتهازاً لفرصة الحياة واستمتاعاً بقصر العمر إلى نوع من الفلسفة فى البخل والموت فيقول :

أرَى قبرَ نحَّام بخيل بمـاله كقبر غوىٍّ فى البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدّد
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة ومَا تنقِص الأيامُ والدَّهرُ ينفدِ
لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لـكا الطوَّل المرْخى وثِنْياهُ باليد
متى مَا يشأ يوماً يقـده لحتفه ومَنْ يَكُ فى حبل المنيَّة ينقدِ

ويمضى الشاعر بعد ذلك زارياً عَلَى ابن عمه ، شاكياً من ظلم قومه ، مفتخراً بحسن بلائه وقوة عزمه :

فمالى أرانى وابن عمىَ مالـكاً متى أدنُ منهُ يَنْأَ عنى ويبعـد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضةً عَلَى النفس من وقع الحسام المهند
أرَى الموت أعدادَ النفوس ولا أرَى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !

أنا الرجل الضَّرْبُ الذى تعرفونه   خشاشٌ كرأس الحيـة المتوقد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى   منيعاً إذا بلّتْ بقائمه يدى
فلو كنتُ وغلاً فى الرِّجال لضرّنى   عداوةُ ذى الأصحاب والمتوحد
ولـكن نفى عنى الرِّجال جراءتى   عليهم و إقدامى وصدقى ومحتدى
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد

عمرو بن كلثوم

نشأته وحياته

نشأ عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبى بالجزيرة الفراتية بين ذوى الحسب اللباب من تغلب ، وشبَّ على خلال العظماء، عزيزَ النفس أبيَّ الضيم ذَرِبَ اللسان. وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى كان طريقة قومه وقائد قبيلته . وكان قطباً لرحا الحروب التى دارت بين بكر وتغلب من جرّاء البسوس وأبلى فيها البلاء الحسن حتى تصالح الحيان لآخر مرة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر . على أن أمَدَ ذلك الصلح لم يطل ، فانشقت العصا بين وجوههم ونَزَتْ فى رءوسهم الحفيظة ، وتلاحوا فى مجلس عمرو بن هند ، فقام الحارث ابن حلزة شاعر بكر وألقى معلقته المشهورة فعطفت هوى الملك إلى قومه ، وكانت صلمه مع التغلبيين . فانصرف ابن كلثوم موغر الصدر على ابن هند . وحدث بعد ذلك أن الملك قال لبعض خاصته : أتعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى ؟ فقالوا لا نعلمها إلاّ ليلى أم عمرو بن كلثوم ، فإن أباها مهلهل ابن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وبعلها كلثوم بن عتّاب فارس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزيرَ أمّه أمّه . فأقبل عمرو وأمه من الجزيرة فى جماعة من تغلب

وأمر الملك برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه مملكته فحضروا . وكان عمرو بن هند قد أغرى أمه أن تستخدم ليلى بنت مهلهل فى قضاء أمر . فلما دخلت عليها الرواق واطمأن بها المجلس ، قالت لها : ناولينى الطبق . فأجابتها : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . فلما ألحت صاحت ليلى : واذلاه ! فسمعها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه . ثم عاد تواً إلى الجزيرة فأنشد قصيدته المعلقة . استهلها بذكر الخمر والغزل ، ثم وصف فيها أمره مع عمرو ابن هند ، وافتخر بنفسه وقومه . ولقد تجاوبتها المجامع وتناقلتها الألسنة وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قال فيهم الشاعر .

أَلْهَى بنى تغلب عن كل مكرُمة ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أوَّلهُم ... يالَلرجال لشعر غير مسئُوم !

وكانت وفاته فى أواخر القرن السادس للميلاد .

شعره

عمرو بن كلثوم شاعر غَمْرُ البديهة ، رائق الأسلوب ، نبيل الغرض ؛ إلا أنه مُقلٌّ . لم يتقلب فى فنون الشعر فلم يُرخ العنان لسليقته ، ولم يطع سلطان قريحته . وكل ما رُوى عنه معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها .

نموذج من شعره

قال من معلقته :

أبا هند فلا تعجلْ علينـــا ... وأنْظِرْنا نُخبِّرْكَ اليقينـــا
بأنا نورد الراياتِ بيضا ... ونصدرهنّ حمراً قد رَوينا
ورثنا المجد عن علّيا معدٍّ ... فطاعن دونه حتى يبينـــا

كأن سيوفنا منا ومنهم ... مخاريقٌ بأيدى لا عبينا
ألا لا يَجْهلن أحد علينا ... فنجْهلَ فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عَمْرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
فإن قناتنا يا عمرو أعْيتْ ... على الأعداء قبلك أن تلينا
وقد علم القبائل من مَعَدٍّ ... إذا قُبَبٌ بأبطحها بُنِينا
بأنا المطعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا ابتُلِينا
وأنا المانعون لما آردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطْنا ... وأنا الآخذون إذا رضينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا ما المَلْك سام الناس خسفاً ... أبْينا أن نقر الخسف فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملأه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبىٌ ... تخر له الجبابر ساجدينا

الحارث بن حِلزة

نشأته وحياته

هو أبو الظليم الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكرى البكرى . كان فى بنى بكر مكان عمرو بن كلثوم فى بنى تغلب . وقد اشتهر مثله بمعلقته التى يقال إنه ارتجلها عَفْو الساعة فى حضرة الملك عمرو بن هند يستدنى بها عطفه ، وينضح فيها عن قومه . وكان من أمرها أن بكراً وتغلب بعد أن وضعوا أسلحتهم أمام عمرو بن هند

على أن يأخذ من الفريقين رهائن ليَقيدمنها للمبغى عليه من الباغى ، تراشق الحيّان بالتهم[1] ورمت تغلب بكراً بالغدر ، وتدافع الفريقان إلى عمرو بن هند وتلاحوا أمامه ، وكان هواه مع التغلبيين . فاستفز ذلك الحارث بن حلزة — وكان حاضراً — فابْتَدَهَ قصيدته ابتداهاً وأنشدها وهو متكىء على قوسه . فيقولون إن كفه اقتطعت وهو لا يشعر من الغضب . وقد أجاد فى مدح الملك حتى استولى على رأيه ، ومال به إلى حزبه ، واستل من قلبه سخيمة غرسها تهور النعمان بن هرم زعيم قومه . وعُمِّر الحارث طويلاً حتى زعم الأصمعى أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر خمس وثلاثون ومائة سنة .

شعره

كل ما بين أيدينا من شعره معلقته وبعض مقطوعات يسيرة لا تعلل شهرته ولا تعيِّن طبقته . فهو فى هذا كما قلنا أشبه بطرفة وعمرو بن كلثوم . على أن مطّولته بلغت مكان الإعجاب لإحكام نسجها وتشعب فنونها ، وارتجالها فى موقف واحد . وقد قال أبو عمرو الشيبانى . « لو قالها فى حول لم يُلَم » ويقولون . إنه أنشدها من وراء ستور لِبَرَصِه ، فأمر الملك برفعها استحسانا لها وتكرمة له . بدأها بالغزل ثم وصف ناقته وعير التغلبيين مواقع ظهروا عليهم فيها ، وأتى على كثير من أيام العرب ، ومدح عمرو بن هند ، وافتخر بقومه وحسن بلائهم عنده .

نموذج من شعره

قال من معلقته :

إن إخواننا الأراقم يغلو ... ن علينا فى قِيلهم إخفَاء

---

(١) وسبب هذه التهم أن الملك بعث فى بعض حاجه بركب من تغلب فهلكوا . فادعت تغلب أن فتيانهم نزلوا على ماء لبكر فشلوهم عنه وحلوهم على البيداء فماتوا عطشاً . وعارضت بكر بأنهم سقوهم وهدوهم الطريق فضلوا وهلكوا .

يخلطون البرىء منّا بذى الذّ ... ـب ولا ينفع الخلىّ الخلاء

أيها النّاطق المرقّش عنّا ... عند عمرو وهل لذاك بقاء ؟

لا تخلنا على غراتك إنا ... قبل ما قد وشى بنا الأعداء

فبقينا على الشناءة تنميـ ... ـنَا حصونٌ وَعزّةٌ قعساء

مَلِكٌ مُقسطٌ وأفضل منْ يمـ ... شى ومن دون ما لديه الثناء

أيمـــا خُطةٍ أردتم فأدُّو ... هَا إلينا تسعى بها الأملاء

فاتركوا الطيخ والتعاشى وإمّا ... تتعاشوا ففى التعاشى الدّاء

واذكروا حِلفَ ذى المجاز وما قدّ ... م فيه العهود والكُفلاء

واعلموا أننا وإيا كُم فيـ ... مَا اشترطنا يوم اختلفنا سَوَاء

أعلينا جناح كندة أن يغـ ... نَمَ غازيهمُ ومنّا الجزاء ؟

ومنها فى وصف التأهب للرحيل :

أجمعوا أمرهم عِشاء فلمّا ... أَصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيلٍ خلال ذاك رُغاء

ومنها :

لا يقيم العزيز بالبلد السهـ ... ـلِ ولا ينفع الذليل النّجاء

ليس ينجى موائلاً من حذارٍ ... رأس طودٍ وحرّةٌ رجلاء

لبيد بن ربيعة

نشأته وحياته

هو أبو عُقيل لَبيدُ بن ربيعة العامرى . نشأ رَبِيب الندى والبأس . فأبوه ربيعةُ المعتَرّين ،وَعمه مُلاعب الأسنَّة فارس مصر . وسبب قوله الشعر أن الربيع

ابن زياد أمير عبس ، وهم أخواله ، دخل على النعمان بن المنذر فذكر بالسوء بنى عامر وهم قومه . فلما دخل العامريون على الملك وعلى رأسهم مُلاعب الأسنة غضَّ منهم ، وذوى وجهه عنهم ، فنال ذلك من بنى عامر وشق عليهم . وكان لبيد يومئذ صغيراً فسألهم أن يشركوه فى أمرهم فاستصغروه . ولما ألح فى المسألة أجابوه . فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتى يحول بينه وبين منادمة الملك . فقالوا له . إنا نبلوك . فقال : وما ذاك ؟ قالوا : تشتم هذه البقلة . وأمامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لا صقة بالأرض ، تُدعى التَّربة . فقال : « هذه التربة لا تذكى ناراً ولا تؤهل داراً ، ولا تسر جاراً ؛ عودها ضئيل ، وخيرها قليل ، وفرعها كليل أقبح البقول مرعى ، وأقصرها فرعاً ، وأشدها قلعا » فأذنوا له فهجاه بأرجوزة مُقْذِعة أولها : مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه : الخ .

فنفر منه الملك ومقته وطرده وأكرم العامريين وأدناهم . قالوا وكان هذا أول ما اشتهر به لبيد . ثم أخذ يقول الشعر قصاره وطواله ، حتى ظهر الإسلام فأقبل على الرسول فى وفد من قومه فأسلم ، وحفظ القرآن وهجر الشعر ، حتى زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو :

الحمـــد لله إذْ لم يأتنى أجلى   حتى لبست من الإسلام سربالا

ولذلك عُدَّ جاهلياً وإن عمِّر فى الإسلام طويلا .

ولما مُصرت الكوفة ذهب إليها فى خلافة عمر وأقام بها حتى توفى فى أول خلافة معاوية سنة ٤١ من الهجرة . وقد عاش كما قيل خمسا وأربعين سنة ومائة حتى قال بحق :

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها   وسؤالِ هذا الناس كيف لبيد

شعره

كان لبيد ضافىَ الجود ، وافر اللب ، نبيل النفس ، جم المروءة ، مُشيَّع

القلب . فسالت أخـلاقه وعواطفه فى شعره ، وتمثلت معانى النُّبل والـكرم فى نحره ؛ وجاء نظمه نخم العبارة ، منضد اللفظ ، قليل الحشو ، مزداناً بالحـكمة العالية والموعظة الحسنة والـكلم النوابغ . ولعله أحسن الجاهليين تصرفاً فى الرثاء وأقدرهم على تصوير عواطف المحزون الصابر بلفظ رائق وأسلوب مؤثر .

وأما معلقته فهى قوية الألفاظ متينة الأسلوب ، تصور حياة البادية وأخلاق البدو ، وتصف هوى النفوس الماجنة ومطمح القلوب الـكبيرة .

بدأها بوصف الطلول وذكرى الحبيبة ، ثم أطال فى وصف ناقته على نحو ما فعل طرفة ، ثم مضى يصف حياته وملذاته وجوده وبأسه حتى انتهى إلى الفخر بقومه ، وكل ذلك فى صدق وإخلاص وقصد .

نموذج من شعره

قال فى معلقته :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل — منّا لِزازُ عظيمة جشّامُها
ومُقَسِّمٌ يعطى العشيرة حقها — ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هضامها
من معشر سَنَّت لهم آباؤهم — ولـكل قوم سُنَّةٌ وإمامها
لا يَطْبعون ولا يَبُور فَعالهم — إذ لا تميل مع الهوى أحلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما — قسم الخلائق بيننا علاّمها
وإذا الأمانةُ قُسِّمت فى معشر — أوفى بأوفر حظنا قسّامها
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سَمكه — فسما إليـــه كهلها وغلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أُفْظِعَتْ — وهمُ فوارسها وهم حكامها
وهم ربيعٌ للمجاور فيهمُ — والمرملاتِ إذا تطاول عامها

وقال يرثى أخاه إربد .

بَلينـا وما تَبْلى النجوم الطوالع وتبقى الديارُ بعدنا والمصانعُ
وقد كنت فى أكناف جار مَضِنَّة ففارقنى جار بأربَدَ نافع
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا فكل امرىء يوماً به الدهر فاجع
وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلّوها وراحوا بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يَحُور رَماداً بعدَ إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تردَّ الودائع
وما الناس إلا عاملان فعاملٌ يُتبِّرُ ما يبنى وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع
لعمرك ماتدرى الضوارب بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع

حاتِمُ الطائى

نشأته وحياته

حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى توفى أبوه وهو وليد فنشَّأته أمه وكانت كثيرة المال ، نفَّاحة اليدين بالنوال ، لا تليق مما تملك شيئاً . فحجر عليها إخوتها وحبسوها سنة علها تذوق طعم البؤس ، وتدرك فضل الغنى . فلما أطلقوها وملكوها قطعة من مالها أتتها امرأة من هوازن مستجدية فمنحتها إياها وقالت : مسنى من الجوع ما آليت معه ألا أمنع سائلا شيئاً .

ربَّته هذه الأم الوهوب ، فورَّثته هذا الخلق وغذته بلبانه ، فشبَّ على الندى يهتزُّ له ويغلو فيه حتى بلغ منه حد السفه . فكان وهو غلام عند جده يُخرج طعامه ، فإذا وجد من يؤاكله أكل وإلا طرحه . فساءه منه هذا التبذير فألحقه

بالإبل ، فمر به ذات يوم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم والنابغة الذبياني وهم في طريقهم إلى النعمان فاستقروه ، فنحر لكل منهم بعيراً وهو لا يعرفهم. فلما تسمَّوا له فرق فيهم الإبل وكانت قرابة ثلاثمائة ! وجاء جدّه مبتهجاً يقول له : «طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة» وحدثه بما صنع ، فقال له : إذن لأساكنك. فقال : إذن لا أبالي . ثم قال من أبيات :

وإني لعفٌّ الفقر مشترك الغنى ‏ ‏ وتارك شكل لا يوافقه شكلي

وأجعل مالي دون عرضيَ جُنَّةً ‏ ‏ لنفسي وأستغني بما كان من فضلي

وما ضرني أن سار سعدٌ بأهله ‏ ‏ وأفردني في الدار ليس معي أهلي

وفشا ذكر حاتم في الجود ، وجرت سماحته مجرى المثل ، وروي عنه في ذلك الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث[1] . وما سبيل الرواة في أخبار حاتم في الجود إلا سبيلهم في أشعار أمية في الدين ، وعنترة في الحماسة ، وأبي العتاهية في الزهد ، وأبي نواس في المجون : يفتعلون الشيء من ذلك لغرض من الأغراض ثم يعزونه إلى من هو أشبه به من هؤلاء .

---

(١) نقص عليك من تلك الأخبار خبرا يسند إلى احدى زوجتيه النوار أوماوية؛ ويمتاز ببلاغة تعبيره وحسن تصويره ، وهو أشبه شيء بقصيدة لهوجو في ديوانه (سير الدهور) عنوانها (الناس الفقراء) Les Pauvres gens وقد ترجمتها في كتابي : (مختارات من الأدب الفرنسي) قالت الراوية :

« أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبر أفق السماء . وراحت الإبل حدبا حدابير ، وضنت المراضع على أولادها فما تبض بقطرة . وحلقت السنة المال وأيقنا بالهلاك . فانا لفي ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين إذ تضاغى صبيتنا جوعا : عبد الله وعدي وسفانة ، فقام حاتم إلى الصبيين وقمت أنا إلى الصبية . فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل . وأقبل يعللني بالحديث فعرفت ما يريد ، فتناومت . فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد فقال . من هذا ؟ فقالت أنا جارتك فلانة . أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع . فما وجدت معولا إلا عليك أبا عدي ! فقال أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت المرأة تحمل إثنين ويمشي جانبها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمدية ، فخر ؛ ثم كشف عن جلده ودفع المدية إلى المرأة فقال لها : شأنك. فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل =

وكان حاتم كما قال ابن الأعرابى مظفرّاً . إذا قاتل غلب، وإذا سابق سبق، وإذا ضرب بالقداح فاز . وكان إذا أهل الشهر الأصم (رجب) — وكانت مصر تعظمه فى الجاهلية — نحر كل يوم عشرا من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه .

ثم بنَى حاتم على النوار ثم على ماوية بنت عفزر إحدى بنات الملوك من اليمن ، فولد له منهما عبدالله وسَفَّانةُ وعدى ؛ وقد أدرك هذان الإسلام فأسلما .

ولم يزل حاتم على حاله فى إطعام الطعام وإنهاب المال حتى مضى لسبيله سنة ٦٠٥ م .

أخلاقه

كان حاتم على خلق عظيم قَلّ من أُوتيه فى الجاهلية : كان طويل الصمت رقيق القلب جم المروءة لم يقتل قط واحدَ أمه ، ولم يظلم ضعيفاً من بنى عمه :

فإنى وحدّى رُبّ واحدِ أمّه أجرتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسر

ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر

وقد وصفته سفّانة ابنته يوم قامت بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ترجو أن يخلى عنها وهى سبيةٌ قالت : كان أبى يفك العانى ويحمى الذِمار ويقرى الضيف ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط . فقال لها الرسول (ص) ياجارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

= ثم جعل يمشى فى الحى يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول : هبوا أيها القوم عليكم بالنار . فاجتمعوا والتفع فى ثوبه ينظر إلينا ، فوالله ماذاق منه مضغة وإنه لأحوج إليه منا . فاصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر » . وموضع الشفقة فى هذا الصنيع أن حاتما كان يجود بكل شىء ما عدا فرسه وسلاحه .

شعره

لاجرم أن اللسان ترجمان القلب ، والشعر مرآة الشعور . وما قدمناه لك من أخلاق حاتم تجده متمثلا فى شعره ، مؤثرا فى قَرْضه ؛ فلفظه سهل رقيق ، وأسلوبه محكم وثيق ، وغرضه سامٍ شريف ، على غير مانعهد فى شعراء البادية. ولذلك قال ابن الأعرابى : « جوده يشبه شعره » ومعنى مايقول أنه غزير البحر فياض بالأمثال والحكم الداخلة فى باب الجود والعذل فيه ، وجمال الذكر والحرص عليه . وما ترى من التفاوت فى شعره إنما يرجع إلى كثرة المدسوس عليه والمنسوب زورا إليه ، وهو من شعراء الطبقة الثانية . وقد جمع شعره فى ديوان وطبع بلبدن وبيروت .

نموذج من شعره

قال من قصيدة له :

أماوىّ إن المال غادٍ ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوىّ إما مانعٌ فمبيَّنٌ ... وإما عطاء لا ينَهْنِهُه الزجر
أماوىّ مايغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أماوىّ إن يصبحْ صداى بقفرة ... من الأرض لاماء لدى ولا خمر
تَرَىْ أن ما أنفقت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلت به صفر
أماوىّ إن المال إمّا بذلته ... فأوله شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

وقال أيضاً :

تَحلم عن الأدْنين واستبقْ ودّهم ... ولن تستطيع الحلم حتى تحَلما

ونفسَكَ أكرمها فإنك إن تَهُن ... عليك فلن تلقى لها الدهرَ مُكرما
أهِنْ في الذي تهوى التلاد فإنه ... يصير إذا مامت نَهبا مقسَّما
قليلا به ما يحمدنَّك وارثٌ ... إذا ساق مما كنت تجمع مغنما
متى ترْقِ أضغان العشيرة بالأنى ... وكف الأذى يحسم لك الداء محسما
وعوراء قد أعرضتُ عنها فلم تضِرْ ... وذى أَوَدٍ قومتُــــــه فتقوما
وأغفر عوراء الكريم ادّخارَه ... وأُعرض عن شتم اللئيم تكرما
ولن يكسب الصعلوك مجد اولا غنى ... إذا هو لم يركب من الأمر معظما
لحا الله صعلوكاً مناه وهمُّه ... من العيش أن يلقى لبوساً ومَطْعما

ومن معانيه الجميلة قوله :

إذا كان بعض المال ربًّا لأهله ... فإنى بحمد الله مالى معبَّد

أمية بن أبى الصلت

نشأته وحياته

أبو عثمان أمَيّة بن أبى الصلت الثقفى كان يمارس التجارة طوَال عمره ، فتارة إلى الشام وتارة إلى اليمن . وكان مفطوراً على التدين ، فلقى فى بعض أسفاره بعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فالتمس الدين ولبس المسوح وحرم الخمر وشك فى الأوثان وطمع فى النبوة ، وقال فى دين إبراهيم .

كل دين يوم القيامة عند اللـ ... ـه إلا دينَ الحنيفـة زور

فلما بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم سُقط فى يده وكفر به حسداً وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه . فنزل فيه قوله تعالى : (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِين) . ثم أخذ

يحرض على الرسول ويرثى قتلى أعدائه فى واقعة بدر ، فنهى عن رواية شعره فى ذلك . وكان إذا سمع الرسول شعره فى التوحيد يقول : آمن لسانه وكفر قلبه. ثم فرّ أمية بابنته إلى أقصى اليمن وعاد إلى الطائف فعلقته هناك أوهاقُ المنية . وقد قال لما أخذته غشية الموت وأفاق منها : لبيكما لبيكما ! هأنذا لديكما لامال يفديني ، ولا عشيرة تنجيني ! إن تغفر اللهم تغفر جما ، وأىّ عبد لك لا ألما ؟ ثم أقبل على من حضر وقال :

كل عيش وإن تطاول دهراً　　منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى　　فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموتَ نصبَ عينيك واحذر　　غَوْلة الدهر ، إن للدهر غولا

وأكثر تاريخ هذا الشاعر من زور الحديث وتلفيق الرواة .

شعره

انصرفت قريحة أمية إلى المعانى الدينية فاشتهر بها أمره ، واصطبغ بها شعره ، فوصف الله وجلاله ، وذكر الحشر وأهواله ، ونعت الجنة والنار والملائكة ، ونظم حوادث التوراة كخراب سدوم وقصة اسحق وابراهيم ، وأدخل فى الشعر معانى وأساليب ، وفى اللغة ألفاظاً وتراكيب ، لم يألفها الشعراء ولم يعرفها العرب بعض ذلك من العبرية وبعضه من محدثاته . فكان يسمى الله عز اسمه بالسُّلَطيط والتغرور ، والسماء بالصاقورة والحاقورة ، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف اسمه الساهور ؛ ولذلك كان اللغويون لا يحتجون بشعره .

ومذهب ابن أبى الصلت فى شعره لم يعهد فى عصره ، فنحله العلماء ماجاء على شا كلته ولم يعرفوا قائله . ورواة الشعر يعدونه فى الطبقة الأولى ، ولكن ما بين أيدينا من شعره لا يؤيد هذا الرأى ، فإن أكثره قلق اللفظ سخيف

النسج نابى القافية ، إلا أن يكون الزمان قد عفى على أجوده . فقد قال الحجاج على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أُميَّة ، وكذلك الدراس الكلام » .

نموذج من شعره

قال يعاتب ابناً له كان قد عقه :

غذوتك مولوداً ومُنْتُك يافعاً ... تُعَل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتْك بالشجو لم أبت ... لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى ، فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإننى ... لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغتَ السنّ والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل ،
جعلتَ جزائى غلْظة وفظاظة ، ... كأنك أنت المنعم المتفضل

ومن قوله :

الحمــــد لله مُمْسانا ومُصْبحنا ... بالحمد صبَّحنـــا ربى ومسَّانا
رب الحنيفة لم تنفـــد خزائنه ... مملوءة ، طَبَّق الآفاق سلطانا
ألا نبى لنا منا فيخبرَنا ... ما بعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا ... أنْ سوف يلحق أخرانا بأولانا

نشأة الخط فى بلاد العرب

الخط مظهر من مظاهر الحضارة ، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة . لذلك كان أسبقَ الأمم إليه المصريون والفينيقيون . وأجهل الناس به البدويون ، فلم يعرفه العرب إلا فى الجهة التى عرفتها الحضارة وارتقت فيها العمارة وهى اليمن . كان اليمنيون يستعملون خطاً يسمونه المسند باسم لغتهم ، يكتبونه حروفاً منفصلة ويزعمون أن الوحى نزل به على كاتب هود . ولكن المكتشفات الأثرية وعلم مقارنة اللغات أثبتت أن الخط الفينيقى مصدر الخطوط السامية ، وأن الآرامى والمسند بأنواعه[1] مشتقان منه ، ومن الآرامى اشتق الخط النبطى فى حوران ، والسطرنجيلى السريانى فى العراق ، وهذان الخطان هما الأصلان للخط العربى ، فمن الأول تولد الشكل النسخى ، ومن الثانى تولد الشكل الكوفى ، وكان يعرف قبل الإسلام بالحيرى نسبة إلى الحيرة . وقد تعلم عرب الشمال الأول أثناء رحلاتهم إلى الشام ، وتعلموا الآخر من الأنبار : تعلمه بِشْرُ بن عبد الملك الكندى أخو أُكيْدِر بن عبد الملك الكندى صاحب دومة الجندل ؛ وخرج إلى مكة فصاهر حرب بن أمية جد معاوية ، فعلمه جماعةً من القرشيين فكثر من يكتبه منهم . ولما مُصِّرت الكوفة[2] وشاع استعماله فى الكتابة على مسجدها وقصورها ناله شىء من النظام والزخرف فسمى بالكوفى .

---

(١) أنواع الخط المسند هى الصفوى والثمودى واللحيانى فى الشمال ، والحيرى فى الجنوب.

(٢) أمر بتمصيرها الخليفة عمر حين رأى العرب قد أكفت وجوههم وخددتها وخومة المدائن ودجلة : أمر سعد بن أبى وقاص أن يرتاد للعرب منزلا بريا بحريا لا يحول بينه وبينهم فيه بحر ولا جسر . فوقع اختياره على موضع الكوفة فعسكر به فى المحرم سنة ١٨ هـ . ثم أذن الخليفة أن يبنى بيوتاً من القصب فأحرقت ، فأعاد بناءها باللبن عن إذنه . وفى هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة وقد نزلها المسلمون سنة ١٤ هـ ، فصار البلدان منذ يومئذ مركزين حربيين تجاريين لهما فى تاريخ الإسلام والأدب مكان ظاهر .

عربي حديث	ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت
حيري أو كوفي	
نبطي	
سطر نجيلي	
فينيقي	
آرامي	
مصري العامة ديموطيقي	
مصري الخاصة هيراطيقي	
مصري مقدس هيروغليفي	

الباب الثانى

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامى

عوامله ، مصادره ، أنواعه ، طبائعه

تركنا العصر الجاهلى والجزيرة العربية يهدر جوفُها من ضرم الحياة هدير الجيم المكظوم . ونريد بجوفها الحجازَ بعد ما خمد النشاط العربى فى الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن ، وفى الشمال بإلغائهم إمارة اللخميين فى العراق، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق فى مدنه ، ولاسيما مكة ؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة العرب لوجود البيت ، ومعقلَ العروبة لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبى ، ومجمَع الثروة لوقوعها فى طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر ؛ فهى سوق تجارية ومَحَجَّة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشترون منها السلع الأهلية والأجنبية ، ويقضون مناسك الحج ، ويشهدون موسم عكاظ ، ويتذوقون فى ظلال الأشهر الحرم — وهى الهدنة العامة المقدسة — نعمةَ السلام ولذة الهدوء ، ويصلون بينهم ما قطعته أسنة الرماح فى الغارات والحروب . وكانت قريش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على الكعبة ، ورياستها فى عكاظ ، وزعامتها فى التجارة ، وغناها من الإيلاف ، وتقلبها فى البلاد ، وتمرسها فى الأمور ، وصلتها بمختلف الشعوب ، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال ، وفرضت عليهم لغتها وأدبها ، فكادت اللهجات بفضلها تتحد ، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة . وكان اليهود فى يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعى والزراعى يشيعون أكل الربا وينشرون تعاليم التوارة

وأخبار النبوات . وكانت النساطرةُ واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل ، ويدعون إلى الحياة الأخرى ، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان فى الفلسفة والتشريع ، ويهيئون الأذهان لكلمة الله . وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق ، ومن ماء إلى ماء ، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية ، فيؤرّثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة ، ويذيعون وحدة الخلق والعادة واللغة من جهة أخرى ، ويمهدون للنفوس الرغيبة السجيئة سبيل النهوض إلى الغاية التى يدعوهم إليها الله . ثم كان الأعرابُ فى قفار البادية يفتك بهم الجهل والجدب والحرب ، ويعانون إلى ذلك عَنت الكبراء ، وأثرة الشيوخ ، وفقد الأمن ، وتوزع الثروة على مقتضى السيادة والقوة . ناهيك بما يقاسونه فى أرزاقهم من فحش الربا وأكل السُّحت وتطفيف الكيل وكَلَب الزمان . فكان من جرّاء هذه المادّية القبيحة ، والطبيعة الشحيحة ، والنظام الفاسد ، أن تهيأت الطبائع السليمة إلى حياة أرقى ومَثل أعلى مما هم فيه . ولكن العرب كما قال ابن خلدون : « أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة » . وكان ذلك فعلا طريق الإصلاح الذى خرج منه العرب إلى العالم ليبلغوه الرسالة ويحكموه ، فقد كان ظهور الإسلام فى ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال ، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة . تعرف ذلك جليًّا من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية . ففى تلك التسمية كل الفروق بين الحياتين والعقليتين فى المبدأ والغاية ، إذ الجهل معناه السفه والحمية والأنفة — وهى ملاك الأخلاق فى الجاهلية ، والإسلام معناه السلام والتسامح والانقياد إلى الله — وهى قوام الدين الجديد الذى يقول: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) . وبمعنى ذلك قول عمرو بن الأهتم يفاخر الأحنف بن قيس ، وقد

اجتمعا للرياسة بين يدى عمر بن الخطاب : « إنا كنا وأنتم فى دار جاهلية ، فكان الفضل فيها لمن جهل ، فسفكنا دماءكم ، وسبينا نساءكم ؛ وإنا اليوم فى دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم . فغفر الله لنا ولك » فغلب على الأحنف .

فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً ، وشن على الجاهلية حرباً ، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه ، ويناقض ما عرفوه .

فالشجاعة ، والشهامة ، والكرم الموفى إلى السرف والتلف ، والتفانى فى الإخلاص للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام ، والثأر ممن تعدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل ، هى أصول الفضائل عند الجاهلية . أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للانسان الخضوع لله والانقياد لأمره ، والقناعة والتواضع ، ومجانبة التكاثر والتفاخر ، ثم الصبر . وقد قال الله تعالى : « إنَّ أكرمَكم عِندَ الله أتقَاكُم » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء . كلكم لآدم ؛ وآدم من تراب . ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » فماتت بذلك العصبية القومية والجنسية ، وأصبحت السيادة للدين لا للنسب ، والإخاء فى الله لا فى العصب . وهذا التغير فى العقلية يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول : فالشاعر الذى كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء ؛ والخطيب الذى كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء ؛ والفارس الذى كان يرتع ليله ونهاره فى الدماء والأشلاء ؛ والرئيس الذى كان يعيش على امتياز الرؤساء ؛ والغنى الذى كان ينجّر ويثرى بدماء الفقراء ، وقفوا جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول . وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة ، يسنان الشرائع ، ويرسمان الآداب ، ويهذبان الأخلاق ، ويقرّان فى القلوب المشركة المجرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر ، ويضيفان نظماً جديدة للأسرة والأمة تغاير

ما كان عليه العرب من قبل ، وتساير ما سيكونون عليه من بعد . فضاقت دائرة الشعر فى عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية ، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه ، وتقابل الوافدين عليه ، وتسير على هديه وتقتبس من نوره . واقتضت الدعوة الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد . وقلّت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر ، ونقل الدواوين كلها إلى العربية . وأخذ المعادون للدين يعارضون القرآن ويجادلونه ، والموالون له يحفظونه ويدارسونه . ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين ، والاجتهاد بالرأى فيما لم يرد فيه نص . فتجلى صفاء العبقرية العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به على وعمر وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس وعبدالله ابن مسعود وأُبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل؛ وازدادت هذه الروح الفقهية المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين على ومعاوية .

على أن من الغلو أن نقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت فى كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه ، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده ، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان ، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . وكان من زعمائهم من يُقبل على الإسلام كقيس بن عاصم ، لا على أنه الدين الحق ، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنّ مَثَل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى

قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً » . ومصداق هذا الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على نزعتهم الجاهلية من مهاجاة وحمية وشراب ، وحدوث الردة على أثر وفاة الرسول ، وشيوع الغناء والشراب والغزل في مدن الحجاز ، وانبعاث العصبية ونزاعها بين القحطانيين والعدنانيين ، وبين الهاشميين والأمويين ، واشتدادها في عهد بني أمية . وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً ، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصدرون عن البادية و يعبرون عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل .

* * *

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتيا من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب ، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة . فمن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد ، وانتشارهم في مختلف البلاد ، واستيلاؤهم على ممالك كسرى وقيصر ، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة ، وتأثرهم بالمدنيات والعقليات المختلفة ؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونِحَلٍ كثيرة ، ومصروا فيه البصرة والكوفة . وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرتا في عقله وأهله . وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خلف فيه الفينيقيون والكنعانيون والمصريون واليونان والغسانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنُّظم ؛ وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفن ، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية ، ومُلتقى الفلسفتين الشرقية والغربية ؛ وفتحوا بلاد المغرب إلى جبل طارق ، ثم ما وراء النهر إلى كشغر . وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول ساميَّة وحاميَّة وآرية ، ويدينون بأديان سماوية وأرضية ، ويتكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية

ولاتينية ، فأخضعهم العرب إخضاعا ماديا وأدبيا وروحيا من طريق الفتح واللغة والدين ، وخضع العرب لهم خضوعا عقليا وجنسيا باقتباس مدنيتهم وعقليتهم وجنسيتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق ، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاجُ العجيب الذى تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التى طبقت الأرض ومهدت لرقى الإنسان الحديث .

هذا أثر الفتوح . وأما أثر الخصومة فى الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التى نجمت عن الخلاف فى الخلافة بين على ومعاوية ، ذلك الجدل الذى اتسع به أفق الذهن العربى بالاحتجاج والاستنتاج ، إذ كان اعتماده على تأويل القرآن ، وافتعال الأحاديث ، واستخدام الشعر فى إثارة العصبية وتحبير الرسائل فى القضايا السياسية والوصايا الدينية ، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب . ففى الحجاز حزب يؤيد ابن الزبير ، وفى الشام حزب يعضد بنى أمية ، وفى العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول ، والخوارج ينكرون ويكفرون هؤلاء جميعا ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأى فى الخلافة ، ونظر فى الدين ، وحجة من الكتاب والسنة . وعدة من الخطابة والشعر . وحسبك أن تقرأ بعض جدلهم فى الطبرى والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبى الحديد والكامل للمبرد ، لتعلم أثر هذا الخلاف فى عقلية العرب ، وأثر هذه العقلية فى فنون الأدب .

نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة فى الأدب الإسلامى هى : خمود العصبية الجاهلية فى عهد الرسول ، ثم استعارها فى عهد بنى أمية ، ونشوء الروح الدينية ، وتغير العقلية العربية ، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وظهور الأحزاب السياسية ، واتساع الفتوح الإسلامية ، وتأثير الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها ، ثم أساليب القرآن والحديث ، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلى والأمثال . وقد أجملت القول فى آثار هذه العوامل اعتمادا على تفصيلها حينما نعرض لكل فن على حدة ، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامى .

مصادر الأدب الاسلامى

نستطيع أن نحصر هذه المصادر فى القرآن ، والحديث ، والأدب الجاهلى ، وما نقل من الأدب الأجنبى .

١ — القرآن الكريم

القرآن أول كتاب دوّن فى اللغة العربية ؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب ؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح. وهو واضع النثر الفنى ومنبع المعانى والأساليب والمعارف التى شاعت فى أدب ذلك العصر . نزل بأسلوب بديع لا عهد للآذان ولا للأذهان بمثله ؛ فلا هو موزون مقفى ، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى فى عدد من الفقَر ، ولا هو مرسَل يَطَّرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع ؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارىء ووجدانه . فلما سمعه العرب وهم زعماء القريض وأمراء البيان أكبروه وأنكروه ، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة ؛ فقالوا مضطربين : إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن . ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التى تشترك فى فتنة العقل دليل على فعله القوى فى نفوسهم .

والقرآن باعتباره كتاباً أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير ، لا يجرؤ النقد البيانى على أن يطير فى جنباته ، وباعتباره معجزة الرسول تحدّى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله ، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة ، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق . ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمتنبئين قد عارضوه إبطالا لحجته ، أو انتهاجا لخطته ، على نحو ما ورد عن مسيلمة : « يا ضفدع نِقى ما تنقين ، فلا الماء تكدرين ، ولا الشارب

تمفعين » ، ولـكن الرواة أغفلوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً ، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك . وهناك طائفة من متأخرى الـكتاب حاولوا الجرى على أسلوب القرآن إعجاباً به فما حركوا فى النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فـكفوا . ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحداثه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوى فـكان فى نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التى تقرأها فى أحاديث الرسول وخطبه وكتبه ، وفى خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم : جمَل متزاوجة ، متناسقة ، متطابقة ، متخيرة الألفاظ ، حسنة التأليف ، رائعة التشبيه ، منطقية الفرض ، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم . كذلك أثر فى النثر بوضعه المُثُل لمعالجة القصص والوصف والاشتراع والجدل المنتج والموعظة الحسنة ، واستحداثه ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب ، فظلَّت آيُه على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشىء ، يرصع بها كلامه فتتميز بطلاوتها ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة فى عقد من الجِزْع .

أسلوبه

نزل القرآن منَجَّما فى نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث ؛ منها ثلاث عشرة سنة فى مكة نزل فى خلالها ثلاث وتسعون سورة، وعَشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون . هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف فى موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمـكان والحادث ، فـكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات ، ومنها ما ينزل فيه السورة . وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ماينزل كلاً على حدة ، فلم يكن القرآن إذن خاضعاً لقانون التأليف من وحدةِ الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض ، وإنما تجمَّع على هذه الصورة ودُوِّن بعد وفاة الرسول تبعاً

لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولا محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه، فتكررت بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتَشَقَّقَتْ وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشتمل السور المكية — وهي ثلثا القرآن — على أصول الدين وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين جُمَّاعها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي الموثق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعده الخالب، ووعيده المخيف، ولذلك تجد أسلوبها قصير الآي، كثير السجع، رائع التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتعبير عنها يقتضي الأسلوب المحكم الجزل الهادىء؛ وهدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضوح الغرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أوضار الضلالة والجهالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل.

إعجازه

تناصرت الأدلةُ وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرفُ الغرض، وتَنَوُّع القصد، والإخبار بالغيب. ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثق

ونحن إلى هذا الرأى أَمْيَلُ . فإن القوم الذين تُحُدُّوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة ؛ إنما كانوا بُلَغاء مَصادعَ ، وخطباء مَصاقع ، وشعراء فحولاً . وفى القرآن من دقة التشبيه والتمثيل ، وبلاغة الإجمال والتفصيل ، وروعة الأسلوب ، وقوة الحِجاج ، مايُعجز طَوْقَ البشر ، ويرمى المعارضين بالسُّكات والحَصْر .

لغته

لغة قريش هى الأصل فى لغة القرآن ، لأن النبى وُلد فيها وبُعث منها ، ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرْس ودقة الوضع وإحكام النظم ، وقبيلتها تشرُف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد ، ولكنه نزل كذلك بلغة بنى سعد بن بكر ؛ لأن الرسول (ص) استرضع فيهم ، وهى إحدى لغات العجز[1] من هوازن وأفصحها ، لقوله صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العرب بَيد أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر .

وجاء فى القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى « لايلِتكم من أعمالكم شيئا » أى لاينقصكم بلغة بنى عبس . ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط ، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل ، وقد صقلها العرب على لسانهم ، وأجروها على أوزانهم ، فصارت بذلك عربية .

أغراضه ومعانيه

علمت أن من القرآن مانزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة . فالمكى من سوره يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله : ففيه توحيد الله بذكر صفاته وتمجيد

---

(١) يقال لهؤلاء أيضا عليا هوازن ؛ وهم سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف : وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء ، أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم .

آياته ، وتأييد الرسول بتحدى المكابرين ، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين ، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات ، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار ، ثم الإذن لرسول الله أن يجاهد الشرك بالسيف .

وأما المدنى منها فيمتاز بوصف المغازى وذكر أسبابها ، وما يستفيده المؤمنون من نتائجها وأعقابها ، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية ، وما تستتبعه من قصاص وحدود ، وفى كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعانى ، والمعانى متفقة مع الأغراض ، اتفاقا دونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة الله !

تأثيره

شغل المسلمون بالقرآن وفرغوا له ؛ فكان دعاءهم فى المسجد ، ونظامهم فى البيت ، ومنهاجهم فى العمل ، ودستورهم فى الحكومة . فسرى هَديُه فيهم مَسرى الرُّوح ونزل وحيُه منهم منزلة الطبع ، وأثر فى ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم مالم يؤثره كتاب سماوى آخر فى أهله . فأما تأثيره فى اللغة وأدبها — وهو مايعنينا الآن ذكرُه — فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألانها ، وطباعاً جافية فأرقَّها ، وأحلاماً طافية فأقرّها ، فكسبَ ذلك اللغة عذوبة فى اللفظ ، ورقة فى التركيب ، ودقة فى الأداء ، وقوة فى المنطق ، وثروة فى المعانى ، ووسع دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه ، والمعانى والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه ، وعلمى اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله ، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه . وهو الذى ضمن بقاءها تلك القرون العديدة ، ونشرها فى مجاهل الأصقاع البعيدة ، مصداقاً لقول الله تعالى : « إنَّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنا له لَحافِظون » وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته .

قراءاته

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام[١] ؛ وإنما بقي على نواحي الألسنة لحون مختلفة كالفتح والإمالة ، والإظهار والإدغام ، والمد والقصر ، وتحقيق الهمز وتخفيفه ، وترقيق الحرف وتفخيمه ، وضم الهاء والميم في نحو عليهُم وإليهُم . فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية ، واللهجة الأمية ، فقرأوه بلحونهم وأقرهم[٢] الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس .

فلما اختلطت الألسنة ، واضطربت السلائق ، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق ، نشأ من جهلهم بالهجاء ، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء ، ومن جرأة ذوي العلل والمراء ، قراءات لم تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف ، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها ، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث

---

(١) يدلك على ذلك خطب الوفود الذين وفدوا على الرسول (ص) فقد بلغ من اختلافها عن لغة قريش أن قال علي (رضه) لرسول الله وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره ! فقال عليه الصلاة والسلام: أدبني ربي فأحسن تأديبي .

(٢) روى عن عمر بن الخطاب قال سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله (ص) فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله (ص) كذلك ، فكدت أساوره في الصلاة . فصبرت حتى سلم . فلما سلم لببته بردائه . فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله (ص) فقلت : كذبت فوالله إن رسول الله (ص) لهو أقرأني هذه السورة . فانطلقت به أقوده إلى رسول (ص) فقلت . يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان : فقال رسول الله (ص) : اقرأها يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله (ص) فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها . والمراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب .

والتفسير . واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التى وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم : أبو عمرو بن العلاء (١٥٤) وعبد الله بن كثير (١٣٠) ونافع ابن نعيم (١٦٩) وعبدالله بن عامر (١١٨) وعاصم بن بهدلة الأسدى (١٢٨)وحمزة بن حبيب الزيات (١٥٦) وعلى بن حمزة الكسائى (١٨٩) وتلك هى سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعا . وهناك ثلاث قراءات تليها فى الصحة والتواتر وهى قراءة أبى جعفر المدنى (١٣٣) وقراءة يعقوب بن اسحاق الحضرمى (١٨٥) وقراءة خلف بن هشام . وما سوى هذه العشر فشاذ .

جمعه وتدوينه

نزل القرآن منجما كما قلنا فى ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية . وأعلن ختامه فى السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر ، وبعد أن رتبت آيه وتمت سوره ؛ إلا أنها لم تجمع فى مصحف واحد فى حياته ، وإنما توفى رسول الله والقرآن إما مسطور فى العُسُب واللِّخاف والأكتاف ، وإما مذكور على ألسنة الصحابة . ولما قتل من قرائه سبعون فى غزوة اليمامة ، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حُفَّاظه ، فتقدم إلى أبى بكر فى جمعه . فتردد الخليفة وقال : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً ! » فمازال عمر يداوره حتى أقنعه . وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحى وصاحب العرضة الأخيرة على الرسول ، فجمعه من السطور والصدور . وكتبه صحفاً أُودعت عند أبى بكر وعند عمر من بعده . ثم كانت هذه الصحف فى خلافة عثمان عند حَفْصَة بنت عمر زوج النبى . فلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر القرّاء فى الأرض اختلفوا فى قراءاتهم اختلافَهم فى لهجاتهم ، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته ؛ فخشى عثمان أن يختلفوا فى دلالته كما اختلفوا فى تلاوته ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام ، فنسخوا تلك الصحف فى مصحف واحد ورتبوا سوَره على الطول والقصر ، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن بها ، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف ، وبعث فى كل أفق بواحد منها ، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً ، وهو مصحفه المسمى بالامام ، ثم أمر بجمع ماعدا ذلك فأحرق .

قبس من نوره

قال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ . وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللهِ وَٱللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى . وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ . وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . إِنْ يَنْصُرْكُمُ ٱللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً . قُلْ لَا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ . مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّ ٱللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ . لِلهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . مَا جَعَلَ ٱللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ . وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ . إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً . وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَ ٱلَّذِى بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ . كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى . كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ . وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً . وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَى حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً . إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً . وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً . وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً . وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . وَلاَ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً . وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ

أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا . وَلاَ تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولا . كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً .

٢ — الحديث

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه . فهو فى المنزلة الثانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة ، وأغزر ينابيع التشريع فى العبادات والحقوق ، وأقوم طريق يؤدّى إلى فهم القرآن : يوضح إشكاله ، ويفصِّل إجماله ، ويقيد إطلاقه ، ويخصص عمومه . والأحاديث التى صحت عن رسول الله قليلة ، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية ، لنشأته فى قريش . واسترضاعه فى بنى سعد وهى أفصح القبائل العربية ، وتضلعه من لغة القرآن واطلاعه على لغة العرب ، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المعانى الدينية والفقهية ؛ ولكن قيمتها اللغوية ودلالتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن فى ذلك ، لأن القرآن كان يدوِّنه عند نزوله كتبةُ الوحى ، وكونه كلامَ الله جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين ، « فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه». أما الحديث فلم يدون إلا حوالى منتصف القرن الثانى للهجرة ، وكان قبل ذلك إنما يُروى من الذاكرة ، والذاكرة كثيراً ما تخون ، فناله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلى . وزاد فى ذلك أن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ فى نقله مشافهة طوال هذه السنين . وقامت الخصومات السياسية ، ونجمت الفرق الدينية ، فاستجاز أولو الأهواء الكذبَ على الرسول ، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم . واستباح قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادىء الدين وقواعد الفضيلة . وحجتهم أن الناس لا يأخذون إلا بنص الكتاب أو مأثور السنة ؛ فملأوا

الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى وضعها فى فضائل الأشخاص والمدن والسُّوَر لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية ، كالأحاديث الموضوعة فى فضل قريش على العرب ، وفضل العرب على العجم ، وتفضيل بعض الصحابة على بعض ، والمنقولة فى بعض التفاسير فى فضائل السوَر ترغيباً للناس فى دراسة القرآن حين لهوا عنه بالفقه والسيَر . ومن طريق الوضع أدخلوا فى الحديث طائفة كبيرة من الحِكم المأثورة عن العرب ، والآراء المنقولة عن العجم ، فأثرت فى الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل .

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع فى رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب الله أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه . وقد قال عمر لقرظة بن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوىٌّ بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جوِّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله (ص) . ونظن أن ذلك الخوف هو الذى صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب الله كتاب آخر يشاركه العناية ؛ فقد روَى الزهرى عن عروة بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهراً يستخير الله فى ذلك شاكا فيه . ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إنى كنت قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبِّس كتاب الله بشىء .

فكان من جرَّاء ذلك الخوف هذه الفوضى التى شوهت جمال الدين ، وموَّهت حقائق التاريخ ، وساعدت على نشر الفتنة ، ولم يفطنوا إلى درئها إلا حين استفحل الشر وانتشر الأمر وأصبح الطب لدائها مستحيلا .

ليس من هَمِّ الأديب أن يعنى عناية الفقيه واللغوى والنحوى والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل ، ولا بما نال المحدّثين من جرح وتعديل ، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لما الأثر البالغ فيه . وليس من شك فى أن الوضاعين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته ، حتى لا تجدَ بين أكثر الأحاديث إلا فرق مابين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها . هـذا من جهة الشكل ، أما من جهة الموضوع فان الأحاديث الصحيحة كانت طريق العلم والإرشاد ، والأحاديث الموضوعة كانت طريق الرأى والاجتهاد ؛ لأنها آراء فردية اجتهادية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة ، فـكانت طريقاً لبسط الفقه ، وتهـذيب الخلق، ونشر الثقافة ،ونشوء الرأى المجتهد بجانب السنة الصحيحة فى التشريع .

أسلوب الحديث

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادى المألوف الذى يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع . ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفـكير واختلافه باختلاف المقامات والأحوال ؛ ولـكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة ، يبدو عليها أثر الإلهام وسِمة العبقرية وطابع البلاغة . وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن ، و إنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفقره لأداء معنًى واضح معيّن، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال ، وملاءمة لغته للغة المخاطب . وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود ، فالرسول يستعمل الغريب ، و يلتزم السجع ، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه : من ذلك حديثه مع طهفة بن أبى زهير النهدى ، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره (١) .

(١) أنظر العقد الفريد ص ١٨١ ج ١ .

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة. وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسُل من قبل ولا سيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجع ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، كقوله عليه السلام: « إن المُنْبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظَهراً أبقى . المؤمن هيّنٌ ليّن كالجمل الأنف إن قِيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ. أصحابى كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم. لو توكلتم على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح بِطانا . مَثَل المؤمن كالنحلة، لا يأكل إلا طيباً ولا يطعم إلا طيباً . إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . المؤمن آلف مألوف . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف . إنّ أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. إياكم وخضراء الدِّمن: المرأةَ الحسناء فى المنبت السوء . المرأة كالضِّلَع إن رُمْتَ تقوامها كسرتها . الناس كلهم سواسية كأسنان المشط . جنة الرجل داره . إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له ما تصنع؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا » .

وأثر الأسلوب النبوى فاش فى كلام الصحابة وخطبهم، وعلى الأخص فى أسلوب من اشتد خلاطهم به أو كثرت روايتهم عنه، كالإمام علىّ وأبى هريرة. فمن قول الإمام علىّ كرم الله وجهه: « ألاَ وإن الخطايا خيل شُمُس حُمل عليها أهلها وخُلعت لجُمها فتقحمت بهم فى النار . وإن التقوى مطايا ذُلُل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنة . حق وباطل، ولكلٍّ أهل . شُغل مَن الجنة

والنار أمامه . ساعٍ سريع نجا ، وطالب بطيء رجا ، ومقصر فى النار هوى . اليمين والشمال مَضَلّة ، والطريق الوسطى هى الجادَّة » .

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف ، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية على أساليب السنن . وقد ارتاب بعض الصحابة فى كثرة ما رَوى فقال : « إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، والله الموعد . كنت رجلا مسكيناً أخدم رسول الله على ملء بطنى ، وكان المهاجرون يشغلهم الصَّفْق فى الأسواق ، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ؛ وكنت أَلزم رسول الله فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ! » .

٣ — الشعر الجاهلى

وجد النثر فى القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً فياضاً فجعلهما دليله ومدده ، ومضى فى طريق الاستقلال والاكتمال والتطور . وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدراً رحيباً ، مخافة من عصبيته وجاهليته على وحدة المسلمين وألفة العرب ، فظل ينافق كالأعراب وهواه كله فى البادية ، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره . وإذن لانستطيع أن نفهم الشعر الإسلامى إلا بالرجوع إلى منبعه ومشرعه ، وقد ألممنا بالشعر الجاهلى إلمامة تغنينا عن استئناف البحث فيه، فلننتقل إلى المصدر الرابع وهو :

٤ — الأدب الأجنبى

تقع جزيرة العرب بين مدنيتين من أعظم مدنيات العالم وهما : مدنية الفرس فى شرقها ، ومدنية الرومان فى غربها ، وبينها وبينهما اختلاط من قديم الزمن

خلف بعض الآثار فى اللغة والأدب من طريق التبادل المادى والمعنوى ؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بعد أن فتحهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب ؛ فقد دخل القوم فى دين الله ، ودخل كثير من سباياهم فى بيوت العرب ، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها ، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم ، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبلة الأولى : يفكرون بالفارسية أو الرومية ، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية ، ولغاتهم مرسومة القواعد ، وآدابهم واضحة المناهج ، وحضاراتهم مشرقة الجوانب ؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية ، وأظهر ما يكون هذا التأثر فى اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والرسائل والقصص .

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو فى تدوين الدواوين ،وتنظيم الحكومة،وسياسة الملك،ومقتضيات الحضارة، من أداة وطعام وزينة ، ووضعت قواعدها على منهج النحو السريانى ، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم . وقد عقد السيوطى فى كتابه المزهر فصلاً لما أخذه العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية ، ولكن اللغويين خلطوا فى ذلك لجهلهم بهذه اللغات ، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها . وغالى الفرس فى رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة ، حتى زعموا أن الرسول تكلم بالفارسية ، ورووا فى ذلك حديثين أحدهما قوله : إن جابرا صنع لكم سوراً ، أى ضيافة والآخر قوله . العنب دو ، والتمر يك : أى فى تناولهما مثنى وفرادى . وذلك فى تحقيق العلماء لا أصل له . وقد ذكر الجاحظ فى البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم ، فيسمون البطيخ : خِربز ، والسميط أى المنتوف الصوف : رُوذَق . وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال ، والسوق : بازار ، وذلك كله فارسى . وقد حكى أبو مهدية الأعرابى بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية

للعهده فأنكرها ، وذكر منها على سبيل المثال قوله :

يقولون لى شنبذ وَلست مشنبذاً طوال الليالى ما أقام ثبير
ولا قائلا زودًا ليعجل صاحبى ويشتان فى قولى على كبير
وَلا تاركا لحنى لأتبع لحنهم ولو دار صرف الدهر حيث يدور

وَالتشريع تأثر فى تفاصيله بفقه الرومان ، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان ، والشعر والنثر قد أخذ يتعاطاهما جماعة من الموالى ، كزياد الأعجم ، وأبى العباس الأعمى ، وموسى شهوات ، وإسماعيل بن يسار من الشعراء ؛ وسالم مولى هشام؛ وتلميذه عبد الحميد بن يحيى ، وَصديقه ابن المقفع من الكتاب . وقد قال أبو هلال العسكرى : « من تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه فى الأولى . وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى » .

وأما القصص، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليما وموعظة، فقد شابهُ شيء مما كانوا يسمونه العلمَ الأول . ويريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء ، والنُّذر الأولى عمن أسلم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة النبى إلى المدينة ، وكعب الأحبار الذى أسلم فى خلافة عمر ؛ أو من الموالى كوهب بن مُنَبِّه أحد الأبناء الذين عاشوا فى اليمن فعرفوا أخبار اليهود ، واتصلوا بالحبشة فعرفوا أخبار النصارى . وكان هو يعرف اليونانية. فاتسع بذلك علمه ، وكان أول من صنّف قصص الأنبياء فى الإسلام . ثم طاووس ابن كيسان التابعى ، وموسى بن سيار الأسوارى . وقد قال الجاحظ فى موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا : كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية

من كتاب الله و يفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرى بأى لسان هو أبين .

وتأثير أدب الموالى فى أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه ؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا فى الدين ولا فى العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً ؛ بل ظلوا مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصِّلات الاقتصادية . والعرب اقرب عهدهم بالبداوة وجهلهم باللغات ، واشتغالهم بالفتوح والخصومات ، وتعصبهم لآدابهم لم يفكروا فى نقل شىء من أدب هؤلاء وأولئك. وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً ، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم فى دينهم ولغتهم من غير طلب ولا وساطة . وانصرف العرب إلى سياسة المُلْك وقيادة الجند وأقصوا عنهما الموالى ، فعكف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية ، فكان منهم رواة الحديث، وحملة الفقه ، وكتبة الدواوين ، وقالة الشعر ، وعلماء النحو واللغة ، وبذلك اتصلوا بسببنا ، وفنى أدبهم فى أدبنا ، كما تفنى شآبيب المطر فى عباب المحيط .

أنواع الأدب الاسلامى

الشــــعر

الشعر في عهد الرسول :

ظهر الإسلام وقد تحكم فى حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرّقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها . فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب ، كان من الطبيعى أن يُغفض الإسلامَ رأسه إليه ، وألاّ يشجع الناس عليه ؛ ففى القرآن : « وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَه » ، وفى الحديث . « لأن

يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه خيرٌ له من أن يمتلىء فمه شعراً » ، فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذى يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب . ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى : فمن مؤيد ومن معارض واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش ، فجردوا عليه الأسنَّة والألسنة ، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية ، وبين الديمقراطية والأرستقراطية ، وبين محمد وقريش . فلم يغامر فى الخصومة إلا الشعراء القرشيون ، وقد كانوا قلالاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة ، فصاروا كثاراً بعده لدواعى النزاع والمعارضة . بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزِّبَعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان ، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء ، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودّوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم ؛ فما هو إلا أن قال لهم . « ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة ، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية ، ولم يدافع المدافعون بفضائل الاسلام ، حتى نقول إن الشعر قد خطا فى مذاهب الفن خطوة جديدة ، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد . يدل على ذلك قول الرسول لحسان : « اذهب إلى أبى بكر فهو أعلم بمثالب القوم » ، وقوله : « كيف تهجو قريشاً وأنا منها ؟ » فقال : « أسلك كما أسل الشعرة من العجين » .

فليس من شك فى أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً . فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأى ، خرست الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلى ثانية إلى البادية . وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية

الحديث وجهاد الشرك ، خفت صوت الشعر لقلة الدواعى إليه ، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين فى صادق المدح والرثاء . وتساهل الرسول فى سماعه حتى أثاب عليه ، وحتى قال فيه : « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة » .

الشعر فى عهد الراشدين :

تلك كانت حالة الشعر فى عهد النبوة ، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء فى تأديب الشعراء ، وانصراف همم العرب إلى الفتوح . ولكن الدين قد بدأ يفعل فى النفوس ، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر فى الأذهان ، فظهر أثر ذلك ضئيلا فى شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومَعْن بن أوس والنابغة الجعدى ، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة ؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلى لم يتأثر بالإسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب فى شعر حسان ، أو قلة الإنتاج فى قريحة لبيد ، أو كثرته فى الحطيئة والنابغة الجعدى مثلا . والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الشعر العربى ظل فى الجاهلية والإسلام واحداً فى مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بنى أمية . والتأثير الذى ناله من الموالى والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإنما وسع فى معانيه ومناحيه ، فقوّى بعض أغراضه كالهجاء ، وميز بعضاً آخر كالغزل . وهل يمكن التجديد فى الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية ، والخلفاء يتعصبون للبادية ، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر فى البادية ؟ فضلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من سؤدد وخلق وأدب : فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث المقيم فى القرن الأول عن مذهب شعرى جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربى

جديد ، فإن مذهب عمر بن أبى ربيعة فى الغزل لا يختلف عن مذهب امرىء القيس إلا فى المعانى الحضرية ؛ ومذهب جرير والفرزدق فى الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا فى المعانى السياسية . فلنقصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر فى العراق والحجاز على عهد بنى أمية و بيان خطرها وأثرها فى الإنتاج العقلى للعرب .

* * *

كانت القحطانية والعدنانية ، والعلوية والبكرية ، والهاشمية والأموية ، والعروبة والشعوبية ، تضطرم فى نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور . ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه ؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها فى البلاد على هذه الفكرة ، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة ، والخلاف ينجم فى فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة ، وكلها تدور على الزعامة والإمامة ، فمن كان سيداً فى الجاهلية يريد أن يكون سيداً فى الإسلام ! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير . ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا فى دين الله لا على أنه الدين الحق ، بل ليكون لهم الأمر من بعده !

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة فى عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالحزم والعدل ، ولانصراف العرب إلى المغنم عن طريق الجهاد والفتح . فلما ولى الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى ، وتشتت الرأى فلم يصدر عن الخليفة وحده ، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية . وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والمغانم الثراء إلى حد البطر ؛ فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان ، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين على ومعاوية .

وقتل الإمام فتحرج الأمر وانشقت العصا . وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف . وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا . ففي الشام حزب يشايع بنى أمية ، يريض لهم الأمر ويمكنهم فى الملك . وفى الحجاز حزب يناصر ابن الزبير ، يؤيده فى دعواه وينصره فى دعوته . وفى العراق حزب يشايع أهل البيت ويطالب لهم بحقهم فى الخلافة . وهنالك حزب ديمقراطى ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى فى الخلافة . وفى هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين وهم المرجِّئة . واتصلت بين الأحزاب الخصومة ، وأعنف فيها الخصوم ؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم ، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج . فلما مات أفاق خصومه من خَدَر سياسته فزعزعوا عرشه ؛ حتى إذا وهى أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه . وفى زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب ، وكثر المطالبون بالخلافة ، وانبسط سلطان العرب ، وزخرت موارد الفيء ، واكتمل شباب الجيل الذى نشأ فى الإسلام ، واغتذى بثمر الفتوح ، واستمتع بجمال الحضارة ، واختلط بأنماط شتى من الناس ، وساهم بيده ولسانه فى هذه الفتن ، فبلغ الأدب العربى غاية ما قدر له أن يبلغ . فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة ، والعصبية الغالبة ، والأحزاب المتحاربة ، والأهواء المتضاربة . والشعر العربى ربيب الخصومة والجدل ، تبعثه الحزبية ويقويه الهراش وتوجيه شياطين الفرقة ؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب ، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائه ، ويصطبغ بصبغة العقيدة التى يدعو إليها وينافح عنها . وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا فى هذه الخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً فى هذه الأزمات ، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء ، وأوقدوا

بينهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء فى عصر عبدالملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك فى أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً فى معانيه وأغراضه ، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدالا دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها فى الشعر.

نظرة عامة

فى العراق :

كان من الطبيعى أن تختلف مظاهر هذه الحياة فى العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها . فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه ، ووفرة ظله ومائه . وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس فأنشأوا إمارة المناذرة . فلما فتحوه فى عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة . وكان فى العراق ميراث وَفْرٌ من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة ، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر . وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية ، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجُلّى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة ، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج ، واشتداد المعارضة لبنى أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين فى السياسة والدين والعلم ، فكانت البصرة عثمانية ، والكوفة بعد استقرار الإمام على بها علوية ، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية ، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعى رأس كل فتنة . ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام على : « يا خنازير العرب !

والله لئن صار هذا الأمر إلىّ لأضعن عليكم الجزية » . فكان الشعر العراقى صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة ، فهو قوى عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر ، وتتلون فيه العصبية القبَلية ألوانا شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس ، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية ، وتغذيه نفحات بدوية وصلات أموية ، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ .

فى الحجاز .

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه بينابيع النهر . يفيض منه الماء الصافى فى سكون ورفق ، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات ، فتكدر نميره واشتد هديره ، وتوزعته الجداول والأقنية ، فبعضه فى سباخ الأرض ، وبعضه فى الرياض ، فروى بعضاً وأغرق بعضاً . انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقى هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر . واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن ، وسلطوا عليهم الترف ، وشغلوهم بالمال عن الملك ، وخلوا بينهم وبين الفراغ ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق ، وفى أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو ، فتبسطوا عَلَى النعيم ، وعكفوا عَلَى اللذة ، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة ، وذهبوا فى حياة المجون كل مذهب . ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان ، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم فى وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهانى « ابن سُرَيْج ، والغَريض ، وَمَعْبَد ، وحنين ، وابن محرز ، وجميلة ، وهَيْت ، وطُوَيْس ، والدلاَل ، وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ، ورحمة ، وهبة الله ، ومالك ، وابن عائشة ،

وابن طنبورة ، وعزة الميلاء ، وَحَبَابة ، وَسلامة ، وبلبلة ، ولذة العيش ، وَسعيدة ، وَالزرقاء ، وابن مِسْجح » وَحتى غلب الغناء عَلَى أعمال الناس وميولهم ، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال : نشأت وَأنا غلام أتتبع المغنين وَآخذ عنهم ، فقالت لى أمّى : يا بُنىّ إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لا يُلتفت إلى غنائه ، فدَعِ الغناءَ وَاطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه . فتركت المغنين وَاتبعت الفقهاء فبلغ الله بى عز وَجل ما ترى » . من ذلك شاع الحب فى مدن الحجاز ورقّتْ عواطف بَنِيه ، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضرى الرقيق الصادق ، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدىء بهم وَينتهى إليهم .

فى الشام :

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبنى أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم ، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز ، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق . وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبيته لخلاف ، أو يهيجوا طاعيته لمغنم ، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً فى نفوس أهله لا يبعثه باعث ، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث . وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه ، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة فى اللغة والنحو والأدب .

خصائص الشعر فى العراق

لعل الشعر العراقى الإسلامى أصدق مايصور حياة البادية وأصح مايعبرعن نفسية العرب ؛ فإنه ـ وإن كان كما قلنا استمرارا للشعر الجاهلى يصدرعن دوافعه وينبع من منابعه ـ أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة ، لقربه من عصر التدوين

واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ : وهو مظهر لتلك الحياة المدنية الأولية التى هيَّأها الإسلام للعرب لأول مرة : فجمل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة ، وباطنها العداوة والفرقة ؛ فهو مهاجاة بين الأفراد ، ومساجلة بين الأحزاب ، ومفاخرة بين القبائل ، ومدح للزعماء والخلفاء . وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضى اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية ، وتعتمد فى الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة ، وفى المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغَلب والسلَب . فالهجاء فى هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد يكون مظهره العراق ، لتكالب القبائل المتعادية عليه ، وظهور المذاهب المتباينة فيه ، وغَلبة البداوة والأنفة والبطر على أهله؛ فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه ، وهو ينتحل الأسباب المختلفة ، ويرتدى الأثواب المتعددة ، فيكون شخصياً وقبَليًّا ووطنيًّا ودينيًّا وسياسياً ، ولكنه فى الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل :

فقائل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبيّة ، وأديب النصرانية وشاعر الأموية ، كان أول ماغرزم به من الشعر الهجاء . هجا امرأة أبيه وهو صغير ، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع ، وعَلق به لقب الأخطل منذ شبَّ لسفاهته . ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس ، أو بين قبيلته وبين القبائل ، حتى كان بين يزيد ابن معاوية وهو وَلىّ العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الأنصارى تقاوُل وجدل ، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار ، فتحرج أن يذمّ قوماً آووا رسول الله ونصروه ، وقال له : أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل)

فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر ، وفضل عليهم قريشاً فى قصيدته الرائية ، وكاد يُشفى من ذلك على الخطر لولا عون يزيد . وبالغ الأمويون فى إيثاره وإكرامه ، وأمعن هو فى النفح عليهم ، فناضل الزبيريين بعد الأنصار ، ووقف للقبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التى مطلعها :

ألا يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بكر وإن كان حَيَّانا عِدًى آخر الدهر

لمناصبتها الأمويين العداء من جهة ، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى . ثم ختم حياته بممالأة الفرزدق ومهاجاة جرير . والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته على وثيق صِلاته بالخلفاء ، لم يشذ عن طبيعة العرب فى التدين ؛ فقد قال الأب لامنس اليسوعى فى فصل كتبه عنه : « إن أثر النصرانية فى دين الأخطل ضئيل ، ونصرانيته سطحية كـكل العقائد الدينية عند البدو » ، فهو يُدمن الخمر فى حمى الدين ، ويكثر الهجاء فى حمى الخليفة ، ويهاجم القبائل فى حمى تَغلب ؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق .

الفرزدق :

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمى ثم التميمى نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه ؛ فكان يهجو بنى قومه لحدة طبعه وشراسة خُلقه ، فيشكونه إلى أبيه فيضربه . ثم لج فى هجاء الناس حتى استعدَوا عليه زياداً والى العراق لمعاوية ، فطلبه ففرّ منه فى مدن العراق وقبائله ثم لجأ إلى المدينة أخيراً واستجار بواليها سعيد بن العاص من زياد فأجاره . فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد ، حتى منى بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصقلت شعره . وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة ، وللسواس

مهزلة . وللأدب العربى ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من جمال وحكمة .

جرير :

وكان جرير بن عطية الخطَفى التميمى قد قال الشعر كصاحبيه فى الحداثة الباكرة ، وقاله مثلهما فى الهجاء ، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم . وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التى ساعدت الطبع على نبوغه فى الشعر وتفوقه فى الهجاء وكان أول مَن نازله وأفحمه غسان السّليطى حين هجا قومه ، فاستغاث السليطى بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً ، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع ، فناضل عنه الفرزدق لموجدة فى نفسه على جرير ؛ وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك . وفضّل الأخطلُ الفرزدقَ على جرير إما لدفاعه عن قيس ، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه ، فهجاه جرير . ثم نبحه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعاه الغلبة . وانشعب الناس فى أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين . وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين ؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف ، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بنى حصن ، وقد وقف الشاعران كلٌّ بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه ، والرواة ينشرونه ؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة والنقد والحكم ، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه ؛ فقد روى صاحب الأغانى أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير . وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم فى الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين

من رجال المهلب تنازعا فى أمر جرير والفرزدق . فقد ذكر ابن سلاّم أن رجلين تنازعا فى عسكر المهلب فى جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً ، وكره أن يعرض نفسه لشرهما ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ فى عسكر قطَرى بن الفجاءة ، فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه ، وظن أنه دعى إلى المبارزة ، فقالا له : آلفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ! فقالا : نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد . فقال من يقول :

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها　　　طى التِّجار بحضر موت برُودا

قالا : جرير . قال : هو أشعرهما .

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعى وأبى النجم العِجلى والراجز اتخذوا من الشعر ظُفُراً ونابا مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هُجر القول فى الناس ، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل ، لأنهم كما قال أبو عبيدة : « أُعطوا حظاً من الشعر لم يعطَه أحد فى الإسلام : مدحوا قوماً فرفعوهم ، وذموا قوماً فوضعوهم ، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم ، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم » .

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير فى الهجاء :

مذهبهم فى الهجاء هو المذهب المتبع والطراز الغالب . على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم فى الطبقة والبيئة والطبع .

فالأخطل سيد فى قومه ، كريم فى نسبه ، نبيل فى نفسه ، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل فى سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد . ومن أجل ذلك كانت لغته فى الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة

الخاصة ، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمخازى ، وإنما يهاجم القِرن فى صفات الرجولة فينفى عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقوله فى تيم :

وكنت إذا لقيت عبيد تيم　　　وتيما قلت أيهما العبيد !

لئيم العالمين يسود تيماً　　　وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله فى كليب بن يربوع :

بئس الصحاب وبئس الشَّرب شربهم　　　إذا جرى فيهم المزَّاء والسَّكر

قوم تناهت إليهم كل مخزية　　　وكل فاحشة سُبَّت بها مضر

الآكلون خبيث الزاد وحدهمُ　　　والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم　　　حتى يحالف بطنَ الراحة الشعَر

ولعل أفحش هجائه قوله فى قوم جرير :

قوم إذا استنبح الضيفانُ كلبهم　　　قالوا لأمهمْ بولى على النار

فتمنع البول شحاً أن تجود به　　　ولا تجود به إلا بمقدار

والخبز كالعنبر الهندى عندهمُ　　　والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى فى إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعايب الفردية ، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايس بينها و بين قبيلته فى السمو إلى المعالى والسبق إلى الغايات ، وفى ذلك يجد بلاغه ومدده ، فلا يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر لتماسا للغلبة الدنيئة من أقرب طريق . أنظر إلى قوله لجرير :

يا ابن المراغة إن عَمَّىَّ اللذا　　　قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وأخوهم السفاح ظمّأ خيله　　　حتى وردن جبى الكلاب نهالا

فانعقْ بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك فى الخلاء ضـلالا
منتك نفسك أن تـكون كدارم أو أن توازى حاجبا وعقالا

و إلى قوله له :

ولقد شددتَ على المراغة سرجها حتى نزعت وأنت غير مجيـد
وعصرت نطفتها لتـدرك دارماً هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاظمت الأمور لدارم طأطأت رأسك عن قبائل صِيد
وإذا عددت بيوت قومك لم تجد بيتاً كبيت عطارد ولبيـــد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر . ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمضَّ لا يجرى مع هجاء جرير فى ميدان ، ولا يستوى وإياه عند العامة فى ميزان ، فـكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمود الشيخوخة فى الأخطل وحدة الشبيبة فى جرير ؟ إن جريراً نفسه قد علل وناء خصمه عنه فى آخر الشوط بكبر سنه ، فقدقال : «أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلنى » . وقال فى قصيدته النونية التى هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه :

جاريت مُطّلع الرهان بنا بِهٍ رَوْقٌ شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها فى أغراض قومية أو سياسية . ومن تلك الأهاجى المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبه وتصوران فنه : الأولى فى هجاء القبائل القيسية ومطلعها :

ألا يا اسلمى ياهند هندَ بنى بكر وإن كان حيَّانا عِدًى آخر الدهر

والأخرى فى مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى فى صرفها غِيَرُ

ومنها :

بنى أمية إنى ناصح لكمُ ... فلا يبيتن منكم آمناً زُفر
فإن مشهده كفر وغائلة ... وما يُغَيّب من أخلاقه وعَر
إن العداوة تلقاها وإن كمنت ... كالعُر يكمن حيناً ثم ينتشر
أمية قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم هُمُ آووا وهم نصروا
وقيسَ عيلان حتى أقبلوا رقُصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء ، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه . على أنه يستغل أحيانا بعض ما أنكر الإسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه : كقوله فى الأنصار يرميهم بشرب الخمر .

قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهمْ من المسطار

وكقوله فى كليب بن يربوع .

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم ... إذا جرت فيهم المزَّاء والسكرَ

***

أما الفرزدق فهو كالأخطل فى الذؤابة من قومه ، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يوارى ، فاحش الدعابة فلا يحتشم ، شديد الدعارة فلا يتعفف ، حاد البادرة فلا يتلطف ؛ فهو فى هجائه يذكر العورات ، ويعلن المخزيات ، بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحى الشاب أن ينشدها ، بَلْهَ الفتاة الخفرة. وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هى كل الأسباب التى أوجدت هذا الهجاء السوقى الوقح ، فإن الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف

لم يسفوا هذا الإسفاف ، فلابد أن يكون لحياة العراق فى ذلك العهد أثر قوى فى ذلك . فالخلق العربى القوى قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم ؛ والوازع الدينى قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية ؛ والسلطان السياسى يغمض جفنيه ، ويضحك مِلء شدقيه ، من هذه المهازل التى يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة . أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية . وربما يأتى كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم فى مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير . وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق فى جرير ، فهو يرمى قومه بضعة النسب ، وضعف الحيلة ، واتخاذ الغنم ، ورعى الإبل ، وإتيان الأُتن ، ويفتنُّ فى هذه المعانى افتتانا عجيباً : يرددها فى كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى ، ولا يتحرج أحيانا من افتعال الحوادث المضحكة إمعاناً فى السخر من المهجو والنيل منه . وهذا غاية ماوصل إليه الهجاءون وأهل التنادر فى عصور الترف والخلاعة . وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنىء الذى لا يعتقده هو ولا يصدقه الناس ، إنما يعمد إليه مبالغة فى التحقير والتشهير على نحو مايعمل الرعاع فى الطبقات الوضيعة ، وذلك مالم نعهده فى الهجاء من قبل ، إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن فى المرء فيمدح ، أو جهة المساوىء فيه فيذم ، وهو فى كلتا الحالين صادق .

وقد يتدلى الفرزدق فى الهجاء إلى الدرك الذى لا تسيغه رجولة ، فينقض رثاء جرير (١) لامرأته بهجائها المقذع ، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة ، كقوله :

كانت منافقة الحياة وموتها   خزى علانيـــة عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى   جزعاً غداة فراقهـا الأعيار

---

(١) وهى القصيدة التى مطلعها .

لولا الحياء لهاجنى استعبار   ولزرت قبرك والحبيب يزار

تبكى على امرأةٍ وعندك مثلها　　قعساء ليس لها عليك خِمار
وليكفينك فقدَ زوجتك التى　　هلكت موقعةُ الظهور قصار
إن الزيارة فى الحياة ولا أرى　　ميتاً إذا دخل القبور يُزار

ورأىُ الفرزدق فى المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة ، وربما دل أيضاً على منزلتها فى المجتمع العربى فى ذلك العهد . ولا نستنبط ذلك من قوله فى زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر فى سوئه ، وإنما نستنبطه من قوله فى زوجته هو حين ماتت :

يقولون زُر حدراء والترب دونها　　وكيف بشىء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت علىَّ بزائر　　تراباً على مرموسه قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت ناله　　على المرء فى أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنزير بكيتَ ولم تكن　　على امرأة عينى إخال لتدمعا
وأهون رزء لامرىء غير عاجز　　رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير ، وشهوة الغلبة عند العامة ، ونفاد المعانى فى الهجاء على طول المدة ، وبلادة الحس وهوان النفس باعتياد الذم ، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج فى الإقذاع والبذاء ، حتى خرج شعرهما فى النقائض على قوته وَجودته عن الحد المألوف بين السفلة . ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحيانا إلى وازع الدين لتشيعه فيتوب عن قرض الشعر ، ويكف عن هجاء الناس ، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول :

ألم ترنى عاهدت ربى وأننى　　لَبيْنَ رتاج قائماً ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً　　ولا خارجا من فىَّ سوء كلام

أو يستجيب إلى داعى الشرف لحسبه فيصدر فى الهجاء عن طبع أبىّ ونفس

كريمة ، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه ، كقوله فى معاوية وقد حبس عنده مالاً لأحد أعمامه بعد وفاته :

أبوك وعمى يامعاوىَ أورثا تراثا فيحتاز التراثَ أقاربه
فما بال ميراث الحُتات أخذته وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر فى جاهلية علمتَ مَن المرء القليل حلائبه

إلى أن يقول :

وما ولدت بعد النبى وأهله كمثلى حَصانٌ فى الرجال يقاربه
وكم من أب لى يامعاوىَ لم يزل أغر يبارى الريح ماازورَّ جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن أبوك الذى من عبد شمس يخاطبه

* * *

أما الطامة الكبرى فهى جرير ، لأنه كان مرسَل العنان مطلق اللسان لايعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة . فلاهو صاحب سياسة كالأخطل ، ولاصاحب نِحْلة كالفرزدق ، ولا وارث مجادة كالإثنين ، وإنما كان سوقياً تَرْعِيةً رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان ، وزاده المراش صلابة عود ، وغزارة فكر ، ومتانة شعر ، وسهولة قافية ، فبلغ بالهجاء الفردى والقبلى غايته فى الإقذاع والإقناع والقوة . وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة فى الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم ، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه ، ويقاتلوه بسلاحه ، وأصبح بعده الهجاء فى العراق لا يفعل فى النفوس إلا مشوباً بهذا القذر . وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق .

كان جرير لعاميته وبيئته ، وللأسباب التى ذكرناها من قبل فى معرض

الـكلام عن الفرزدق ، يصطنع فى الهجاء أساليب الدهماء ، فيعير الأخطل بالقلف والخنزير والسُّكر ؛ ويقذف البعيث فى أمه وهى أَمَةٌ سجستانية ؛ ويهاجم الفرزدق فى جدته فيتهمها بجبير القَيْن ، وفى أخته جعثن فيرميها بابتذال بنى منقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلبة حفيدة قيس بن عاصم ، ويشهر بقومه فى إخفار عمرو بن جرموز لذمتهم فى قتيل الزبير ، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزيُّد ، كضربته النابية للرومى ، وزيجته القالية من نوار .

وكان الفرزدق يذهب فى هجائه مذهب الفخر بآبائه ، فيعدد أيامهم الظافرة ، ويجدد مفاخرهم الغابرة ، فلا يستطيع جرير مجاراته فى هذا المضمار فيعمد إلى نقض الفخر الصلِف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع . وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له . اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتاً دعائمه أعز وأطـــــول

تجده يقول بعد هذا البيت :

بيتاً زُرارة محتبٍ بفنـــــائه   ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يحتبى بفناء بيتك مثلهم   أبداً إذا عُد الفَعال الأفضل

فيجيبه جرير فى نقيضته لها :

أخزى الذى سمك السماء مجاشعاً   وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل
بيتاً يحمم قينـــــكم بفنـائهِ   دنساً مقاعدُه خبيث المدخل
وَلَقتل الزبير وأنت عاقدُ حبوةٍ   تباً لحبوتك التى لم تحلل
وافاك غدرُكَ بالزبير على منًى   ومَجَرُّ جعثنِكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه   وعِجان جعثن كالطريق المُعمِل

ويقول الفرزدق :

حلل الملوك لباسُنا فى أهلنا   والسابغاتِ إلى الوغى نتسرْبل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم ... بعد الزبير كحائض لم تغسل

ويقول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جناً إذا ما نجهل

فادفع بكفك إن أردت بناءنا ... ثهلان ذو الهضبات هل يتحلحل؟

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم ... وإليه كان حِباء جفنةً ينقل

إنا لنضرب رأس كل قبيلة ... وأبوك خلف أتانه يتقمل

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله ... مثل الذليل يعوذ تحت القرمل

وانخر بضبة إن أمك منهمُ ... ليس ابن ضبة بالمعم المخول

أبلغ بنى وقبان أن حلومهم ... خفت فلا يزنون حبة خردل

أزرى بحلمهمُ الفياش فأنتمُ ... مثل الفَراش غشين نار المصطلى

ويقول الفرزدق :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ثم يمضى يعدد الشعراء الفحول و يقول:

دفعوا إلىَّ كتابهن وصية ... فورثتهن كأنهنَّ الجندل

فيجيبه جرير :

أعددت للشعراء سماً ناقعاً ... فسقيت آخرهم بكأس الأول

لما وضعت على الفرزدق ميسمى ... وضغا البَعيث جدعت أنف الأخطل

حسب الفرزدق أن يسب مجاشع ... ويعد شعر مرقش ومهلهل

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب فى الطريق السهل ، ويطفىء حرارة الجد ببرودة الهزل ، ويقابل الكمى الهاجم فى سلاحه ولأمته ، وهو فى ثوب المهرج وبزّته وضحكته .

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم فى حياتيه الخاصة والعامة ، فيتسقط أخباره ، ويتلقط حوادثه ، ثم يعلنها فى شعره تشهيراً به وفضيحة له :

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها ؛ فيقول جرير :

يازيق قد كنت من شيبان فى حسب   يازيق ويحك من أنكحت يازيق
أنكحت ويلك قَيناً فى استه حمم   يازيق ويحك هل بارت بك السوق
يارُب قائلة بعـــد البناء بها :   لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له : ماتت ، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير ـ فيأبى جرير إلا أن يعلن الحقيقة فى قوله :

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى   بحدراء قوم لم يروك لها أهلا

ويعبث الفرزدق فى المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك فى قوله .

هما دلتـــانى من ثمانين قامةً   كما انقض باز أقتم الريش كاسرهُ

فيقول له جرير :

تدليت تزنى من ثمانين قامة   وقصرت عن باع العلا والمكارم

ويضرب الرومى فى حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير :

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع   ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدّتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة ،

كصحف الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها ، وموضوعاً لنقدها ونضالها . وجرير اطول ما تمرس بالهجاء وغامر فى الخصومة لاذع السخرية ، فاحش الدعابة . مر التهكم ، ومن ذلك كان يتضور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير . وأى تهكم أمضّ وآلم من مثل قوله :

يا تَيْمُ إن بيوتكم تيمية ... قُعس العماد قصيرة الأطناب
قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم ... نُتِفت شواربهم على الأبواب

وقوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع !

وقوله :

والتغلبى إذا تنحنح للقِرى ... حك استه وتمثــل الأمثــالا

وقوله :

فَخلِّ الفخر يا ابن أبى خليد ... وأدِّ خراج رأسك كل عام
لقد علقت يمينك رأس ثور ... وما علقت يمينك باللجـــام

وكأن الهجاء كان فى جرير غريزة يرمى الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة ، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع العاملى ، فقال له الخليفة : أتعرف هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . فقال : هذا رجل من عاملة . قال جرير : التى يقول فيها الله : (عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) ، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عدىٌّ بمثله فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور :

وابن اللبون إذا ما لُزّ فى قرَن ... لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل فى طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتهت أن تراه فيه ، حتى صُورتْ لها تلك الأمنية فى الحلم ، فرأت وهى حامل

يه أن حبلا نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد . فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء ، فسمته لذلك جريراً . وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها ؛ فقد كان لها ولا ريب أثر قوى فى توجيه قريحته منذ طفولته .

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه ، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا فى مشواره ، فهو يقول له بحق :

غلبتك بالمفقَّـأ والمَعَنى ‌ ‌ ‌ وبيت المحتبى وَالخافقـات

يريد بالمفقأ أو المفقىء قوله :

ولست ولو فقأت عينك واجداً ‌ ‌ ‌ أباً لك إن عد المساعى كدارم

وبالمعنى قوله :

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً ‌ ‌ ‌ لأنت المَعَنى يا جرير المكلف

وبالمحتبى قوله :

بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه ‌ ‌ ‌ ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله :

وأين تُقَضَّى المالكات أمورها ‌ ‌ ‌ بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التى تضمنتها وهى من عيون شعره ومتين فخره .

وضعف جرير فى الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب ، فإنه أجمل خصومه صياغة ، وأوفرهم بلاغة ، وأرقهم لفظاً ، وألطفهم مدخلا ، وأكثرهم فتناناً . ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء ، دون الرواة والعلماء .

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعانى الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع ، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل القريعى ، وحسان

ابن ثابت ، والحطيئة ، فى الابتداء بوصف الطلل والغزل ، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة ، وتلمس العيوب من خبايا الماضى ، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى . وأشد مايعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار ، فإن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل ، فلاتراه يعدل عنها ، ولايكاد يزيد عليها ، وإنما يرددها فى كل قصيدة أو نقيضة فى أساليب شتى وقواف مختلفة . فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لايضير نابعدها ألا نقرأ غيرها . كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء فى هذا الطور ، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق فى الهجاء الحزبى تختلف عنها فى الهجاء الفردى ، فبينما هم فى هذا لايترفعون عن الهَجو ولايتورعون عن الكذب تراهم فى ذلك يذهبون مذهب الجاهليين ، فيفاخرون بالنسب ، ويتكاثرون بالعدد والمال ، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف ، بيد أنهم يغلون فى الفخر حتى ليجعلونه فى الدين والحكم والعلم والموطن .

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث :

اكسع البصرى إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل
واجعل الكوفى فى الخيل ولا ... تجعل البصرى إلا فى النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... مافعلنا بكمُ يوم الجمل
بين شيخ خاضب عُثنونه ... وفتى أبيض وضاح رِفَل
جاءنا يخطر فى سابغة ... فذبحناه ضحًى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسى الدينى قوله مرتجزاً فى الحجاج :

شطتْ نوى مَن دارُه بالإيوان ... إيوان كسرى ذى القِرَى والريحان

إن ثقيفاً منهمُ الكذابان كذابها الماضي وكذابٌ ثان
أمكن ربى من ثقيف همدان إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان بالسيد الغِطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان فقل لحجاج ولىِّ الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان فإنهم ساقوه كأس الذيفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل التفوق والبقاء ، كثير النفاق والرياء ، لطمع الشعراء فى حباء الخلفاء وإيثارهم فى الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة . وليس الهجاء الحزبى إلا صورة من صور الشعر السياسى الذى نفق فى هذا العصر . وما نزعم بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب فى الشعر جديد القصد والغاية ، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة فى عصر الجهالة مشروعة فى عهد النبوة ؛ إنما نقصد بالشعر السياسى طائفة من المعانى الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب فى الرأى ، وتنازع الزعماء على الحكم . جاءت هذه المعانى الجديدة على النهج القديم فى صور مختلفة ، نستطيع أن نردها إلى أربع :

١ — فى صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض كقول أبى العباس الأعمى :

أبنى أمية لا أرى لكمُ شبهاً إذا ما التفَّت الشيعُ
سعة وأحلاماً إذا نزعت أهل الحلوم فضرَّها النزع
أبنى أمية غير أنكمُ ، والناس فيما أطمعوا طمعوا .
أطمعتمو فيكم عدوكمو فسما بهم فى ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم لقومكم مثل الذى كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لَرَدهم حذرُ العقوبة ، إنها تزع

وكقول الكميت :

بنى هاشم رهط النبى فإننى　　بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم منى جناحىّ مودة　　إلى كنف عِطفاه أهلٌ ومرحب
وأَرمى وأُرمَى بالعداوة أهلها　　وإنى لأوذَى فيهـمُ وأؤَنَّبُ

وكفة الأمويين فى هذا الباب أرجح ، لما تجمع لهم من الترغيب فى المال ، والترهيب بالملك ، والتمليق لهوى النفوس ، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء فى عصرهم ، إما دفعاً لشرهم ، وإما طمعاً فى خيرهم ، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر .

٢ — وفى صورة الهجاء كما مر ، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك :

آل الزبير من الخلافة كالتى　　عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت　　مالا تطيق فضـيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ　　كم للغـواة أطلتمُ إمهالهـا
إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ　　مازلتُم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً　　فانهض بيُمنك فافتتح أقفالها

٣ — وفى صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأى ، كقول مسكين الدارمى ، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأى قومه فى ذلك .

إليـك أمير المؤمنين رحلتهـا　　تثير القطا ليلا وهن هجود
ألا ليت شعرى مايقول ابن عامر　　ومروان أم ماذا يقول سـعيد

بنى خلفـــاء الله مهلاً فإنمـــا يبوئهـــا الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاه ربُّه فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية : ننظر فيما قلت يامسكين ونستخير الله .

ومثل ذلك حدث من عبد الملك ، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، فأمر النابغة الشيبانى أن يقترح ذلك فى حضرة الناس فقال :

لابنــك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مُطَّرح
داوُد عَدل فاحكم بسيرته ثم ابن حَرْب فإنهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهمْ واحىَ بخير وا كدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتـكلم ، فعلم الناس أن ذلك أمره .

٤ — ثم فى صور جدل فى رأى أو بيان لمذهب ؛ فمن الجدل السياسى ماوقع بين كعب بن جعيل والنجاشى فى المفاضلة بين على ومعاوية ، فقد قال كعب :

أرى الشام تـكره ملك العرا ق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبــه مبـــغض يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا علىٌّ إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهـم فقلنا لهـم لا نرى أن ندينا
وكلٌّ يسر بما عنده يرى غث ما فى يديه سمينا
وما فى علىّ بمســـــــتعتب ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرّ ولا بد من بعد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الإمام علياً أمر النجاشي أن يجيبه فقال :

دَعَنَّ معاوى ما لم يكونا لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج وضرب الفوارس فى النقع دينا
هُمو هزموا الجمع جمع الزبير وطلحة والمعشر الناكثينا
فإن يكره القوم ملك العراق فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا :
جعلتم علياً وأشياعه نظير ابن هند ألا تستحونا ؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة فى الإمامة :

ألا إن الأئمة من قريش ولاةَ الحق أربعة سواء :
علىٌّ والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط إيمان وبر وسبطٌ غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

وكقول ثابت قطنة ، وهو من شعراء الأمويين ، يفصل مذهب الإرجاء :

يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون استبوا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً فى الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

إلى أن قال :

كل الخوارج مخط فى مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علىّ وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التى عرضت بها المعانى السياسية . ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها فى الغالب مهلهلة النسج ، نابية القافية ، بادية التكلف ، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون فى الشعر التعليمى . وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف ، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره ، أو شعور ممالق ، أو قريحة كابية . والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير ، و بين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه ، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه ، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه .

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية ، وعواطف نفسية ، ونوازع عصبية ، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة ، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج . فحق علينا ونحن فى مقام البحث فى شعراء العراق أن نديم النظر ساعة فى أشعارهم ، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم

شعر الشيعة :

ورث علىّ بن أبى طالب بحكم مولده ومَرْباه مناقب النبوة ، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحى ، وصراحة المؤمن ، وبسالة المجاهد ، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه. حتى من كتب عنه من الأوروبيين قد شاركوا المسلمين فى هذه العاطفة ؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزى كارليل : « أما ذلك الفتى على فلا يسعك إلا أن تحبه . ركب الله فى طبعه النبل منذ الحداثة ، وتجلى فى خلاله الكرم طوال عمره ، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس ،

وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث ، وكل أولئك فى رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية » . ثم سار علىّ فى خصومته وخلافته وسياسته عَلَى ضوء هذه الأخلاق ، فما قارف الأثرة ، ولا حاول الفرقة ، ولا راقب الفرصة ، ولا أثار العصبية ، ولا استخدام المال ، وإنما أخلص النية للعمرين ، ومحض النصيحة لعثمان ، وأعذر بالحجة لمعاوية . ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت عَلَى عهده تتجاهل دين البساطة والزهد ، ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية فى الشام ، وثراء الرافدين فى العراق ، فانتشر أمره وانصدعت خلافته ، ثم قتل مظلوماً فى محرابه ؛ فكان محياه ومماته تاريخاً دامياً للفضيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدة . ثم وَرَّث بنيه وأهليه ذلك العزم الثائر وهذا المجد العاثر ، فدب الموت للحسن سراً فى كأس مذعوفة ، وقتل الحسين قِتْلَةً لا يزال يرعد من هولها الدهر .

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى ، وافتنَّت المنايا الرواصد فى اختلاج بنى علىّ ، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب ، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين ، ولا سيما الشيعة ، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم ، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم ، رفعا فى نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة . ثم ظهر ذلك الحب فى صور من العقائد : فقالوا بالوصية ، وجعلوا الإمامة من أصول الدين ، وحصروها فى علىّ وبنيه ، وطعنوا فى إمامة الشيخين . ولم يتهيأ لهم السلطان ، ولم تسعفهم القدرة ، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب ، وتصوير الآلام ، وإعلان الفضائل ، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق ، والرثاء النائح ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة . على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة فى شعر أوائل الشيعة وضوحها فى شعر الأواخر منهم : فإن تغلغل الفكرة فى أصل العقيدة ، وتنكيل الحاكمين بآل البيت ،

واضطهاد الولاة للشيعة ، إنما تدرجت قسوةً وقوة مع الزمن ، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة فى هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب ، فشعرهم بدأ ولاء صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وهجاء مراً ، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة ، ومعارضة شديدة ، ومناقشة فقهية ، ودعاية حزبية . ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة . فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبى الأسود الدؤلى :

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليا !
بنو عبد النبى وأقربوه ... أَحَبُّ الناس كلهم إليَّا
أحبهم كحب الله حتى ... أجىء إذا بُعثت على هَوَيا
فإن يك حبهم رشداً أُصِبْهُ ... ولست بمخطىء إن كان غيّا

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خريم الأسدى :

نهارُكمُ مكابدة وصوم ... وليلُكمُ صلاةٌ واقتراء
أأجعلكم وأقواماً سواء ... وبينكمُ وبينهمُ الهواء ؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لِأَرْؤُسهمْ وأعينهم سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... مغلغلة من الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زانى ؟
فأشهد إن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً ... وصخر من سُمَيَّة غير دانى

وقول عبد الله بن هشام السلولى فى يزيد بن معاوية :

حُشِينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بنى أمية ما روينا

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت فى الخلافة :

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شَرِكت فيه بجيل وأرحب

ولا انتشلت عضوين منها يُحابرُ وكان لعبد القيس عضو مؤرَّب

فإن هى لم تصلح لحى سواهمُ إذن فذوو القربى أحق وأقرب

فيالك أمراً قد تشتَّت جمعُه وداراً ترى أسبابها تتقضب

تبدلت الأشرار بعد خيارها وجُدَّ بها من أمة وهى تلعب !

ويكاد الكميت بن زيد الأسدى بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبنى هاشم ؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة . ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أرجح إلى التقيَّة فى شعره على عادة الشيعة ، فقال من كلمة يمدحه فيها .

فالآن صرتُ إلى أميّـــة والأمور إلى المصاير

يا ابن العقائل للعقا ئل والجحاجحة الأخاير

من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكابر

لكم الخلافة والإلا ف برغم ذى حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس فى عهد بنى العباس نفثات غيظ ، وحسرات حزن ، وعبرات ألم فى شعر السيد الحميرى ، ودعبل الخزاعى ، وديك الجن ، ومطيع بن إياس ، وأبى الشيص ، والعَكَوَّك ، وأضرابهم .

شعر الخوارج :

وأما الخوارج — وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج — فقد قام أمرهم على

الصلابة فى الرأى ، والمكابرة فى القول ، والاشتطاط فى الحكم ، والتشدد فى الدين ، والغلو فى العبادة ، والقسوة فى المعاملة ، والاعتماد على الحرب . شايعوا عليًا وآزروه حتى قبل التحكيم ، فقالوا له : حَكَّمتَ الرجال ولا حكم إلا لله ! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر ، ونقض ما عاهد معاوية عليه . فأبى عليهم ما سألوا ، وأوقع بهم يوم النهروان ، فزاد ذلك فى حنقهم عليه وخلافهم له ، فائتمروا به واغتالوه . واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس ، فخطَّأُوا بعضاً وكفَّروا بعضاً . ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح فى غير قريش وفى غير العرب ، وأن العمل جزء من الإيمان ، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر ، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة ؛ فكانوا فى الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشارى : « أنضاء عبادة وأطلاح سهر . قد أكلت الأرض أطرافهم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله . فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدُماً حتى اختلفت رجلاه فى عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله و يقول : « وعجلت إليك ربِّ لترضى » .

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم، فلا يرحمون ضعف المرأة ، ولا براءة الطفل ، ولا شيخوخة الهرم ، ولا وشائج الرحم ؛ لأنهم — كما ظنوا — باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، فقطعوا أسباب الحياة ، وأماتوا عواطف الدنيا ، وقاتلوا وقتلوا فى سبيل هذا المذهب وتلك الغاية . وهم لصراحة بداوتهم ، وشدة عصبيتهم ، وخلوص عقيدتهم ، وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أسلس الناس منطقاً ، وأروعهم كلاماً ، وأمتنهم شعراً . ولكن الشعر كان عندهم فى المحل الثانى من الخطابة ، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول ؛ وغناء الشعر فى ذلك قليل . فإذا ما برز الخارجى

للخصم ، أو هجم على الموت ، أو وقع فى الأسر ، جاشت نفسه بمتين الرجز ، أو رصين القصيد ، يضمنه وصفه للحرب ، وولهه للقتال ، وزهده فى الحياة ، واستخفافه بالموت ، وشوقه إلى الشهادة ، وظمأه إلى الجنة ، فى لفظ جزل وأسلوب قوى ، وقلما يدور شعرهم على غير ذلك . فمن الرجز قول ابن أم حكيم :

أحمل رأساً قد سئمت حمله   وقد مللت دهنــه وغسله
ألاَ فتى يحمل عنى ثقــله !

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير :

ألا أيها الشارون قد حان لأمرىء   شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة   وكل امرىء منـكم يصاد ليُقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها   أقامتـكمُ للذبح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى   إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيـكم على ظهر سابح   شديد القُصيرى دارعا غير أعزلا
فيارُب جمع قد فللت ، وغارة   شهدت ، وقِرْنٍ قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم :

لقد شقيتُ شقاء لا انقطاع له   إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينجُ من لهيبها أحد   إلا المنيبُ بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولده   له السعادة من خلاقها البـارى

وقوله :

وأمسى شهيداً ثاوياً فى عصابة   يصابون فى فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم   تُقى الله نزالون عند الزواحف

إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما فى المصاحف

وكقول قَطَرى بن الفجاءة فى يوم دولاب :

فلم أر يَوما كان أكثر مَقْصعاً ... يمج دماً من فائظ وكليم

وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم

أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم

رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلا ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء ، لاعتمادهم فى الجدل على الخطابة ، وفى القراع على السيف . ومن هذا القليل قول بعضهم فى الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا

هى الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان فى هجاء الإمام :

لله در المرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا

أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القَعَدة لضعفه عن الحرب لكبَر سنه فجاهد بلسانه .

نماذج من الشعر الاموى

قال قَطَرىّ بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويْحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تُطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيُطْوَى عن أخى الخنْع اليراع
سبيل الموت غايةُ كل حى ... فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يُعتَبطْ يسأم ويهرمْ ... وتُسلمْهُ المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ فى حياة ... إذا ما عدّ من سَقَط المتاع

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيات فى قريش :

حبذا العيش حين قومى جميعٌ ... لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى مل ... ك قريش وتشمت الآعداء
أيها المشتهى فناء قريش ... بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحى بقاء

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأى :

تزور امرأً يؤتى على الحمد مالَه ... ومن يُؤت أثمان المحامد يُحمَد
يرى البخل لا يُبقى على المرء ماله ... ويعلم أن البخل غيرُ مخلِّد
كسوب ومِتلاف إذا ما سألته ... تهلل فاهتز اهتزاز المهند
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خيرُ مُوقِد

وقالت الخنساء :

دلّ على معروفه وجهـــــــه ... بُورِكَ هذا هادياً من دليل !

تحسبهُ غضبان من عـــزه ... ذلك منه خُلق ما يحول

وَيْلُمِّهِ مِسْعَرَ حرب إذا ... أُلقِيَ فيهـا وعليه الشليل !

وقال الـكُمَيت[1] الأسدى يمدح مسلمة بن عبد الملك :

فما غاب عن حِلم ولا شهد الخنا ... ولا استعذب العوراء يوماً فقالها

وتَفْضُل أيمانَ الرجال شماله ... كما فَضَلَتْ يمنى يديه شمالَها

وما أجمَ المعروف منَ طول كرِّه ... وأمراً بأفعال الندى وافتعالَها

ويبتذل النفس المصونة نفسه ... إذا ما رأى حقاً عليه ابتذالها

بلوناك فى أهل الندى ففضلتهم ... وباعك فى الأبواع قِدماً فطالها

فأنت الندى فيما ينوبك والسَّدَى ... إذا الخودْ عدَّتْ عُقْبَة القِدر مالها

وقالت ليلى الأخيلية ترثى توبة :

لعمرك ما بالموت عارٌ على الفتى ... إذا لم تصبه فى الحياة المعاير

---

(١) هو الـكميت بن زيد الأسدى ولد سنة ٦٠ هـ بالـكوفة ونشأ فى قومه بنى أسد فلقن اللغة وثقف الأدب وعلم الأنساب وشافه الأعراب وتلقى أخبار العرب عن جدتين له أدركتا الجاهلية ، ثم قال الشعر وهو صغير ولـكنه كان يخشى أن يذيعه حتى أنشد الفرزدق شيئاً منه وسأله حكمه فيه أينشره أم يطويه ، فأمره بإذاعته فأذاعه . ونظم قصائده الهاشميات يظهر فيها تشيعه لأولاد على ويحتج لهم ويدافع عنهم . ولما اتهم بالأدى حكيم الـكلبى شاعر اليمانية هجاه الـكميت وهجا اليمانية جماء ؛ فغضب خالد بن عبد الله القسرى والى العراق وكان يمانيا فسعى به إلى هشام وأسمعه شعره فى ذم بنى أمية ومدح بنى هاشم فأمره بقتله فسجنه ، ففر الـكميت من سجنه حتى لحق بالشام ولاذ بقبر معاوية بن هشام فأمنه الخليفة وعفا عنه . ولبث الـكميت على مدح بنى هاشم وذم اليمانية فأثار العصبية بين العدنانيين والقحطانيين وأرث العداوة الـكامنة فى صدور الأمتين ، فاتسعت الهوة وتفرقت الـكلمة ودامت هذه الفتنة حتى أواسط الدولة العباسية ، وكانت وفاة الـكميت سنة ١٢٦ هـ.

وما أحد حىٌّ وإن عاش سالماً　　بأخلد ممن غيبته المقابر

فلا الحى مما أحدث الدهرُ مُعْتَبٌ　　ولا الميْت إن لم يصبر الحىُّ ناشر

وكل جديد أو شباب إلى بِلىً　　وكل امرىء يوماً إلى الموت صائر

وكل قرينىْ ألفةٍ لِتفرق　　شتاتاً وإن ضَنَّا وطال التعاشر

فلا يُبْعِدَنْكَ الله يا توب هالكاً　　أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر

فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت　　على فننٍ ورقاء أو طار طائر

وقال أبو ذؤيب الهُذَلى يرثى بنيه الخمسة وقد هاجروا إلى مصر فهلكوا في عام واحد :

أمِنَ المنون وريبها تتوجع　　والدهر ليس بمُعْتِب من يجزع ؟

قالت أمامة ما لجسمك شاحباً　　منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

فأجبتها إرثى لجسمى إنه　　أودى بَنِىَّ من البلاد فودعوا

أودى بَنِىَّ فأعقبونى حسرة　　عند الرقاد وعَبْرة لا تقلع

فالعين بعدهمُ كأن حِداقها　　كحلت بشوك فهى عَورا تدمع

فغبرت بعدهم بعيش ناصب　　وإخال أنى لاحق مستتبع

سبقوا هَوَىّ وأعنقوا لهواهمُ　　فتُخُرِّموا ولكل جنب مصرع

ولقد حرصت بأن أدافع عنهمُ　　وإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها　　ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتجلدى للشامتين أريهمُ　　أنى لريب الدهر لا أتضعضع

حتى كأنى للحوادث مَرْوَةٌ　　بصفا المشرق كل يوم تقرع

وقال جرير يرثى ابنه :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم　　كيف العزاء وقد فارقت أشبالى

فارقتنى حين كف الدهر من بصرى	وحين صرت كعظم الرمة البالى

وقال مالك بن أسماء فى الهجاء :

لو كنت أحمل خمراً يوم زرتكم	لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يفغمنى	وعنبر الهند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحى حين أبصرنى	وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال آخر :

أقول حين أرى كعباً ولحيتَه	لا بارك الله فى بضع وستين
من السنين تولاها بلا حسب	ولا حياء ولا قدر ولا دين

وقال عبد الرحمن بن الحكم :

لحا الله قيساً قيسَ عيلان إنها	أضاعت ثغور المسلمين وَوَاتِ
فشاولْ بقيس فى الطعان ولا تكن	أخاها إذا ما المشرفيةُ سُلَّت

وقال الطرِمَّاح يهجو بنى تميم :

تميم بطرْق اللؤم أهدى من القطا	ولو سلكت سُبْل المكارم ضلَّت
ولو أن برغوثاً عَلَى ظهر نملة	يكر على صفَّى تميم لولت

وقال حندج بن حندج المرى يصف ليل صول :

فى ليل صُول تناهى العرض والطول	كأنما ليلهُ بالليل موصول
لا فارق الصبحَ كفى إن ظفرت به	وإن بدت غُرَّةٌ منه وتحجيل
لساهر طال فى صول تململهُ	كأنه حية بالسوط مقتول
متى أرى الصبحَ قد لاحت مخايلهُ	والليلَ قد مُزِّقت عنه السراويل
ليل تحير ما ينحط فى جهة	كأنه فوق متن الأرض مشكول

نجومه رُكَّدٌ ليست بزائلة　　كأنما هن في الجو القناديل

ما أقدَرَ اللهَ أنْ يدنى على شَحَط　　مَن دارُه الحَزنُ ممن داره صول

الله يطوى بساط الأرض بينهما　　حتى يُرى الرَّبعُ منه وهو مأهُول

وقالت الخنساء تصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها :

جارى أباه فأقبلا وهُما　　يتعاوَرَان مُلاءة(١) الحُضْر

حتى إذا نَزَت القلوب وقد　　لزَّت هناك العذر بالعذر

وعلا هتاف الناس أيهما ؟　　قال المجيب هناك لا أدرى

برزتْ صحيفة وجهه والده　　ومضى عَلىَ غُلوائه يجرى

أولى فأولى أن يساويه　　لولا جلال السن والكبر

وهما وقدْ برزَا كأنهما　　صقران قدْ حطَّا إلى وكر

وقال الفرزدق يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده :

وأطلسَ عسال وما كان صاحباً　　دعوت لنارى مَوهِناً فأتانى

فلما أتى قلت أدن دونك إننى　　وإياك فى زادى لمشتركان

فبت أقُدُّ الزاد بينى وبينه　　على ضوء نار مرَّة ودخان

وقلت له لما تكشر ضاحكاً　　وقائم سيفى من يدى بمكان

تعشَّ فإن عاهدتنى لا تخوننى　　نكن مثل من ياذئبُ يصطحبان

وأنت امرؤ ياذئب والغدر كنتما　　أخيَّين كانا أُرضعا بلبان

ولو غيرنا نبهت تلتمس القِرى　　رماك بسهم أو شَباة سنان

---

(١) الملاءة : الغبار ؛ والحضر : العدو الشديد .

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها :

خبروها بأننى قد تزوجـ ت فظلت تكاتم الغيظَ سرًّا
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً : ليته تزوّج عشرا !
وأشارت إلى نساء لديها لاترى دونهن للسر ستراً :
مالقلبي كأنه ليس منى وعظامى كأن فيهن فَتراً ؟
من حديث نما إلىَّ فظيعٍ خِلْتُ فى القلب من تلظيه جمرا

وقال عروة بن أدينة فى الغزل :

إن التى زعمت فؤادك ملّها خلقت هواك كما خُلقت هوًى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلبَاقة فأدقها وأجلَّها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى : ما كان أكثرها لنا وأقلَّها !
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسلَّها

وقال جميل بن معمر .

وإنى لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذى لو ابصره الواشى لقرتْ بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجوِّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلى، وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

وقال أيضاً :

وما زُلتمُ يا بثن حتى لو اننى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خَدِرتْ رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النأىُ المفرِّق بعدكم سلوًّا ولا طولُ التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا

لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وقال يزيد بن الطَّثَرِيَّة .

بنفسى من لو مر بَرْد بنانه على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل أمر وَهِبْتُهُ فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

وقال قيس بن ذَرِيح :

فإن يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
فلم يمنعوا عينىَّ من دائم البكا ولم يذهبوا ما قد أجن ضميرى

وقال كُثيِّر من قصيدة يذكر فيها هجوان عزة وسلوانه :

وما كنت أدرى قبل عزَّة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولتِ
وكانت لقطع الحبل بينى وبينها كناذرة نذراً فأوفت وحلت
ولم يلق إنسان من الحب ميْعةً تعُم ولا غماء إلا تجلَّت
أريد الثَّواء عندها وأظنها إذا ما أطلْنا عندها المكث ملت
فما أنصفت ، أما النساء فبغَّضت إلىَّ ، وأما بالنوال فضنت
يكلفها الغَيْرانُ (١) شتمى ومابها هوانى ، ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مريئاً غيرَ داء مُخَامرٍ لعزة من أعراضنا ما استحلت
فوالله ماقاربت إلا تباعدت بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
فإن تكن العُتبَى فأهلا ومرحباً وحقَّت لها العتبى لدينا وقلَّتِ
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا منادحَ لو سارت بها العيسُ كلّتِ

---

(١) زوجها .

أسيئى بنا أو أحسنى لا مَلُومَةً لدينا ولا مَقْلية إن تقلّت
فما أنا بالداعى لعزة بالجوى ولا شامت أن نعلُ عزة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبابتى بعزة كانت غمرة فتجلت
فوالله ثم الله ما حل قبلها ولا بعدها من خُلَّةٍ حيث حلّتِ
فيا عجبًا للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وُطِّنتْ كيف ذلت !
وإنى وتَهيامى بعزةَ بعدما تَخَلّيْتُ مما بيننا وتخلّت
لكالمرتجى ظلَّ الغمامة كلما تبوأ منها المقيل اضمحلتِ
فإن سأل الواشون فيمَ هجرتها فقلْ نفسُ حر سُلِّيَتْ فتسلت

وقال جرير على لسان يزيد :

فأنت أبى مالم تكن لى حاجةٌ فإن عرضت أيقنت أن لا أبا ليا
وإنى لمغرور أعلّلُ بالمنى ليالىَ أرجو أن مالك ماليا
بأى نجادٍ تحمل السيف بعدما قطعت القوى من محمل كان باقيا ؟
بأى سنان تطعن القوم بعدما نزعت سنانًا من قناتك ماضيا ؟

وقال مالك ابن أسماء يعتذر :

لكل جواد عثرة يستقيلها وعثرة مثلى لا تقال مدى الدهر
فهبنىَ ياحجاج أخطأت مرة وجُرت عن المثلى وغنيتُ بالشعر
فهل لى إذا ماتبت عندك توبة تدارِكُ ماقدفات فى سالف العمر ؟

وقال الحطيئة :

أتتنى لسان فكذبتها وما كنت أحسبها أن تُقالا
بأن الوشاة بلا حُرمة أتوك فراموا لديك المحالا

فجئتك معتذراً راجيـــــــاً   لعفوك أرهب منك النــكالا
فلا تسمعنْ بى مقال العدى   ولا تؤكِلنِّى هُدِيتَ الرجالا
فإنك خير من الزبرقان   أشد نــكالاً وخير نوالا

وقال حسان بن ثابت :

المـال يَغشى رجالاً لا طَبَاخ بهم   كالسيل يغشى أصولَ الدندن البالى
أصون عرضى بمـالى لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض فى المـال
أحتال للمـال إن أوْدى فأجمعه   ولست للعرض إن أودى بمحتال
الفقر يُزْرى بأقوام ذوى حسب   ويقتدى بلئام الأصــل أنذال

وقال كُثَيِّر :

ومن لا يُغَمِّض عينه عن صديقه   وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتب
ومن يتتبَّعْ جاهــداً كل عثرة   يجدْها ولا يسلمْ له الدهرَ صاحب

وقال كعب بن زهير .

لوْ كنت أعجب منْ شيء لأعجبنى   سَعىُ الفتى وهو مخبوء لهُ القدَرُ
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها   والنفسُ واحدة والهمُّ منتشرُ
فالمرء ما عاشَ ممدودٌ له أَمَل   لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر

وقال النابغة الجعدى :

ولا خير فى حِلم إذا لم تــكن له   بوادرُ تحمى صفوه أن يكدَّرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الأمرَ أصدْرا

الشعراء وطبقاتهم

نبغ فى هذا العصر على قِصره زُهاء مائة شاعر كان لهم السهم الربيح فى نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية ، لقوة الدِّعاية فى الشعر ، وتأثير الفصاحة فى العرب ، وشدة العصبية فى الولاة . وشعرهم وإن سار على منهاج الجاهلية أسمى خيالاً واقرب منالاً وأوثق مبنى وأغزر معنى من المتقدمين؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت ، وهم إما مخضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان بن ثابت والحطيئة ؛ وإما إسلاميون كعمر بن أبى ربيعة والأخطل وجرير والفرزدق والكُمَيت والطِّرِمَّاح وكُثيِّر وذى الرُّمة . وكلهم صريح العربية ، صحيح اللغة ، فصيح اللهجة ، فى الشعر والنحو حُجَّة .

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة مُنُوا بداء السياسة ، وشهوة المنافسة ، فمزقوا ستائرهم وفرقوا عشائرهم ، وأشاعوا هُجر القول فى الناس ، ولم يتعرض لهم أحد إلا افتُضح ؛ وهم جرير والفرزدق والأخطل . وقد انقطعوا للشعر والتكسب به ، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتنتصر له . ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم ، ولا يعقدون التفاضل إلا بينهم .

الشعراء المخضرمون

كعب بن زهير

المتوفى سنة ٢٤ هـ

نشأته وصباه

هو أبو عقبة كعبُ بنُ زُهَيْر بن أبى سلمى المُزَنى . نشَّأه أبوه على الأدب والحكمة فشَبَّ فصيحاً شاعراً . ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بُجير إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بدا له فتأخر وتقدم بُجير ، فسمع كلام رسول الله وأسلم . فغضب كعب لإسلامه ونهاه ، وهجاه وهجا رسول الله معه بأبيات يقول فيها :

ألا أبلغا عنى بجيراً رسالةً فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا ؟
سقاك بها المأمون كأساً رَوِيّةً فأنهلك المأمون منها وعَلّكا
ففارَقت أسباب الهدى واتبعته على أىِّ شىء وَيْبَ غيرك دلكا
على مذهب لم تُلفِ أمّا ولا أباً عليه وَلم تعرف عليه أخا لكا
فإنْ أنتَ لم تفعلْ فلستَ بآسف ولا قائل إما عثرتَ لَعاً لكا !

فأهدر الرسول دمه ، وأرجف الناس بقتله . وأشفق عليه أخوه فنصحه بالإسلام والتوبة والمثول بين يدى الرسول يطلب رضاه وعفوه ، فلما استيأس كعب من المجير والنصير جاء إلى المدينة ، وتوسل بأبى بكر إلى الرسول . ودخل فى الإسلام ، ومدحه بلاميته المشهورة ، فعفا عنه وأَمّنه وخلع عليه بُرْدَته ؛ فما زالَتْ فى أهله حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بنى عثمان .

شعره

نشأ كعب فى روضة الشعر وباحة القريض فرسخت فيه مَلَكته ، وتجلت فى صغره شاعريته . فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة . فنهاه أبوه مخافة أن يروَى عنه ما لا خير فيه فيلزمه عاره . فكان كعب يأبى أن ينتهى ، ويلح أبوه فى منعه حتى امتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نضج قريحته وسلامة طبعه ؛ فتركه لنفسه فتقحم أبوابه ، وسلك شعابه ، وأتى منه بالجيد الرصين والرائق المعجب . وأوشك أن يسامى أباه لولا غرابة فى ألفاظه ، وتعقيد فى تراكيبه ، وقصور فى مطوّلاته ؛

ومن كل ذلك برىء أبوه . ومما يدل على مكانة كعب وقيمة شعره أن الحطيئه وهو من نابهى الشعراء توسل إليه أن ينوِّه بذكره فى شعره حتى يشتهر ، فقال :

فمَنْ للقوافى شانها من يحوكها   إذا مامضى كعب وفوَّز جرْول (١)
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً   تَنَخَّل منها مثل ما نتنخَّل

نموذج من شعره

من عيون شعره مشوبته التى مدح بها الرسول ، ومطلعها :

بانت سعادُ فقلبى اليوم متبُول   مُتَيَّمٌ إثْرها لم يُفْدَ مكبول

ومنها :

وقال كلُّ خليل كنت آمله   لا أُلهينك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبالكمُ   فكلّ ما قدَّر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالَتْ سلامتهُ   يوماً على آلةٍ حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى   والوعد عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الْ   قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم   أذنب وقد كَثُرت فىَّ الأقاويل

ومن قوله :

السامع الذم شريك له   ومُطعم المأكول كالآكل
مقالة السوء إلى أهلها   أسرع من منْحَدر سائل
ومَن دعا الناس إلى ذمه   ذموه بالحقِّ وبالباطل

---

(١) جرول : اسم الحطيئة .

الخنساء

المتوفاة سنة ٢٤ هـ

حياتها

هي السيدة تُمَاضِر بنت عمرو بن الشريد السُّلمية . والخَنْسَاء لقب غلب عليها. نبتتْ في دوحة الشرف ، وازدهرت في روضة الفضل ، فكان أبوها وأخواها معاوية وصخر سادات سُلَيم من مضر . وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها دُريد بن الصِّمَّة سيد هوازن وفارس جُشَم ، فردته وآثرت التزوُّج في قومها ، ولما قوَّض الدهر ركنيْ بيتها بموت أَخَويها معاوية وصخر جزَعَتْ عليهما أشد الجزع ، وبكتهما أحرَّ البكاء ، ورثتهما بأبلغ الرثاء ، ولاسيما صخر لما بلَغه من كثرة إحسانه ، وشدة حنانه ، وقوة جَنانه . ثم وفدت في قومها على الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلمَت ، وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله : هيه يا خُناس ! وكان في الظن أن تُنَهْنِه الخنساء بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها وأخويها تعزياً بالدين وعزُوفاً عن سنة الجاهلية ، إلا أن وجْدها على صخر كان وراء الصبر وفوق العزاء ؛ فلم تزل تبكيه وترثيه حتى ابيضَّت عيناها من الحزن . وكانت تقول : كنت أبكي له من الثار ، وأنا اليوم أبكي له من النار . على أن السن والزمن والدين ما زالت بهذه الكبد القريحة حتى اندملت ؛ فوجدت الخنساء في شيخوختها آسياً من رَوْح الله ومواسياً من فضله ؛ فتقبلت مصرع بنيها الأربعة صابرة محتسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية فاستشهدوا جميعاً . فلم تزد على أن قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته . ثم توفيت بالبادية عام ٢٤ هـ .

شعرها

ليس فى شواعر العرب قبل الإسلام و بعده من تفُوق الخنساء فى رصانة شعرها ، ورقة لفظه ، وحلاوة جَرْسه ، ولربما ضارعت فى هذه الصفات الشعراء الفحول . ويرى النابغة وجرير وبشار أنها أفضل من الرجال ، لما فى شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة . وقدغلب فىشعرها الفخر والرثاء . أما الفخر فلأن أباها أَمْثلُ قومه ، وأخويها خيرا مضر ؛ وأما الرثاء فلفجيعتها فيهم وطول وجْدها عليهم . والأسى يُدق الشعور ، ويرق العاطفة ، ويفتق القريحة فى الرجل ، فكيف به فى المرأة ؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها ، فلما قتلا فاض الدمع من عينها ، والشعر من قلبها ، فأتت فى رثائها بالمعجب المعجز . وظلت الخنساء فى شعرها بدوية جاهلية ، فلم تتأثر بالاسلام كثيراً ولا قليلا .

نموذج من شعرها

قالت ترثى أخاها صخرا :

أعينىَّ جودا ولا تجمُدا ... ألا تبكيان لصخر الندى ؟

ألا تبكيان الجرىء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا !

رفيعَ العماد طويل النِّجا ... دِ ساد عشيرتَه أمردا

إذا القومُ مدوا بأيديهمُ ... إلى المجد مد إليه يدا

فنال الذى فوق أيديهمُ ... من المجد ثم انتمى مُصعِدا

يحمله القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا

وإن ذُكر المجد ألفيته ... تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقالت ترثيه أيضاً :

ألا يا صخرُ إن أبكيتَ عينى فقد أضحكتنى زمناً طويلا
دَفعتُ بك الخطوبَ وأنت حى فمن ذا يدفع الخطب الجليلا ؟
إذا قَبُح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

وقالت ترثى وتفتخر :

تَعَرَّقنى الدهر نهساً وحزًّا وأوجعنى الدهر قرعاً وغمزاً
وأفنى رجالى فبادوا معاً فأصبح قلبى بهم مستفزًّا
كأن لم يكونوا حمًى يُتقّى إذا الناسُ فى ذاكَ من عزَّ بزَّا
وخيلٍ تكَدَّسُ بالدارعين وتحت العجاجة يجمزن جَمْزا
ببيض الصفاح وسُمر الرماح فبالبيض ضرباً وبالسمر وخْزا
جززنا نواصىَ فرسانها وكانوا يظنون ألاَّ تُجَزَّا
ومَنْ ظنَّ ممن يلاقى الحروب بألا يُصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القِرى ونتخذ الحمد ذُخراً وكنزاً
ونلبس فى الحرب نسج الحديد وفى السلم نلبس خزًّا وبزًّا

ومن قولها :

إن الزمان وما يفنى له عَجَبٌ أبقى لنا ذنباً واستُؤصل الراس
إن الجديدين فى طول اختلافهما لايفسدان ولكن يفسد الناس

حسانُ بنُ ثابت

المتوفى سنة ٥٤ هـ

نشأته وحياته

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى ، ولد بالمدينة ونشأ فى الجاهلية ، وعاش على الشعر ، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويتقبل صلاتهم . ولكنه بالغ فى مدح آل جفنة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغدقوا عليه العطايا ، وملأوا يديه بالنعم ، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم ، فجاءته رسلهم تترى بالهدايا من القسطنطينية . ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصح عنه . وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه : مايمنعُ الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها ؟ وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال : والله مايسرنى به مِقْوَلٌ مابين بُصرى وصنعاء ! والله لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شَعر لحلقه ! فقال له النبى : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : « أسُلك منهم كما تسل الشعرة من العجين » . فقال : اهجُهم ومعك روح القدس. فهجاهم فآلمهم وأبكمهم ووقعت كلماته منهم موقع السهام فى غسق الظلام؛ فاشتهر بذلك ذكره ، وارتفع قدره ، وعاش ماعاش موفور الكرامة مَكْفِىَّ الحاجة من بيت المال ، حتى توفى سنة ٥٤ للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة ، وقد كف بصره فى أعقاب أيامه .

شعره

كان حسان فى الجاهلية شاعر أهل المُدن ، وفى البعثة شاعر النبوة ، وفى الإسلام شاعر اليمانية . وكان يغلب فى شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء،

وكلها أغراض تقتضى اللفظ الفخم والأسلوب القوى ، فبدا عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجىء الإسلام . ثم سكنت عوامل الشعر فى نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن ، فما كانت تتحرك إلا ذياداً عن النبى ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين . ولكن كثيراً من شعره فى هذا الطور كان خشيباً ، فكثر به السقط ، وقلت فيه الجزالة ، وغلبت عليه السهولة ، فرأى الأصمعى أن شعره لم يقوَ إلا فى الشر ، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف . وهو فى شعره يضارع ابن كلثوم فى الفخر بقومه والمباهاة بنفسه ، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب .

نموذج من شعره

قال فى الهجاء :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... مغلغلةً فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوتَ محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفء ؟ ... فشركما لخيركما الفداء
لنا فى كل يوم من معدّ ... سبابٌ أو قتال أو هجاء
لسانى صارمٌ لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدره الدلاء
فإنّ أبى ووالدتى وعرضى ... لعرض محمد منكم وِقاء

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخره وعليهم الزبرقان بن بدر ، فلما أنشدوه أمر حساناً أن يجيبهم فقال :

إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تُتَّبع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير مُحْدَثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البِدَع
لايرفع الناسُ ما أوهت أكفُّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهمُ ... فكل سبق لأدنى سبقهم تَبَع
أعفة ذُكرت فى الوحى عفتُهم ... لايطبَعون ولايزْرى بهم طمع
لايفخرون إذا نالوا عدوهمُ ... وإن أصيبوا فلا خوْر ولا جزع

وقال يمدح جَبَلَة بن الأيهم :

لله درُّ عصابة نادمتهم ... يوماً بجِلّقَ فى الزمان الأول
يمشون فى الحُلل المضاعف نسجُها ... مشى الجمال إلى الجمال البُزَّل
والخالطون فقيرهم بغنيهم ... والمشفقون على الضعيف المُرْمل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يَسْقون مَن ورد البريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفّق بالرحيق السلسل
يَسْقون درياق الرحيق ولم تكن ... تُدعى ولائدهم لنقف الحنظل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأول
فلبثت أزماناً طوالاً فيهمُ ... ثم ادَّرَكتُ كأننى لم أفعل

ومن قوله :

وإن امرأً يُمسى ويصبحُ سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال أيضاً :

رُبَّ علم أضاعه عدم الما ... ل وجهل غطى عليه النعيم
ما أبالى أنبَّ بالحَزْن تيسٌ ... أم لحانى بظهر غيبٍ لئيم

الحطيئة

المتوفى سنة ٥٩ هـ

نشأته وحياته

هو أبو مليكة جرْوَل بن أوس العبسى ، وُلد فى بنى عبس دَعِيا لايُعرف له نسب ، ولا يصله بالشرف سبب . فشب محروما مظلوما مذموما لايجد مدداً من أهله ، ولا سنداً من قومه ؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العُدوان وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته . واصطاحت عليه عوامل الشر فجعلت منه صورة للرذيلة ، فكان كما وصفه الأصمعى سيىء الخلق، دنىء النفس، فاسد الدين ، سئولا ، مُلْحفاً ، جشعاً ، كثير الشر ، قَليل الخير ، بخيلا ، دميما ، قصيراً ، رث الهيئة ، متدافع النسب فى القبائل . وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمه وامرأته وبنيه حتى نفسه . فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مزعزع العقيدة ، فلم يستطع الدين أن يرفع هذه النفس الوضيعة ، ولا أن يفُل هذا المقول الجرىء البذىء ، فَرَج لسانه فى أعراض الناس واشتدت وقيعته فيهم . حتى الزبرقان ابن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه ، فمالأ بغيضَ بن عامر خصمه عليه ، ومدح بنى أنف الناقة وذم الزبرقان ، فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر ، فحبسه ، واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره هجاء الناس . فقال . إذن يموت عيالى جوعاً . هذا مكسبى ومنه معاشى . فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه ، ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة ٥٩ هـ .

شعره

الحطيئة شاعر متين الشعر ، غزير البحر ، رائق الأسلوب ، شرود القافية ،

متصرف فى فنون القول ، من مديح وهجاء ونسب ونخر . ولولا خساسة طبعه ، ودناءة طمعه ، وقبح تبذله ، لمافضله فى المخضرمين أحد ، فإنك لاتكاد تجد فى شعره ما يكثر فى شعر غيره من سخافة فى النسج ، أو ركاكة فى اللفظ ، أو نُبُو فى القافية ، ولكن شرف الكلام بشرف قائله .

والحطيئة كزهير معدود فى عبيد الشعر الذين روّوا فيه ونقحوه . وقد يؤثر عنه قوله : « خير الشعر الحولى المنقح المحكك » . وقلما تجد فى هجائه على مرارته فحشاً أو هُجراً ، حتى عمّى على أمير المؤمنين عمر قوله فى هجاء الزبرقان :

دَعِ المكارم لاترحلْ لبُغيتها واقعدفإنكأنت الطاعم الكاسى

فلم يفطن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دله عليه حسان .

نموذج من شعره

قال يهجو الزِّبرِقان بن بدروقد زعم أنه أساء جواره فتحول عنه إلى بغيض :

واللهِ ما معشرٌ لاموا امرَأً جُنباً فى آل لأى بن شمَّاس بأكياس
ما كان ذنبَ بغيض لا أبالكم فى بائس جاء يحدو آخر الناس !
وقد مدحتكمُ عمداً لأرشدكم كيما يكون لكم مَتحى وإمراسى
لما بدا لىَ منكم عيب أنفسكم ولم يكن لجروحى فيكُم آسى
أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم ولن يُرى طارداً للحر كالياس
جارٌ لقومٍ أطالوا هُونَ منزله وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قِراه وهرّته كلابهمُ وجرّحوه بأنياب وأضراس
دع المكارمَ لاترحلْ لبغيتها واقعد فإنكأنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لايعدمْ جوازيه لايذهب العرف بين الله والناس

وقال فى المدح :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها ... وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجِد

أقلُّوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللوم أوسُدُّوا المكان الذى سدوا

أولئك قوم إن بَنوا أحسنوا البِنَا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدوا

مطاعينُ فى الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهمُ آباؤهم وبنى الجد

ويعذلنى أبناء سعدٍ عليهم ... وما قلت إلا بالذى علمت سعد

الشعراء الاسلاميون

عمر بن أبى ربيعة

٢٣ — ٩٣ هـ

نشأته وحياته

هو أبو الخطاب عمر بن أبى ربيعة القرشى المخزومى . ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب ، فكان يقال ،أى حق رُفع ،وأى باطل وضع! ثم شبل فى نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده . وكان سَرِيا غنيا ، فتقلب عمر فى أعطاف النعيم ، ورتع فى رياض الترف ،وخلا ذَرْعه من معالجة الأمور ، ففرغ للشعر وقاله وهو صغير ، فما أبَه له أحد من فحوله كجرير والفرزدق. ومضى وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيَّه حتى ارتاض له وأسلس . فقال جرير وقد سمع رائيته التى مطلعها :

أمِن آل نُعم أنت غادٍ فمبْكر ... غداة غدٍ أم رائح فمُهَجِّر

« مازال هذا القرشي يهذى حتى قال الشعر » . وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة ؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر ، فأولع به المغنون والظرفاء ، وشغف به القيان والندماء ، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الغُيُرُ والزهاد وقال ابن جريج : « مادخل العواتقَ فى خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة » . ولم يقف شرّه عند ذاك ، وإنما كان يتعرض للحواجّ فيشبب بالعقائل والأميرات ، ويصفهن طائفاتٍ مُحرِمات ، فزهدت كرائم الأسَر فى أداء هذه الفريضة خشية منه . وأولو الأمر يتغمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته ، ونخراً بشاعريته ، وترقباً لتوبته . ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه فى المجون ، وإمعانه فى الجهالة ، فنفاه إلى دَهْلَك إحدى جزُر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة ، وقد كانت منفى لبنى أمية ، ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته ، ويخلص إلى الله فى توبته . ولعل بلوغه العمْرين قد أعانه على البر بقسمه ، فزهد وتنسك ومن الناس من يقول إن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف ، ويحوم ولا يرد ؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً ، فقال له عمر : أحسِبك إنما تجزع لما تظنه بى . والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط . فقال : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك ، وقد سَرّيتَ عنى .

شعره

لشعر ابن أبى ربيعة نَوْطةٌ فى القلب ، وروعة فى النفس ، لسهولته وأناقة لفظه ، وحسن وصفه ، وشدة أسْره ، وقرب فهمه ، وملاءمته لهوى النفوس فى نعت الجمال ووصف المرأة . وقد ساعده نسبُه ونَشَبُه وشبابُه وترفُه على أن يقول فى ذلك مالم يجرؤ أحد على قوله ؛ فسلك فى الغزل مسلك القصص : يصف

النساء ويحكى حديثهن ومداعبتهن ويذكر أمره معهن . فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر ، وقد كانوا ينكرونه عليها . وبرع الشعراء حتى قال جرير : « هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار ! » . على أنك لا تجد فى شعره ما تجد فى شعر جميل وكثيّر من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب ، وإنما هو تِبْع نساء يسره أن يخالطهن ويحادثهن ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن ؛ اللهم إلا أمرَه مع الثريا بنت على ابن عبد الله بن الحارث فإنه يشبه أن يكون حبًّا .

نموذج من شعره

قال من قصيدة فى التشبيب :

تحنّ إلى نُعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر
قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيرىّ الذى كان يذكر ؟
أهذا الذى أطريت نعتاً فلم أكن ... وعيشك أنساه إلى يوم أُقبَر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغير !
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فيُضْحى وأمّا بالعشى فيَخْصر
أخا سفر جوّابَ أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر
قليلا على ظهر المطيــة ظلّه ... سوى ما يقى منه الرداء المحبَّر
وأعجبها من عيشه ظلّ غرفة ... وريّانُ ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها ... فليست لشىء آخر الليل تسهر
وليلة ذى دوران جشمنى السُّرى ... وقد يجشم الهولَ المحبُّ المغرّر
وبتّ رقيباً للرفاق على شفا ... ولى مجلسٌ لولا اللبانة أوعر

فقلت أباديهم فإما أفوتهم ... وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شُبَّتْ للعشاء وأنور
وغاب قُمَير كنت أرجو غيوبَه ... وروّح رعيانٌ ونوَّم سمَّر
ونفَّضت عنى النوم أقبلت مِشيَة الـ ... حَبَاب وركنى خيفةَ القوم أزْور
فحييت إذ فاجأتها فتوَّلتْ ... وكادت بمهجور التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان : فضحتنى ! ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أرَيْتكَ أن هُنَّا عليك ألم تخف ... رقيباً وحولى من عدوك حضر
فلمـــا تقضى الليل إلا أَقلَّه ... وكادت تَوَالى نجمه تتغوّر
أشارت لأختيها آعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يُقَدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا : ... أقِلّى عليك اللومَ فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكراً ... فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر
فـكان مجنّى دون من كنت أتقى ... ثلاثُ شُخوص : كاعبان ومُعْصِر
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى : ... ألم تتق الأعداء والليل مقْمِر ؟
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً ... أما تستحى أو ترعوى أو تفـكر !
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا ... لـكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
هنيـئاً لبعل العامرية نَشْرها ... اللذيذ وريَّاها الذى أتذكر

ومن قوله :

ألا ليت أنى يوم تُقضى منيتى ... لثمت الذى مابين عينيك والفم !
وليت طَهورى كان ريقك كلّه ... وليت حنوطى من مُشاشك والدم
ألا ليت أمَّ الفضل كانت قرينتى ... هنا أو هنا فى جنة أو جهنم

وكتب إلى الثريا وهى باليمن :

كتبت إليكِ من بلدى … كتابَ مُوَلَّهٍ كَمِدِ

كئيب واكف العَيْنَيْـ … ـن بالحسَرات منفرد

يُؤَرِّقه لهيب الشـو … ق بين السَّحْر والكبِد

فيُمسك قلبَه بيـد … ويمسح عينَه بيـد

الأخطل (١)

المتوفى سنة ٩٥ هـ

نشأته وحياته

هو أبو مالك غِيَاث بن غوث التغلبي : نشأ بالجزيرة الفراتية فى قومه بنى تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة . وفجع فى أمه وهو صغير ، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته . فشب سليط اللسان خبيث النية مدمناً للخمر . و بدت بواكير شعره منذ الحداثة ، فهاجَى كعب بن جُعَيل شاعر تغلب فأخمله وهبَّ ذِكره يسير . ولما طلب يزيدُ بن معاوية وهو ولىّ العهد من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن بن حسان لأخته فى شعره ، خشى الأنصارَ ودله على الأخطل رجاة أن يفتكوا به ، فكان ذلك سبباً فى صعود نجمه وذيوع اسمه . فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا ، وشكوه إلى معاوية فحكّمهم فيه ، فطلبوا قطع لسانه . ولكن يزيد ترضاهم فعفوا عنه . وعرف له خلفاء بنى أمية هذه اليد فقدموه وأكرموه ، وبخاصة عبد الملك بن مروان ، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لما لأنهم أعداءه من آل الزبير ، فسهَّل عليه

(١) راجع صفحة ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

حجابه ، ووطّأ له جنابه ، وأغدق عليه عطاءه ، وسماه شاعر الخليفة: وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفى عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمراً فيدخل عليه بغير إذن . أما دخوله فى المهاجاة بين جرير والفرزدق ، فسببه أنه عرّض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر . فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها :

يا ذا الغباوة إن بِشراً قد قضى ألاّ تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الأخطل فى شىء من الضعف لتقدم سنه وفتور طبعه . وقد اعترف بذلك جرير فى قوله لابنه : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلنى » وما زال الأخطل أثيراً عند بنى أمية حتى أقصاه عمر بن عبد العزيز .

وكان يعيش حيناً فى دمشق وحيناً فى بلاده الجزيرة ، وتوفى فى أول خلافة الوليد سنة ٩٥ بالغاً من العمر سبعين سنة .

شعره

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين فى هذا العصر ، وهم جرير والفرزدق وهو . وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيرهم ذِكراً ، ولكن اختلفوا فى أيهم أشعر إخوته . والحق أن لكل منهم مزية وميزة .

فالأخطل ممتاز بإجادة المدح ، ونعت الخمر ، وقلة البذاء فى الهجاء ، وسلامة قصائده الطوال من اللغط والسّقط ، ومرود طبعه على الروية والتنقيح : فقد يلبث فى بعض مدائحه سنة . وربما بلغت قصيدته تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث . وأبتْ عليه طبيعته المرِحة أن يقول فى الرثاء ؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات فى رثاء يزيد بن معاوية ، وهو سبب شهرته وأصل نعمته . وكان فخوراً بنفسه ، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى ، ولذلك كان يجرى على أسلوبه.

نموذج من شعره

قال يمدح عبد الملك بن مروان :

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا … أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائرهُ … خليفة الله يُستسقى به المطر
فى نبعة من قريش يعصمون بها … ما إن يوازَى بأعلى نبتها الشجر
حُشدٌ على الحق عيّافو الخنا أُنفٌ … إذا ألمَّتْ بهم مكروهة صبَروا
لا يستقلُّ ذوو الأضغان حربَهم … ولا يُبَيّنُ فى عيدانهم خَوَر
شُمْسُ العداوة حتى يستَقادَ لهم … وأوسع الناس أحلاماً إذا قدَروا
هم الذين يبارون الرياح إذا … قلّ الطعام على العافين أو قتَروا
بنى أميـــة نُعماكم مجلّلَةٌ … تمت فلا منَةٌ فيها ولا كدر

وقال يهجو الأنصار :

وإذا نسبتَ ابن الفريعة خلتَه … كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصابةً … بالجزع بين صُلَيْصِل وصرار
قوم إذا هدر العصير رأيتهم … حمراً عُيونُهُم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها … وخذوا مساحيكم بنى النجار
ذهبت قريش بالمفاخر كلها … واللؤم تحت عمائم الأنصار

ومن قوله :

والناس همهم الحياة ولا أرى … طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد … ذخراً يكون كصالح الأعمال

الفرزدق(١)

المتوفى سنة ١١٠ هـ

نشأته وحياته

هو أبو فراس همام بن غالب التميمى . كانت ولادته ونشأته بالبصرة، فدرج فى عش الأدب وشب فى ربوع الفصاحة . وأخذ أبوه يروِّيه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتقت عنه قريحته ، وانطلق به لسانه ؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين علىّ بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره . فقال له عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له . فارتسمت هذه الكلمة فى ذهن الفرزدق حتى كبر ، فصمم على حفظ القرآن ، فقيد نفسه وأقسم ألا يفك حتى يحفظه ؛ وبرّ بيمينه . ثم اتصل بولاة المصرين فنالهم بالمدح والهجاء ، وأجازوه بالإدناء والإقصاء . ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولا سيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشيعه لآل علىّ . وكان الفرزدق معاصراً لجرير وكان بينهما تنافس وتحاسد . فما كاد يحتدم الهجاء بين جرير وبين شاعر آخر اسمه البَعيث حتى وقف الفرزدق فى صف البعيث وآزره . فغاظ ذلك جريراً فهجا الفرزدق ، ورد عليه هذا . فاستطار بينهما الهجاء عشر سنين ، ففتق ذهنيهما ، وأحدّ لسانيهما ، ونمى فيهما قوة المبادهة والمجادلة ، وصدق النظر . وانشعب الناس فى أمرهما شعبتين ، تناصر كل منهما أحد الشاعرين . وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جرير ، وكان الفرزدق فاجراً ، فاحش النطق ، خبيث الهجاء ، ضعيف الدين ، قاذفاً للمحصنات ، يأوى إلى ركن شديد من شرف حسبه ، وكرم نسبه . فاستعان بكل رذائله وفضائله على جرير فما هزمه ولا أسقطه .

---

(١) راجع صفحة ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٦٠ .

ثم كانت له مواقف محمودة فى الذود عن آل علىّ تجلت فيها صراحته وشجاعته ، كموقفه يوم التقى بهشام بن عبد الملك فى الحج ، وسمعه يقول حينما رأى على بن الحسين فى موضع التجلة من الناس : (من هذا ؟) تجاهلا لأمره ، وغضا من قدره . فشق ذلك على الفرزدق ، فأجابه بقصيدته التى مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته　　　والبيت يعرفه والحِلُّ والحرم

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه . وتوفى الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠هـ وقد شارف المائة .

شعره

كان الفرزدق فخوراً بأصله مدِلاً بأهله ، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء ، فغلب شعره فى الفخر ؛ ولغة الفخر تقتضى الألفاظ الضخمة ، والأساليب الفخمة ، والكلم الغريب ، وذكر أيام العرب وأنسابهم ، واحتذاء البادين فى أساليبهم . لذلك أعجب به الرواة ، وفضله النحاة ، وقالوا : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية . على أنه طالما تألم من صلابة شعره ؛ وتمنى أن تكون له رقة جرير لفُهْره ، ولجرير صلابته لطهره . وفى ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر .

والفرزدق بعد ذلك فى الهجاء مقذع ، وفى الوصف مبدع ، وفى المديح وسط ، وفى الرثاء متخلف .

نموذج من شعره

إذا اغبرَّ آفاقُ السماء وكشَّفت　　　بيوتاً وراء الحىّ نكباءُ حَرْجَفُ

وأصبح مُبْيَضُّ الصقيع كأنه　　　على سَرَوَات النّيب قطنٌ مندَّفُ

ترى جارنا فيه بخير وإن جنى   فلا هو مما ينطف الجار ينطف
وكنا إذا نامت كليب عن القِرى   إلى الضيف نمشى بالعبيط ونلحف
لنا العزة القعساء والعدد الذى   عليه إذا عدَّ الحصى يتخلف
ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا   وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وإنك إذ تسعى لتدرك شأونا   لأنت المعنَّى ياجرير المكلَّفُ

وقال أيضاً :

ومستمنح طاوى المصير كأنما   يساوره من شدة الجوع أولق
دعوت بحمراء الفروع كأنها   ذرَى راية فى جانب الجو تخفق
وإنى سفيه النار للمبتغى القِرى   وإنى حليم الكلب للضيف يطرق
إذا مت فابكينى بما أنا أهله   فكل جميل قلتِ فىَّ يصدَّق
وكم قائل مات الفرزدق والندى !   وقائلة مات الندى والفرزدق

ومن قوله فى مدح على بن الحسين :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحِلُّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقىُّ النقىُّ الطاهر العلم
وليس قولك (مَنْ هذا) بضائره   العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها   إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
يُغضِى حياء ويُغضَى من مهابته   فما يكلم إلا حين يبتسم
يكاد يمسكه عرفانَ راحته   رُكنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
ينشقُّ نور الهدى عن نور غرته   كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
من معشر حبُّهم دين وبغضهمُ   كفرٌ وقربهمُ منجًى ومعتصَم

ومن أبياته السائرة قوله :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسُبني ... كأن أباها نهشل أو مُجاشع

وقوله :

وكنا إذا الجبار صعّر خده ... ضرَبناه حتى تستقيم الأخادع

وقوله :

تُرَجّى ربيع أن يجيء صغارها ... بخير وقد أعيا ربيعاً كبارُها

وقوله :

قوارص تأتيني وتحتقرونها ... وقد يملأُ القطرُ الإناء فيُفعِمِ

وقوله :

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جِنّاً إذا ما نجهلُ

وقوله :

ترى كل مظلوم إلينا فرارهُ ... ويهرب منا جهدَهُ كلُّ ظالم

جرير (١)

المتوفى سنة ١١٠ هـ

نشأته وحياته

هو أبو حزْرة جرير بن عطية الخَطَفي التميمي . ولد باليمامة لسبعة أشهر ، ونشأ بالبادية ، فشبّ فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر . ولما آنس في نفسه القدرة على قرضه ، والجرأة على عرضه ، ورد البصرة موطن الفرزدق ينتجع الكرماء ، ويمتدح الكبراء ، ويمتار لأهله . فازدهاه ما رأى على الفرزدق من حُلل النعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر ، وهو تميمي مثله ، فدب في قلبه دبيب الحسد له ، واشتهى أن يساويه في حسن حاله ، ووفرة ماله .

(١) راجع صفحة ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

فتولدت من تنافسهما وتزاحمهما أسباب المهاجاة بينهما . وأراد جرير أن يرامى قِرنه عن كَثَب ، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد[١] . ودخل فى كنف الحجاج لحسن موقعه عنده ، وطارت مدائحه فيه ، حتى بلغت عبد الملك فَنَفِسه على الحجاج . وأحس الوالى رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق ، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى ، وقال له بلهجة العاتب الحنِق : إنما أنت للحجاج ! فما زال يتوسل إليه ، ويتحمل بالناس عليه . حتى أنشده قصيدته التى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هَمّ صحبك بالرواح ؟

فلما وصل إلى قوله منها :

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

تبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن وما زلنا كذلك . وأجازه بمائة لقحة وثمانية رِعاء ؛ وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل آثَرَ الشعراء عند الخلفاء ولا سيما عمر بن عبد العزيز ، ولكن زُلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة فى قلوب مناظريه ، فشنوا عليه حرب الهجاء ، وأرّثَ هذه الحربَ أغراضُ السياسة ، وتحريضُ الفرزدق ، وضيق خلق جرير ، وحب الناسِ لمشاهد الخصومة ؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً[٢]

---

(١) المربد سوق من أسواق البصرة كانت تعرف بسوق الإبل ثم عمرها الناس واتخذوها فى زمن بنى أمية منتدى للشعر والخطابة ، فألفت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة ، ومجالس الأدب والمذاكرة وأمها الشعراء والأشراف والرواة وطبقات شتى من الناس كل يوم المنافرة والمحاكمة وتأريث نار الخصومة بين الشعراء ، وكان لفحولهم فيها حلقات خاصة أشهرها حلقة الفرزدق والراعى .

(٢) ظفر جرير بهؤلاء جميعا بلسانه ، فلا هو ذو نسب كريم يعده بالفخر . ولا ذو عترة قوية تساعده بالهيبة ، وهذا سر تفوقه وسبب تفضيله ، روى صاحب الأغانى أن رجلا قال لجرير من أشعر الناس ؟ فقال له : قم حتى أعرفك من هو ، ودخل به بيت أبيه عطية وقد أخذ عنزة فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به : أخرج يا أبت ؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته ، فقال جرير : أتعرف من هذا الرجل ؟ قال الرجل لا ؛ قال هذا أبى ، كان يشرب من ضرع العنز مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . وإن أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقاز عليهم .

إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعاه الغلبة وثبتا له . ودامت هذه المهاجاة سجالا بينهم حتى توفى الأخطل ، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائض[1] المشهورة التى لهج بها الناس ، وشغل بها الشعراء ، ثم بدا للفرزدق أن يكف ، فكف وتنسك حتى مات . فمضى جرير لسبيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة ١١٠ هـ .

شعره

برىء جرير من خبث الأخطل وسُكره ، ومن جفاء الفرزدق وفجره ، وتجمل بصفاء الطبع ، ورقة الشعور ، ونقاء الجيب ، وصحة الدين ، وحسن الخلق ، فظهر أثر ذلك كله فى شعره ، فامتاز بطلاوة الأسلوب ، وحلاوة الغزل ، ومرارة الهجاء ، وإجادة الرثاء ، وحسن التصرف فى جميع فنون الشعر . فكان بذلك أظهر فى سماء الشعر ، وأقرب إلى صفة الشاعر ، وأكثر أشياعاً من الأخطل والفرزدق . فإن الأول لم يُجد إلا فى المدح والهجاء والخمر ، والثانى لم ينبغ إلا فى الفخر .

نموذج من شعره

قال يهجو الفرزدق :

لقد ولدت أمُّ الفرزدق مُقْرِفاً ... فجاءت بوزَّار قصير القوادم

بوصِّل حَبْلَيْهِ إذا جَنَّ ليله ... ليرقى إلى جاراته بالسلالم

تدلَّيْتَ تزنى من ثمانين قامة ... وقصَّرْتَ عن باع العلى والمكارم

هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجس بالخبيثات عالم

(١) سميت بذلك لأن أحدهما يقول القصيدة فينقضها عليه الآخر ملتزما فيها ما التزمه صاحبه من الوزن والقافية .

لقد كان إخراج الفرزدق عنكم طهوراً لما بين المصلى وواقم[1]

ومن جيد قوله فيها :

تعالوا نحاكمكم وفى الحق مقنع إلى الغرّ من أهل البطاح الأكارم
فإن قريش الحق لم تتبع الهوى ولم يرهبوا فى الله لومة لائم
أذكركم بالله مَنْ ينهل القنا ويضرب كبش الجحفل المتراكم ؟
وكنتم لنا الأتباع فى كل موقف وريش الذُّنابى تابع للقوادم
إذا عُدت الأيام أخزيت دارما وتخزيك يا ابن القين أيامُ دارم
وما زادنى بُعد المدى نَقْض مِرَّة ولا رقّ عظمى للضروس العواجم

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قَدَرا كما أتى ربَّه موسى على قدَر
أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت أم تكتفى بالذى بلِّغت من خبرى
ما زلت بعدك فى دار تعرَّقنى قد طال بعدك إصعادى ومُنْحدرى
لا ينفع الحاضرُ المجهود بادِينا ولا يجود لنا بادٍ على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به مسًّا من الجن أو رزءاً من البشر
ممن يعدُّكَ تكفى فَقْدَ والده كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر

ومن أبياته التى تفرد بها قوله فى الغزل :

إن العيون التى فى طرفها حَوَر قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

---

(١) واقم حصن من حصون المدينة .

يصر عَنْ ذا اللب حتى لاحراك به ‏ ‏ ‏ وهن أضعف خلق الله إنسانا

وقوله فى الفخر :

إذا غضبت عليك بنو تميم ‏ ‏ ‏ حسبت الناسَ كلهمُ غِضابا

وفى الهجاء :

فغض الطرف إنك من نمير ‏ ‏ ‏ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفى التهكم :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ‏ ‏ ‏ أبشر بطول سـلامة يامربع ؟

ومن جيد فخره قوله :

إن الذى حرم المكارم تغلبا ‏ ‏ ‏ جعل الخلافة والنبوة فينا

مُضَرٌ أبى وأبو الملوك ، فهل لكم ‏ ‏ ‏ ياخزر تغلب من أب كأبينا ؟

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ‏ ‏ ‏ لو شئت ساقكمُ إلىّ قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال : ما زاد ابن المراغة على أن جعلنى شُرَطياً . أما إنه لوقال : لو شاء ساقكم إلىّ قطيناً ، لسقتهم اليه !

الطرِمّاح بن حكيم

المتوفى سنة ١٠٠ هـ

نشأته وحياته

نشأ الطِّرِمَّاح بن حكيم الطائى بدمشق فى النصف الأخير من القرن الأول. وظل فى الشام غفلا من الأغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع مَنْ وردها من جنود بنى أمية ، ونزل فى تيم اللات بن ثعلبة . وكان فيهم شيخ من

الشراة[1] الأزارقة له سمت وهيئة ، فكان يجالسه و يلابسه ؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته ، فقبلها واعتقدها أشد اعتقاد وأصحه حتى لقى الله عليها . ثم عرف الكميت بن زيد الأسدى ، فتساها الوفاء ، وتقاسما المحبة ، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما فى النسب والمذهب والبلد . فالطرماح قحطانى شامى خارجى ، والكميت عدنانى كوفى شيعى . وقد سأل بعض الناس الكميت عن سر هذا الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب : « إنما اتفقنا على بغض العامة » وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتينى القائل : « كل الشعراء أرستقراطيون[2] » . وعاش الطرماح عيش الشعراء على فضل الأغنياء يمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه ، وهو مع ذلك عزيز النفس ، شريف الطبع ، بعيد الهمة لم يَقِفه المال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان . دخل هو والكميت على مخلد بن يزيد المهلبى ، فجلس لهما ودعاهما ، فتقدم الطرماح لينشد ، فقال له : أنشدنا قائماً . فقال : « كلا والله : ما قَدْرُ الشعر أن أقوم له فيحط منى بمقامى وأحط منه بضراعتى ، وهو عمود الفخر ، و بيت الذكر لمآثر العرب » فقيل له : تنحَّ ودع الكميت ، فأنشد الكميت قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرج شاطرها الطرماح وقال له : أنت أبا ضبيبة أبعد همة ، وأنا ألطف حيلة .

وكان الطرماح مع اعتداده بأمره وإعظامه لقدره ، معجباً بشعره فخوراً به . سمع هو وصاحبه الكميت أبياتاً من ذى الرمة ، وكان معاصراً لهما ، فضرب

(١) الشراة : الخوارج ، وهم طائفة ممن كانوا مع الإمام فى حرب صفين ، حملوه على قبول التحكيم بينه وبين معاوية فقبله ، ولكن التحكيم جرى على غير الحق فأباه ؛ فخرجوا عليه وقالوا له لم حكمت الرجال ؟ لا حكم إلا لله ، وكبار فرق الخوارج ست : الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والأباضية ، والثعالبة ، والباقون فروعهم ، وكلهم يجمعون على البراءة من عثمان وعلى ؛ ويقدمون ذلك على كل طاعة ، ويكفرون أصحاب الكبائر ، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة أمراً واجباً . ويزيد الأزارقة الذين ينتمى إليهم الطرماح تكفير على وتصويب فعل ابن ملجم قاتله ، وقد غلوا حتى كفروا الصحابة وسائر المسلمين ، وصاحبهم هو نافع بن الأزرق .

(٢) Oal Profanum vulgus ét arceo

الكميت صدر الطرماح وقال : « هذا والله الديباج لانسجى ولا نسجك الكرابيس » فقال الطرماح : « لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته » .

وكان الطرماح رغيب العين يشره إلى المال ، ويتشوف إلى الغنى ويقول :

أَمُخْتَرِمِي رَيْبُ المنون ولم أَنَلْ ... من المال ما أعصى به وأطيع ؟

فدأب فى سبيله وجدَّ فى تحصيله ، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت ميتة الجاهدين أو المجاهدين ، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين .

وفى ذلك قوله :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذفٌ ... به وبنفسى العام شتى المقاذف
لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى ... من الله يكفينى عِدات الخلائف
فيارب إن حانَتْ وفاتى فلا تكن ... على شَرْجَعٍ(١) يُعلَى بخضر المطارف
ولكنَّ قبرى بطنُ نسر مقيلُه ... بجو السماء فى نسور عواكف
وأمسى شهيداً ثاوياً فى عصابة ... يصابون فى فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزَّالون عند التراجف
إذا فارقوا دنيا همو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما فى المصاحف

ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش وحمل فى نعش .

شعره

نشأ الطرماح نشأة حضرية ، فما عرف البادية ولا لابس البدو . ولكنه عاش فى الكوفة وألَمَّ بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثرون الأدب الجاهلى ويقدمون الشعر البدوى ، لأنه موضع الشاهد ، وموطن الغريب ، فولد ذلك فيه

---

(١) الشرجع : النعش .

وفى الكميت حب الغريب وتكلف الحوشى ؛ فكان يتسقطه من الأعراب ويتلقطه من الرُّجَّاز ، ويستعمله فلا يقع به فى مكانه . قال العجاج : كان الطرماح والكميت يسألاننى عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه فى شعرهما وقد وضعاه فى غير موضعه . فقيل له : ولم ذلك ؟ فقال : لأنهما قرويان يصفان مالم يريا . ومن ثمّ كان الأصمعى وأبو عُبيدة يعيبان شعرهما فى الإسلاميين ، كما عابا شعر عدى بن زيد وأمية بن أبى الصلت فى الجاهليين . وإنك لترى أثر هذا الميل ظاهراً فى شعره ، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة ، إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجَّة ، فيشوه شعره ويكدر بحره . وقد سئل بن الأعرابى عن ثمانى عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة ! على أنه معدود فى الفحول من الشعراء الإسلاميين ، وله مذهب معروف فى الهجاء يركب له المبالغة فى تصغير شأن المهجوِّ وتحقير أمره فكأنما يوحى إليه . وكان الكميت وهو معاصره ومعاشره يُقِرُّ له بالنبوغ فى نواح كثيرة من نواحى الفضل ، فقد أنشد يوماً قول الطرماح :

إذا قُبِضتْ نفس الطرماح أخلقتْ   عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال : إى والله ! وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة .

نموذج من شعره

الطرماح من أصحاب الملحمات ، وملحمته تريك التفاوت بين السهل الطبيعى والوعر المتكلف ، ومطلعها :

قلَّ فى شطِّ نهروانَ اغتماضى   ودعانى هوى العيون المراض
فتطرَّبْتُ للصبا ثم أوقف   ت رضاً بالتقى وذو البر راضى
وأرانى المليك رشدى وقد ك   ت أخا عنجهيَّةٍ واعتراض
غير ما ريبةٍ سوى ريِّق الغرة(م)   ثم ارعويت بعد البياض

ومنها :

وجرى بالذى أخاف من البين (م) لعين تنوض كلّ مناض
صَيْدحيُّ الضحى كأن نَساه حيث تجتث رجله فى أباض
سوف تدنيك من لميسَ سَبَنْتَا ةٌ أمارت بالبول ماء الكُراض
فهى قوداء أنْفَجَتْ عضداها عن زحاليفِ صفصف ذى دحاض

ويقول فى آخرها :

إننـــا معشر شمائلنا الصبْـ ر إذا الخوف مال بالأخفاض
نُصُرٌ للذليل فى ندوة الحى مرائيب للثأى المنهاض
لم يَفُتْنَا بالوتر قومٌ وللضـ يم رجالٌ يرضون بالإغماض
فسلى الناس إن جهلت وإن شئـ ت قضى بيننا وبينك قاضى

ومن قوله :

لقد زادنى حبًّا لنفسىَ أننى بَغيضٌ إلى كل امرىء غير طائل
وأنى شقىٌّ باللئام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائل

ومن قوله يهجو بنى تميم :

لو حان وِرد تميم ثم قيـل لها حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو أنزل الله وحياً أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لاعز نصر امرىء أضحى له فرس على تميم يريد النصر من أحد
لو كان يخفى عَلَى الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد

النـــثر

الخطابة

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التى بلغت بالخطابة غاية كمالها ، وجعلت الأمر فى أيدى رجالها . فإن الدعوة إلى الدين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقمع الفتن ، ورد البدع ، وتحميس الجند ، كل أولئك من أغراض الخطابة . وكان لها من آى القرآن وحججه مَعين لا ينضب ، ومدد لا ينفد . ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفرَق رقت الخطابة رقياً عظيما ، لاعتماد كل حزب عليها فى نشر نحلته ، وتأييد دعوته .

وأهم مايميزها فى هذا العصر عذوبة ألفاظها ، ومتانة أسلوبها ، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه فى الإرشاد والإقناع ، وابتداؤها بحمد الله والصلاة على رسوله .

وظل العرب على ما ألِفوه فى الجاهلية من لَوْث العمامة واتخاذ المِخْصرة والوقوف على نشز من الأرض ، والخطبة من قيام ، إلا الوليد بن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس .

وجملة القول أن ليس فى عصور اللغة عصر زها بالخطابة وحفِل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها ، واعتمادهم فى الدين والسياسة عليها .

أشهر خطبائه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون ، وسَحبان وائل ، وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، وقطَرِىّ بن الفُجاءة .

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

مولده ونشأته وبعثته

وُلد سيدنا محمد بن عبد المطلب بن هاشم القرشى فى مكة صباح اليوم التاسع أو الثانى عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، أو اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ للميلاد، فى مهد اليُتْم والعُدْم، فقد استوفى أبوه ظِمْء حياته حين كان هو جنيناً. ولم يكد يحبو للسادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه، فحضنه جده سنتين حضانة إعزاز ومحبة. ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبى طالب شقيق أبيه، فكفله على رقة حاله وكثرة عياله. ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعادِ الجاهلية، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه، فكمله بالعقل الرجيح، والخلق السجيح، والنفس الرضية، والحياة الوقور، والحلم الرفيق، والصبر المطمئن، والصفح الجميل، واللسان الصادق، والذمة الوثيقة، والجأش القوى، والفؤاد الجميع. ثم طهره من أرجاس الوثنية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل مما ذبح على النُّصُب، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلا، وسمت نفسه الكبيرة على حداثتها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده، فتصرف فى التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده. وشاعت له فى الناس فضائل الصدق والحذق والأمانة، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل القرشيين وغنياتهم أن يتجر فى مالها، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرته وربحت صفقته. ثم ارتد إلى مكة فهزّ من عِطف السيدة ما رأت من جزالة الرِّبح وأمانة الرابح فخطبته إلى نفسها، وهى فى سن الأربعين وهو فى حدود الخامسة والعشرين، فرضى زواجها، وخطبها عمه إلى عمها، وكان لها من جليل الأثر فى الإسلام سهم ربيح. ثم مضى الرسول يضرب فى الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله، وينمى

ثروة زوجه ؛ ونفسه عازفة عن مُتَع الحياة ، صادفة عن لذاذة العيش ، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب ، بل كان يُخلى ذرعه من صوارف الدنيا الليالى الطوال فيعتكف فى غار حراء يتعبد ويتأمل ، ويتجه بروحه الصافى اللطيف إلى الملأ الأعلى حتى أُوحى إليه فى هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر . فانقلب إلى زوجه مضطرباً فطمأنته وقالت له : والذى نفس خديجة بيده لا يخزيك الله أبداً ! إنك لتصل الرحم ، وتصْدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكَلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . وفتر الوحى مدة ، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقول الله تعالى : (يٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج فى طى الخفاء . ثم أُمر أن يصدع بالدعوة ، فعالن بها قريشاً وسفَّه أحلامها ، وعاب أصنامها ، فكاشفوه بالعداء ، وقصدوه بالإيذاء ، ونصبوا له الحبائل ، وتربصوا به الدوائر ، وهو يتلقى كل ذلك بِجُنَّةِ الصبر وعدَّة الإيمان ، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه ، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه ، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين . وفى السنة العاشرة من رسالته فجعه الموت فى ذلك العم النبيل ، وفى تلك الزوجة الفاضلة فى يومين متقاربين ، فاشتد عليهما حزنه ، وحرج بعدهما فى مكة مقامه . فانتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة — وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج — فأحس المشركون منه هذا العزم فائتمروا به ليقتلوه . ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل . فبلغاها يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده ، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م . فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته . واستمر يجاهد المشركين : يجادلهم بالقرآن ، ويجالدهم بالسيف ، حتى انحسر العمى وانجاب الشرك ، وعلت شمس التوحيد فى أفق الوجود . وحينئذ نزل قول الله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا) فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الإثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية ، ٨ من يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية .

صفته

وصفه بعض من رآه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطولَ من المربوع[1] وأقصر من المشذب ؛ عظيمَ الهامة ، رجِلَ الشعر ، إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمةَ أذنيه إذا هو وَفره ؛ أزهرَ اللون ، واسعَ الجبين ، أزجَّ الحواجب سوابغَ من غير قَرن ، بينهما عِرق يُدِرُّه الغضب ، أقْنى العرنين له نور يعلوه ، ويحسبه من يتأمله أشمَّ ؛ كثَّ اللحية ، أدعجَ ، سهلَ الخدين ، ضليع الفم ، أشنب مفلَّجَ الأسنان ، دقيق المَسْرُبة ، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة ؛ معتدلَ الخلق بادناً متماسكا سواءَ البطن والصدر ، بعيدَ ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أشعرَ الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويلَ الزندين ، رحبَ الراحة ، شثْن الكفين والقدمين ، سائلَ الأطراف ، سَبْطَ العصب ، خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء . إذا زال زال تقلعاً ، ويخطو تكفؤاً ، ويمشى هوناً . ذريعَ المِشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافضَ الطرف ، نظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء . جُل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام . وكان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ؛ دمثاً ليس بالجافى ولا المَهين . إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلّبها ، وإذا تحدث

(١) أنظر شرح هذا كله فى آخر الكتاب .

اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه . جُلّ ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام » .

فصاحته

تقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أخلص القبائل منطقاً وأعذبها بياناً؛ فوُلد فى بنى هاشم ، ونشأ فى قريش ، واسترضع فى بنى سعد . فكان أفصح العرب لساناً بالفطرة . وقد حدّث بذلك عن نفسه فلم يُزَيف حديثه ولم يُدفع قوله . وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض ، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتَض لها ، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعانى فلم يَنُدّ فى لسانه لفظ ، ولم يضطرب فى أسلوبه عبارة ، ولم يعزب عن علمه لغة ، ولم يَنْبُ عن خاطره فكرة وكان كلامه كما قال الجاحظ : الكلامَ الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف . استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السُوقى، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُدّ بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين عن فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم .

أثر الحديث فى اللغة والأدب (١)

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية فى اللغة وآدابها فأبْيَنُ من أن يُبيَّن ، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع

(١) راجع صفحتى ١٠٨ و١٠٩ .

وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحى ، فكان يقتضب ويتجوز ويشتق ، وينهج المذاهب البيانية ، ويرتجل الأوضاع التركيبية ، ويضع الألفاظ الاصطلاحية ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسرًّا من أسرار اللسان ، يزيد فى ميراث اللغة ، ويرفع من قدر الأدب . كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حَتْفَ أنفه[1] . الآن حمى الوطيس . هُدنة على دَخَن . ياخيل الله اركبي . لا ينتطح فيها عنزان . وقوله لحادى النساء رويدك ! رفقاً بالقوارير . وقوله فى يوم بدر : هذا يوم له ما بعده . ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب .

عمر بن الخطاب

نشأته وحياته

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشى بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة ، ونشأ نشأة الفتيان من قريش ، فرعى الماشية صغيراً ، ومارس التجارة والحرب كبيراً ، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه ، فتعلم الكتابة ، وتقلب فى التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً ، والشام والعراق شمالا حتى فخم أمره وعظم قدره . واشتهر فى الناس ببلاغة اللسان ، وثبات الجنان ، وقوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، فجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب فى السلم والحرب . ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه . ولجَّ فى الخصومة والإنكار على متَّبعيه ، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين رجلا وثلاث عشرة

---

(١) روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ماسمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله (ص) . وسمعته يقول : مات حتف أنفه وماسمعتها من عربى قبله : فورودها إذن فى لامية السموءل المشهورة دليل على أن هذه القصيدة منحولة كلها أو بعضها .

امرأة يجتمعون سراً فى دار الأرقم المخزومى ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز الإسلام به أو بأبى جهل ، فاختاره الله لهذه السعادة ، وشرح صدره للشهادة . وذلك أنه دخل على خَتَنِه يؤنبه ويعذبه على إسلامه . فَلَحَتْه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه ، فلما قرأها تعظمتْ فى صدره وقال : أمِن هذا فرّت قريش ؟ ثم سأل أين الرسول ؟ فقيل له فى دار الأرقم . قال عمر : « فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم . فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا عمر ! قال : وعمر ! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه ، وإن أدبر قتلناه . فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج ، فتشهدت ، فكبّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة . قلت يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال بلى ! قلت : ففيم الاختفاء ؟ فخرجنا صفين أنا فى أحدهما وحمزة فى الآخر حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إلىّ و إلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة . فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ » .

كان ذلك وسنه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه ، وعادى فى الله صديقه ونسيبه ، حتى تسلّل المؤمنون لِواذاً إلى المدينة فارّين من العذاب والفتنة . فلم يشأ عمر الجرىء الباسل أن يخفى هجرته ، وإنما تقلد سيفه وتنكّب قوسه وأتى الكعبةَ ،وأشراف قريش بفنائها، فطاف وصلى ، ثم أقبل عليهم وقال : « شاهت الوجوه ! من أراد أن تَثْكله أمه ويَيْتمَ وَلَدُه وترملْ زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ! » فلم يتبعه أحد .

ولم يزل مع رسول الله الصاحبَ الأمين يؤيده بسنانه ولسانه ، ويرى له الرأى فيقره القرآن فى بعض الحوادث ، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة ، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة . وقام منه فى خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضى العدل ، حتى حضر الموتُ أبا بكر فلم يجد غيره من يعهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص ، وعزمة القوى الشجاع ،

وحنكة الشيخ المجرب ، وحكمة العبقرى الأريب ، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر ، وطفق وحده وهو فى قلب الصحراء الجديبة يدبره ويسوسه . فيولى الولاة ، ويختار القضاة ، ويُنَصِّب القواد ، ويحرك الأجناد ، ويبعث الأمداد ، ويرسم الخطط ، ويخطط المدن ، ويسن السُّنن ، ويقسم الفىء ويقيم الحدود ، مما ينوء بالحكومات ويلتوى على المجالس . وكل ذلك فى سداد رأى وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم . وكل ذلك وهو يفترش الغبراء ، ويعايش الدهماء ، ويتدثر بالثوب الخَلَق ، ويأتدم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين فى اليوم . ولا تزال خلافته مثلا من المُثل العليا فى النظام والعدل والأمن . ولكن عمر الذى أرضى الله والناس بعدله وفضله ، لم يُرْض عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة ، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه المغيرة بن شعْبة ، وألا يستكثر عليه درهمين فى اليوم يؤديهما إليه ، وهو نجار ونقاش وحداد ، فاحتقد عليه هذه النصيحة ، ودبّ إليه فى الغلس وهو قائم يصلى بالناس فى الفجر فطعنه بخنجر ذى نصلين طعنات ٍ كانت سبب موته . وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ .

صفاته ومواهبه

كان أمير المؤمنين عمر طويلا جسيما ، أبيضَ شديد الحمرة ، أصلعَ أشيبَ ، خفيف شعر العارضين ، أصهب طرف السبال كبيرَه . وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هَوادة . وقلَّ مَن سلم من كبار الصحابة وأشراف القبائل من دِرَّته (عصاه) . وكان مُحْصَدَ الرأى ، محْكمَ الحيلة ، مُوثَّق الحجة ، شديد الورع ، طاهر اليد ، واسع العلم ، حافل الخاطر بالحكمة ، بارع الفقه فى الدين ، إذا ذكرتَ علياً ببلاغة اللسان ذكرته هو ببلاغة العقل . وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فترى منه الفقيه المجتهد ، والإدارى

الحازم والسياسى المحنك ، وكل ذلك دون تلقين ولا وحى ولا اقتداء ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

نموذج من عهوده وخطبه

ذلك عهده إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء ، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك !

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس ، سلامٌ عليك . أما بعد فإن القضاء فريضةٌ محكمة وسنة متبعَة . فافهم إذا أُدلى إليك فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذ له . آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيْفك ، ولا ييأسَ ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرم حلالا . لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد ، أو مُجَرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . وإياك والغلق والضجرَ والتأذّىَ بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظِم الله به الأجرَ ويحسن به الذخر ؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ والسلام .

ومن خطبة له رضى الله عنه :

أيها الناسُ ! إنه أتى علىّ حينٌ وأنا أحْسِبُ أنَّ مَن قرأ القرآنَ إنما يريد اللهَ وما عندَه . ألا وإنه قد خُيِّلَ إلىَّ أن أقواماً يقرءون القرآنَ يريدون ما عندَ الناس . ألا فأريدوا الله بقراءتِكم وأريدُوه بأعمالِكم ، فإنما كنَّا نعرفُكم إذ الوحيُ ينزلُ ، وإذ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ أظْهُرِنا ، فقد رُفع الوحيُ وذهبَ النبيُّ عليه السلام ، فإنما أعرِفُكم بما أقولُ لكم : ألاَّ فَمَن أظْهر لنا خيراً ، ظننا به خيراً وأثنيْنا به عليه ، ومن أظهرَ لنا شراً ظَنَنَّا به شراً وأبغضناه عليه .

اقْدَعوا هذه النفوسَ عن شهواتِها فإنها طُلَعة . وإياكم ألاَّ تقدَعوها تنزِعُ بكم إلى شرِّ غاية . إنَّ هذا الحقَّ ثقيلٌ مرىء ، وإنَّ الباطلَ خفيفٌ وبىء ، وترْكُ الخطيئةِ خيرٌ من معالجةِ التوبةِ .

على بن أبى طالب

المتوفى سنة ٤٠ هـ

ولد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ، وربى مع الرسول فى بيته تخفيفاً عن أبيه . ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان علىٌّ مراهقاً ، فآمن به وشب على حبه ، وتغلغلت أصول الدين فى قلبه ، وخاطر بنفسه فى سبيل الرسول ليلة هجرته ، وأبلى البلاء الحسن فى تأييده ونصرته ، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلَّفه النبى فيها على أهله . فلما لحق الرسول بربه كان علىٌّ يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصهر . فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهده من بعده عمر ، وأخطأته الشورى إلى عثمان ، ناوص الجرةَ ثم سالمها ، متحاملا فى كل ذلك على نفسه . وقتل عثمان فبايعه الناس فى الحجاز ، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وقعود علىّ عن القتلة .

وكان ما كان من الفتنة التى حلّت العُقَد ، وأوهنت العُرى ، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتتلتا حيناً من الدهر . ثم قرت السيوف فى الأغماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين . وائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة : معاوية وعمرو بن العاص وعلى . فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجَم ، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً .

أخلاقه ومواهبه

كان علىّ كرم الله وجهه قوى العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالى أوَقع على الموت أم وقع الموت عليه . وكان حُجة فى الفقه ، قُدوةً فى الورع ، شديد الشكيمة فى الحق ، قوى الثقة بالنفس ، لا يعرف الهوادة فى الدين ولا المرونة فى الدنيا ؛ فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية فى الخلاف عليه . ولا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من على فى المنطق ، ولا أبلّ ريقاً فى الخطابة . كان حكيما تتفجر الحكمة من بيانه ، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه ، وواعظاً ملء السمع والقلب ، ومترسلا بعيد غور الحجة ، ومتكلما يضع لسانه حيث شاء . وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام المنشئين ، وخطبه فى الحث على الجهاد ، ورسائله إلى معاوية ، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا ، وعهده للأشتر النخعى إن صح ذلك ، تعد من معجزات اللسان العربى ، وبدائع العقل البشرى . وما نظن ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول ومِرَانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة فى سبيله .

نموذج من كلامه

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة . الخطب والأوامر ، والكتب والرسائل ، والحكم والمواعظ . وقد جمعها على هذا النسق الشريفُ الرضى

فى كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق : « يفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرب عليه طلابها ، فيه حاجة العالم والمتعلم ، وبغية البليغ والزاهد ، ويضىء فى أثنائه من الكلام فى التوحيد والعدل ماهو بلال كل غلة ، وجلاء كل شبهة» والصحيح أن أكثر مافى هذا الكتاب منحول مدخول .

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أى الأمرين أرشد . فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال : هذا جزاء من ترك العقدة ! أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قوّمتكم ، وإن أبيتم تداركتكم ، لكانت الوثقى . ولكن بمن وإلى من ؟ أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى ، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلْعها معها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوىّ ، وكلت النزعة بأشطان الركىّ ! أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرأوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فوَلهوا وَله اللقاح إلى أولادها ، وسلبوا السيوف أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحْفاً زحْفاً ، وصفاً صفاً ، بعض هلك ، وبعض نجا ، لا يُبَشَّرون بالأحياء ، ولا يعزّوْن بالموتى . مُرْه العيون من البكاء ، خُمْص البطون من الصيام ، ذبْل الشفاه من الدعاء ، صفْر الألوان من السهر ، على وجوههم غَبرة الخاشعين . أولئك إخوانى الذاهبون ! فحقّ لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدى على فراقهم .

إن الشيطان يُسَنِّى لكم طُرقه ، ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة ، ويعطيكم بالجماعة الفرقة . فاصدفوا عن نزغاته ونفثاته ، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم واعقلوها على أنفسكم .

ومن كلام له عليه السلام :

إلا وإن الخطايا خيل شمْسٌ حُمِل عليها أهلها ، وخُلعت لجمها فتقحّمت بهم

فى النار . وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمِل عليها أهلها ، وأُعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنة . حقٌ وباطل ، ولكلٍّ أهل . فلئن أمر الباطل فقديماً فعل ، ولئن قلّ الحق فلربما ولعل ، ولقلّما أدبر شيء فأقبل . شُغل مَنِ الجنة والنار أمامه . ساعٍ سريعٌ نجا ، وطالبٌ بطيء رجا ، ومقصر فى النار هَوى ، اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هى الجادّة ، عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منفذ السنة ، وإليها مصير العاقبة

سحبان وائل

المتوفى سنة ٥٤ هـ

نشأته وحياته

نشأ سحبان بن زفَر بن إياد فى الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة ، ثم دخل فى الإسلام عند ظهوره ، واتصل بمعاوية ، فحسُن موقعه لديه ، واعتمد فى يوم الكلام عليه . وكان سحبان خطيباً غَمْر البديهة ، قوى العارضة ، متصرفاً فى فنون الكلام ، كأنما يتلو عن ظهر قلبه . وبه يُضرب المثل فى كل ذلك .

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده فى منزله . فاقتُضب من حيث كان وأدخل عليه . فقال له معاوية : تكلم . فقال: أحضروا لى عصا . قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه . فضحك معاوية وأمر له بها . فلما جاءته ركلها ولم ترق فى نظره ، فجاءوه بعصاه ، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى فيه شيء . فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان : لا تقطع علىّ كلامى ! فقال معاوية : الصلاة ! قال

هى أمامك ! نحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد . فقال معاوية ! أنت أخطب العرب ، قال سحبان : والعجم والجن والإنس . وهذه الحادثة تدل على قوته وجُرأته وغزارة بحره ، ومعرفته لقدره . ولكن المأثور من خطبه قليل فى جانب شهرته . ولعل خلوه من الجاه والرياسة ، وبعده عن الأحزاب والسياسة ، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه . كانت وفاته فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ .

نموذج من خطبه

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار . أيها الناس خذوا من دار ممرِّكم ، إلى دار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ؛ واخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس ماترك ؟ وقالت الملائكة ما قدم ؟ فقدموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلفوا كُلاًّ يكون عليكم .

زياد بن أبيه

المتوفى سنة ٥٣ هـ

نشأته وحياته

كان للحارث بن كَلدَة الثقفى طبيب العرب أَمَةٌ بَغِىٌّ تدعى سَمَيَّة ، وعبد رومى يسمى عبيداً . فزوَّج العبد من الأمَة . فولدت على فراشه زياداً فى السنة الأولى من الهجرة ! وقد ضرَبَتْ فيه بِعرق أشِبٍ فنشأ أريباً أديباً . ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته ، فاستكتبه أبوموسى الأشعرى والى البصرة من قِبَل عمر ، فتجلى نبوغه وظهر حذقه . ثم تقلبت به الأمور فى عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله « لا لخيانة ولا لعجز ، وإنما كره

أن يحمل على الناس فضل عقله » على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره فيكفيه غيرَ عاجز ولا مقصر . وخطب بين يديه يوما فى حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها . فقال عمرو بن العاص : لله در هذا الغلام ! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه . وبلغ من إعجاب أبى سفيان به أن اعترف بعد إسلامه لعلية قريش وفيهم علىٌّ أن زياداً ابنه ، اشتملت عليه أمه منه وهومشرك ، ولـكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه . ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين علىّ وجد فى زياد اليد المصَرَّفة ، والرأى الجميع ، واللسان الذرب ، فاستعمله ، فراض له الأمور ، وسد الثغور ، وأحكم السياسة . وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل علىّ ، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له ، فصار يدعى بعد ذلك زياد بن أبى سفيان . ولـكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب ، ثم ولاه معاوية المصرين ، وهو أول من جمعا له فـكان يقيم فى البصرة ستة أشهر وفى الـكوفة مثلها . كانت وفاته بالطاعون سنة ٥٣ هـ .

أخلاقه ومواهبه

كان زياد من ذوى الأحلام الوافرة والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق ، قال فيه الشعبى : ماسمعت متـكلماً على منبر قط تـكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسىء إلا زياداً ؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً » .

وزياد من أقوى العمدَ التى قام عليهاعرش بنى أمية . رمى به معاويةُ وجوه الفتن فلمّ الشعث وشدّ السلطان ، واشتد فى العقوبة ؛ فأخذ بالظنَّة ، وعاقب على الشبهة ، وقتل المعلن ، واستصلح المسرَّ ، وخافه الناس خوفا شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً ، وحتى كان الشىء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، ولا يغلق أحد بابه . وهو أول من أعلن الحـكم العرفى

فى الإسلام بخطبته المعروفة بالبتراء[1] وهى التى خطبها حين قدم البصرة .

نموذج من كلامه : خطبة البتراء

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغىّ المُوفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم . من الأمور التى يَنْبُتُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . إنه ليس منكم إلا من طرفتْ عينه الدنيا .وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تُسبقوا إليه ، مِن تركِكم الضعيفَ يُقهر ، والضعيفة المسلوبة بالنهار لاتُنصر ، والعدو غير قليل ، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟! قربتم القرابة ، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر ، وتغضُون على النُكر ، كل امرىء منكم يرد من سفيهه صنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً ! ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً فى مكانس الريبِ ، حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسوِّيها بالأرض هدماً وإحراقاً . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وإنى لأقسم بالله لآخذنّ الولى بالمَوْلى والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : أنْجُ سعدُ فقد هلك سُعيد ، أو تستقيم قناتكم . إن كذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم عَلَى بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ واعلموا أن عندى أمثالها ، من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب

---

(١) سميت كذلك لأنه لم يحمد الله فيها ؛ والبتراء المقطوعة المشوهة .

من ماله . فإياى ودلَج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم ، وإياى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلاقطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن أغرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه. ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه . ومن نبش قبراً دفناه فيه حيًّا . فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى . ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامّتكم إلا ضربت عنقه . وقد كان بينى وبين قوم إحَنٌ فجعلت ذلك دَبْرَ أذنى وتحت قدمى . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لى صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم . وأعينوا على أنفسكم ، فرُبَّ مبتئس بقدومنا سيُسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا . ولكم علينا العدل فيما وَلينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. وأيم الله إن لى فيكم لصَرْعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من صَرْعاى!

الحجاج بن يوسف

٤١ — ٩٥ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٤١ فى مهد الخمول والفقر . فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف ؛ إلا أن نفسه الرغيبة الطامحة ربأت به عن الضّعة فلفت إليه بذكائه رَوْحَ بن زنْباع الجذامى أحد أعوان عبد الملك بن مروان

فجعله فى شُرْطته . ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى رَوح بن زنباع فدله عَلى الحجاج ، فقلده إمرة الجند فسلكهم فى النظام وردهم إلى الطاعة . ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد الله بن الزبير ، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز ، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه . فثبتت كفايته وسمت مكانته فى نفس عبد الملك ، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة ، و يضطرم بثورة الخوارج ، فعسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم ، وطأطأ إشرافهم ، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعثر فى أشلائهم ، ويخوض بهم فى دمائهم .

و بقى طول حياته بالعراق دِعامةً لمُلك عبدالملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين . ثم مات بواسط سنة ٩٥ هـ .

أخلاقه ومواهبه

كان الحجاج طماحاً إلى السلطان والمجد ، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة ، وتذرّع لنيلهما بالفصاحة والقوة ، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر ، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة . قال له عبد الملك يوماً : كل امرىء يعرف عيوب نفسه ، فصفْ نفسك ولاتخْفِ عنى شيئاً . فقال : « أنا لجوج حقود حسود . ومتى كانت هذه الصفات فى متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا » وكان فصيحاً قوى الحجة لا يكاد يعدله فى ذلك أحد من أهل زمنه . قال مالك بن دينار : « ما رأيت أحداً أبيْن من الحجاج : إنه كان لَيرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين » مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً ، وتُوفى وفى سجونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة .

نموذج من خطبه

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد مُعْتَمًّا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، وصعد المنبر وهو متقلد سيفه مُتنكب قوسه ، ومكث ساعة لا يتكلم . فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية إذ تستعمل مثل هذا على العراق ! وَهمَّ عُمَير بن ضابىء البُرجمى أن يرجمه ، فمنعه الناس حتى يروا عاقبة أمره . فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاَّع الثنايا متى أضعِ العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة ! إنى لأرَى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ! وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى !

هذا أوان الشد فاشتدّى زِيَم قد لفّها الليلُ بسوّاق حُطَم
ليس براعى إبلٍ ولا غنم ولا بجزّار على ظهر وَضم

قد لفّها الليل بعَصْلَبىّ أروَع خَرَّاج من الدوِّىِّ
مهاجر ليس بأعرابى

قد شمَّرت عن ساقها فشدُّوا وجدّت الحربُ بكم فجدُّوا
والقوسُ فيها وَترٌ عُرُدٌّ مثلُ ذِراع البكر أو أشدّ
لا بدّ مما ليس منه بُدّ !

إنى والله يا أهل العراق ما يُقَعقَعُ لى بالشنان ، ولا يُغمزُ جانبى كتَغْماز التين . ولقد فُرِرتُ عن ذكاء ، وفُتّشْتُ عن تجربة . وإن أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه ، نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرَّها عوداً

وآصلبها مكسِراً فرماكم بى . لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال .

والله لأحزمنكم حزْم السَّلَمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فرَيْت . وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أَعْطياتِكم وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلّب بن ابى صفرة . وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه .

الكتابة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتّاباً بالطبع يُملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب مُوجز ولفظ فصيح . فلما امتدّت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفيء اضطرهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدوّنها عمر . ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمتعربين . وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصر : ففي العراق وفارس بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين[١] فحوّلت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد[٢] .

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالي ، وفي هؤلاء مَنْ وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أوشكت أن تصير بها صناعة .

أما أساوبها فكان جزلَ الألفاظ ، فخم التراكيب ، واقفاً عند الغرض ، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة ، جارية فيه الضمائرُ على قانون الوضع ، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد . وكانت تُبدأ بالبسملة وقولهم : من فلان إلى فلان ، أما بعد . أو إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . وتختم بالسلام ، أو بقولهم : والسلام على من اتّبَع الهدى . فلما ولي الخلافة الوليد ابن عبد الملك أمر بتجويد القراطيس ، وتفخيم الخطاب ، وألا يكاتبَ بمثل ما تكاتب به السوقة . وجرى العمل على ذلك من بعده ، حتى استخلف

---

(١) المراد بالدواوين هنا دواوين الخراج لأن دواوين الجند ودواوين الرسائل كانت تكتب بالعربية منذ وضعت .

(٢) نقل ديوان الخراج في العراق صالح بن عبد الرحمن في ولاية الحجاج ، ونقله في الشام أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وأما في مصر فأول من وليه ابن يربوع الفزاري الحمصي في خلافة الوليد بن عبد الملك أيضاً :

عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك ، فحملهما الورع ومقتُ البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف .

على أن نظام الكون وطبيعة الناس فى هذا العهد أبيَا هذا الجمود ، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب فى الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات فى أولها وتبعه فى ذلك سائر الكتاب . وجملة القول أن النثر فى أربعين سنة خطا فى سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة ، فانتقل من السجعات القصيرة المفككة ، والمعانى العامة المجملة ، إلى هذا الأسلوب المحكم الفقر ، المطرد السياق ، المختلف الغرض ، العميق الأثر ، كما ترى فى رسائل الإمام علىّ وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر .

الكتاب

عبد الحميد بن يحيى

نشأته وحياته

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلالة غير عربية ، ونسب إلى بنى عامر نسبة وَلائية . ثقفَ الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سره ، ثم أخذ يمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولايته على أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة . فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد . فقال له مروان · لم لا تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ؟ فقال : إذن تطير معى . قال : الآن طاب السجود . وسجد . فاتخذه مروان كاتب دولته . ولما هاله خفوق الألوية السود ودنوُّ أبى مسلم وتتابع الفشل قال لعبد الحميد : قد احتجت أن تصير مع

عدوى ، وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك : تحوجهم إلى حسن الظن بك . فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمى بعد مماتى . فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك ، وأنشد :

أُسِرُّ وفاء ثم أظهر غَدرة فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره ؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر ، فلجأ إلى صديقه عبد الله بن المقفع بالبحرين ففاجأه الطلب وهو فى بيته . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا . مخافة على صاحبه . وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً : ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات ، فوكّلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجّهكم فيذكر له تلك العلامات . ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل سنة ١٣٢ هـ .

أثره فى الكتابة

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ، ولا تحور إلى فن ولا تعد فى الصناعات الشريفة . فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهيأة إلى فن من الكتابة جديد ، فإن تشعّب أطراف الدولة ، وبدوّ ثمار الحضارة ، وزهوّ النثر والخطابة ، ودنوّ العربية من الفارسية ، وتخرُّجَ عبد الحميد على سالم مولى هشام ، وصلته الوثيقة بابن المقفع ، كانت سبباً فى ظهور هذا النمط الجديد فى أسلوب عبد الحميد . فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب ، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال ، وتفنن فى البدء والختام مطابقة للغرض ، وأطال التحميدات فى صدور الرسائل ، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول مميزة الفصول مبيَّنة القواعد .

أسلوبه

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافى الديباجة ، يسبى المشاعر و يفعل بالألباب فعل السحر . وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراسانى أبى أن يقرأ الكتاب الذى كتبه إليه عن لسان مروان يستجابه به ويستميله ، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره ؛ وكتب على جُذاذة منه إلى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغةَ وانتحى   عليك ليوثُ الغاب من كل جانب

نموذج من نثره

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويقَ استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا مولّية ، فملُح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة ، والطير بارحة . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً ؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا . و إن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار ، والذل شر جار . نسأل الله تعالى الذى يعز من يشاء و يذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين .

وقال من وصيته للكتّاب ، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة ، وأن الكتّاب أصبحوا جماعة .

. . . . . . و إياكم والكِبْرَ والسُّخف والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحْنَةٍ ، وتحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالتى هى أليق لأهل

الفضل والعدل والنبل من سلفكم . وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته .

وكتب فى التوصية بشخص : حقّ موصل كتابى عليك كحقه علىّ ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلاً لحاجته . وقد أنجزت حاجته ، فصدّق أمله .

نماذج من النثر

الحكم

من حكم أبى بكر رضى الله عنه قوله :

صنائع المعروف تقى مصارع السوء . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغى والنكث والمكر .

ولعمر رضى الله عنه : من كتم سره كان الخيار فى يده . مُرْ ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى .

وقال على كرم الله وجهه : رأى الشيخ خير من جَلَد الغلام . الناس أعداء ما جهلوا . قيمة كل امرىء ما يحسن .

الخطب

خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال :

أيها الناس ! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم . وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ؛ فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى فلا يدرى ما الله فاعلٌ به ،

وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات . فوالذى نفسُ محمد بيده ، ما بعد الموت من مستَعْتَب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة والنار .

وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار فى أمر الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة فى العرب . وأمسّهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمنا قبلكم ، وقُدّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (والسَّابِقُونَ الأوَّلون مِنَ المهاجرينَ والأنصَارِ والذينَ أتبَعوهم بإحْسانٍ) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفيء ، وأنصارنا على العدو . آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء . لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش . فلا تنفَسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أهل المدينة ! إنى لا أحب أن تكونوا خلْقاً كخلْق العراق : يَعيبون الشيء وهم فيه . كل امرىء منهم شيعة نفسه . فاقبلونا بما فينا . فإن ما وراءنا شرٌّ لكم ، وإن معروف زماننا هذا منكرُ زمان مضى ، ومنكرُ زماننا معروف زمان لم يأت . ولو قد أتى فالرَّتْقُ خير من الفتق ، وفى كلٍّ بلاغ ، ولا مقام على الرزية .

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم قال :

يا أهل العراق ! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والشغاف ، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ ، ثم ارتفع

فعشّش ، ثم باض وفرّخ ، فحشا كم نفاقاً وشقاقاً . وقد اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤمّراً تستشيرونه . فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم وقْعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو يردكم إيمان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز ، حيث رُمتم المكر وسعيتم بالغدر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطرْفي وأنتم تتسللون لِوَاذا ، وتنهزمون سراعاً . ويوم الزاوية ! وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتكم الرماح ! ويوم دير الجماجم ! وما دير الجماجم ؟ بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله . ياأهل العراق ! أهل الكفرات والغَدَرات ، والثورة بعد الثورات ! إن أبعثكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم ، لاتذكرون خشية ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفكم ناكث واستغواكم غاوٍ واستنصركم ظالم واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه ؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كنتم أشياعه وأنصاره ؟ ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام ! إنما أنا لكم كالظليم الذابّ عن فراخه ، ينفى عنها المدَر ، ويبعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر . يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء ، وأنتم العدة والغطاء !

الرسائل

كتب أبو عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينصحانه :

من أبي عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك،

فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت وقد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، ولكل حصة من العدل . فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك . وإنا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه ، وتجبُ له القلوب ، وتنقطع فيه الحجج ، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون له ، يرجون رحمته ويخافون عقابه . وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمانها أن يكون أخوانُ العلانية أعداء السريرة . وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا ، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام .

وكتب عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه :

أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك . وذلك أنك ابتدأتنى بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء من غير جريرة ، فأطمعنى أوّلك فى إخائك ، وأيأسنى آخرُك من وفائك . فلا أنا فى اليوم مجمعٌ لك أطراحاً ، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف ، أوافترقنا على اختلاف ، والسلام .

الوصايا

أوصى علىّ بن أبى طالب ولده الحسن قال :

احفظ عنى أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العُجب ، وأكرم الحسب حسن الُخلق . يا بنى ! إياك ومصادقة الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . وإياك ومصادقة البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوجَ ما تسكون إليه . وإياك ومصادقة الفاجر ، فإنه

يبيعك بالتافه . وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ، ويبعد عنك القريب .

وأوصى قيس بن عاصم المِنْقَرى بنيه عند احتضاره قال :

يا بنىّ احفظوا عنى ثلاثا ، فلا أحد أنصح لكم منى : إذا أنا مت فسوّدوا كبارکم ، ولا تسوّدوا صغاركم ، فيحقر الناس كبارَكم وتهونوا عليهم . وعليكم بحفظ المال ، فإنه منْبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم . وإياكم والمسألة فإنها أخس كسب الرجل .

اللحن ونشوء العامية

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحّدت فى الجاهلية لغات العرب ، وتمثلت لهجاتها فى لغة قريش ؛ فلم يبق إلا بعض اللحون على أطراف المنطق . فلما جاء الإسلام ، ونزل بها القرآن ، وكان من بنيها النبىُّ الكريم والقائمون بالأمر بعده ، تمت لها الغلبة . فخضعت لها الألسنة ، وهويت إليها الأفئدة ، وأصبحت لسانَ النبوة والملك ، ولغة الحضارة والعلم ، فى أقطار المسلمين كافة . ولما كان الإسلام انقلابا عظيما له تأثيره فى الأخلاق والطباع ، وتغييره فى السياسة والاجتماع ، لم يكن للغة بُدٌّ من الخضوع له والتأثر به ، فاتسعت مادتها وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين ، وأنظمة الملك ، ومقتضيات الحضارة ، ومصطلحات العلوم . وتهذبت ألفاظها ورقت أساليبها بما أثر فى طباع القوم من بلاغة القرآن ، وبشاشة الإسلام ، وجمال المدنية ، وتنوُّع المناظر الحضرية[1] .

ثم كان من أثر الإسلام فى حياة العرب أيضا أن محا العصبية ، وأزال

---

(١) للحضارتين الفارسية والرومية السهم الأوفر فى تهذيب اللغة وإصلاحها أيام الأمويين ، فقد اتخذ المسلمون نضائد الحرير وسطور الديباج وزادت حاجاتهم ومرافقهم فزادت معها الألفاظ ، ورقت حواشيها برقة المعيشة ورفاهتها .

الفوارق الاجتماعية وغير مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة ، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة ، وضم نَشْرَهم تحت راية جامعة . ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف ، فأوطأهم ديار كسرى وقيصر ، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب . ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد ، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادى الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر . واستفاضت على ألسنة المسلمين[1] أحمرهم وأسودهم ، والمتعربين أدناهم وأبعدهم ، وليس فى مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق أن ينطقوا بها كأهلها ، فارتضخوا أنواعاً من اللكنة ، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ ، علقت بألسنة المستضعفين من العرب والناشئين منهم بين الموالى . ولذلك ظهر اللحن فى الحواضر والمدن دون البادية ، فقد بقيت اللغة على خلوصها فيها حتى آخر القرن الرابع . بدت أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول (ص) ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا فى الدولة الأموية فُشُوًّا تناول الخلفاء والخاصة . وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط . على أن كل ذلك لم يعصم اللغة ولم يصُد عنها عادية اللحن ، فأمعن العامة فى التصحيف والتحريف حتى جعلوا اللغة لغتين : لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هى الآن .

النحو

يروى المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هو واضع مبادىء النحو ،

(١) قال ابن خلدون : « ولما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها فى جميع ممالكها ؛ لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه . فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام وطاعة العرب . وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأقطار والممالك وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة » .

وأن السبب الذى حداه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا فى ذلك أنه دخل يوماً على زياد بن أبيه وهو والى العراقين، فقال له: «أصلح الله الأمير! إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم. أفتأذن لى أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم؟» فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: «أصلح الله الأمير. توفى أبانا وترك بنون ...» فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول، وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التى تصلحها. ثم تناوله منه أدباء البصرة والكوفة فكملوه وفصّلوه كما سنذكر ذلك بعد. والغالب فى ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يرجح أنه ألمّ بالسريانية (وقد وُضع نحوها قبل نحو العربية) أو اتصل بقساوستها وأحبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. وعلى أية حال فإن أولية النحو لاتزال مجهولة.

العلوم فى العصر الأموى

لم تكن نفوس العرب مهيّأة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضرورى الموروث كالطب والنجوم. حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة، وتشعبت عليهم الأقضية، وضعوا النحو لضبط القرآن، والتفسير لحل مشكله، والفقه لاستنباط الأحكام منه، ودونوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتعاله.

واقتضت حُنكة معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا فى تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم [1]، فألف عَبَيْد بن شَرْيَة كتاب

---

(١) ذكر المسعودى أن معاوية كان يجلس لأصحاب الأخبار فى كل ليلة من العشاء إلى ثلث الليل، فيقصون عليه أخبار العجم والعرب وسياستهم فى رعاياهم ومكائدهم فى حروبهم ثم ينام ثلث الليل ويقوم فتأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها، فيقرأون عليه ما بها من سير الملوك وأخبار الحروب وأنواع السياسات.

الملوك وأخبار الماضين لمعاوية ؛ وربما كتب غيرُه غيرَه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه . أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تعنِ أحداً فى هذا العصر ، اللهم إلا خالد ابن يزيد حفيد معاوية ، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله فى الملك ، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها .

وجملة القول فى هذا العصر أن كان فيه نُضج الآداب الجاهلية ، ونشوء العلوم الإسلامية ، وبداية النقل من العلوم الأجنبية .

الخط بعد الاسلام

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود . فلما كتب الله النصر للمسلمين على قريش فى يوم بدر وأُخِذَ بعض كتابهم أسرى ، قَبِل الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء أن يفتدى كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، فكثر سواد الكاتبين من أهل المدينة . وشاعت الكتابة بعد ذلك فى العرب إطاعةً لأمر الرسول ، ورغبة فى كتابة القرآن ، وطمعاً فى دخول الدواوين ، وانتشرت معهم فى الأقطار المفتوحة :

وكان الخط فى أول أمره خالياً من الإعجام والشكل ، حتى فشا اللحن وخيف منه على القرآن ، فضبط أبو الأسود الدؤلى فى زمان معاوية أواخر الكلام فى المصاحف بالنقط ؛ فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله ، وعلامة الضمة نقطة بين يديه . واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بمداد مخالف . فلما تغايرت أشكال الخط ، وتشابهت أوضاع الحروف ، فالتبست الجيم[1] بالحاء ، والدال بالذال ، والسين بالشين ، أمر الحجاج نصر بن

---

(١) من أمثال ذلك أن عجوزاً جاءت الفرزدق وقالت له : إنى استجرت بقبر أبيك . فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : إن تميم بن زيد خرج بابن لى ولا قرة اعينى ولا كاسب على سواه

عاصم ويحيى بن يعمر تلميذى أبى الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذى تكتب به الكلمة تمييزاً للحروف بعضها من بعض . ثم جاء بعد ذلك الخليل بن أحمد وضع الشكل على هذا النمط المعروف ، فحل نقط أبى الأسود[1] .

وفى العصر العباسى ناله ما نال كل شىء فيه من النمو والتقدم . فقد تنافس الكتّاب فى تجويده ، وتفننوا فى تنويعه . وخالفوا بين أوضاعه فى بغداد وأوضاعه فى الكوفة ، باختراع الأقلام المختلفة كالقلم المرصع ، وقلم النساخ ، والقلم الرياسى (نسبة إلى مخترعه ذى الرياستين الفضل بن سهل) . ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نيفت أشكال الكوفى على عشرين شكلا . أما الخط النسخى فقد كان مستعملاً بين الناس فى غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو على محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ فجود هذا الخط ونمقه حتى تميز من أصله بالحسن والجودة ، واستعمل فى كتابة المصاحف وأدخل فى الدواوين . وجاء بعده على بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ فزاد فى تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفى . ثم تنوع الخط النسخى إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قَطّته أربع وعشرون

= فقال ، وما اسم ابنك ؟ قالت : خنيس . فكتب إلى تميم :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتى ... بظهر فلا يعيا على جوابها
وهب لى خنيساً واحتسب فيه منة ... لعبرة أم لا يسوغ شرابها

فشك تميم فى اسم الرجل (خنيس) واستقرى أسماء رجاله فوجد ستة أسماؤهم بين خنيس وحنيش وحبيش الخ فوجههم إليه .

(١) اقتصرت الأمم السامية فى خطوطها على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية ، فلا يكتبون (نصر) (ناصارا) كما يفعل اليونان والرومان والأمم الأوربية الآن ، ودلوا فى مؤتنف الزمن على الأحرف المحذوفة من الكلمة بنقط فوق الحرف أو تحته على نحو ما فعل أبو الأسود فى الخط العربى . ولكن الخليل بن أحمد إن صح أنه واضع الشكل المعروف لم يستعمل النقط فى الدلالة على الحركات . وإنما استعمل الحروف الصوتية المحذوفة وهى الألف والواو والياء ، فاختصر من الألف الفتحة ، ومن الواو الضمة . ومن الياء الكسرة . فالحركات كما قال الإمام الرازى أبعاض المصوتات . أما العلامات الأخرى كالمدة والوصلة والشدة فقد وضعت فى العصر العباسى بعد زمن الخليل . وهى رءوس كلمات تؤدى معانيها ؛ فالمدة (~) من (مد) ، والوصلة (صـ) من (صل) ، والشدة (ّ) من (شد) .

شعرة من شعر البرذون . أو ثلاثة ملليمترات ، (والثلثين) وعرضه ملليمتران ، (والنصف) وقياسه ملليمتر ونصف . (والثلث) وعرضه ملليمتر واحد . ثم تتدرج الأقلام فى الدقة ، فيجىء خفيف الثلث ، فاللؤلؤ ، فالتوقيع ، فالرقاع ، فالمحقق ، فالغبار ، وهو أدقها ، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها . ولايزال الخط العربى يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة فى النشوء والرقى . وكثير من الأمم التى استضاءت بنور الإسلام واستعزت بلغته يكتب به ، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية .

على أن اقتصار العرب فى خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية قد أوقع القارىء فى لبس شديد ، فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به فتركوه فأصبح القارىء إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلا لا يدرى كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه فى سياق الكلام . فهو يقرأ : عَلِمَ أو عُلِم أو علم أو عُلِّمَ أو عَلَم أو عِلْم .ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربى ، حتى غلا بعضهم فدعا إلى إتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة . وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبتكر طريقة للخط العربى تكمل نقصه وترفع قصوره فجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف ، ولكنها لم تصب الغرض الذى نصبه المجمع ، فألف فى عام ١٩٥٩ لجنة من بعض أعضائه ومن ذوى الاختصاص بوزارة التربية والتعليم فى الجمهورية العربية المتحدة فلبت الأمر على جميع وجوهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت باتباع الشكل كاملا فى كتب التعليم الابتدائى ثم يقل بالتدريج فى المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات ، وبرأيها أخذ المجمع .

الباب الثالث

العصر العباسى[1]

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبى الذى بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعدُ . أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزَهت الآداب العربية ، ونُقلت العلومُ الأجنبية ، ونضج العقل العربى فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير . وملوك هذه الدولة يُنْمَوْنَ إلى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، انتزعوا الخلافة قَسْراً من يد الأمويين بمعونة الفُرس ، وأقاموا عرشها بالعراق ، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة فى خمسة قرون وبعض القرن ، حتى ثلّ ذلك العرشَ هَلاكو سنة ست وخمسين وستمائة ، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها ، حتى سقطت بسقوطها .

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسية وعمرانية كان لها الأثرُ الظاهر فى أدب اللغة : فالدولة الأموية كانت عربية خالصة ، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم ، وجعلت قاعدتَها دمشق على حدود باديتهم . وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب ، فلم يحدث فى أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضُّر واتساع العمران .

---

(١) ينسب هذا العصر إلى العباسيين على وجه من التغليب لقوة أثرهم فيه ومبلغ نفوذهم منه ؛ ولكن الكلام فيه يتناول العباسيين فى بغداد ، والبويهيين فى فارس ، والحمدانيين فى الشام ، والفاطميين فى مصر والمغرب . والأمويين فى الأندلس .

إلا أن هذه الأصقاع على تباينها وتنائيها إنما كانت تأتم بهدى بغداد وتستمد منها فليس لها فى الغالب أدب مستقل ، ولذلك لا نذكرها إلا لماما .

أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية ، لأن الفرس هم الذين أوجدوها [١] وأيدوها ، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأطلق الخلفاء أيدي الموالى فى سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها ، واستبدوا بأمورها ، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعا بصاع . فضعفت العصبية العربية ، وعلا صوت الشعوبية ، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية فى تكوين الدولة ، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل ، واختلاط المدنية الآريّة بالمدنية الساميّة ، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت فى الأخرى . ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية فى الدين ، وتعدد الفِرَق [٢] ، وشيوع المقالات المختلفة فى الإلحاد والسياسة ، وتكاثر الجوارى والغلمان ، والاسترسال فى الخلاعة والمُجُون ، والتأنق فى الطعام واللباس ، والتنافس فى البناء والرياش . وكل ذلك له أثر بينٌ فى اللغة وآدابها سنجمله فيما يلى من هذه السطور .

---

(١) كانت موقعة الزاب بين الخراسانيين ومروان بن محمد رداً غير حاسم على موقعة القادسية بين العرب والفرس ، فإن بنى ساسان الذين طأطأ الفتح من إشرافهم ، وخطم الأمويون بالذل أنوف أشرافهم ، لم يستطيعوا أن يريضوا الأمور لهم ، ولا أن يعيدوا السلطان فيهم ؛ لأن العرب طبعوهم بطابعين قويين لا يزولان أبد الدهر . وهما الدين واللغة ، فرقفوا من الأمر عند الثأر من عصبية الأمويين ، بنقل الملك منهم إلى العباسيين ، وأخذوا يحركون أيدى الخلفاء بما يريدون وبنو العباس يعرفون لهم تلك اليد ، ويحتملون منهم هذه الدالة ، حتى خشى طغيانهم أبو جعفر المنصور فكفكفه بقتل أبى مسلم . ثم ما لبث أن عاد هذا الطغيان فامتد واشتد فى عهد الرشيد فاستأصله بقتل البرامكة . ولكنه انتعش ثانية بالخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وما استتبع من الحرب بين العنصرين العربى والفارسى ، حتى بلغ تمامه فى عهد بنى بويه . فلم يخضد شوكته ويفلل شباه إلا بنو سلجوق من الترك . على أن نفوذهم الأدبى والعقلى كان أوسع وأعمق من أن يكسر منه هذا الفشل السياسى ، فظهر أثره فى اللغة والأدب والفقه والفلسفة والأخلاق وكان من هذا الأثر أولا ، ومن أثر العناصر الأخرى ثانياً ، هذه الحضارة العباسية والمدنية الإسلامية التى مازت الطيب من الخبيث ، ووصلت العالم القديم بالعالم الحديث .

(٢) نجمت فى الأمة الإسلامية من غير أهل السنة فرق كثيرة يكفر بعضها بعضاً ، وانشعبت كل فرقة إلى فرق متعددة ترى كل واحدة منها الحق معها دون الأخرى . ومن أشهر هذه الفرق المعتزلة وهم عشرون فرقة ، والشيعة وهم اثنتان وعشرون ، والخوارج وهم سبع فرق وكل أولئك منهم جبرية ومنهم مشبهة ، ولكل شعبة لقب تعرف به .

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب فى أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة ، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً ، إلى جبال بيرانس غرباً ، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب ، واستولى دينهم على الأفئدة ، ولغتهم على الألسنة ، فتعربت هذه الأمم المختلفة ، وامتزجت تلك العناصر المتباينة ، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقرباً من الفاتح ، واستدراراً للرزق ، وتفقهاً فى الدين ، فكثر اللحن وسرت عدواه إلى البادية وقد كان قاصراً على الحاضرة وبقى داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولى الأمر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقبيح العامية ومقت المتكلمين بها ، حتى نشأ فى كل إقليم لغة عامية مؤلفة من العربية ومن لغة الإقليم الوطنية .

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية (١)

---

(١) لقد كثرت تلك الألفاظ الموضوعة والمنقولة حتى اضطروا إلى أن يضعوا لها بعدئذ معجمات خاصة بها ككتاب التعريفات للجرجانى (٨١٦ هـ) وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى (١١٥٨ هـ) وهذا الكتاب والذى قبله من خير ما يستعان به على وضع المصطلحات العلمية الحديثة . فمن الألفاظ الموضوعة لديوان الخراج مثلا : (الحشرى) للميراث الذى لا وارث له (والإقطاع) للأرض التى يعطيها السلطان رجلا فتصير له رقبتها ، (والطعمة) ضيعة تدفع إلى رجل مدى حياته فيعمرها ويؤدى عشرها ، (والتريكة) ما يترك للرجل من خراج سنه . ومن الألفاظ المنقولة : الكوز والجرة والأبريق والطشت والخوان والطبق والخز والديباج والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالوذج والفلفل والزنجبيل والنرجس والنسرين والمسك والعنبر والبستان والقرمز والجوز واللوز والدولاب والطيلسان والفرسخ الخ عن الفارسية . والبقدونس والزيزفون والمصطكى والقيراط والأنبيق والصابون والهيولى والفلسفة والمغنطيس والإقليم والقانون عن اليونانية .

والاقتصادية والمنزلية . وكان لدار الحكمة التى أنشأها المأمون الفضل الأكبر فى تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة . ثم رقت الألفاظ لانغماس القوم فى الحضارة ، وإخلادهم إلى الترف ، وإيثار الموالى للكلم السهل والأسلوب البيّن ، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة ، لا بالتلقين والطبع .

واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب ، كالتبجيل فى الخطاب ، والاحتشام مع المخاطب ، وإسنادِ الشىء إلى الحضرة والجناب والمجلس ، وإحداثِ الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد ، كالسفاح والمنصور والرشيد وذى الرياستين وركن الدولة الخ ، والإسهاب فى العهود والرسائل ، وتأديةِ المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة ، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى .

وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة ، وتنتشر وتسمو فى حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب ، حتى خلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢ إذ استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من التركستان فأخذوا يغالبون العرب ، ويواثبون الفرس ، ويغتصبون السلطان . وكان الأمر للموالى بعد غلبة المأمون وهم شيعة فجاء المتوكل فمصد الأتراك ونصر السنة . فتقاتل العنصران ، وتناضل المذهبان ، وابتغى كل منهما الفلَج والفوز بقهر العرب وكبْت الخلفاء ، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس ، وزالت هيبتها من القلوب ، فاستشرف ولاة الأطراف إلى الاستقلال ، وبدأ بَنُو بويه[1] فوضعوا أيديهم سنة ٣٣٤ هـ على شؤون الدولة فى بغداد . وامتد نفوذهم إلى جُل الممالك الشرقية

(١) بنو بويه ثلاثة إخوة أنجبهم صياد ، فخالفهم السعادة وخطبتهم السيادة ، فتقلبوا فى المناصب ، وتدرجوا فى الحكم ، حتى اقتسموا بينهم ملك العراقين العجمى والعربى وفارس والجزيرة ، فكان عماد الدولة أبو الحسن على ، وهو أكبرهم ، صاحب فارس ، وركن الدولة أبو على الحسن وهو أوسطهم ، صاحب عراق العجم . ومعز الدولة أبو الحسين أحمد ، وهو أصغرهم ، ملك العراق والأهواز وصاحب الأمر والنهى فى بغداد . وقد دام الملك فيهم وفى بنيهم من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٤٨٨ هـ

الإسلامية ، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع فى الشرق ، وهبّ أحفاد الأكاسرة وأبناء الدهاقين يستردون مجد أجدادهم ، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم . وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال الدقيقى والفردوسى أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد القومية . ومن العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً ، فإن المتنبي وهو من رجال القرن الرابع يقول وقد زار شعب بوان من بلاد الفرس :

مغانى الشِّعب طيباً فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنَّ الفتى العربىّ فيها ... غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنَّةٍ لو سار فيها ... سليمانٌ لسار بترجمان

ثم اقتدى بالفُرس فى ذلك الأتراك والأكراد . ولكن العربية بقيت فى حَمى القرآن تدافع سيل الفارسية والتركية الجارف ، وقد عز النصير من أهلها ، حتى غلب التتار على بغداد فغُلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر ، بعد ما خلفت فى تلك البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقو على محوها الأيام .

الفصل الثانى

النـــثر

الكتابة

الإنشاء مَظهر العقل، ومرآة الخاطر ، يتأثر بما ينال المداركَ والمشاعر من عوامل الحضارة ، ونتائج العلم ، وظواهر العمران .

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسى أثرٌ عظيم فى العقول والمُيول ظهر على أقلام الكاتبين وألسنتهم . فقد استنبطوا عيون المعانى . وتخيروا شريف الألفاظ ، مما لم يكن حوشياً ولا سُوقياً ، وفتحوا أبواب البديع ، وعُنُوا بالتنميق والتنسيق .

ولما استبحر العمران ، وطما بحر الخراج ، واتسع نطاق الدولة ، لم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين و إنشاء الرسائل كما كانت فى الدولة الأموية ، بل تعدتها إلى أغراض شتى ، كالتصنيف والترجمة ، والمقالات والمقامات ، والعهود، والوصف ، والمناظرة ، وإنشاء الكتب فى الإهداء والاستهداء ، والتعارف قبل اللقاء ، والشكر والعتاب والتعازى والتهانى والاستعطاف ، وغير ذلك من المعانى الحضرية التى لم يعهد أكثرها من قبل .

وحلت الكتابة محل الخطابة فى قمع الأهواء ، وردع الأعداء ، وإطفاء الفتن ، وتأليف القلوب . ثم تنوع الكتّاب بتنوع الدواوين : فكان منهم كتاب الخراج والنفقات ، وكتّاب المظالم والقضاء ، وكتاب الجيش والشرطة، وكتاب الضياع والإقطاع ، وكتّاب الرسائل ، وهؤلاء هم أساطين البلاغة وأستاذو البيان ، وموضوع أدب اللغة ؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق .

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبدالحميدمن الميل إلى الإيجاز [١] والقصد في الغلو والتنميق ، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات ، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء ، عنهم تصدر ، وإليهم ترد . وكان جعفر بن يحيى يقول في إيثار الإيجاز · « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

فلما نزع العرب إلى الترف ، وزاد اختلاطهم بالفرس ، أخذوا يتأنقون ويطيلون . وازدادذلك بتراخي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء ، وعاقبوا الجملَ على المعنى الواحد ، ورأوا ذلك التكرار أبلغَ للمعنى ، وأوقع في النفس . وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وقد تلكأ في بيعته : « أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئتَ » فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب . « إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب . والصواب أن يطيل ويكرر ، ويُعيد ويُبدىء ، ويحذر وينذر » . ثم مالوا إلى الازدواج والسجع ، وتضمين الأشعار والأمثال . وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ .

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله ، سَرى الضعف إلى الكتابة ، فجهل أربابها الغرض منها ، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع ، وأوغلوا في ذلك حتى سمجت مبانيهم وفسدت معانيهم، فكانت مموّهة الظاهر مشوّهة الباطن ، كسيف من الخشب في غمد من الذهب . وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود ، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم ، كتاريخ العُتْبي والفتح القدسي .

وكتاب هذا العصر أربع طبقات نبغَتْ كل طبقة في عصر من عصوره

(١) أسلوب عبد الحميد موجز إذا وزن بما استحدث بعده من الأساليب ، ومطنب إذا وزن بما قبله .

الأربعة [١] ؛ فالطبقة الأولى إمامها ابن المقفع . وطريقته تنويع العبارة، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخى السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد فى السجع [٢] . وقد حدّ البلاغة فقال : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » . وقال لبعض الكتاب : « إياك وتَتبُّعَ الوحشىِّ من الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العِىُّ الأكبر » . وقال لآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » . ومن رجال هذه الطبقة يعقوب ابن داود ، وجعفر بن يحيى ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وسهل بن هرون ، والحسن بن وهب .

والطبقة الثانية إمامها الجاحظ . وطريقته أشبه بالطريقة الأولى فى سهولة العبارة وجزالتها ، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفّاة أو مرسلة ، وزيادة الإطناب فى الألفاظ والجمل ، والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل لدفع سآمة القارىء ، وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية . ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولى .

والطبقة الثالثة إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن . وهى أشبه بالطريقة [٣] الاتّباعية عند الفرنج. لتقيدها بقيود لابدّ من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب .

---

(١) يقسم العصر العباسى الى أربعة أعصر تبعاً لأحواله السياسية والاجتماعية ، فالعصر الأول من ابتدائه إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ . والثانى من خلافة المتوكل الى استقرار الدولة البويهية فى بغداد سنة ٣٣٤ . والثالث من تغلب البويهيين إلى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ والرابع من دخول السلاجقة بغداد إلى سقوطها فى أيدى التتر سنة ٦٥٦ .

(٢) قال ابن أبى الإصبع فى تحرير التحبير : قد كان المتقدمون لايحفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه بتة إلا ما أتت به الفصاحة فى أثناء الكلام ، واتفق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت كلماتهم متوازنة ، وألفاظهم متناسبة ، ومعانيهم ناصعة ، وعباراتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة . وتلك طريقة الإمام على عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وغير هؤلاء من العلماء والبلغاء اهـ .

(٣) آثرنا أن نترجم Ecole Classique بالطريقة الإتباعية و Ecole Romantlque بالطريقة الابتداعية ؛ فإن الاتباع والابتداع أقرب الألفاظ دلالة على معنى هذين المذهبين . وبهذا الرأى أخذ مجمع اللغة العربية .

فمن قيودها السجع القصير ، والجناس ، وتضمين المُلَح من التاريخ والعلوم ، والاستشهاد بالنظم فى غضون النثر ، والتوسع فى الخيال والتشبيه ؛ مع إجادة المعنى وسلامته . ومن رجالها الصاحب بن عباد ، والوزير المهلبى ، والخوارزمى ، والبديع ، والصابى ، والثعالبى . ومن آثار هذه الطبقة المقامات .

والطبقة الرابعة إمامها القاضى الفاضل . وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توخى السجع والبديع ، إلا أنه غالى فى التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة فى عهده صناعية محضاً . ألفاظ منمقة تحتها معنى غثّ وخيال ضئيل . ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر ، والكاتب الأصبهانى .

على أنّ عقيدة الكتّاب أن استظهار المأثور من المنثور هو عُدّة الثقافة وسبيل التفوق كانت تخالف بين الأقلام ، وتباعد بين الأساليب ، فتعدّدت مذاهب الكتابة فى العصر الواحد ، فتجد فى عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه . وفى عصر ابن العميد من يقلد الإمام عليا كالشريف الرضى . ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية ، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقى العصور .

الخطابة

كان للخطابة فى صدر هـــذا العصر مكانةٌ فى النفوس وسلطان على القلوب ؛ لاعتماد القوم عليها فى توطيد الملك ، وتحميس الجند ؛ واستقبال الوفود . وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد ، كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون وداود[1] بن على وخالد بن صفوان

(١) نشأ داود بن على بن عبدالله بن عباس مع إخوته الاثنين والعشرين فى قرية الحميمة من أعمال عمان . وهى منفى أبيه فى عهد الوليد بن عبد الملك ، فاقتبس العلم من أبيه واكتسب الفصاحة من خلاطه قبائل لخم وغسان وقيس . ثم شهر بالشجاعة والأنفة وصلابة الرأى وحرية =

وشبيب[١] بن شبيبة .

فلما استوثق الأمر لبنى العباس وقام الموالى بسياسة الدولة وقيادة الجيش ، وقلّ النضال بالسنان واللسان ، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعى إليها ، وحلت الرسائل والمنشورات محلها فى دفع العظائم وسل السخائم. وقُصرت على خطب الُجمَع والعيدين والزواج . على أن الخلفاء أنفسهم مابرحوا يخطبون الناس ويؤمونهم إلى عهد الخليفة الراضى . فلما غل بنو بويه أيديَهم وحصروهم فى دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاة من العلماء ؛ فنبغ فى آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شُهروا بهذا النوع من الخطابة : كالخطيب البغدادى والخطيب التبريزى . ولما استعجم المسلمون وملَك العِىُّ ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب فى الموضوعات المختلفة ، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصرى ، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ، ولا علم بمغزاها. ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة فرقاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية .

نماذج النثر

التوقيعات

التوقيعات هى ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم

= الفكر وقوة المنداق فولاه أبو العباس عام بيعته الكوفة وسوادها ثم أضاف إليه فى تلك السنة ولاية الحجاز واليمن واليمامة فوطد الملك لبنى العباس فى تلك الأصقاع ، ونكل بمن وجد فيها من بنى أمية ثم استقر قراره بالمدينة بعد موسم الحج ، فأدركته منيته فيها شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ ﻫ

(١) نشأ شبيب بن شبيبة بن عبد الله المنقرى التميمى فى البصرة على خير ماتنشأ عليه الرجال من العزة والأريحية والتواضع والعفة ، وابتدأ منذ اليفوعة يحوك الكلام ويهصب بالخطب فى حلاوة وسهولة وعذوبة ، ومازال يزداد حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره ، سمعه عمه خالد بن صفوان خطيب تميم ذات يوم يخطب قومه ، فقال له : يابنى لقد نعى إلى نفسى إحسانك فى كلامك ، فإنا أهل بيت مانشأ فينا خطيب إلا مات من قبله . فقال له شبيب : بل يبقيك الله ويجعلنى فداك . وكان شبيب من خاصة المنصور قبل خلافته وبعدها وبقيت له هذه الحظوة لدى ولى عهده المهدى ، فكان من خاصائه الأدنين حتى توفى سنة ١٧٠ ﻫ .

إليه من الكتب فى شكوى حال أو طلب نوال . وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة . وقد تكون آية أو مثلا أو بيت شعر . مثالها :

وقع السفاح فى كتاب لأبى جعفر وهو يحارب ابن هُبَيْرَة بواسط . إن حلمك أفسد علمك ، وتراخيَك أثر فى طاعتك . فخذلى منك ، ولك من نفسك .

وقع أبو جعفر المنصور فى كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة . ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهِّر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القياد . ووقع فى كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا .

وقع هرون الرشيد إلى صاحب خراسان ؛ داو جُرحك لايتسع . ووقع فى نكبة جعفر بن يحيى : أَنبتته الطاعة وحصدته المعصية .

وقع المأمون إلى الرستمى فى قصة من تظلم منه : ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة ، وغريمك خاو ، وجارك طاو . ووقع فى قصة متظلم من أبى عيسى أخيه : (فإذا نفِخَ فى الصُّور فلا أنسابَ بينهُمْ يومئذ وَلا يتساءلون) . وكتب إليه إبراهيم بن المهدى : إن غفرت فبفضلك ، وَإن أخذتَ فبعدلك . فوقع فى كتابه : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله ، ووقع فى رقعة مَوْلى طلب الكسوة : لو أردت الكسوة للزمت الخدمة ، ولكنك آثرت الرقاد فخطلك الرؤيا .

وقع جعفر بن يحيى فى قصة محبوس : العدل أُوثقه ، والتوبة تطلقه وَوقع فى كتاب رجل شكا إليه بعض عماله : قد كثر شاكوك ، وقلَّ شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت .

ووقعَ فى قصة مستمنح قد أعطاه مراراً : دَعِ الضرع يدر لغيرك كما دَرَّ لك .

الخطب

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال :

أيها الناس : لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسِرُّوا غش الأئمة ؛ فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده ، أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، لإعزاز دينه وإعلاء حقه إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه . إن من نازعنا عروة هذا القميص أجْزَزْناه خبيء هذا الغمد . إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه .

ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد إياه :

والله إن الملك لشيء ما نويته ولا تمنيته ، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته . ولو أردته لكان أسرعَ إليَّ من السيل إلى الحدور ، ومن النار إلى يابس العَرْفَج . وإني لمأخوذ بما لم أجْنِ ، ومسئول عما لا أعرف . ولكنه والله حين رآني للملك قمناً ، وللخلافة خطراً ، ورأى لي يداً تنالها إذا مُدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً تكمل لخصالها ، وتستحقها بخلالها . — وإن كنت لم أختر تلك الخصال ، ولا اصطنعت تلك الخلال ، ولم أترشح لها في سر ، ولا أشرت إليها في جهر ، ورآها تحن إليَّ حنين الوالدة ، وتميل إليَّ ميل الهلوك ، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع ، وترغب في خير مرغب ، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها ، ونصب في التماسها . وتفرد لها بجهده وتهيأ لها بكل وسعه ، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليق بها وتليق بي ، فليس ذلك بذنب فأتوب منه ، ولا تطاولت إليه فأحط نفسي عنه . وإن زعم أنه لا صَرْف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم ، والحزم والعزم ، فكما لا يستطيع

للضيع أن يكون حافظاً ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا ، وسَواء عليه أعاقبنى على عقلى أم عاقبنى على طاعة الناس لى . ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ، وشغلته عن التدبير ، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير . ومن المجهود إلا القليل !

وخطب داود بنُ علىٍّ يوم بيعة أبى العباس على منبر الكوفة قال :

شكراً شكراً ! إنا والله ما خرجنا لنَحْفُر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصرا . أظنّ عدوّ الله أن لن نقدر عليه أن رُوخى له من خطامه ، حتى عثر فى فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوسَ باريها ، وعاد القوسَ إلى النزَعة ، ورجع الملك إلى نصابه . فى أهل بيت النبوّة والرحمة ، أَمِنَ الأسودُ والأحمر . ولكم ذمة الله . لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكم ذمة العباس . لا وربّ هذه البَنِيَّة — وأومأ بيده إلى الكعبة — لا نهيج منكم أحداً .

وخطب شبيب بن شيبة يعزى المهدى يوم توفيت ابنته قال .

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على مارُزِئتَ أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمَة ، ولا نزع منك نعمة . ثواب الله خيرلك منها . ورحمة الله خيرٌ لها منك ، وأحقُّ ماصبرَ عليه ما لاسبيل إلى رده !

الرسائل

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى فى هدية استقلها :

بلغنى استقلالك لما ألطَفْنك . و لذى نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك فى البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم ، إلى من لا يغتنم .

وكتب فى تهنئته بإبلاله من مرض :

قد أذهبَ الله وصَب العلة ونصبها ، ووفر أجرها وثوابها ، وجعلى فيها من

إرغام العدوّ بعُقباها ، أضعافَ ما كان عنده من السرور بأولاها .

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة لأحد العمال :

أما بعد : فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس فى واحدة منهما عُذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة : إما تقصير فى عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب . وأية هاتين كانت منك ، مُحِلة للنُّكْر بك ، وموجبة للعقاب عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرَة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أُقِلْتَ من عظيم العَثْرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة . والسلام .

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى :

كتابى وأنا بحال لَوْ لم ينقِّصْ منها الشوقُ إليك ، ولم يُرَنِّقْ صفوَها النزوعُ نحوك ، لَعددتُها من الأحوال الجميلة ، وأعددتُ حَظِّى منها فى النِّعَم الجليلة ، فقد جمعت فيها بين سلامةٍ عامة . ونعمةٍ تامة ، وحَظيتُ منها فى جسمى بصلاح ، وفى سَعْيى بنجاح ؛ لكنْ ، ما بَقِىَ أن يَصفوَلى عَيْشٌ مع بُعدى عنك ، ويخلو ذَرْعى مع خَلوِّى منك ، ويسوغ لى مطعمٌ ومشربٌ مع انفرادِى دونَك . وكيف أطمعُ فى ذلك وأنت جزءٌ من نفسى ، وناظمٌ لشَمل أُنسى . وقد حُرِمْتُ رؤْيتك ، وعدمت مشاهدتك . وهل تسكُنُ نفسٌ مُتشعِّبةٌ ذاتُ انقسام ، وينفعُ أُنسٌ بَيْتٍ بلا نظام . قرأتُ كتابك — جعلنى الله تعالى فداءك — فامتلأْتُ سروراً بملاحظة خطِّكَ ، وتأمُّلِ تصرُّفك فى لفظك . وما أُقرِّظُهما ، فكل خصالك مقرَّظ عندى . وما أمدَحهما ، فكل أمرك ممدوحٌ فى ضميرى وعقدى . وأرجو أن تكونَ حقيقة أمْرِكَ موافِقةً لتقديرى فيك ، فإنْ كانَ كذلك وإلا فقد غَطى هَواكَ وما أُلْقِى عَلَى بَصرى .

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمذانى

حدثنا عيسى بنُ هشام قال : لما بلغتْ بى الغربةُ بابَ الأبواب، ورضيتُ من الغنيمة بالإياب ، ودونه من البحر وثّابٌ بغاربه ، ومن السفن عسّاف براكبه ، استخرتُ الله فى القفول ، وقعدت من الفلْك ، بمثابة الهُلك . ولما ملكنا البحرُ وجن علينا الليل ، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار حبالا ،وتحوذُ من الغيم جبالا ، بريح ترسل الأمواج أزواجاً ، والأمطار أفواجاً ، وبقينا فى يد الحْينِ ، بين البحرين ، لا نملك عُدّة غير الدعاء ، ولا حيلة إلا البكاء : ولا عصمة غير الرجاء . وطويناها ليلة نابغية ، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى ، وفينا رجل لا يخضلُّ جفنه ، ولا تبتل عينه ، رخىُّ الصدر منشرحه ، نشيط القلب فرحُه . فعجبنا والله كل العجب . وقلنا له ما الذى آمنك من العطب ؟ فقال : حرز لا يغرق صاحبه . ولو شئت أن أمنح كلا منكم حرزاً لفعلت . فكلٌّ رغب إليه ، وألحّ فى المسألة عليه . فقال لن أفعل ذلك حتى يعطينى كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدنى ديناراً إذا سلم . قال عيسى بن هشام : فنقدناه ما طلب ، ووعدناه ما خطب ، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج ، فيها حُقة عاج ،قد ضُمّن صدرها رقاعاً، وحذف كل واحد منا بواحدة منها . فلما سلمت السفينة ، وأحلّتْنا المدينة ، اقتضى الناس ما وعدوه ، فنقدوه . وانتهى الأمر إلىّ فقال دعوه . فقلت لك ذلك ، بعد أن تعلمنى سرّ حالك . قال : أنا من بلاد الأسكندرية . فقلت . كيف نصرك الصبر وخذَلنا ؟ فأنشأ يقول :

ويْكَ لولا الصبر ما كُنْـ ... ـت ملأتُ الكيس تبرا

لن ينال المجدَ من ضا ... ق بما يغشاه صدرا

ثم ما أعقبــنى الســـا عـــة ما أعطيتُ ضُرا
بل به أشتـــد أزراً وبه أجـــبر كسرا
ولو أنى اليـــوم فى الغر ق لمـــا كلفت عـــذرا

ومن المقامة البغدادية للحريرى على لسان عجوز مستجدية :

إعلموا ياآل الآمل ، وثمال الأرامل ، أنى من سَرَوات القبائل ، وسَريَّات العقائل ، لم يزَل أهلى وبعلى يحلون الصَّدر ، ويسيرون القلب ، ويُمْطون الظهر ، ويولون اليد . فلما أردى الدهرُ الأعضاد ، وفَجَعَ بالجوارح الأكباد ، وانقلب ظهراً لبطن ، نبا الناظر ، وجفا الحاجب ، وذهَبَتِ العين ، وفقدت الراحة ، وصَلَد الزند ، ووَهَنَتِ اليمين . وضاع اليسار ، وبانت المرافق ، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب . فمذ اغبرَّ العيش الأخضر ، وازوَرَّ المحبوب الأصفر اسودَّ يومى الأبيض ، وابيض فَوْدى الأسود ؛ حتى رثى لى العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر !

الفصل الثالث

الكتاب

ابن المقفع

المتوفى سنة ١٤٢ هجرية

نشأته وحياته

عبد الله بن المقفع كاتب فارسى الأصل عربى النشأة . ولد حوالى سنة ست ومائة للهجرة ، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار ، وكان والده داذويه المجوسى يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف ، فاحتجن من مال السلطان شيئاً ، فضرب به الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع . وربى عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامى ، وأولع بالعلم وهو فارغ القلب من هموم العيش ، فنبغ وهو يافع فى الكتابة باللغتين الفارسية والعربية ، فاستكتبه فى عهد بنى أمية داود بن عمر بن هُبيرة ، وفى عهد بنى العباس عيسى بن على عم المنصور ، وعلى يديه أسلم . قال له ذات يوم : « قد دخل الإسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يدك » ، فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورءوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً . ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل و يزمزم على عادة المجوس . فلما كلمه عيسى فى ذلك قال : « كرهت أن أبيت على غير دين » ثم غدا عليه فأعلن إسلامه ، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد ، وقد كان اسمه من قبل روزبة .

وقد قيل إنه أسلم ابتغاء عرض الدنيا . ورُمى بالإلحاد لمعارضته القرآن ،

وترجمته كتب الزنادقة ، وتمثله حينما مر على بيت نار المجوس ببيتى الأحوص :

يابيت عاتكة الذى أتعزلُ حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدودَ وإننى قسما إليك مع الصدود لأميَل

وبقى ابن المقفع فى خدمة عمى المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان الذى كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله ، فإنه تشدد فيه على الخليفة بمثل قوله : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ، ودوا به حُبَّسٌ ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بيعته » فوجِد المنصور عليه وأوعز بقتله إلى سفيان بن معاوية المهلبى أمير البصرة ، وكان يضطغن على ابن المقفع لسخره منه واستخفافه به فى حضرة وجوه البصرة . فقد قالوا إنه كان كبير الأنف، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال : (السلام عليكما) يعنى سفيان وأنفه. فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقاً بالنار بالغاً من العمر ستاً وثلاثين سنة .

أخلاقه وعلمه

كان ابن المقفع ذكى القلب فصيح المنطق ضليعاً فى أدب العرب والفرس « مقدَّماً[1] فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السِّيَر . وكان يتعاطى الكلام[2] ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً » .

وقد قيل : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع . وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة . فكانا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله ؟ فقال ماشئت من علم وأدب ! إلا أن علمه أكثر من عقله . وقيل لعبد الله كيف رأيت الخليل ؟ فقال ما شئت من علم وأدب ! إلا أن عقله أكثر من علمه . وقد سئل ابن المقفع : من أدَّبك ؟ فقال نفسى : كنت إذا رأيت من غيرى حسناً أتيتهُ ، وإن رأيت قبيحاً

---

(١) هذا رأى الجاحظ فيه من رسالته فى المعلمين . (٢) علم التوحيد .

أبيتهُ . وكان فى سائر أحواله عفيفاً أديباً وفياً لأصحابه . وأمره[1] مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك .

نثره وشعره

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتَّاب . وقد استخلص من الأسلوب الفارسى والعربى طريقة فى الكتابة عُرِفت به وأخذت عنه . وقد فصلنا ذلك فى أثناء كلامنا عن النثر فى هذا العصر فارجع إليه . أما شعره فقليل جيد ، روى صاحب الحماسة منه قوله فى رثاء يحيى بن زياد :

رُزِئْنا أبا عمرو ولا حيَّ مثلهُ ... فلله رَيْبُ الحادثات بمن وقع !
فإن تَكُ قد فارقتنا وتركتنا ... ذوى خَلَّةٍ ما فى انسدادٍ لها طمع
فقد جرَّ نفعاً فقدُنا لك أننا ... أمِنَّا على كل الرزايا من الجزع

مترجماته ومؤلفاته

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح فى ترجمته أثر العجمة ، وتكاد لا تفرق بين نقله ووضعه . وكتابه كليلة[2] ودمنة إذا صح أنه مترجَم لا يزال مثالاً للترجمة الصحيحة البليغة . وهو كما قال القفطى أول من اعتنى فى الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبى جعفر المنصور ، فترجم كتب أرسطو الثلاثة فى المنطق . وكتاب إيساغوجى لفرفوريوس الصورى ؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف غيرها على الأرجح : ونقل كتاب التاج فى سيرة أنوشروان . وألف كتابى الأدب الصغير والكبير فى الأخلاق ، وكتاب اليتيمة فى طاعة السلطان .

نموذج من نثره

قال : لا يؤمننَّك شرَّ الجاهل قرابةٌ ولا جوارٌ ولا إلف ، فإن أخوفَ

(١) قد مر بسط ذلك فى ترجمة عبد الحميد بن يحيى الكاتب .
(٢) أنظر ما كتب عن كليلة ودمنة فى باب الكلام عن القصص.

مايكون الإنسان لحريق النار أقربَ مايكونُ منها . وكذلك الجاهلُ إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألِفَك حمل عليك مالا تطيق ، وإن عاشرك آذاك وأخافك ؛ مع أنه عند الجوع سَبُعٌ ضارٍ ، وعند الشبَع ملك فظ ، وعند الموافقة فى الدِّين قائدٌ إلى جهنم : فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأساوِد ، والحريق المَخُوف ، والدَّين الفادح ، والداء العَيَاء » .

وقال أيضاً : « إن استطعت أن تُنْزِل نفسك دون غايتك فى كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل . فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التى تحطُّ إليها نفسك ، وتقريبَهم إياك فى المجلس الذى تباعدت عنه ، وتعظيمَهم من أمرك مالم تعظِّم ، وتزيينهم من كلامك مالم تزين ، هو الجمال » .

وقال أيضاً . كان لى أخ أعظم الناس فى عينى . وكان رأسَ ماعظمه فى عينى صغرُ الدنيا فى عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يشتهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يُمارى فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا قال بذّ القائلين . وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجِدّ فهو الليث عادياً . وكان لا يدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مِراء ، ولا يُدلى بحجة حتى يرى قاضياً فَهْماً وشهوداً عُدولاً . وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذرُ فى مثله حتى يعلم ماعذرُه . وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجوَ منه النصيحة . وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط ولا يتشكى ولا يتشهى ، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولى ، ولا يخص نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥ هجرية

نشأته وحياته

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب ، فأكبَّ على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة . وتخرج في علم الكلام على أبي إسحق النَّظام أحد المعتزلة فأخذ بمقالته ، ونصر الاعتزال بكتابته . وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم ، وأُغرمَ بالمطالعة إغراماً شديداً فلم يقع في يده كتاب إلا استتم قراءته ، واستوعب مادته . وكان يكترى حوانيت الورَّاقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائل العلوم ، واستبطن دخائل الفنون ، وأصبح في الأدب منقطع القرين .

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفاً على التأليف مرعيَّ الجانب ، مكفيَّ الحاجة ، أثيراً لدى الولاة ، مكرَّماً عند الوجوه ، بما يؤلف من الرسائل ويصنف من الكتب . ثم كان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث ؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير . وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره . وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضه الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شارف المائة .

صفاته وأخلاقه

كان أبو عثمان دميمَ الخلقة جَهْم الوجه جاحظ العينين «ومن ذلك لَقَبُه» ؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فاستقدمه إليه بسُرَّ مَنْ رأى

ليؤدب ولده . فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم . وكان في الجاحظ دُعابة وَمجانة واستخفاف بالعادات المرعية والآداب الوضيعة ، ولكنه كان لطيف الروح ذكى الفؤاد فكهَ المحاضرة صادق المواساة .

علمه وأدبه

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للقارىء مالنابغة العرب وفُلتير الشرق من الأثر في الأدب . وبِحَسْبنا أن نقول إنه تميز من أنداده بغزارة العلم، وقوة الحجة ، واستقصاء البحث ، وشدة المعارضة ، و بلاغة القول ، و إنه تبحر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان ، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسُمُّوا بالجاحظية . وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع . وهو أول عالم عربي جمع بين الجد والهزل، وتوسع في المحاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان والنبات والأخلاق والاجتماع .

نثره وشعره

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض ، ونهج للمترسلين والمصنفين طريقة في الإنشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول . وقد قال فيه البديع : إن كلامه بعيد الإشارة ، قريب العبارة ، قليل الاستعارة . وهذا الحكم وإن كان شديداً يطابق الحق أحياناً . أما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه . وقد نزع في نظمه إلى الاتباع لا إلى الابتداع ، وهو قليل منثور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير ابن عبد الملك :

بدا حين أثرى لإخوانه ... ففلّلَ منهم شباةَ العَدَمْ
وأبصر كيف انتقالُ الزمان ... فبادر بالعُرْفِ قبل الندم

وقوله :

لئن قُدِّمتْ قبلى رجالٌ فطالما ... مشيت على رِسْلى فكنتُ المقدما

ولكنَّ هذا الدهر تأتى صروفه   فتبرم منقوضاً وتنقض مُبرَما

مؤلفاته

كتب الجاحظ تربى على مائتى كتاب ، وهى كما قال الأستاذ ابن العميد : « تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين فى الأدب والإنشاء والخطابة ، وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربى فى موضوعه ، وكتاب المحاسن والأضداد ، وكتاب البخلاء ، وديوان رسائله .

مثال من نثره

قال يعاتب صديقاً له . « والله ياقُليب لولا أن كبدى فى هواك مقروحة ، وروحى بك مجروحة ، لساجلتك هذه القطيعة ، وماددتك حبل المصارمة ، وأرجو الله أن يديلَ صبرى من جفائك ، فيردك إلى مودتى وأنفُ القِلَى راغم ؛ فقد طال العهد بالاجتماع ، حتى كِدْنا نتناكر عند اللقاء » .

وقال فى رسالة التربيع والتدوير وهى من أبلغ رسائله :

قد اعتدنا فى معصيتك والخلاف على محبتك ، مرة بالمزاح ، ومرة بالنسيان ، ومرة بالاتكال على عفوك . وعلى ما هو أولى بك . والجملة أنّا لو اعتمدنا ، ثم أصررنا ، ثم أنكرنا ، لكان فى فضلك مايتغمده ، وفى كرمك مايوجب التغافل عنه . فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا ، واعتذرنا ثم أطنبنا ؟ فإن تقبلْ فحظّك أصبت ، ولنفسك نظرت . وإن لم تقبل فاجهَدْ جهدك ، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت ، ولا عفا عنك إن عفوت . وأقول كما قال أخو بنى مِنْقر :

فما بُقْيَا على تركتمانى   ولكن خفتما صدَرَ النبال

والله لئن رميتنى ببجيلة لأرمينك بكنانة . ولئن نهضت بصالح بن علىّ لأنهضنَّ بإسماعيل بن علىّ . ولئن صُلْتَ علىّ بسليمان بن وهب لأدمغنك بالحسن ابن وهب . وأنا أرى لك أن تقبل العافية ، وترغب إلى الله تعالى فى السلامة .

واحذر البغىّ فإن مصرَعه وخيم ، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل . وإياك أن تتعرض لجرير إذا هجا ، وللفرزدق إذا فخر ، ولهرثمة إذا دبر ، ولقيس بن زهير إذا مكرَّ ، وللأغلب إذا كرَّ ، ولطاهر إذا صال . ومن عرف قدره عرف قدر خصمه ، ومن جهل نفسه لم يعرف قدر غيره . وعليك بالجادَّة ودع البُنَيَّاتِ . فإن ذلك أمثل لك . وأنت والله تعلم علم الاضطرار ، وعلم الاختيار ، وعلم الأخبار ، أنى أظهر منك حربًا ، وألطف كيدًا ، وأكثر علمًا ، وأوزن حلمًا ، وأخف روحًا ، وأكرم عينًا ، وأقل غشًا ، وأحسن قدًا ، وأبعد غورًا ، وأجمل وجهًا ، وأنصع ظَرْفًا ، وأكثر مُلَحًا ، وأنطق لسانًا ، وأحسن بيانًا ، وأجهر جهارة ، وأحسن شارة ، وأنت رجل تشذُّ من العلم ، وتَنْتف من الأخبار ، وتموِّه نفسك ، وتُعزُّ من قدرك ، وتتهيأ بالثياب ، وتتنبل بالمراكب ، وتتحبب بحسن اللقاء ؛ ليس عندك إلا ذاك . فلِم تزاحمُ البحر بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذى لا يتجزأ ؟ ومن يَعدلُ بين القناة والسُكُرَّة ؟ وبين رحَى الطحان وبين سيف يمان ؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين ، وأنقص الشرّين ، و بين المتقاربين دون المتفاوتين . فأما الخل والعسل ، والحصاة والجبل ، والسم والغذاء ، والفقر والغنى ، فهذا مما لا يخطىء فيه الذهن ، ولا يكذب فيه الحس.

ابن العميد

المتوفى سنة ٣٦٠ هـ

نشأته وحياته

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسى الأصل من أهل مدينة (قم) . كان أبوه مترسلا بليغًا يتولى الكتابة لنوح بن نصر السامانى ملك بخارى ، فنشأه على الأدب ودرّبه فى الكتابة ، وغذاه بالعلم ، فبرع

فى الإنشاء والترسل ، وتوسع فى الفلسفة والنجوم ، حتّى سمى بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثانى .

ولما استكملت عُدَّته ، واستحصدت قوته ، غادر بخارى إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه ؛ فتقلد الأعمال فى دولتهم . وما زال يَتنقل فى مدارج الرقى ، ويتوقل فى معارج الشرف ، حتى وزَرَ لركن الدولة بن بويه سنة ثمانى وعشرين وثلثمائة ، فاضطلع بأعباء الوزارة ، وقام بشئون الدولة ، وجرى على منهاج بنى برمك فى الجود ، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب بن عباد والوزير المهلبى روحاً لنهضة العلم وقطبا لدائرة الأدب فى ذلك العصر . وقد كان المتنبى على مكانته يجله ويتهيّبه ، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التى مطلعها :

بادٍ هواكَ صبَرت أم لم تصبرا وبُكاكَ إن لم يجرِ دمْعكَ أو جرى

ويقول فيها :

مَنْ مُبلغُ الأعراب أنى بعدها شاهدت رَسْطاليس والإسكندرا

وَمللت نحرَ عِشارها فأضافنى من ينحر البَدرَ النُّضارَ لمن قرَى

وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدِّياً متحضرا

ولقيت كلَّ الفاضلين كأنما ردّ الإله نفوسهم والأعصرا

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القُولنج والنِّقْرسِ حتّى استعز الله به سنة ستين وثلثمائة .

نثره وشعره

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف ، وعهد خيال وشعر ، فهداه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفقِرَ أنيق الديباجة ، بديع الوشى ، طبع على غِراره مشايعوه لموافقته ذوق العصر . ولمكانة الوزير من

الفضل . إلا أنه كان أرق معاصريه طبعا ، وأقلهم سجعا ، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحا للأمثال ، وتضمينا للحكم ، ولا يضارعه فى أكثر ذلك على ماأرى إلا البديع ، وكان ابن العميد متفننا فى فنون الكتابة ، متفوقا فى ضروب الرسائل ، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد » .

أما شعره فيغلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع ؛ إلا أنه على الجملة أخف وزنا من نثره .

مختار من كلامه

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة :

كتابى وأنا مُترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك وإعراض عنك . فإنك تدِل بسابق حُرْمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية : وأدنى ذلك يحبِط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرْعى لك . ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ؛ فقد يَعزُب العقل ثم يؤوب ، ويعزُب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويُضاع الرأى ثم يُستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو .

ومنها : وزعمت أنك فى طرَف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها . وإذا كنت كذلك فقد عرفتَ حاليها ، وحلبت شطريها ؛ فنشدْتُك الله إلا ماصدَقتنى عما سألتك . كيف وجدت مازلت منه ، وكيف تجد ماصرت إليه ؟ ألم تكن من الأول فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء غذِىّ ، وماء رَوِىّ ،

ومهاد وطئ ، وكنّ كنين ، ومكان مكين ، وحصن حَصين ، عززتَ به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضَّعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتْربة ؟ . ففيمَ الآن أنت من الأمر ؟ وما العوضُ عما عددت ، والخلفَ مما وصفت ؟ وما استفدتَ حين أَخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست فى خلافها يدكِ ؟ وما الذى أظلّك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شُعَب ، لاظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك .

ومنها : تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى فستنكرها . والمس جسدك وانظر هل يُحسُّ ؟ واجسُسْ عرقك هل ينبض ؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك ؟ وهل حلىَ بصدرك أن تظفر بِفوْت سريح ، أو موت مريح ؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله .

ومن شعره قوله لبعض إخوانه .

قد ذبتُ غيرَ حَشَاشةٍ وذِماء ... ما بين حرّ هوى وحر هواء
لا أستفيق من الغرام ولا أرى ... خِلوا من الأشجان والبُرَحاء
وصروف أيام أقمنَ قيامتى ... بنَوى الخليط وفرقة القرناء
وجفاء خِل كنت أحسب أنه ... عونى على السراء والضراء
أبكى ويُضحكه الفراق ولن ترى ... عجباً كحاضر ضحكه وبكائى

ومنها :

من يشف من داء بآخرَ مثله ... أثرَتْ جوانحه من الأدواء
لا تغتنمْ إغضـــاءتى فلعلها ... كالعين تغضيها على الأقذاء
واستبق بعض حُشاشتى فلعلنى ... يوماً أقيك بها من الأسواء
فلئن أرحت إلىّ عازب بلوتى ... ووجدت فى نفسى نسيم عزاء
لأجهّزنّ إليك قبحَ تشكر ... ولأنثرنّ عليك سوءَ ثناء
ولأعْضلنّ مودتى من بعدها ... حتى أزوجها من الأكفاء

الصاحب بن عباد

٣٢٦ — ٣٨٥

نشأته وحياته

وُلد كافى الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عبّاد بطالقان من أعمال قزوين ، ودرس على ابن فارس اللغوى ، واتصل بابن العميد شابًّا فأخذ عنه ؛ واشتدت صحبتهُ له فلقب من أجل ذلك بالصاحب . وزَرَ لمؤيد الدولة ابن بُويه بعد أن قُتل أبو الفتح بنُ العميد[1] وزيره ، فدبر أموره وسدّ ثغوره . ولما ملك فخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب ، فقال له : « لك فى هذه الدولة من إرث الوزارة ، مالنا فيها من إرث الإمارة . فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه .

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه ، وغرس للأدب جنانًا ناضرة ، وشاد للعلم ربوعا عامرة . وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه ، ويتنافسون فى مدحه ، وهو يرشدهم بنقده ، ويعينهم برفده ، حتى ازدهر الأدب فى عهد بنى بويه بفضله ازدهاراً قلّ أن يصادفه فى عهد آخر .

وكان للصاحب وَلَعٌ بجمع الكتب وشغف بمطالعتها . وكان مجلسه لا يخلو من أديب يحاضر ، ومتكلم يناظر ، وناشىء يروى ويستفيد . وعاش الصاحب ما عاش مبجلا مفضلا نافذ الأمر مطاع الإشارة . فلما مات أغلقت له أبواب الرى واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم فخر الدولة وقوادُهُ فى خير ملابسهم . فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض . ودفن بأصبهان .

---

(١) هو على أبو الفتح ذو الكفايتين ابن العميد بن أبى الفضل بن العميد الذى تقدم ذكره . خلف أباه على الوزارة لركن الدولة بن بويه حتى توفى فوزر لولده مؤيد الدولة فتغير عليه لبعض الأسباب فقتله .

نثره

سار الصاحب على نهج ابن العميد وأربى عليه فى الحِلْية اللفظية ولا سيما فى السجع والجناس ، حتى قيل فيه : « لو رأى سجعة تنحلّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، لما هان عليه أن يتخلى عنها » ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمى . وله ذوق سليم فى صوغ الشعر ونظر صادق فى نقده . ولم تعقُه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف ، فصنف فى اللغة كتاب المحيط فى سبعة مجلدات ، وكتاب الإمالة ،والكشف عن مساوىء المتنبى ، وغير ذلك : وأكبر فضله فى تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شُعلة الأدب .

نموذج من كلامه

كتب إلى القاضى أبى بشر الجرجانى حين وروده باب الرّى وافداً عليه :

تحدثت الركابُ بسير أروى   إلى بلد حططتُ به خيامى
فكدتُ أطير من شوق إليها   بقادمة كقادمة الحمام

أحقّ ما قيل أمرُ القادم ، أم ظنّ كأمانى الحالم ؟ لاوالله بل هودرك العيان ، و إنه ونيل المنى سيّان . فمرحباً أيها القاضى براحلتك ورحْلِك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك ، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك ! ووجدنا ريح يوسف من ريّاك ؟ فحثّ المطىّ تُزل غُلتى بسقياك ، وتزح علتى بلقياك . وقص علىّ يوم الوصول لنجعله عيداً مشرّفاً ، ونتخذه موسماً ومعرّفاً وردُّ الغلام ، أسرع من رجْع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك الصّبا فى عقال وأسْر .

سقى الله دارات مررتَ بأرضها   فأدّتك نحوى يازيادُ بن عامر
أصائلَ قُربٍ أرتجى أن أنالها   بلقياك قد زحزحن حرّ الهواجر

الخوارزمى

٣٠٣ — ٣٨٣ هـ

نشأته وحياته

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم ، ثم فارقها وهو فتىُّ السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق ، فجاب الأقطار وتقلب فى خدمة كثير من الملوك والأمراء . ولقى سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلوائه فى الاضطراب والاغتراب : فورد بخارى ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان ، فأكرم مثواه ثم زوده بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفَرته ، وربحت تجارته ، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى منى فى آخر زمانه بمساجلة البديع الهمذانى ومناظرته . فانخذل انخذالا شديداً ، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته ، وخمدت شهرته ، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حمامه سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة

منزلته فى الأدب والكتابة

رُوى عن الخوارزمى ما رُوى عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة ، وشُهر بذلك حتى قيل : إنه قصد الصاحب بن عباد بأرَّجان ، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال . إن بالباب أديباً يستأذن فى الدخول . فقال الوزير قل له : قد ألزمت نفسى ألا يدخل علىّ إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب « فقال أبو بكر للحاجب : ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فلما أُخبر بذلك الصاحب قال : هذا أبو بكر الخوارزمى !

وكان الخوارزمى مع ذلك إماماً فى اللغة والأنساب ، عالماً بأشعار العرب وأخبارها ، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب . وهو فى النثر من طبقة ابن العميد . وكثير من الناس يفضله على الصاحب . ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق ، ولا يرجع إلى سليقة . أما شعره فبين الردىء والجيد .

مختار من كلامه

من فصوله المختارة قوله : الرجال حصون يبنيها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البرّ واليُسر ، و يمحقها الجفاء والكِبر . وإنه لامال إلا برجال ، ولا صالح إلا بعد قتال . والجبان مقتول بالخوف . قبل أن يُقتل بالسيف ، والشجاع حى وإن خانه العمر ، وحاضر وإن غيبه القبر . ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب ، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب . وقال :

أكبرُ من الأسير من أسره ثم أعتقه ، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه . وأكرم من النبت الزكى من زرَعه ، وأكرم من الكريم من اصطنعه . لاصيدَ أعظمُ من إنسان ، ولا شبكة أصْيَدُ من لسان ، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته ، وبين من اقتنص إنسياً بمقالته !

ومن أجود شعره قوله :

مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى ... دمعان فى الأجفان يزدحمان
ماأنصفتنى الحادثات، رمينى ... بمودعين وليس لى قلبان

وقوله :

قلت للعين حين شامت جمالا ... فى وجوه كواذب الإيماض
لا يَغرّنْكِ هذه الأوجه الغرّ (م) فيارُبّ حيةٍ فى رياض

وقد ذم أحد خلفاء بنى العباس قال :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا ... من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا؟

ولقبوا رجلا لو عاش أوَّلهم ما كان يرضى به للقصر بوّابا
قلَّ الدراهمُ فى كفىْ خليفتنا هذا فأنفَقَ فى الأقوام ألْقابا

وقال فى الحِكَمَ :

لا تصحب الكسلان فى حالاته كم صالِح بفساد آخر يفسد
عدوَى البليد إلى الجليد سريعه والجمر يوضع فى الرّماد فيخمد

وقال يرثى ركن الدولة :

ألست ترى السيفَ كيف انثلَم وركن الخلافة كيف انهدم ؟
طوى الحسن بن بُوَيه الردى أيدرى الرَّدى أىَّ جيش هزم
فصيح اللسان بديع البيان رفيع السنان سريع القلم
إذا تم شىء بدا نقصُه توقع زَوالا إذا قِيلَ تمّ

بديع الزمان الهمذانى

المتوفى سنة ٣٩٨ ﻫ

نشأته وحياته

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمذان ونشأ بها . وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية ، ولم يترك أديباً فى همذان إلا استنفد ما عنده . ثم غادرها إلى الصاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه . وقصد جرجان فأقام فى أكناف الاسماعيلية واختص بأبى سعيد محمد بن منصور . وفى سنة ٣٨٢ يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته ، وذاعت بين الناس شهرته ، وأملى بها أربعمائة مقامة . ثم تصدى لمناظرة أبى بكر الخوارزمى ، وكان أسنّ منه وأشهر . وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات . وغلّب هذا قوم وذلك أخرون . وساعد البديعَ شبابُه ولسانه وحاجتُه إلى الظهور ، فظهر على الخوارزمى ظهوراً أطار ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء . وأجاب قرنه داعىَ ربه ، فخلا له الجو ، وابتسم له الدهر ،

وتنقل فى حواضر فارس منتجعاً أمراءها ، حتى ألقى عصاه بهرَات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها ، وعاش بها رَخىّ البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة ٣٩٨ .

واختلف فى موته فقيل مات مسموماً ، وقيل مات بالسكتة وعُجل بدفنه فأفاق فى جَدَثه ، وسُمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر .

أخلاقه ومواهبه

كان البديع مقبول الصورة ، خفيف الروح ، ناصع الظَّرف ، ذكى القلب ، قوى الحافظة . حدث التاريخ عنه أنه كان ينظر فى أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدى ما فيها لا يخرم منه حرفاً . وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة فى معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها . وربما ابتدأ بآخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متّسِق . وكان يترجم ما يُقترح عليه من الشعر الفارسى إلى الشعر العربى فيجمع بين الإبداع والإسراع .

نثره وشعره

نثر البديع يستهوى القلوب ويملك الشعور ، وكله من قبيل الشعر المنثور . وللصناعة تأثير فيه ؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع ، لم يفسده تكلف ، ولم يبهمه تعمق . وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيُّل . وقد تصرف هذا الكاتب فى فنون الترسل ، وتفنن فى ضروب الرسائل حتى كان بحَقّ فارس الطريقة العميدية وابنَ بجْدَتها .

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره ، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد .

مقاماته

المقامات[1] حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لاتستغرق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعظة أو مُلحة . ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول . والبديع أول من أجادهذا النوع . والمظنون أنه حاكى بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠ . وقد كتب أربعمائة مقامة فى الكُدْية وغيرها ، نحلها أبا الفتح الاسكندرى على لسان عيسى بن هشام . ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده . أسلوبها طلىٌّ شهى ، إلا أن قِصَرَ حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال . وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع .

مختار من كلامه

قال من رسالة : والله لولا يدٌ تحت الحجر ، وكبدٌ تحت الخنجر ، وطفل كفرخ يومين قد حَبَّبَ إلى العيش ، وسلب من رأسى الطيش ، لشمخت بأنفى عن هذا المقام . ولكن صبراً جميلا والله المستعان .

وقال من رسالة أخرى : وجدتك تعجب أن يجحد لئيم فضل صنيعك . تخفض عليك يرحمك الله ! إن الذى تعجب منه يسير ، فى جنب ما يجحده من الناس كثير . إن الله خلق أقواماً وشقّ لهم أبصاراً وآتاهم بصائر ، فغاصوا بها على عرق الذهب فقصدوه ، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه ، واحتالوا للطائر فأنزلوه من جو السماء ، وللحوت فأخرجوه من الماء ، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الغائصة والأذهان النافذة صانعهم : فقالوا أين وكيف ؟ حتى رأوا السيف . فلِمَ تعجب إن جحدوا فضلا ليست الأرضُ بساطه ، ولا الجبال سماطه ، ولا السماء فسطاطه ، ولا الليل رباطه ، ولا النهار صراطه ، ولا النجوم أشراطه ، ولا النار سياطه ... ؟

(١) اقرأ ما كتبناه عن المقامات بعد ذلك فى باب المقامات والقصص .

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره :

لعلك ياسيدى لم تسمع بيتى الناصح حيث قال :

اسمع نصيحة ناصح   جمع النصيحة والمِقَة
إياك واحذر أن تـكو   ن من الثقات على ثقة

صدق والله وأجاد . فللثقات ، خيانةٌ فى بعض الأوقات . هذه العين تريك السراب شراباً ، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً ، فلست بمعذور ، إن وثقت بمحذور ، وهذه حال السامع من أذنه ، الواثق بعينه . وأرى فلاناً يكثر غِشْيانك وهو الدنىء دِخْلته ، الردىء نحلته ، السيىء وصلته ، الخبيث جملته . وقد قاسمته فى أُزرك ، وجعلته موضع سرك . فأرنى موضع غلطك فيه ، حتى أُريك موضع تلافيه . ما أبعدَ غلطَك عن غلط إبراهيم عليه السلام ! إنه رأى كوكباً ، ورأيتَ تولبا . وأبصر القمر ، وأبصرت القدر . وغلط فى الشمس ، وغلطت فى الرمس ! أظاهرهُ غرك ، أم باطنه سرك ؟

ومن قوله فى أبى القاسم ناصر الدولة :

غضِّى جفونك يا ريا   ض فقد فتنت الحورَ غمْزا
واقْنَىْ حيــاءك يا ريا   ح فقد كدرْتِ الغصنَ هزا
وارفق بجفنــك يا غما   م فقد خدشت الورد وخزا
خلع الربيع على الرُّبى   وربوعها خـــزًّا وبزّا
ومَطارفا قـــد نقّشت   فيها يدُ الأمطار طرزا

ومنها :

وكأن أمطـــار الربيع   إلى ندى كفيك تُعزَى
يا أيهـــا الملك الذى   بعساكر الآمال يُغزَى
خلقت يداك على العِدى   ســـيفا وللعافين كنزا
لا زلت يا كنف الأمير   ر لنا من الأحداث حرزا

الحريرى

٤٤٦ — ٥١٦ هـ

نشأته وحياته

محمد القاسم بن على البصرى عربى صميم من بنى حرام . ولد بقرية يقال لها المشان ، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها . وكان فى أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريرى . وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب ، فجد فى الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته فى وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم . فقربه الأمراء وأمه الأدباء يستفيدون من علمه و يستزيدون من أدبه .

صفاته وأخلاقه

كان الحريرى دميا قصيراً بخيلا قذر الثوب مولعا بنتف لحيته عند التفكير . فعاضه الله من ذلك برائع أدبه ، ورقيق ملحه ، وسعة صدره ، واعترافه بالحق لأهله . ولذلك كان الحديث عنه خيراً من النظر إليه . سمع بشهرته رجل غريب فجاءه يتلقى عنه الأدب ، فلما رآه استزرى شكله ، وفهم الحريرى منه ذلك. فلما التمس منه أن يملى عليه قال له اكتب :

ما أنت أولُ سار غرّه قمرٌ ورائدٌ أعجبته خُضْرة الدمن
فاختر لنفسك غيرى إننى رجل مثل المعَيدىّ فاسمع بى ولا ترنى

فخجل الرجل وانصرف .

نثره وشعره

الحريرى كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع . وهو من ساقة أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البديع ، والمبالغة فى الصنعة ،

والإفراط فى تدبيج اللفظ ، والتفريط فى جانب المعنى ، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه عليلة ضئيلة كالعروس المسلولة جمّلوها بالأصباغ وأثقلوها بالغلائل والحلى . وشعره كنثره فى التكلّف بالبديع والعناية باللفظ . وضع منه كثيراً فى ثنايا المقامات وجُمع فى ديوان خاص .

مؤلفاته

له من المؤلفات كتاب درة الغواص فى أوهام الخواص ، انتقد فيه أهل عصره فى خروجهم عن حدود العربية فى بعض الألفاظ والتراكيب . وكتاب ملحة الإعراب فى النحو ، وديوان رسائل ، ثم المقامات وهى أجود آثاره .

مقاماته

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد السَّروجىّ على لسان الحارث بن همام ونسجها على منوال البديع . جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجى مالا غاية بعده . فهى ديوان مُمْتعٌ للألفاظ العربية ، والنوادر اللغوية ؛ والصناعة اللفظية ، ولعل ذلك هو السبب فى عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم . فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقا من الفرنسيين والألمان والإنجليز . وطبعت بالإنجليزية فى لندن سنة ١٨٥٠ ، وباللاتينية فى هبسبرج سنة ١٨٣٢ ، ونقلت إلى الفارسية سنة ١٢٦٣ ، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة . ولا تزال تدرس فى بعض جامعات أوربا بالشرح الذى وضعه لها رأس المستشرقين سلفستر دساسى سنة ١٨٢٢ .

عيوبها

ينتقدها أدباء الفرنج فى قصرها ، ووحدة مغزاها ، وأن المؤلف لم يُعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما ألّفه الفرنج واليونان قديما ، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه . وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال

متكرر فى صور مختلفة ، وإن فى إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوى الذى قيلت على لسانه .

سبب وضعها

سبب وضع المقامات أن الحريرى كان جالساً بمسجد بنى حرام بالبصرة ، فدخل المسجد شيخ ذو طمْرَيْن عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح المقال . فسأله الحاضرون : من أين الشيخ ؟ فقال : من سروج . فاستخبروه عن كنيته ، فقال أبو زيد . فأنشأ الحريرى المقامة الحرامية وعزاها إلى أبى زيد وجعل الراوى فيها الحارث بن همام مريداً نفسه . أخذاً بالحديث المأثور : كلكم حارث وكلكم همام . واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله ، فأعجب بها وأشار على الحريرى أن يضم إليها سواها فأتمها خمسين .

مختار من كلامه

قال يشكر أحد الوزراء : دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة ، وسعوده جديدة ، وعلياؤه محسودة ، وأعداؤه محصودة ، دعاء من يتقرب بإصداره ، على بعد داره ، ويقصر عليه ساعاته ، مع قصور مسعاته . وشكره للانعام الذى أوصله إلى التجميل والتأميل ، وجمع له بين التنويه والتنويل ، شكْر من أطلق من أسره ، وأذيق طعم اليسر بعد عسره . ولو نهضت به القدمان ، وأسعده عون الزمان ، لقدم اعتمار الباب المعمور ، وأسرع إليه إسراع العبد المأمور ، ليؤدى بعض حقوق الإحسان ، ويقرأ صحف الشكر باللسان . ولكن أنى ينهض المقعدَ ؟ ومَنْ له بأن يصعد فيسعد ؟

ومن شعره فى الحكم قوله :

لا تزرْ من تحب فى كل شهر ... غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم ... ثم لا تنظر العيون إليه

وقال أيضاً :

لا تقعدن على ضر ومَسْغَبَة ... لـكى يقالَ عزيزُ النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرض مُعَطلة ... من النبات كأرض حفَّها الشجر ؟
فعدّ عما تشير الأغبيـاء به ... فأىُّ فضل لعود ما له ثمر ؟
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به ... إلى الجناب الذى يَهمى به المطر
واستنزل الرّىَّ من دَرِّ السحاب فإن ... بُلَّت يداك به فليهنك الظفرَ

القاضى الفاضل

المتوفى سنة ٥٩٦ ﻫ

نشأته وحياته

ولد أبو على عبد الرحيم البَيسانى بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين ، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين علىّ قاضى عسقلان . ثم ورد مصر فى أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الـكتابة فى الديوان ، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيها . ومالبث أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه ، فقدم القاهرة وكتب فى ديوان الظافر . ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملـكه خير سياسة . ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل . وتوفى سنة ٥٩٦ بالقاهرة .

منزلته فى الكتابة

كان من طبيعة منصب القاضى الفاضل أن يخالط الـكتاب فى الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الـكتابية المتباينة فى الشام والعراق ومصر . فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغراق فى التورية والجناس ، حتى أصبحت الـكتابة فى عهده

كما ذكرنا من قبلُ طلاء خداعاً من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى السقيم . بهرت هذه الطريقة المقيمة العيون الـكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عُبّاد الصنعة من أشباه الـكتّاب ، وورّطوا أنفسهم فيما لا غناء فيه ولا رجْع منه . وظل هذا المذهب غاشياً على العيون ، رائناً على القلوب ، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية .

نموذج من كلامه

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عَيْذَاب فى توليته خطابة الـكرك وهى :

أدام الله السلطان الملكَ الناصر وثبّته ، وتقبّلَ عمَلَه بقبول صالح وأثبته ، وأخذ عدوّه قائلا أو بيّته ، وأرغم أنفه بسيفه وكَبَته .

خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيْذَاب . ولما نبا به المنزل عنها، وقلّ عليه المرفق منها ، وسمع هذه الفتوحات التى طبّق الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها شـكرُها ، هاجر من هجير عيْذاب ومِلْحها ، سارياً فى ليلة أملٍ كلها نهارٌ فلاَ يسأل عن صبحها . وقد رغب فى خطابة الـكَرَك وهو خطيب ، وتوسل بالمملوك فى هذا الملتمَس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيْذاب إلى الـكرك وهذا عجيب . والفقر سائق عنيف ، والمذكور عائل ضعيف ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف ، والسلام .

الفصل الرابع

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الاجتماعى فى خواطر الشعراء أبلغَ منه فى نفوس الكتاب ؛ فإن أولئك بالخلفاء ألصقُ ، ونفوسهم بالترف والمدنية أعلقُ . وهم المنادمون على الشراب ، والمفاكهون فى السمر . ضاق مضطربُهم فى السعى فاتسع متقلَّبُهم فى الخيال ، وغلَّت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول . ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصعوبة النسخ والنشر فتفرغوا لصوْغ الشعر فى ضروبه المختلفة . ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً ، ومن الحضارة والطبيعة ناصراً ، ومن القريحة والسليقة مؤاتاة، فجالوا فى الشعر جولة لم تتوفر أسبابها لأسلافهم ، ونقلوه من البوادى المجدبة ، والأخبِيَة المطنَّبة إلى الرياض الناضرة ، والقصور الشاهقة ، والمناظر المونقة . على يد زعيم المولدين بشار .

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت فى أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه.

فأما التأثير فى أسلوبه ، فبهجر الكلمات الغريبة ، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث [1] البديع والاستكثار منه ، وتركِ الابتداء [2] بذكر الأطلال إلى

---

(١) ظهر البديع على قلة فى شعر مسلم بن الوليد ومن بعده حتى جاء أبو تمام فقصد إليه وابن المعتز فأفاض فيه .

(٢) أول من كسر هذا القيد مطيع بن إياس أو أبو نواس على الأرجح يدل على ذلك

مثل قوله : صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله : يبكى على طلل الماضين من أسد   لادر درك قل لى من بنو أسد

لاجف دمع الذى يبكى على حجر   ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وقوله : يا ربع ، شغلك إنى عنك فى شغل   لاناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وصف القصور والخمور والغزل ، والإغراق في المدح والهجاء ، والإكثار من التشبيه والاستعارة ، والحرص على التناسب(١) بين أجزاء القصيدة ، ومراعاة الترتيب في التركيب .

وأما في معانيه فبتوليد المعاني الحضرية ، واقتباس الأفكار الفلسفية ، إذ أكثر شعراء هذا العصر ولدان جنسيتين ، ورضّاع لغتين وأدبين . وربائب حضارتين مختلفتين . ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي . ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه لا في فنونه ، لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة ، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم ، ولا بشعر اللاتين وخطبهم ؛ تعصباً لأدبهم وإيثاراً لشعرهم ؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم .

وأما في أغراضه فبالمبالغة في نعت الخمر ومجالسها ، ووصف الرياض والصيد ، وغزل المذكر ، والمجون ، والوعظ ، والزهد ، والأخلاق ، والفلسفة ، وضبط العلوم كالنحو وغيره .

وأما في أوزانه ، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة ، وابتداع أوزان أخرى ، كالمستطيل والممتد وهما عكس الطويل والمديد ، والموشح(٢) والزجل ،

(١) جاء في زهر الآداب عن الحاتمي قوله : مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالمه . وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذه الحال حتى يقع الاتصال وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم ..

(٢) أول من ابتدع للشعراء الموشح مقدم بن معافر من شعراء الأمير ابن عبد الله المرواني ، (وهم ينظمونه أسماطاً أسماطاً ؛ وأغصاناً أغصاناً ، ويكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً . ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان =

والدوبيت[1] والمواليا . وكذلك فى القافية كالمُسَمَّط[2] والمُزْدَوج .

ولما انفرط عقد الخلافة ، وتعددت حواضر الدولة ، باستقلال الولاة فى فارس والشام ومصر والمغرب ، وجد الشعر فى غير بغداد ملاذاً وحِمى ؛ فانتقل إلى تلك الأمصار فصادف من أمثال بنى بويه وآل حمدان أ كُفاسمْحة ،وصدوراً رحْبة، وربوعاً خصبة ،فازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة . ولنَظْرةٌ عَجْلى فى فهرس اليتيمة للثعالبى[3] تكفيك لتعلم أثر ذلك التشعب السياسى فى نهضة الشعر ، إذ كان الأمراء يتقيلون الخلفاء فى تقريب الشعراء وتعضيد الأدباء . والشعر والعلم كما رأيت

عندها بحسب الأغراض والمذاهب . ثم نسج أهل الأمصار على منوال الوشح ،ونظموا أمثاله بلغتهم الحضرية من غير التزام إعراب ،وسموا هذا النوع بالزجل . وأول من أبدعه أبو بكر ابن قزمان الأندلسى ...) أنظر مقدمة ابن خلدون .

(١) الدوبيت : مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، (ودو بالفارسية اثنان) وهو مشهور عند الفرس بالرباعى ووزنه : فعلن متفاعلن فعولن فعلن كقول بعضهم :

قد أقسم من أحبه بالبارى   أن يبعث طيفه مع الأسحار
يانار أشــواقى به فاتقدى   ليلا فعساه يهتــدى بالنار

أما المواليا فأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد نكبتهم . فكانوا ينوحون عليهم به ويكثرون من قولهم (يامواليا) فعرف بهذا الأسم وهو مشهور بين عامة مصر .

(٢) المسمط هو أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرع ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسيما على قافية البيت الأول . وربما خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة كقول القائل .

غزال هاج لى شجناً فبت مكابداً حزنا عميد القلب مرتهناً بذكر اللهو والطرب

أما المزدوج فهو أن يؤتى بشطرين من قافية ، ثم بآخرين من أخرى ، كقول أبى العتاهية

حسبك مما تبتغيه القوت   ما أكثر القوت لمن يموت
إن الشباب حجة التصابى   روائح الجنــة فى الشباب

(٣) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى ولد بنيسابور وعكف على تحصيل العلم والأدب حتى انتهت إليه الزعامة فيهما ، وهو خاتمة المترسلين فى العصر العباسى وأكثر الأدباء آثاراً وأغزرهم مادة . وهو يجرى على طريقة ابن العميد فى النثر والشعر . وله مؤلفات كثيرة فى الأدب ، أهمها يتيمة الدهر ، وهى أربع مجلدات جمع فيها مختار المنثور والمنظوم لأدباء عصره مع ذكر تراجمهم،وكتاب فقه اللغة فى دقائق الألفاظ المترادفة، وكتاب سر العربية ، وسحر البلاغة ، ومن غاب عنه المطرب . وتوفى سنة ٤٢٩ .

لا يزهوان إلا فى ظل ملك أو أمير (١) .

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ ، والإصابة للغرض ، والافتنان فى المعنى ، حتى تجرّم القرن الخامس للهجرة ، فذهب معه جمال الشعر العربى من الشرق ، وفقد تأثيره فى النفوس ، لذهاب المعضدين له من بنى بويه ، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق (٢) ، واستشعار النفوس لذل الغلبة والقهر بتوالى الفتن والمحن ، فانصرفت الخواطر إلى التصوف والأدعية ، وعَيَّت القرائح عن التوليد والابتداع ، فجلا الشعراء معانى الأقدمين فى حلل مُهلهلة النسج مُنمنمة الوشْى ، وأخذوا يتعلقون بالبديع ، ويُغلون فى المجاز والكناية ، ويقلدون العجم فى إغراقهم ومهاواتهم الملوك (٣) والأمراء ، ولا سيما المتأخرون منهم ، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء فقالوا : « أعذب الشعر أكذبه » . ثم كان مآل الشعر فى هذا العصر كمآل النثر فيه سواء بسواء .

---

(١) قال أسامة بن معقل : كان السفاح راغبا فى الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها ، فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنيا بالأسمار والأخبار وأيام العرب يدنى أهلها ويجزيهم عليها ، فلم يبق شىء من الأسمار والأخبار إلا حفظته طلبا للقربة منه فظفرت بها . وكان موسى مغرماً بالشعر يستخلص أهله ، فما تركت بيتاً نادراً فاخراً ، ولا شعراً ولا نسيبا سائراً إلا حفظته . وأعانني على ذلك طلب الهمة فى علو الحال . ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآدب من رغبة الملوك فى أهلها وصلاتهم عليها ، ثم زهد هرون فى هذه الأربعة فأنسيتها حتى كأنى لم أحفظ منها شيئاً .

(٢) أسرة من الترك تنتسب إلى جدها سلجوق . تألبوا على الدولة العباسية وهى فى انحلالها ونهايتها فاستولوا على ملكها واستقلوا به استقلالا فعليا سنة ٤٤٧ هـ .

(٣) تشجيع الخلفاء والأمراء للشعراء بالجوائز والعطايا كان له ضرر فى خفض الشعر كما كان له نفع فى رفعه ؛ وذلك لأن الشعراء الذين ما كانوا يجدون السبيل الى الرزق إلا بالحظوة لدى الملوك والأمراء ، اضطروا إلى قول الشعر وإن لم تدفعهم شهوة إلى قوله . فكدوا الخاطر وأجهدوا الطبع ؛ فجاءوا بالشعر الكاذب المتكلف ، ونزلوا عن استقلالهم الشخصى وهو أرفع محاسن النفس إلى حضيض التملق الدنىء والنفاق السافل . ذلك أن الطمع فى صلات الكبراء دفع كثيراً من ضعفاء السليقة فى الشعر الى قرضه فأتوا منه بالحقير التافه ، وكان ذلك من الأسباب التى ساعدت على انحطاطه .

وأنت إذا أخذت الشعر العربى كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحى وجدته قد تطور فى موضوعه تطور الأمة العربية ، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية ؛ فهو فى الجاهلية أنغام صبى ، وحماسة فتوة وعواطف أثرة ، وفى الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة . ثم استحار شبابه واكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما عبث شباب ، وأغانى طرب ، ومظاهر ترف . ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل فى أوساطها فبدا فى شعر ابن الرومى وأبى تمام والمتنبى وأمثالهم دروس تجربة ، ونتائج حكمة ، وخواطر فلسفة . ثم أدركه الهرم فى أواخرها فظهر فى شعر المتأخرين تمويه صنعة ، وخرف شيخوخة ، ومعالجة روح . أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلا فى علمه .

نماذج من الشعر العباسى

الحماسة

قال أبو فراس الحمدانى :

ولما ثار سيف الدين ثُرنا … كما هيجت آساداً غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا … صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مُشْرعَاتٌ … فكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ففاقت … وغرس طاب غارسه فطابا
وكنا كالسهام إذا أصابت … مراميها فراميها أصابا
فلما اشتدت الهيجاء كنا … أشدّ مخالباً وأحدّ نابا
وأمنع جانباً وأعزّ جاراً … وأوفى ذِمة وأقلّ عابا
إذا ما أرسل الأمراء جيشاً … إلى الأعداء أرسلنا الكتابا

وقال أبو الطيب المتنبى :

عش عزيزاً أو مُتْ وَأنت كريمٌ … بين طعن القنا وخَفْق البنود

فرءوس الرماح أذهب للغيـ ظ وأشفى لغلِّ صدر الحقود
لا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ وإذا متَّ مُت غيرَ فقيد
فاطلب العز فى لظى ودع الذلَّ (م) ولو كان فى جنان الخلود

المدح

قال أبو تمام :

بمهدىّ بن أصرم عاد عُودى إلى إيراقه وامتــد باعى
سمى فاستنزل الشرف اقتساراً ولولا السعى لم تــكن المساعى
ونغمَة مُعْتَفٍ يرجوه أحلى على أذنيه من نغم السماع
جعلت الجودَ لألاء للساعى وهل شمسٌ تــكون بلاشعاع؟
ولم يحفظ مُضاعَ المجد شىء من الأشياء كالمال المضاع
ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وقال المتنبى :

قوم بلوغ الغلام عندهُم طعنُ نحور الــكُماة لا الحلم
كأنما يولد النــدى معهم لا صغــرٌ عاذرٌ ولا هرَم
إذا تولوا عــداوة كشفوا وإن تولوا صنيعة كتموا
تظن من كثرة اعتذارهمُ أنهم أنعموا ومـــا علموا
إن برقوا فالحتوفُ حاضرةٌ أو نطقوا فالصوابُ والحِــكَم
تشرق أعراضهم وأوجُههم كأنهـــا فى نفوسهم شِيَم
أعيذكم من صُروف دهركمو فإنهُ فى الــكرام مُتهم

وقال ابن الرومى .

كأن مواهبهُ فى المحـــو ل آراؤه عند ضيق الحِيَلْ
فلو كان غيثاً لعمَّ البــلادَ ولو كان سيفاً لــكان الأجل
ولو كان يعطى على قدره لأغنى النفوسَ وأفنى الأمل

الرثاء

قال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

ألمّا على مَعن وقُولاَ لقبره | سقتك الغَوادى مرْبعاً ثم مَربعاً
فيا قبر مَعْنٍ أنت أوّلُ حفْرة | من الأرض خُطَّت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريتَ جُودَه | وقد كان منه البر والبحر مترعاً !
بلى قد وسعتَ الجودوالجودُ ميتٌ | ولو كان حيّاً ضقْتَ حتى تصدّعا !
فتىً عيشَ فى معروفه بعدَ موته | كما كان بعد السيل مَجْراه مرْتعا
ولما مضى معنٌ مضى الجود وانقضى | وأصبح عرْنينُ المكارم أجْدَعا

وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرثى زوجته :

ألا مَنْ رأى الطفل المفارق أمّهُ | بُعيد الكرى عيناه تنسكبان ؟
رأى كل أم وابنَها غير أمه | يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً فى الفراش تَجُنُّهُ | بلابلُ قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى إن بكيت فإنما | أداوى بهذا الدمع ما تريان
فهبنى عزمت الصبر عنها لأننى | جليد ، فمن بالصبر لابن ثمان ؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حِسبة | ولا يأتسى بالناس فى الحدَثان
فلم أر كالأقدار كيف تصيبنى | ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعينىَّ إن لم تسعدا اليوم عبرتى | فبئس إذَنْ ما فى غد تعدانى

وقال المتنبى يرثى أخت سيف الدولة :

طوى الجزيرَةَ حتى جاءنى خبرٌ | فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقُه أملا | شرِقْتَ بالدمع حتى كاد يشرَق بى

الهجاء

قال مسلم بن الوليد .

أما الهجاء فدق عرضك دونه | والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه | عرض عززت به وأنت ذليل

وقال أبو تمام :

كم نعمة لله كانت عنده ... فكأنها في غربة وإسار

كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء في الأطمار

وقال ابن الرومي :

يُقتِّر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من مِنخر واحد

وقال المتنبي في كافور الإخشيدي :

أكلما اغتال عبدُ السوء سَيِّدَهُ ... أو خانه فله في مصر تمهيد ؟

صار الخصيُّ إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود !

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... حتى بشمن وما تفنى العناقيد

العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الحر مولود

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

من علم الأسودَ المخصيَّ مكرمُةً ؟ ... أقومهُ البيض أم آباؤه الصِّيدُ ؟

أم أذنه في يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود ؟

وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود؟

وقال ابن لنكك :

وعصبةٍ لما توسطتهم ... صارت عليَّ الأرض كالخاتم

كأنهم من سوء أفهامهم ... لم يخرجوا بعدُ إلى العالم

يضحك إبليسُ سروراً بهم ... لأنهم عارٌ على آدم

الوصف

قال البحتري من قصيدته في وصف إيوان كسرى :

صنْتُ نفسي عما يدنِّس نفسي ... وترفعتُ عن جَدَا كل جِبس

وتماسكتُ حين زعزعني الدهـ ... ـرُ التماساً منه لتعسي ونكسي

بُلَغٌ منْ صبابة العيش عندي ... طفَّفتها الأيام تطفيف بخس

وكأن الزمان أصبح محمو … لاً هواه مع الأخسّ الأخس
واشترائى العراق خُطة غبْنٍ … بعد بيعى الشآم بيعة وكس
ولقد رابنى نبوّ ابن عمى … بعد لين من جانبيه وأنس
وإذا ما جُفيت كنت حَرِيّاً … أن أُرى غير مُصبح حيث أُمسى
حضرت رحْلى الهموم فوجه … ت إلى أبيض المدائن عَنْسى
أتسلى عن الحظوظ وآسى … لمحلٍّ من آل ساسان دَرْس
ذكّرتنيهمُ الخطوب التوالى … ولقد تُذكر الخطوب وتُنسى
وهُمُ خافضون فى ظل عال … مشرف يُحْسِرُ العيون ويخسى
مُغلق بابهُ على جبل القبـ … ق إلى دارتىْ خِلاط ومكس
حِلَلٌ لم تكن كأطلال سُعْدى … فى قفار من البسابس مُلْس
ومسَاع لوْلا المحاباة منى … لم تطِقها مَسْعاة عنس وعبس
نقل الدهرُ عهدهن عن الجـ … ـدّة حتى غدون أنضاء لُبس
فكأن الجرماز من عدم الأنـ … ـس وإخلاقه بَنِيَّة رمس
لو تراه علمت أنّ الليالى … جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم … لا يُشاب البيان فيهم بلبس
وإذا ما رأيت صورة أنطا … كّية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنو شر … وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
وعراك الرّجال بَين يَديهِ … فى خفوت منهم وإغماض جَرس
من مشيح يهوى بعامل رمح … ومُليح من السنان بترس
تصف العينُ أنهم جِدُّ أحيا … ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلى فيهمُ ارتيابىَ حتى … تتقراهمُ يَدى بلمس
قد سقانى ولم يُصَرِّد أبو الغو … ث على العسكرين شربة خَلْس
من مُدَامٍ تَقُولها هى نجمٌ … أضوأ الليلَ أوْ مُجاجة شمس
وتراها إذا أجدّت سرُوراً … وارتياحاً للشارب المتحسى

أفرغت فى الزجاج من كلّ قلب　　فهىَ محبوبةٌ إلى كلّ نفس
وتوهمت أن كسرى أبرويـ　　ـز معاطىّ والبلهبذَ أنسى
حلمٌ مطبق على الشكّ عينى　　أم أمانٍ غيّرن ظنى وحدسى
وكأنّ الإيوان من عجب الصنـ　　ـعة جَوْبٌ فى جنب أرْعن جلْس
يتظنّى من الكآبة إن يبـ　　ـدو لعينىْ مُصبّح أو مُمَسّى
مزعجاً بالفراق عن أنس إلف　　عز أو مُرْهقاً بتطليق عِرس
عكست حظّه الليالى وبات الـ　　ـمُشترى فيه وهو كوكب نحس
فهوَ يُبْدِى تجلداً وعليهِ　　كلْكلٌ من كلاكل الدهر مُرسى
لم يَعِبْه أن بُزّ من بسُط الديـ　　ـباج واستُلّ من ستور الدمَقْس
مشمخرٌ تعلو له شُرُفات　　رفعت فى رءوس رَضْوى وقُدس
لابسات من البياض فما تُبـ　　ـصرُ منها إلا غلائل بُرس
ليس يُدْرى أصنع إنس لجنٍ　　سكنوه أم صنع جن لإنس
غير أنى أراه يشهد أن لم　　يك بانيه فى الملوك بنِكس
فكأنى أرَى المرَاتب والقوْ　　مَ إذا ما بلغت آخر حسى
وكأن الوفودَ ضاحين حسرى　　من وقوف خلْفَ الزحام وخُنس
وكأن القيان وسط المقاصيـ　　ـر يُرَجّعن بَين حُو ولُعس
وكأن اللقاء أوّل من أمـ　　ـس ووشْكَ الفراق أوّل أمس
عُمّرت للسرور دهراً فصارَت　　للتعزّى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدُموع　　موقفات على الصبابة حُبْس
ذاك عندى وليست الدار دارى　　باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نُعمى لأهلها عند أهلى　　غرسوا من زكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدُّوا قواه　　بكُماة تحت السنَّوّر حُمْس
وأعانوا على كتائب أريا　　ط بطعن على النحور ودَعْس
وأرانى من بعد أكلَف بالأشـ　　ـراف طراً من كل سِنخ وأسّ

وقالت إحدى شواعر الأندلس تصف وادى آش :

وقانا لفحةَ الرمضاء واد … سقاه مضاعفُ الغيثِ العميم
حللنا دوحه فحنا علينا … حنوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا … ألذّ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى … فتلمس جانب العقد النظيم
يَصدُّ الشمس أنى واجهتنا … فيحجبها ويأذن للنسيم

الحكم والأمثال

قال بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً … صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعِشْ واحداً أوصل أخاك فإنه … مُقَارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى … ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه

وقال مسلم بن الوليد :

حسبي بما أبدت الأيام تجربةً … سعَى علىَّ بكأسيها الجديدان
دلت على عيبها الدنيا وصدقها … ما استرجع الدهر مما كان أعطانى
ما كنت أدَّخر الشكوى لحادثة … حتى ابتلى الدهر أسرارى فأشكانى

وقال أبو العتاهية :

الصمت أجمل بالفتى … من منطق فى غير حِينه
لا خير فى حشو الكلا … م إذ اهتديت إلى عيونه
كل امرىء فى نفسه … أعلى وأشرف من قرينه

وقال أبو تمام :

مَنْ لى بإنسان إذا أغضبته … وجهلت كان الحلمَ ردُّ جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من … أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغى للحديث بقلبه … وبسمعه ولعله أدرى به !

وقال البحترى :

وتِرتُ القوم ثم ظننت فيهم ظنوناً لست فيها بالحكيم
فما خُرْقُ السفيه وإن تعدَّى بأبلغ فيك من حقد الحليم
متى أَحْرَجْتَ ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللئيم

وقال ابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب
وما اللجَجُ المِلاَحُ بمُرْوياتٍ وتلقى الرِّىّ فى النُّطَف العذاب

وقال المتنبى :

إنا لفى زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والأقدام قتال
وإنما يبلغ الإنسان طاقته ما كل ماشية بالرحل شِملال
ذكر الفتى عمره الثانى ، وحاجته ما قاته ، وفضول العيش أشغال

الاعتذار والاستعطاف

قال على بن الجهم يعتذر للمتوكل :

عفا الله عنك ألا حرمةٌ تجود بعفوك أن أبعدا
لئن جلّ ذنب ولم أعتمد لأنت أجل وأعلى يدا
ألم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ورشيداً هدى ؟
ومفسد أمر تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقِلْنى أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

وقال البحترى :

فَدَيناك من أى خطب عَرى ونائبة أوشكت أن تنوبا

وإن كان رأيك قد حال فىَّ وأوليتنى بعد بشر قطوبا
أكذِّبُ نفسى بأن قد سخطت وما كنت أعهد ظنى كذوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا
أيصبح وردىَ فى ساحتيك طَرْقاً وَمرعاىَ مَحْلاً جديبا !
وما كان سخطك إلا الفراق أفاض الدموع وأشجى القلوبا
ولو كنت أعرف ذنباً لما كا نَ خالجنى الشكّ فى أن أتوبا
سَأصبرُ حتى ألاقى رِضا كَ إمَّا بَعيداً وَإمّا قريبا
أرَاقِبُ رَأيكَ حَتى يَصحّ وأنظر عطفك حَتى يثوبا

وقال سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً ، فإنْ زعمت بأن أتيت ذنباً ، فغير مُعتمد
قد تطرف الكفُّ عين صاحبها فلا يرى قطعها من الرّشد

ومن قصيدة للمتنبى يستعطف بها سيف الدولة لبنى كلاب بعد أن ظفر بهم :

طَلبتهمُ على الأمَواء حَتى تخوّف أن تفتشه السحاب
يهز الجيش حولكَ جانبيه كما نفضَتْ جناحيهْا العقَاب
وكيف يتمُّ بأسك فى أناس تُصيبهُمُ فيؤلمكَ المصاب ؟
ترَفقْ أيها المولى عليهم فإنْ الرّفَق بِالجاِنى عتاب
وإنهمُ عبيدكَ حيثُ كانوا إذا تدعو لحادثة أجابوا
وعينُ المخطئين همُ وليسوا بِأوّل مَعشر خَطئوا فتابوا
وماَ جهلت أياديكَ البوَادى ولكن ربما خفىَ الصّواب
وكم ذنب مُوَلّدُهُ دلال وكم بُعدِ مُوَلّدُهُ اقتراب
وجُرم جرّهُ سفهاء قوْم وحلّ بغير جارمه العقِاب

الفصل الخامس

الشعراء المولدون

كان الشاعر فى الجاهلية لسان دفاع ، وحامى ذمار ، ومسجل محامد ؛ وفى الدولة الأموية كان داعية دين ، ودعامة مُلك ، وناشر مذهب، ومؤيد فرقة؛ وفى الدولة العباسية كان نديم خليفة ، وسمير أمير ، وأليف كأس ، وصريع غانية. وكان أكثر شعراء بغداد فى صدْر هذا العصر من الموالى الذين أطاعوا العرب كرها ، واعتقدوا الإسلام رياء ، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون ، وأذاعوا فى الناس الزندقة والشك ، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة ، والمعانى المبتكرة ، والأخيلة البديعة ، والأوصاف الدقيقة ، والمذاهب الجديدة، والعبقريات المأثورة ، كمطيع بن إياس ، وحماد عجْرد . وحسين بن الضحاك ، وبشار بن بُرْد، ووالبة بن الحباب ، وأبى نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبان بن عبد الحميد ، وأبى العتاهية ، وأبى دلامة ، ومروان بن أبى حفصة ، وعباس بن الأحنف ، وعلى ابن الجهم ، ودعبل الخزاعى ، والعَسكوّك .

شعراء بغداد

بشار بن برد

المتوفى سنة ١٦٧

نشأته وحياته

هو بشار بن بُرْد بن يرجوخ العقَيلى بالولاء كنيته أبو معاذولقبه المرَعّث لأنه كان فى أذنيه رُعثة ، « والرعثة القرط » . أصل أبيه من فرس طخارستان

من سبي المهلب بن أبي صفرة ، وهبه لامرأة من بني عقيل فتزوجته ونسب إليها . ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعا بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين ببادية البصرة ، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ ، ولذا كان آخر من يحتج النحاة بشعرهم من الشعراء . فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح ، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لولا تعديه بالهجاء ، وتعرضه للنساء ، وهتكه ستر الحشمة ، حتى نقم الناس ذلك منه ، وتمنوا موته صونا للعذارى وغيرة على المخدرات . قال مالك بن دينار . « ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد » ، ودخل فريق من الغُيُر على المهدى فأسمعوه قصيدة من غزله ، فقال : « بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب » وأمر به ، فلما جاء قال له : « والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لآتينّ على روحك » ، فكان بشار بعد ذلك إذ أراد الغزل ذكر أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر مايريد من اللهو وحديث النساء .

ولما توقح بشار وتهتك ، ولم يردعه تهديد المهدى له ، ولا زراية الناس عليه ، سُعى به ثانية إلى الخليفة ورُمى عنده بكل نقيصة . وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدى فلم يجزه لميله عنه وتغيره عليه ، فهجاه بأبيات منها :

بنى أميةَ هُبُّوا طال نومكمُ ... إن الخليفة يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزقّ والعود

وبلغ الخليفة ذلك ، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضرب به بالسوط ، فضرب به حتى مات سنة ١٦٧ ، وقد أوفى على السبعين

صفته وأخلاقه

ولد بشار أكْمَهَ فما رأى الدنيا قط . على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء ، كقوله :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

وكان ضخم الجثة ، مفرط الطول ، مجدور الوجه ، جاحظ الحدقتين ، قد تغشاهما لحم أحمر ؛ فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً . قالت له امرأة ذات يوم : لا أدرى لِمَ يهابك الناس مع قبح صورتك ؟ فأجابها : ليس من حسنه يُهاب الأسد . ودخل عليه أحد الأدباء يوما وهو نائم فى دهليزه كأنه جاموس ، فقال له : يا أبا معاذ ، من القائل :

إن فى بُردىّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

قال : أنا . قال : من القائل أيضاً :

فى حُلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال : أنا قال : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم الخالية ماحركتك من موضعك !

وكان بشار متوقد الذكاء ، حاضر الجواب ، صادق الحس ، بذىء اللسان ، كثير المجون ، مغموز الدين ، يؤمن بالرجعة ويصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين وإبائه السجود لآدم فى مثل قوله :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان إذا أراد الإنشاد صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالا ثم ينشد !

شعره

قال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين ، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه . وقد أدرك جريراً وهجاه وقال : هجوت جريراً فاستصغرنى وأعرض عنى ، ولو رد على لكنت أشعر الناس . وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن سوقه كانت نافقة أيام ولد . وطرق كل باب من أبواب الشعر التى فتحت قبله ثم

زاد عليها . ورواة الشعر ونقدته متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين [١] ، وأسبقهم إلى المجون البذىء والغزل الرقيق ، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضر ، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث . فهو فى المولدين كامرىء القيس فى الجاهليين ، والبارودى فى المحدثين ، وكان الأصمعى يشبهه بالأعشى والنابغة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشى والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتبريز فى سائر مناحى القول وفنون الكلام فقال: «كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومُزدَوج وسجع ورسائل . وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفننين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه».

ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعاؤها ، وافتتن به نساؤها ؛ فكن يذهبن إليه ، وينعمن بحديثه ، ويتغنين بشعره . فهوى جارية منهن تسمى عَبْدَة ، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة.

عيوب شعره

لا يتسنى لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه ؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان ، ولم يبق من اثنى عشر ألف قصيدة إلا قطع مختارة منتثرة فى الكتب [٢] وكل ما يعلم من عيوبه خروجه فى شعره عن الحد المألوف من المجون ، وتكميله القافية إذا أعوزته بألفاظ لا حقيقة لها ، وتبذله فى شعره أحيانا فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله فى جاريته :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

---

(١) المولدون أو المحدثون هم الشعراء الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة كشعراء العصر العباسى . وميزتهم فى شعرهم توليد المعانى ، ودقة الأغراض ، ورقة الألفاظ وجمال الصنعة ، إلا أنهم أقل من سابقيهم أسرا وفحولة ، وأكثر تصنعا وكلفة .

(٢) اختار له (الخالديان) طائفة حسنة من شعره ثم شرحاها تحت عنوان (المختار من شعر بشار) وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٥ م .

وقوله :

إن سلمى خلقت من قصب   قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا   غلب المسك عَلَى ريح البصل

ولكنه كان يعتذر عن مثل الأول بأن له حالا تقتضيه ، وعن مثل الثانى بأنه قاله فى صباه .

نموذج من شعره

من قوله فى الغزل :

يزهدنى فى حب عبْدَة معشرٌ   قلوبُهمُ فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى   فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحبِ

وقوله :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى ؟ فقلت لهم   الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقوله :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم
نفِّسى يا عبد عنى واعلمى   أننى يا عبدَ من لحم ودم
إن فى بردىَّ جِسما ناحلا   لو توكأت عليه لانهدم

ومن أبياته السائرة قوله :

هل تعلمين وراء الحب منزلة   تدنى إليك ، فإن الحب أقصانى

وقوله :

أنا والله أشتهى سحر عينيـ   ـك وأخشى مصارع العشاق

وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر :

طبعت عَلَى ما فىّ غيرَ مخيَّر   هواىَ ، ولو خُيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد   وقصّر علمى أن أنال المغيبا

ومن قوله فى الوصف والحماسة :

إذا الملكُ الجبارُ صعّر خدّهُ ... مَشَيْنا إليه بالسيوف نعاتبه
وأرْعَنَ يغشى الشّمس لونُ جديده ... وتحْبسُ أبصارَ الكماة كتائبُه
تغصُّ به الأرضُ الفضاء إذا غدا ... تزاحِمُ أركانَ الجبال مَنَا كبُه
ركبنَا له جَهْراً بكلِّ مثقف ... وأبيض تستسقى الدّماء مضاربه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أبو العتاهية

١٣٠ — ٢١١ ﻫ

نشأته وحياته

هو إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية. وله بعين التمر قرية بالحجاز ونشأ فى الكوفة على صناعة أهله ، وكانوا باعة جرّار . فجعل يصطنعها ويحملها فى قفص على ظهره متنقلا فى شوارع الكوفة يبيعها . إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض ، نزوعاً إلى الأدب ، يقول الشعر على سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه . وربما حدّث ببعض الحديث فيأتى موزوناً مقفى فيظنه الناس نثراً وهو شعر . ومنذ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه ، حتى إنه كان يقول عن نفسه « لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت » .

ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة ، أنه كان يجهل العروض جهلا تاماً ؛ وله أوزان لا تدخل فيه ، ولا تجرى فى مجاريه . ولما سمع به متأدبو الكوفة وفتيانها كانوا يذهبون إليه فى مصنعه ويستنشدونه فينشدهم أشعاره ، فيأخذون ما تكسر من الخزَف فيكتبونها فيه . وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر فى أتونه خزَفاً ، ثم ما لبث أن صنعه درا تقلدته الأمراء والكبراء ، وجرى ذكره مجرى المثل ، فانتقل الخزاف من بين الطين والماء ، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء.

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب فى أول خلافة المهدى ومدحه فحظى لديه واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عُتبة ، أكثر فيها الغزل حتى هم المهدى أن يهبها إياه لولا ضراعتها وكراهتها له . فألهاه عن ذكرها بالمال الكثير ، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرها فى شعره حتى فى مدائحه له[1] . وكل ذلك كما قيل تصنع وتخلق ليُذكر بذلك . فلما توفى المهدى واستخلف الهادى ، تغيرت أخلاق الشاعر فلها عن ذكر عتبة ، وأخذ فى التزهد والتخشن ، وأقبل على درس مذاهب المتكلمين وبعض الفِرق ، فكان يأخذ بكلّ وقتا ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه . ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد فى الدنيا والتذكير بالموت . ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر ألبتَة . فأرغمه الرشيد عليه فأبى ، فضرب به ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر . وكان بعد ذلك لا يفارقه فى حضر ولا سفر ، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن أمرائه . واتصلت شهرته بالآفاق وتغنى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم ، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره ، ولم تزل تلك حاله مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ .

صفته وأخلاقه

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفْرة جعْدة وهيئة حسنة . وكان لبق اللسان مذبذب الرأى مفككاً معتل العقيدة لاضطرابه فى الآراء وتلونه فى النِّحل ، مقترا على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله . وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو فى ذكر الموت والنفاد دون ذكر النشور والمعاد . وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذبا فى نسبه وحبه وعلمه وعقيدته .

(١) زهر الآداب ص ٢٠٠ .

شعره

كان هذا الشاعر غزير البحر ، لطيف المعانى ، سهل الألفاظ ، كثير الافتنان قليل التكلف ، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول . وأجوده ما قاله فى الزهد والأمثال . ولقد قال الأصمعى : « إن شعرِ أبى العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والنوى » وذلك حق ؛ لأنه كان يرسل الشعر إرسالا على البديهة من غير تعمُّل ولا تنقيح . على أنه فى الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبى نواس ، وهذا كان يفضله على نفسه . ويمتاز أبو العتاهية بقلة تكلفه وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال . وحجته فى ذلك أنه يرمى إلى العظة والزهد فينبغى أن يكون شعره مفهوما لدى الناس على السواء . وهو الذى نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها . ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد ، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو فى الحكَم وضرب الأمثال . وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل . أما غزله فخيره ماقاله فى عتبة . وأحسن مدائحه ما قاله فى المهدى والرشيد . ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله بن معن ، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هُجر :

فصغ ما كنت حليت ... به سيفك خلخالا
ومـا تصنع بالسيف ... إذا لم تكُ قتالا ؟
ولو مدّ إلى أذنيـ ... ـهِ كفيهِ لما نالا
أرَى قومَكَ أبطالاً ... وقد أصبحتَ بَطالا

درر من قلائده

من قوله فى الغزل :

عينى على عتبة مُنْهَلّةٌ ... بدمعها المنسكب السائل

كأنها من حسنها درّة | أخرجها اليمُّ إلى الساحل
كأن فى فيها وفى طرفها | سواحراً أقبلن من بابل
بسطت كفى نحوكم سائلاً | ماذا تردون على السائل ؟
إن لم تنيلوهُ فقولوا لهُ | قولاً جميلاً بدل النائل
لم يُبقِ منى حبها ما خلا | حُشاشةً فى بدنٍ ناحِلِ
يا من رأى قبلى قتيلاً بكى | من شدة الوجد على القاتل !

وقال للمهدى وقد توفيت ابنته :

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما | وكلّ غصن جديد فيهما بالى ؟
يا من سلا عن حبيب بعدَ ميتته | كم بعد موتك أيضاً عنك من سالى !
كأنَّ كلّ نعيمٍ أنتَ ذائقه | من لذَّة العيش يحكى لمعَة الآل
لا تلعبنّ بك الدُّنيا وأنتَ ترى | ماشئت من عبر فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة | أو لاَ ، فما حيلة فيهِ لمحتال

ومن قوله للرشيد وقد سجنه لإضرابه عن الغزل :

تذكر أمينَ الله حقى وحرمتى | وما كنت توليني لعلكَ تذكر
ليالىَ تدنى منك بالقرب مجلسى | ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرَّةً | إلىَّ بها فى سالف الدهر تنظر

ومن قوله يعظ الرشيد :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفَس | وَلوْ تسترت بالأبوابِ والحرَس
واعلم بأن سهام الموت قاصدةٌ | لكلِّ مدَّرع منَّا ومتَّرس
ترجو النجاة وَلم تسلك مسالكها | إن السفينةَ لا تجرى على اليبس

وقال :

لدوا للموت وابنوا للخرَاب | فكلكم يصيرُ إلى ذَهَاب
ألاَ ياموتُ لم أرَ منكَ بدّاً | أتيت وَما تحيف وما تحابى
كأنك قد هجمت على مشيبى | كما هجَم المشيب على الشبابِ

أبو نواس

١٤٥ — ١٩٩ هـ

نشأته وحياته

هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول الحكمى . يكنى بأبى نواس لأن خلفا الأحمر كان له ولاء باليمن ، وكان من أميل الناس إلى أبى نوّاس فقال له: أنت من أشراف اليمن فتكنَّ بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبتدأ أسماؤهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال : ذو جدن وذو يزن وذو نواس . فاختار ذا نواس فكناه بها ، فغلبت على كنيته الأولى وهى أبو على . ولد بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها . ثم انتقل إلى بغداد وتوفى فيها . كان أبوه من جند مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية . ولما توفى لم يجد أبو نواس من يعوله ، فالتجأ إلى عطار يشتغل عنده . ولكنه كان مولعاً بالعلم مشغوفاً بالأشعار والأخبار ، فكان كثيراً مايغشى أندية العلماء ، ويحضر حوار الشعراء ، ويترنم بالنظم . وقد سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته فى الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه . فاتفق أن مر والبة هذا بالعطار الذى كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والفطنة وتوقد الذهن . فقال له إنى أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها ، وستقول الشعر فاصحبنى أخرّجك ، فقال له ومن أنت؟ قال : أنا والبة بن الحباب . فقال له . نعم أنا والله فى طلبك ، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لآخذ عنك . فسار أبو نواس معه ، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين ، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً وأنبههم اسماً . وتأدى

خبره إلى الرشيد فأذن له فى مدحه فمدحه واتصل به ونفق[1] عنده . وبلغ من دالة أبى نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقوّاد والكتاب فيحيونه وهو متكىء ممدود الرجل فلا يتحرك لأحدمنهم . وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر ، فقد مدحه بقصائد رواها عنه المصريون دون العراقيين . ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه ، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة ، ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة ١٦٩ ببغداد .

صفاته وأخلاقه

كان أبو نواس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث، حاضر البديهة فصيح اللسان ، مدمنا للخمر ، كثير الهزل والمجون ، جامعا لأشتات الصفات التى يجب أن تكون فى النديم ، مستخفا بأمور الدين . وله مع الشعراء مناقضات كثيرة . ونوادره المجونية مجموعة فى كتاب خاص غير ديوانه طبع منه جزؤه الأول فى القاهرة ؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مدسوس عليه ، لأن جل أشعاره فى ذكر اللهو ووصف الخمر وما يتبع ذلك ، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنه ، فألحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله . وأكثر أخباره مع جارية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها .

منزلته فى الشعر

كان أبو نواس ضليعا فى اللغة راويا للشعر والأخبار ، حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال . وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحدا كان أعلم باللغة من أبى نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة

(١) قالوا إنما حصل على مكانته عند الرشيد لأنه كان يبكر إليه فيسأل خواص القصر عما جرى له مع الجوارى ، ثم ينشده أشعاراً تطابق ذلك .

ومجانبة استكراه . ولج أبواب الشعر كلها ، إلا أنه امتاز من كل الشعراء بفحش مجونه ، وصراحة قوله ، وصدقه فى تصوير خليقته و بيئته ، ووصفه الخمر وصفاً « لو سمعه الحسنان[1] لهاجرا إليها وعكفا عليها » وأقل شعره مدائحه، وأكثرها فى الرشيد وولده الأمين . ويعد أبو نواس ثانى بشار فى منزعه لفظاً ومعنى ، وكثيرا ما ضرب على وتره ، حتى قال الجاحظ : « بشار وأبو نواس معناهما واحد والعِدة اثنان : بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولا ولا تعب فى عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن » .

وكان أبو نواس مشهورا بالتنقيح ، يعمل القصيدة و يتركها ليلة ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقتصر على الجيد منها، ولهذا قصر أكثر قصائده. وهو على رقته ومجونه جزل الألفاظ ، فخم الأسلوب ، كثير الغريب ولقد ابتدع فى الشعر أشياء أنكرها عليه العقلاء ، وأخذها عنه الشعراء ، كاستهتاره فى الفجور ، واسترساله فى المجون ، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر . ولا ريب أن هذه الطريقة التى شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب ، ووصمة فى تاريخ شعر العرب .

درر من قلائده

قال فى الخمر :

مازلت أستلُّ رُوح الدَّنِ فى لَطفٍ ... وأستقى دَمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسدى ... والدَّن منطرح جسما بلا روح

وقال أيضاً :

مُعَتّقَة صاغ المزاجُ لرأسها ... أكاليلَ درّ ما لمنظومها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها ... فذابت كذوب التبر أخلصه السبك

(١) الحسن البصرى وابن سيرين .

وقد خفيت من لطفها فكأنها　　　بقايا يقين كاد يذهبها الشك

وقال فى وصف شاربها :

ومستطيل على الصهباء باكرَها　　　فى فتية باصطباح الراح حُذّاق
فكل شىء رآه ظنه قدحاً　　　وكل شخص رآه ظنه الساقى

وقال فى وصف الكأس :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا　　　بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارس
مساحب من جرِّ الزقاق على الثرى　　　وأضغاثُ رَيْحان جنىٌّ ويابس
حبست بها صحْبى فجددتُ عهدهم　　　وإنى على أمثال تلك لحابس
تدارُ علينا الراحُ فى عسجديةٍ　　　حبتها بألوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى ، وفى جنباتها　　　مَهاً تدَّريها بالقسى الفوارس
فللخمر مازرَّت عليه جيوبُها　　　وللماء ما دارت عليه القلانس

وقال فى عاقبة الجهالة :

ولقد نَهزْتُ معَ الغُواة بدَلْوهم　　　وأسمْتُ سَرْح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغَ امرؤٌ بشبابه　　　فإذا عُصارة كلّ ذاك أثامُ

وقال فى مدح الخصيب أمير مصر :

تقول التى من بيتها خفَّ محملى　　　عزيز علينا أن نراك تسير
أمَا دون مصر للغنى مُتَطَلَّبٌ　　　بلى إنَّ أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر　　　جرت فجرى فى إثرهنّ عبيرُ
دعينى أكثّر حاسديك برحلة　　　إلى بلد فيه الخصيب أمير
فتى يشترى حسن الثناء بماله　　　ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه　　　ولكن يسير الجود حيث يسير

وقال فى وصف الدنيا :

ألا كل حى هالك وابن هالك　　　وذو نسب فى الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت | له عن عدوٍّ في ثياب صديق

ومن أبياته التي يتمثل بها :

قوله :

لا أذود الطيرَ عن شجر | قد بلوتُ المرَّ من ثمره

وقوله :

ليس على الله بمستنكر | أن يجمع العالم في واحد

وقوله :

صار جدا ما مزحت به | رُبَّ جد ساقه اللعب

ابن الرومي

٢٢١ — ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته (١)

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبيد الله بن علي رومي الأصل ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ . ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاة . وقد حمل الناسَ بلسانه على بره وتكرمته ، إما رغبة وإما رهبة .

كان ابن الرومي شرهاً كما يظهر من غضون شعره . وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب . وكان شديد الطِّيَرَةِ يغلو فيها ويحتج لها ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وأنه مر برجل وهو يَرْحَل ناقة له ويقول : (ياملعونة) ، فقال لا يصحبنا ملعون . وأن علياً رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقرب . وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع ، وهي

(١) حياة ابن الرومي لاتزال سراً مكتوماً في ضمير الزمان فلم يترجم به أحد ترجمة وافية . وقد ذكر الأستاذ كليمان هيار (Cl Huart) أن أبا عثمان سعيد الخالدي من علماء سيف الدولة كتب ترجمته مفصلة ، ولكن أين هي ؟

فى بعضهم أظهر ، وأن الأكثر فى الناس إذا لقى ما يكرهه قال : على وجه مَنْ أصبحتُ اليوم ؟ قال على بن المسيب : « دخل علينا ابن الرومى يوم مهرجان سنة ٢٧٨ وقد أهدِى إلىّ عدة من الجوارى القيان ؛ وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز فى إحدى عينيها نكتة . فتطير من ذلك ولم يظهر لى أمره ، وأقام باقى يومه لا يخرج . فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى من بعض السطوح، وجفاه القاسم ابن عبيد الله فجعل القينتين سبب ذلك وكتب إلىّ يقول :

أيها المُتْحفى بحول وعُور ... أين كانت عنك الوجوه الحسان ؟
قد لعمرى ركبت أمراً مهيناً ... ساءنى فيك أيها الخُلْصان
فتحك المهرجانَ بالحول والعو ... ر أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فَقْدُك ابنتك الحرّ ... ة مصبوغةً بها الأكفان
وتجافى مؤمَّل لى جليل ... لجَّ فيه الجفاء والهجران
قف إذا طِيرة تلقتك وانظر ... واستمع ثَمَّ ما يقول الزمان
خبَّر الله أن مشأمة كا ... نت لقوم وخبَّر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومى أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحةَ اليوم كلمةٌ سيئة . وله فى ذلك أخبار غريبة مع الأخفش . وكان هذا الشاعر فاحش الهجو شديده حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك . وكان أبو الحسن القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد لا يفتأ حَذِراً منه خائفاً من هجائه ، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه . وكان هذا الوزير شريراً سفاكاً للدماء ، فدس عليه من سمه فى أكلة وهو حاضر . فلما أحس ابن الرومى بالسم قام ، فقال له الوزير : إلى أين ؟ فقال إلى الموضع الذى بعثت بى إليه ! فقال له سلم على والدى . فقال ليس طريقى على النار . ولحق بمنزله فأقام به أياماً . وكان الطبيب يتردد عليه فزعم أنه غلط فى بعض العقاقير ، فقال وقد سأله نفطويه النحوى وهو يجود بنفسه :

غلط الطبيب علىّ غَلطة مُورِدٍ ... عجزت موارِدُه عن الإصدار

والناس يَلْحَوْن الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

شعره

كان فى الناس من يعير ابن الرومى جنسيته ، و ينتقص لأجلها شاعريته : كما يؤخذ من قوله :

كم عائب كل شىء وكلُّ ما فيه عيب
قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العُرَيبُ
يامنكر المجـــد فيهم أليس منهم صهَيب ؟[1]

ولكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر فى نبوغه، فإنه جمع إلى تعمق الآريين فى الفكر ، تفوّق الساميين فى الخيال ؛ وضم إلى دقة الروم فى التصوُّر ، قوة العرب فى التصوير . فامتاز بتوليد المعنى واستقصائه حتى لا يترك فيه بقية لغيره . ومن ثم طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط . وقلما رأينا شاعراً يسلم على الطول وتتساوى أجزاء قصيدته فى الحسن والقوّة . ولابن الرومى براعة نادرة فى وصف الشىء وتشبيهه ، وقدرة غريبة على العتاب والهجاء، لما كان يمنَى به من جفاء الأصدقاء ، وإعراض الكبراء ، لحدة طبعه وضيق خلقه . وهو فى منزلة أبى تمام والبحترى ، وربما فضَلهما أحياناً ؛ لأنه قال فى كل فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحلتهم منازل الفحول) .

على أنه يسفُّ أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالى حيث وقع من هُجنة اللفظ وخشونته . ولو أنه نشأ نشأة عبد الله بن المعتز لما كان له معه ذكر فى باب التشبيه والملح ؛ فإن ابن الرومى أعلى كعباً منه فى الشعر ، ولكن علمه بالمشبهات دون علم الملوك وقد قال له بعض معاصريه يلومه لمَ لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟

(١) صهيب بن سنان بن مالك الرومى صحابى جليل ، وهو أول من أسلم من الروم ، توفى سنة ٣٨ أو ٣٩ ه

فقال له : أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى عن مثله . فأنشده قوله فى الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر ؟

فقال له زدنى . فأنشده قوله فى الآذريون ، وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود :

كأن آذَرْيونَها   غِبَّ سماء هامِيَة
مداهنٌ من ذهب   فيها بقايا غالِيَة

فصاح واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس . فهل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا   من الجود كُنْناً والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر   على أحمر فى أصفر إثْرَ مُبْيَض
كأذيال خَوْدٍ أقبلت فى غلائل   مُصَبَّغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به   يدْحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرةً   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

نموذج من شعره

من قوله ، وقال ما سبقنى أحد إلى هذا المعنى .

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم   فى الحادثات إذا دجَوْن نجوم
منها معالم للهدى ، ومصابح   تجلو الدجى ، والأخريات رجوم

ومن معانيه المخترعة قوله :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله   وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بُعْدَ المستقى   عند الورود لما أطال رِشاءه

وكان هو يطيل .

وقوله :

تودَّدتُ حتى لم أجدْ متَوَدِّدا ... وأفنيت أقلامى عتاباً مُردَّدا
كأنى أستدنى بك ابن حَنيِّةٍ(١) ... إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ومن بدائع قوله فى الشباب :

رأيتُ سواد الرأس واللهو تحته ... كليل وحلْم بات رائيه ينعم
فلما اضمحل الليل زال نعيمه ... فلم يبقَ إلا عهده المتوهَّم

وقوله من قصيدة يصف الشمس فى الأصيل :

وقد رنَّقت شمس الأصيل ونفَّضت ... على الأفق الغربىِّ وَرْساً مزَعزعا
ووَدعت الدنيا لتقضىَ نحبها ... وشوَّل باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوَّار وهى مريضة ... وقد وضعت خدًّا إلى الأرض أضْرَعا
كما لاحظت عوَّادَه عينُ مدْنف ... توجَّعَ مِن أوصابه ما توَجعا
وظلَّت عيون النَّور تخضلُّ بالندى ... كما اغرورقت عين الشجىِّ لتدمعا
يراعينها صُوراً إليها روَانيا ... ويلحظن الحاظاً من الشجو خُشَّعاً
وبيَّن إغضاء الفراق عليهما ... كأنهما خِلاَّ صفاء تودَّعا
وقدضربت فى خضرة الروض صفرة ... من الشمس فاخضرا خضراراً مشعشعا
وأذكى تسيمَ الروض ريعان ظله ... وغنى مغنى الطير فيهِ وسجَّعا
وغرّد رَبعىُّ الذُّباب خلالَهُ ... كما حَثْحَثَ النشوان صنْجاً مشرَّعا
فكانت أرانينُ الذُّباب هنا كمو ... على شدوات الطير ضرباً موقعاً

---

(١) ابن حنية كناية عن القوس .

ابن المعتز

٢٤٩ — ٢٩٦

نشأته وحياته

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز، ولد فى بيت الملك وموئل الخلافة، وربىَ فى باحة النعيم وموطن الجلالة، فنشأ نبيل النفس دقيق الحس، قوى الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والموسيقى. تأدب على شيوخ الأدب فى عصره كالمبرّد وثعلب، وشارك فى أكثر العلوم النقلية والعقلية، وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه.

قليل هموم القلب إلا للذّة　　ينعِّم نفساً آذنتْ بالتنقل
فإن تطّلبْهُ تقتنصه بحانةٍ　　وإلا ببستان وكرم مظلَّل
ولست تراه سائلاً عن خليفة　　ولا قائلاً من يعزلون ومن يلى
ولا صائحاً كالعير فى يوم لذة　　يناظر فى تفضيل عثمان أو على

إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر واستبداد المماليك وسوء سياستهم خلعوه وبايعوا ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوما وليلة، لأن أنصار المقتدر لم يشاءوا التسليم راضين. فتحزبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسته. واختفى الخليفة الشاعر فى دار الجصاص الجوهرى، فتقحموا عليه الدار واعتقلوه. ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً فى كساء.

شعره

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر فى شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافى الأسلوب، لرقة طبعه وسهولة خَلقه، وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة

رائع التشبيه ، دقيق الوصف ، لدقة حسه ، ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة . وكان يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه ، فبرىء من كذب المدح ولؤم الهجاء ، وانصرف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان . وله ولع بالبديع فى حسن صَوْغ وقلة تكلف . ونثره لايقل عن شعره فى نقاء الأسلوب وجودة اللفظ ودقة التخيل.

مؤلفاته

لابن المعتز كتاب البديع[1] ، وهو أول مصنف فى هذا الفن ، جمع فيه سبعة عشر نوعاً منه . وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر ، وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب أشعار الملوك ، وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب الزهر والرياض ، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود . وقد طبع ديوانه بالقاهرة فى جزأين .

نموذج من شعره

كن جاهلا أو فتجاهلْ تفزْ ... للجهل فى ذا الدهر جاهٌ عريض
والعقل محروم يرى ما يرى ... كما ترى الوارثَ عينُ المريض

وقال :

اقتلا همى بصِرْف عُقارٍ ... واتركا الدهرَ فما شاء كانا
إن للمكروه لذعة همٍّ ... فإذا دام على المرء هانا

وقال :

ونسيم يبشر الأرض بالقَطـ ... ـر كذيل الغلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيـ ... ـث انتظار المحب رَجْع لرسول

وقال :

أعاذلَ قد كبرت على العتاب ... وقد ضحك المشيب على الشباب

---

(١) نشره عام ١٩٣٥ الأستاذ أغناطيوس كراتشوفسكى المستشرق الروسى وقد صدره ببحث باللغة الانجليزية عن الكتاب والنسخة التى نقل عنها ، وذيله بترجمة لابن المعتز أبان فيها عن أثر الكتاب فى الأدب العربى .

رددت إلى التقى نفسى فقرّتْ كما رُدَّ الحسامُ إلى القِراب

وقال فى مقبرة :

وسكان دار لا تزاور بينهم على قرب بعض فى المحلة من بعض
كأن خواتيماً من الطين فوقهم فليس لهم حتى القيامة من فضّ

وقال :

كم حاسد حَنِقٍ علىّ بلا جُرمٍ فلم يضرُرْنى الحنَقُ
متضاحك نحوى كما ضحكت نار الذُّبالة وهى تحترق

وقال :

انظر إلى حُسن هلال بدا يهتك من أنواره الحِندِسا
كمنجل قد صِيغَ من فضة يحصِد من زهر الدجى نرجسا

وقال :

قلبىَ وثّاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالُحسن كما ينبغى ويرحم القُبح فيهواه

وقال :

من لى بقلب صيغَ من صخرة فى جسد من لؤلؤ رَطبِ
جرحتُ خديه بلحظى فما برحت حتى اقتصَّ من قلبى

وقال :

ولقد قضت نفسى مآربها وقضيتُ غيًّا مرة ورَشَدْ
ونهار شيب الرأس يوقظ من قد كان فى ليل الشباب رقد

وقال :

وإنى على إشفاق عينى من البكا لتجمح منى نظرة ثم أُطرق
كما حلئتْ عن ماء برد طريدة تمد إليه جيدَها وهى تفرَق

وقال أيضاً وإشارته إلى الديك :

صفق إما ارتياحة لِسنَا الفجـ ـــر وإما على الدجى أسـفا

ويقال إن له هذا الموشح المشهور ، ولا ندرى إن كان ابتدعه أم اتبع فيه الأندلسيين :

أيها الساقى إليك المشتكى ! قد دعوناك وإن لم تسمع

* * *

ونديم همت فى غرته
وبشرب الرّاح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الكأس إليه واتّكى وسقانى أربعاً فى أربع

* * *

ما لعينى عشِيت بالنظر !
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذاماشئت ، فاسمع خبرى :
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى !

* * *

غصن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفقَ الأحشاء موهون القوى
كلما فكر فى البين بَكى ويحهُ ! يبكى لما لم يقعِ !

* * *

ليس لى صبر ، ولا لى جَلد
يالَقومى عذلوا واجتهدوا !
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقه أن يشتكى ؟ كمد اليأس وذل الطمع !

كبد حرّى ، ودمع يكِفُ
يذرف الدمــع ولا ينذرف
أيها المعرض عما أصف !
قد نمــا حبى بقلبى وزكا   لا تقل فى الحبِّ إنى مُدَّعى

الشريف الرضى

٣٥٩ — ٤٠٤ هـ

نشأته وحياته

وُلِدَ أبو الحسن محمد بن الحسين المُوسوى ببغداد ، ونشأ فى حجر والده ، ودرَس العلم فى طفولته ؛ فبرَع فى الفقه والفرائض ؛ وفاق فى العلم والأدب ، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين . فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه فى نقابة الطالبيين سنة ٣٨٨ ، ثم ضمت إليه مع النقابة سائر الأعمال التى كان يليها أبوه ، وهى النظر فى المظالم والحج بالناس .

وبقى فى هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عنها ، فعاش عيش القانع الشريف حتى قبضه الله إليه فى المحرم من سنة ٤٠٤ ودفن بداره فى الكوخ .

صفته وأخلاقه

كان الشريف أبِىّ النفس عالى الهمة ، سَمت به عزيمته إلى معالى الأمور فلم يجد من الأيام معيقاً عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة ؛ حتى بلغ من تشدده فى العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء ، واجتهد بنو بويه أن يحملوه على قبول صِلاتهم فما استطاعوا .

شعره

نهج الرضى فى شعره منهج الأقدمين من الشعراء فى جزالة اللفظ وفخامة المعنى . وشعره أشبه بشعر البحترى(١) إلا أنه غلب فى الفخر والحماسة ، وتنزه عن عبث الوليد ومجونه . قال الثعالبى : « وهو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم المفلقين . ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق » ثم قال بعد ذلك : « ولست أدرى فى شعراء العصر أحسن تصرفاً فى المراثى منه » . وكان على مكانته فى الشعر راسخ القدم فى الكتابة ، بعيد الشأو فى الترسل . ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً فى نهج البلاغة لما تردد منصف فى الحكم بأنه أكتب الكتاب فى العربية ؛ لأن نهج البلاغة هو فى المحل الثانى من كتاب الله وحديث رسوله بلاغة وبياناً :

مؤلفاته

ألف هذا الشاعر فى معانى القرآن كتابا يدل على تضلعه فى النحو واللغة وأصول الدين ، وكتابا آخر فى مجازات القرآن . وله مجموعة رسائل وديوان شعر ؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب . ومن الناس من يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهجر ، ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق ، وقواعد الاجتماع ، ودقة الوصف ، وتكلف الصنعة ، ليس فى إمكان ذلك العصر ولا فى طبعه . والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمشوب .

---

(١) تجد مثالا لذلك إذا وازنت بين قصيدة الشريف فى مدح القادر بالله وبين قصيدة البحترى فى مدح المتوكل وقد أتينا فى ترجمة كل منهما بقطعة من قصيدته .

نموذج من شعره

قال من قصيدة له فى مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خُطى البحترى فى مدح المتوكل :

لله يومٌ اطلعتك به العــلا ... عَلَماً يُزاوَل بالعيــون ويُرشَقُ
لما سمت بك عزة موموقة ... كالشمس تبهَر بالضياء وتومق
وبرزت فى بُرد النبى وللهــدى ... نورٌ على أسرار وجهك مشرق
وكأن دارك جنةٌ حصباؤها الجا ... دىُّ أو أنماطها الاستبرق
فى موقف تغضى العيون جلالةً ... فيه ويعثر بالكلام المنطق
وكأنما فوق السرير وقد سما ... أسدٌ على نشزَات غاب مطرق
والناس إما راجع متهيب ... مما رأى ، أو طالع متشوق
مالوا إليك محبة فتجمعوا ... ورأوا عليك مهابة فتفرقوا
وطعنت فى غرر الكلام بفيصل ... لا يستقل به السنان الأزرق
وغرست فى حَب القلوب مودة ... تزكو على مرِّ الزمان وتورق
وأنا القريب إليك فيه ودونه ... لَيدَى عدوك طود عز أعنَق
عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... فى دوحة العلياء لا تتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً ، كِلانا فى المعالى مُعْرِق
إلا الخلافة ميزتك فإننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوَّق

الطغرائى

المتوفى سنة ٥١٣ هـ

نشأته وحياته

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن على المعروف بالطغرائى نسبة إلى مهنته أول حياته . فقد كان يكتب الطغراء (الطرة) فى أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت

السلطان وألقابه . وُلد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب فى ظل آل سلجوق حتى وزر للسلطان مسعود السلجوقى بالموصل ، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمنشىء . فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همذان وكانت النصرة لثانيهما أخذ الطغرائى أسيراً ، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله ، ومالأه عليه بعض حسدته من رءوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظلماً سنة ٥١٣ .

شعره

شعر الطغرائى عامر الأبيات ، متين القافية ، مختار اللفظ ، يغلب فيه الفخر والحكمة . ونثره من طبقة شعره فى إحكام الصنعة ورصانة الأسلوب . وله ديوان شعر كبير أكثره فى مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك . وخير ما فيه قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم ، وهى من عيون الشعر ومختاره . قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة له من العمل . وقد أفردها العلماء بالشروح ما بين كبير وصغير . قال فى مطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
مجدى أخيراً ومجدى أولا شرَعٌ ... والشمس رأْدَ الضحى كالشمس فى الطفّل

ومنها :

حب السلامة يَثْنى همَّ صاحبه ... عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذْ نفقاً ... فى الأرض أو سُلّما فى الجوِّ فاعتزِل
ودَعْ غمار العُلا للمقْدمين على ... ركوبها واقتنع منهن بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنة ... والعِزُّ تحت رسيم الأينُقِ الذلل

وقال وقد رُزق مولوداً على كِبَر :

هذا الصغير الذى وافى على كِبَرِ ... أقرَّ عينى ولكن زاد فى فكرى

سبع وخمسون لو مرّت على حجر | لبَان تأثيرها فى صفحة الحجر

ومن قوله فى الفخر :

أبى الله أن أسمو بغير فضائلى | إذا ما سما بالمال كلُّ مسوَّد
وإن كَرُمت قبلى أوائل أسرتى | فإنى بحمد الله مبدأ سؤددى
وما المال إلا عارة مستردَّة | فهلا بفضلى كاثرونى ومحتدى
إذا لم يكن لى فى الولاية بسطة | يطول بها باعى وتسطو بها يدى
ولا كان لى حُكمٌ مُطاع أجيزه | فأُرغم أعدائى وأكبت حُسَّدى
فأعذرُ إن قصَّرت فى حق مجتَد | وآمن أن يعتادنى كَيدُ معتدى
أأُكفى ولا أكفى ؟ وتلك غضاضةٌ | أرى دونها وقع الحسام المهند
من الحزم ألا يضجر المرء بالذى | يعانيه من مكروهة فكأنْ قد
إذا جلدى فى الأمر خان ولم يُعن | مريرة عزمى نابَ عنه تجلدى
ومن يستعن بالصبر نال مراده | ولو بعد حين . إنه خير مسعد

الشعر والشعراء فى الشام

كانت دمشق فى عهد الأمويين حاضرة الخلافة ، وقاعدة الملك ، ومقر الجند ، ومعقل الإسلام ، ومناط الأمل . فشغلها أدب السيف عن أدب القلم ، وألهاها عن حمل الكتاب حملُ العَلَم ، وخَلَجَتْها خوالج الرياسة والسياسة عن رواية الأدب وقرض الشعر ، فتخلت عنهما للعراق والحجاز ، فزخرت مدنهما بالشعراء ، وغصت مجالسهما بالأدباء . وقد علمتَ كيف كان أثر معاوية وأخلاقه فى إذكاء هذه النهضة .

فلما أدال الله العباسيين من الأمويين والفرسَ من العرب ، وبغداد من دمشق ، فترت حركة الأدب فى الشام ، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها ، حتى تملك بنو حمدان فى القرن الرابع على حلب ، وهم كما قال الثعالبى : ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة

قلادتهم » وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك مُمدَّح ؛ فوطّأ كنفه للأدباء والشعراء والعلماء ، حتى (ليقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها) .

والطريقة الغالبة على أهل الشام فى الشعر هى طريقة البحترى فى إيثار اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل ،دون تعمق فى المعنى ، ولا إفراط فى الإيجاز . وقد سمع الثعالبى عن الصاحب بن عباد أنه كان يُعجب بها ، وينهل من أدبها . وَرَوى هو أيضاً عن الخوارزمى أنه قال : « ما فتق قلبى ، وشحذ فهمى ، وصقل ذهنى وأرهف حد لسانى ، وبلغ بى هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية ، التى علقت بحفظى ، وامتزجت بأجزاء نفسى ، وغصن الشباب رطيب » .

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب فى أبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى فراس وأبى العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الموالى فى صدر هذا العصر .

وسنقتصر على الترجمة بهؤلاء النابهين منهم ، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مناحى أدبهم ، لا يتسع لها صدر هذا المختصر .

أبو تمام

١٨٨ — ٢٣١

نشأته وحياته

وُلد حبيب بن أوس الطائى بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق . ثم انتقل أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو معه فى خدمته . فلما ترعرع غادرها إلى مصر فكان يسق الماء بجامع عمرو ويستقى من أدب علمائه . ولم يزل يحفظ

الأشعار ويحاكى الشعراء فيصادفه التوفيق مرة ويخطئه أخرى ؛ حتى بلغ من الشعر مبلغا لم يزاحمه فيه أحد من أهل عصره . وقد سار به شعره إلى أسواق الأدب فى أنحاء البلاد ، فغادر مصر يغشى منازل الكرماء ويتفيأ ظل النعمة . فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالا لم يُبق لغيره مجالا ، حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يكسب درهما بالشعر فى حياته . ثم اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين .

صفاته وأخلاقه

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحا حلو الكلام فيه تَمْتَمة يسيرة. وكان ذكى الطبع حاضر البديهة قوى الذاكرة . قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات . وكتابا الحماسة وفحول الشعراء ناطقان بذلك . ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التى يقول فى مطلعها :

مافى وقوفك ساعة من باس تقضى ذمام الأربُع الأدراس

ووصل إلى قوله فيها :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال أبو يوسف الكندى الفيلسوف وكان حاضرا : الأمير فوق من وصفت . ومازدت على أن شبهته بأجلاف العرب. فأطرق أبو تمام قليلا ثم قال على البديهة :

لا تنكروا ضربى له مَن دونه مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرَب الأقلَّ لنوره مثلا من المشكاة والنِّبراس

ولما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا . وقال الفيلسوف للخليفة : مهما يطلب فأعطه ، فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده ، ولا يعيش كثيرا : فولاه بريد الموصل .

شعره

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين . جمع بين معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والحضارة راقية ، والعلوم مترجمة ، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها . واستنبط من ذلك طريقته التى آثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد . وكأنه لما رأى أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر فتوخى الجناس والمطابقة والاستعارة ، فسلم له بعض واعتل عليه بعض ، فصار كالكَلَف فى صفحة البدر . ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون : معان مبتكرة ، وألفاظ متخيرة ، ضمنها من الأمثال والحِكَم ما زاد فى ثروة الأدب العربى ، ومهد لمن خَلَفه الطريق فسلكها المتنبى وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم . ولغلبة الحكمة عليه قيل : « أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى » ، وقد كثر اختلاف الناس فيه ؛ فمنهم من تعصب له وأفرط حتى فضله على كل سلف وخلف . ومنهم من عمد إلى جيده فطواه ، وإلى رديئه فرواه . ولكن لسان المدح كان أغلب ، فقد فضله من الرؤساء والعظماء مالا قبَل للطاعنين عليه بهم . قال محمد بن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة : « يا أبا تمام إنك لَتُحَلى شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بَهِىِّ الجواهر فى أجياد الكواعب . وما يُدخر لك شىء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك فى الموازاة » .

وقد جمع شعره فى ديوان طبع مراراً . وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمع فيهما عيون الشعر وغرره فى الجاهليةَ والإسلام . وقد أحسن فى الاختيار جد الإحسان حتى قيل إنه فى اختياره أبلغ منه فى شعره .

نموذج من شعره

من أبدع قصائده قوله .

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كلُّ مرقد
وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورَّداً من الدم يجرى فوق خد مورد

ويقول فيها فى الحث على الاغتراب ؛ ولو تأملت وجدته يتوخى الطباق فى كل بيت :

ولكننى لم أحوِ وفْراً مجمَّعاً ففزت به إلا بشَمل مبدَّد
ولم تعطنى الأيام نوماً مسكناً ألذْ به إلا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء فى الحى مُخْلقٌ لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبةً على الناس أن ليست عليهم بسَرمَد

ومن قوله :

نقّل فؤادك(١) حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأوّل
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينــــه أبداً لأول منزل

وقال فى رثاء محمد بن حميد الطوسى :

كذا فليجلّ الخطب وليفدَح الأمر فليس لعين لم يفِض ماؤها عذر
تُوفيت الآمالُ بعد محمــــد وأصبح فى شغل عن السفَر السفْر
ألا فى سبيل الله مَنْ عطّلت له فِجَاجُ سبيل الله والثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ففى بأسه شطر وفى جوده شطر

(١) من عجيب توارد الخواطر أن هذا المعنى بعينه سار به مثل فرنسى وهو :
L'homme revient toujours
A ses premiers amours

فتى مات بين الطعن والضرب موتةً تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتّى مات مضربُ سيفه من الضرب واعتلت عليه القَنا السُمر
تردّى ثيابَ الموت حُمْراً فما دجا لها الليلُ إلا وهْى من سُندس خضْرُ

وقال فى المدح :

حُوّلٌ ، لافعاله مرْتَعُ الذّم (م) ولا عرضه مَرَاحُ العيوب
سُرُحٌ قوله إذا ما استمرت عقدةُ العِيّ فى لسان الخطيب
لا مُعَنّى بكل شىء ولا كلُّ (م) عجيب فى عينه بعجيب
ليس يَعْرَى عن حُلة من طراز الـ مدح من راجزٍ بها مُستثيب
وإذا كفٌّ راغبٍ سلبتْه راح طَلْقا كالكوكب المشبوب
ما مَهاةُ الحِجَال مسلوبة أظـ رفُ حسنا من ماجد مسلوب
واجدٌ بالخليل من بُرَحاء الشـ وق وجْدانَ غيره بالحبيب
كلُّ شعب كنتم به آل وهب فهو شعبى وشعب كل أديب
إن قلبى لكم لكا لكبد الحرّ ى وقلبى لغيركم كالقلوب

وقال أيضا :

إذا حركته هِزَّةُ المجد غيرت عطاياه أسماء الأمانى الكواذب
يرى أقبح الأشياء أوبة آمل كسته يدُ المأمول حلة خائب
وأحسنَ من نَورٍ تفتحه الصَّبا بياض العطايا فى سواد المطالب

البحترى

٢٠٦ — ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته

أبو عبادة الوليد بنُ عبيد الله الطائى عربى صميم ولد بمنبج (بين حلب

والفرات) سنة ٢٠٦ ونشأ فى البادية بين قبائل طيىء وغيرها فغلبت عليه فصاحة العرب . ثم خرج إلى بغداد فلقى أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته فى البديع . وروى عن كثير من العلماء كأبى العباس المبرد وظل صنيعة لأبى تمام يردد صداه ، ويترسم خطاه ، وحبيب يرشده ويعضده لأنه طائى مثله ، حتى قال له يوماً : « أنت والله يابنى أمير الشعراء غداً بعدى » ، فصدق الله نبوءته . وأصبح البحترى بعد وفاة أبى تمام سائر الشعر طائر الذكر إماماً فى الأدب والقريض . وأقام بالعراق فى خدمة المتوكل والفتح بن خاقان وزيره إلى أن قتلا على مشهد منه ، فرجع بعدئذ إلى منبج . وكان يختلف أحياناً إلى سراة بغداد « وسُرَّ من رأى » فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤ .

صفاته وأخلاقه

كان البحترى على أدبه وفضله ورقته من أوسخ خلق الله ثوباً وأبخلهم على نفسه وغيره . وكان من أبغض الناس إنشاداً : يتشادق ويتزاور فى مشيته جانباً أو القهقرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين قائلا : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله مالا يحسن أحد أن يقول مثله . ولكنه كان منصفاً يعترف بالفضل لأهله ولا يدعى ماليس له . قال له بعض الناس وقد سمع شعره : أنت أشعر من أبى تمام . فقال : ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام . والله ما أكلت الخبز إلا به ، ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابعٌ له ، آخذٌ منه لائذٌ به ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه !

شعره

تَرَسَّمَ البحترى خطو أبى تمام فى الشعر ومضى على أثره فى البديع ، إلا أنه أجاد فى سبك اللفظ على المعنى « وأراد أن يشعر فغَنّى » كما قال فيه ابن الأثير

واستمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق ، فأعاد للشعر ماذهب من بهجته وروعته . وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله : « أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى » ، ثم صارت له طريقة خاصة فى الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه ، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام . وقد تصرف أبو عبادة فى فنون الشعر إلا فى الهجاء ، فإن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل . ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من الساقط الفث لكثرته ، وإنما يمتاز بالإجادة فى المدح والقصد فيه ، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح ، والإبداع فى وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة ، كوصف إيوان كسرى[1] وبركة المتوكل ، وقصر المعتز بالله . وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل . وقد جمع شعره أبو بكر الصولى ورتبه على الحروف . وله غيره كتاب معانى الشعر وحماسة البحترى . وهى كحماسة أبى تمام ، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه ؛ وقد طبعت فى بيروت .

نموذج من شعره

من قوله فى وصف بركة المتوكل :

تنصَبُّ فيها وفودُ الماء مُعجَلَةً ... كالخيل خارجة من حبل مُجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريها

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكاً ... مثلَ الجواشن مصقولا حواشيها

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريِّق الغيث أحياناً يباكيها

إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء رُكّبت فيها

وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهنئه بعيد الفطر :

(١) قصيدة البحترى فى وصف إيوان كسرى من بدائع الشعر العربى الخالد ، ولذلك أوردنا أكثرها فى النماذج .

بالبرّ صمت وأنت أفضل صائم ... وبسـنة الله الرضيّة تفطر
فانعمْ بيوم الفطـر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مُشَهَّر
أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل ... لجِبٍ يحَاطُ الدين فيه ويُنصر
فالخيل تصهل والفوارس تدَّعى ... والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتـكِرُ الجوانب أغبر
والشمس طالعة توقّدُ فى الضحى ... طوراً ويطفئها العَجاج الأكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العِثْيَرُ
فافتنّ فيك الناظرون فإصبعٌ ... يوْمى إليك بها وعين تنظر
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المُصلّى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مِشية خاشع متواضع ... لله لا يُزْهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تـكلف فوق ما ... فى وُسعه لسعى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت فى بُرْدِ النبى مذكراً ... بالله تنـذر تارة وتبشر

ومن قوله فى الطيف :

إذا ما الكَرى أهدى إلىَّ خياله ... شفى قربهُ التبريح أو نقعَ الصدَى
إذا انتزعته من يدَىَّ انتباهة ... حسبت حبيبا راح منىَ أو غدا
ولم أر مثلَينَا ولا مثل شأننا ... نُعَذّبُ أيقاظا وننعم هُجّدا

المتنبى

٣٠٣ — ٣٥٤ هـ

نشأته وحياته

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى ولد بالكوفة من أبوين فقيرين . كان

أبوه سقاء بالكوفة . ثم سافر به وهو صغير إلى الشام متنقلا من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب ، ويردده فى القبائل ، ومخايله نواطق بفضله ، ضوامن لنُجحه ، حتى توفى أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب فى الأرض ابتغاء للرزق واكتسابا للمجد .

وكان المتنبى منذ نشأته كبير النفس عالى الهمة طموحا إلى المجد . بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته[1] بالخلافة وهو لَدْن العود حديث السن . وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والى البلدة فأمر بحبسه . فكتب إليه من السجن قصيدة منها :

أمالِكَ رقى وَمن شأنه هباتُ اللُّجَين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما برانى البِلى وأوهن رجلىَّ ثقلُ الحديد
تعَجّل فىَّ وجوبَ الحدود وحدّى قبل وجوب السجود[2]

فأطلقه . ولكن حب الرياسة لم يزل متمكنا من قلبه إلى أن أخلق بُرد شبابه وتضاعفت عقود عمره . وفى سنة ٣٢٣ ادعى النبوة فى الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه . ولما سئل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنه بشر بمجيئى وأخبر بنبوتى . فقال : لا نبىَّ بعدى ، وأنا اسمى فى السماء (لا) . وصنف كلاما عارض به القرآن . فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية ، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه . وتفرق عنه أصحابه . فطفق يتجشم أسفارا أبعد من آماله ، ولا زاد إلا صبره ، ولا عدة إلا بأسه كما يتجلى ذلك فى مثل قوله :

وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا عَظم المطلوب قل المساعد

وقوله :

---

(١) اليتيمة ١ ص ٧٩ .

(٢) يريد : إنى صبى لم أبلغ الحلم فيجب على السجود ، فكيف تجب على الحدود ؟

ضاق صدرى وطال فى طلب الرز ق قيامى وقل عنه قعودى
أبداً أقطع البــلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى سعود

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبى العشائر والى أنطاكية من قِبلَ سيف الدولة وامتدحه ، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب. فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده ، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد. حتى لا يفارقه فى الحرب ولا فى السلم . وأفعم وطابه ودرّت له أخلافُ الدنيا على يده ، حتى كان من قوله فيه :

تركت السُّرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

ولم يزل معه فى حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه[1] إلى مصر فى سنة ٣٤٦ . ومدح كافوراً الإخشيدى وأبا شجاع. وأقام فى مصر ردحاً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله . فما هو إلا أن قال :

أبا المسك ، هل فى الكأس فضلٌ أناله فإنى أغنى منذ حين وتشرب

وقال :

وهل نافعى أن تُرفع الحجب بيننا ودون الذى أمّلت منك حجاب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

حتى أوجس كافور منه خيفة ، لتعاليه فى شعره وطموحه إلى الملك ، فزوى عنه وجهه ، فهجاه وقصد بغداد . ولم يمدح الوزير المهلبى لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك ، فشق ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره : ولكنه لم يجبهم ، وذهب قاصداً أرّجان لزيارة الفضل بن العميد فكتب إليه الوزير الصاحب بن عباد يستزيره بأصبهان طامعاً أن يمدحه فلم يقم له وزناً ، وأمّ عضد الدولة بشيراز . فأوغر عليه قلب الصاحب وأخذ يتتبع هفواته ، وهو أعلم

(١) أثر هذا الفراق فى أبى الطيب فاضطرب أمره وتراجع شعره . ولما عوتب فى آخر أيامه على ذلك قال : قد تجوزت فى قولى ، وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان.

الناس بحسناته — وشن عليه هو وأشياعه حرباً قلمية ، وألفوا الكتب فى نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية ، وهو لا يأبه لهم ذهاباً بنفسه وإعجاباً بشعره .

* * *

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب ؛ ثم دس عليه من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له : هذا أجزل إلا أنه متكلف ، وسيف الدولة كان يعطى طبعاً . فغضب عضد الدولة من ذلك . ويقال إنه جهز عليه فاتكاً الأسدى فى قوم من بنى ضبة، فعرض له بالصافية من سواد بغداد واقتتلا . فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار . فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه فى أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ .

شعره

المتنبى شاعر من شعراء المعانى ؛ وفق بين الشعر والفلسفة ؛ وجعل أكثر عنايته بالمعنى ؛ وأطلق الشعر من القيود التى قيده بها أبو تمام وشيعته ، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية . فهو إمام الطريقة الابتداعية [1] فى الشعر العربى . ولقد حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع فى وصف القتال، والتشبيب بالأعرابيات ، وإجادة التشبيه ، وإرسال المثلين فى بيت واحد، وحسن التخلص ، وصحة التقسيم ، وإبداع المديح ، وإيجاع الهجاء . وأخص ما يميز المتنبى

(١) الابتداعية كما قلنا من قبل ترجمة معنوية لكلمة Römantique لأن أهل هذه الطريقة من الألمان والإنجليز والفرنسيين قد خرجوا على الطريقة الاتباعية Classique بابتداع أسلوب جديد انتشر فى أوربا بعد عناء طويل ونضال عنيف بين أرباب الطريقتين . وإن فى خروج أبى الطيب المتنبى وابن هانىء الأندلسى وأبى العلاء المعرى وأضرابهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة .

بروز شخصيته فى شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره، عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأغراض الحياة؛ ولذلك كان شعره فى كل عصر مدداً لكل كاتب ، ومثلا لكل خاطب .

عيوب شعره

بيت المتنبى يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه ، وتبعد غايته منه فيطيش سهمه . وقد بلغ من إهماله اللفظ أن وقع فى بعض المساوىء ، كاستكراه اللفظ ، وتعقيد المعنى ، واستعمال الغريب ، وقبح الطالع ، ومخالفة القياس ، وكثرة التفاوت فى شعره ، والخروج فى المبالغة إلى الإحالة ، كقوله :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفَه   ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله :

أنى يكون أبا البرايا آدم   وأبوك والثقلان أنت محمد[1]

وقوله :

لو لم تكن من ذا الورى اللذِ مَنكَ هو   عقمت بمولد نسلها حــواء

والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للثعالبى.

نموذج من شعره

قال يشكو الزمان :

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى   شيئاً تتيمه عَيْنٌ ولا جيد
ياساقيىَّ أخمرٌ فى كؤوسكما   أم فى كؤوسكما هَمٌّ وتسهيد ؟
أصخرة أنا ؟ مالى لا تغيرنى   هذى المدام ولا تلك الأناشيد ؟
إذا أردت كُمَيْتَ الخمر صافية   وجدتها وحبيب النفس مفقود

(١) تقديره : أنى يكون آدم أبا البرايا وابوك محمد وأنت الثقلان .

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبُها أنى بما أنا باكٍ منه محسود !

وقال يتفلسف :

نحن بنو الموت فما بالنا نعاف مالا بد من شربه ؟
تبخل أيدينـــا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوِّهِ وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يَسبيه لم يَسبِهِ
لم يُرَ قرنُ الشمس فى شرقه فشككت الأنفسُ فى غربه
يموت راعى الضأن فى جهله موتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمـــره وزاد فى الأمن على سِربه
وغاية المفرط فى سلمه كغاية المفرط فى حربه

وقال :

نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال
رمانى الدهرُ بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالى

وقال :

صحبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصـــة كلهم منـــه وإن سرَّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـــه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يَرْضَ فينا بريب الدهـــر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبتَ الزمانُ قناة ركَّب المرء فى القناة سنانا
ومُراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيـــه وأن نتفانى
غيرَ أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحيـــاة تبقى لحى لعددنا أضـــلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وقال أيضاً :

زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حالٌ تحول

وصلينا نصلك فى هذه الدنـ يا فإن المقام فيها قليل

أبو فراس الحمدانى

٣٢٠ — ٣٥٧ هـ

نشأته وحياته

هو أبو الحارث بن أبى العلاء ابن عم سيف الدولة . ولد بمنبج ورُبى فى حجر النعيم بين أبّهة الملك وعزة السلطان . فنشأ على خلال العظماء شجاعاً أبى النفس سليم الطبع ، كريم الخلق ، جامعاً بين أدبى السيف والقلم . وكان سيف الدولة معجباً بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه ، فاصطنعه لنفسه ، واصطحبه فى غزواته ، واستخلفه فى أعماله ؛ فكان الدرّة الفريدة فى تاج سيف الدولة ، يقود جيوشه فى الحرب ، ويرأس كتابه فى السلم . وكان النصر حليفه فى كل وقائعه ، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن ، وانطلق لسانه بروائع الشعر فى الفخر والحماسة ووصف الحروب ، حتى خانه الفوز فأسره الروم فى بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقى نصله فى فخذه ، فسجنوه بخرشنة ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية . وتعذرت المفاداة فلبث فى الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه ، ممثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته الوحيدة ، وعوامل الحب لسيف الدولة . ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وحرارة الشوق حتى تنوظر فى الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه .

« ولما خرج قمر البيان من سِراره ، وأُطلق أسد الحرب من إساره » ، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذهب من شبابه أيام عذابه . فتوفى سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالى ابن أخت أبى فراس ؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه ذلك أبو المعالى ، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لدْن العود غض الإهاب .

صفاته وأخلاقه

كان أبو فراس كما قدمنا بطلا أبيًا سخيا معجبا بشعره و بنفسه ، كثير الفخر بأصله وقومه ، عزوفا عن الشراب والمجون ؛ فبرىء شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه فيه . وهو القائل :

لئن خلق الأنام لِحسْو كأس ومزمار وطُنبـــور وعود
فلم يُخلق بنو حمـــدان إلا لمجد أو لبأس أو لجـــود

شعره

شعر أبى فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوبًا ، إلا أن عليه رُواء الطبع ، وسمة الظرف ، وعزة الملك . ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا فى شعر عبدالله ابن المعتز . وكان الصاحب بن عباد يقول . « بدىء الشعر بملك وختم بملك » يعنى امرأ القيس وأبا فراس . وقد تصرف هذا الشاعر فى أغلب فنون الشعر فأجاد ، إلا أن منزلته فى الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى ، ورومياته أجل وأدل على فضله ؛ فإن مثله لا يزكو به أن يمدح أميرًا ، أو يهجو صغيرا ، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والمجون ، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج . وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب ، فيكون أتم جلالا وأشد روعة . وزعم الثعالبى أن المتنبى كان يشهد له بالتبريز و يتحامى جانبه (فلا ينبرى لمباراته ، ولا يجترىء

على مجاراته ، وإنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيبا له وإجلالا لا إغفالا) ، وهو زعم لا يطمئن عليه القلب ، ولا يقول به من عرف المتنبى .

نموذج من شعره

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة — أيا جارتا لو تشعرين بحالى
معاذ الهوى ماذقت طارقة النوى — ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا — تعالى أقاسمْك الهموم تعالى
تعالىْ ترىْ روحاً لدىَّ ضعيفة — تردّدُ فى جسم يعذب بالى
أيحمل محزونَ الفؤاد قوادمٌ — على غُصُن نائى المسافة عالى ؟
أيضحك مأسور وتبكى طليقة — ويسكت محزون ويندب سالى ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة — ولكن دمعى فى الحوادث غالى

ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه — ومن أين للحر الكريم صحاب ؟
وقد صار هذا الناسُ إلا أقلَّهم — ذئاباً على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قوم فظنوا غباوة — بمفْرق أغبانا حصى وتراب
إلى الله أشكو أننا بمنازل — تحكّم فى آسادهن كلاب
تمر الليالى ليس للنفع موضع — لدىّ ولا للمعتفين جناب
ولا شُدّلى سرْج على متن سابح — ولا ضُربت لى بالْعَراء قِباب
ستذكر أيامى نمير وعامر — وكعب على علاتها وكلاب
أنا الجار لا زادى بطىء عليهم — ولا دون مالى فى الحوادث باب

ومنها :

ومازلت أرضى بالقليل محبة — لديه وما دون الكثير حجاب
وأطلب إبقاء على الود أرضَه — وذكرى منى فى غيرها وطِلاب

كذاكَ الودادُ المحض لا يرتجى له ثوابٌ ولا يُخشى عليه عقاب
وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع وفى كل يوم لقيـةٌ وخطاب
فـكيف وفيما بيننا مُلكُ قيصر وللبحر حولى زخرةٌ وعُباب !
أمن بعد بذل النفس فيما تريده أثاب بمُرّ العَتب حين أثاب ؟
فليتك تحلو والحيـــــاة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب !
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العـــالمين خراب !
إذا صح منك الود فالـكل هين وكل الذى فوقَ التراب تراب

أبو العلاء المعرى

٣٦٣ — ٤٤٩ هـ

نشأته وحياته

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخىّ نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن. ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين . فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة . فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدَرى فذهب بيسرى عينيه وابيضت اليمنى ؛ فنشأ ضريراً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوبا معصفرا وهو مريض فـكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى . ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربى فتعلمها . وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ماحوته صدورهم . ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم ، أو اختص دونه بفهم ، فانثنى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره ، وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق فى ذلك وبلغ منه مالم يبلغه أحد . وفى سنة ٣٩٢ هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام . فزار مكتبة طرابلس ، وعاج على اللاذقية ، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد . وبعد أن طوف فى

بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية . وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا إلى لقائه ظماء إلى أدبه . فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآدب و يبحث هو فى علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطا بعيدا . ووجد أبو العلاء فى بغداد بيئة صالحة وأرضا زكية لبحث المسائل وغرس المبادىء . فأخذت آراؤه تظهر وتذيع . واتصلت أسبابه هنالك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة فى دار أبى أحمد عبد السلام بن الحسن البصرى أحدهم فأثر خلاطها فى عقله وأدبه . وما كادت علائقه تتوثق بالبغداديين حتى فوجىء على بعد المزار بنعى أمه ، وكان أبوه قد توفى قبلها ، فوجد عليها وجدا شديدا ، ونالت منه هذه النازلة . وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون فى عقيدته ويشكون فى أمره ، فاضطربت حياته ، واختلفت أطواره وأعوزه المشفق والنصير . فنظر إلى العالم بمنظار أسود ، وقرر فى نفسه العزلة والخروج عن الدنيا . وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠ فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه . وسمى نفسه رهن المحبسين : العمى والمنزل . وظل عاكفا على التعليم والتأليف عازفا عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه ، قانعا من الطعام والحلوى بالعدس والتين . ومن المال بثلاثين دينارا موقوفة عليه فى كل عام ، راضيا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردى . وحرم على نفسه الزواج ضنا بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة . ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩ ، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جناه أبى علىّ (م) وما جنيت على أحد[1]

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون .

مواهبه وعقيدته

كان أبو العلاء إنسىّ الولادة وحشى الغريزة كما وصف نفسه ؛ رقيق القلب

(١) اقرأ ترجمته مفصلة فى كتاب (ذكرى أبى العلاء) للدكتور طه حسين . أو كتاب (أبو العلاء وما إليه) للراجكوتى . طبع بالقاهرة .

سخيا وفيا ، قامعا لشهواته ، سيء الظن بالناس ، شديد الحذر منهم ، قوي الذاكرة ، سريع الحفظ ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب ؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم . وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة . ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم : فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد .

وقد اختلف الناس في عقيدته ، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأي البراهمة . وغيرهم يقول : إن شعره كـكلام الصوفية له باطن وظاهر . وبعضهم يقول : إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه . وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكا ، فتارة يثبت وأخرى ينفي ، ولذلك كثر التناقض في شعره[1] .

شعره

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين : شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات . فأما شعره في الشبيبة فـكثير المبالغة، واضح التقليد بيّن التكلف ، قلد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه ، واستخف بقواعد اللغة ، وجارى شعراء عصره في البديع . بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره

---

(١) فبينما يقول مثلا :

عجبت لكسرى وأشياعه ... وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضام ... ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب ... رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد ... لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجباً من مقالاتهم ... أيعمى عن الحق كل البشر ؟

ويقول : هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارت والمجوس مضللة
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا ... دين ، وآخر دين لا عقل له

ويقول : ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك

إذ به يقول : خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما ... ل إلى دار شقوة أو رشاد

من اصطلاحات العلوم ، وقال فى أكثر أغراض الشعر إلا فى الخمر والمجون والصيد والهجاء . وقد سلم له فى هذا الطور جملة من القصائد المختارة فى الرثاء والمدح والفخر .

وأما شعره فى الكهولة فقليل المبالغة والتكلف ؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب ، فآثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوى ، وركب القوافى الصعبة ، والتزم ما لا يلزم ، وتشدد فى اتباع القياس ، وأكثر من البديع والجناس ، وأودع شعره فى هذا الطور فلسفته وآراءه . ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان . وقد ابتدع فى شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة ، ومناظرة الذئب والشاة . وهو أحكم الناس بعد أبى الطيب . ويختص دونه بالخيال الدقيق ، وتصريف القول فى الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان ، وهو واحد الشعراء فى هذه السبيل .

نثره

نثر أبى العلاء كشعره ، يختلف فى كهولته عنه فى شبيبته . فقد كان كثير المبالغة ، مفعما بالغريب ، متكلف السجع ، كثير الاصطلاحات العلمية . ثم حكم فلسفته فى نثره فقلت المبالغة ، وفاضت الجمل بالمعانى . ولم تخل كتابته من غموض يُعَنِّى القارىء وتطويل يمله ؛ فربما كتب الرسالة إلى بعض أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد .

مؤلفاته

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية ، فلم يبق إلا سقط الزند ، واللزوميات ، والدرعيات ، والفصول والغايات ، وديوان رسائله ، ورسالة الملائكة ،

«رسالة الغفران» ، وهى شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتى[1] ، والفردوس المفقود ملتن[2] لأنه تخيل رجلا صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك ، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائى بديع . ثم عبث الوليد . وهو شرح ديوان البحترى وقد طبع فى دمشق . وقد فقد كتاب الأيك والغصون فى مائة مجلد ، وهو دائرة معارف فى العلم والأدب ؛ ومعجز أحمد ، وهو شرح ديوان المتنبى ؛ وذكرى حبيب ، وهو شرح ديوان أبى تمام ، وغير ذلك كثير .

نموذج من شعره

قال ينعى على الحكام استبدادهم بالرعية وعبثهم بمصالحها :

مُلَّ المقَام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أُمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدَوا مصالحها وهم أُجراؤها

وقال فى أحكام الحظ وأوهام الحياة :

تباركتَ أنهارُ البلاد سوائح ... بعذب وخُصّت بالملوحة زمزم !
هو الحظ ، عيْرُ البيدِ سافٍ بأنفه ... خزامى وأنف العود بالذل يخزم
توهمت خيراً فى الزمان وأهله ... وكان خيالاً لا يصح التوهم
فما النُّور نوّار ولا الفجر جدول ... ولا الشمس دينار ولا البدر درهم

ومن قصيدة له فى الرثاء :

صاح ! هذى قبورُنا تملأ الرُّحْـ ... ـبَ فأين القبورُ من عهد عاد ؟
خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... ـأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن بَعُد العهـ ... ـد هوَانُ الآباء والأجداد

(١) دانتى (Dante) زعيم الشعر الإيطالى وحبيب بياتريس (Beatriz) ومنشىء الملهاة الالهية (La divine Comedie) ولد سنة ١٢٦٥ وتوفى سنة ١٣٤١ م .

(٢) ملتن (Milton) شاعر انجليزى شهير كان ناموساً لكرموبل فلما مات تضعضع أمره وخمل ذكره ، ثم كيف بصره ، فكان يملى على زوجته وابنتيه قصيدته الخالدة الفردوس المفقود (le paradis perdu) وهى ركن من أركان الشعر الانجليزى وإحدى روائع الخيال البشرى . ولد سنة ١٦٠٨ وتوفى سنة ١٦٧٤ .

سر إن اسطعت فى الهواء رُوَيْداً لا اختيالا على رُفات العباد
رُبَّ لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الأضداد
فاسأل الفرقدين عمن أحَسَّا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لِمُدلج فى سواد
تعبٌ كلها الحياة فما أعـ جب إلا من راغب فى ازدياد
إن حزناً فى ساعة الموت أضعا فُ سرور فى ساعة الميلاد

وقال ينعى على المتزهدين المرائين من أهل الدين :

رُوَيدكَ قد غُرِرتَ وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يُحرِّمُ فيكم الصهباء صُبحاً ويشربها على عَمْدٍ مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفى لذاتها رهَنَ الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهى فمن جهتين لاجهة أساء

وقال :

يحسن مرأى لبنى آدم وكلهم فى الذوق لا يعذبُ
ما فيهمَ بَرٌّ ولا ناسكُ إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وقال :

خفْ دَنيًّا كما تخاف سَرِيًّا صال ليث الشرَى بظفر وناب
والصِّلالُ التى تخاف رداها شرُّها فى الرءوس والأذناب

وقال :

عجبى للطبيب يُلحد فى الخا لق من بعد درْسه التشريحا
رُبَّ روح كطائر القفص المسـ جون ترجو بموتها التسريحا

الشعر والشعراء فى الأندلس

أفلت صقر قريش من شرَك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس. وكان المُلك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمنية؛ والبلاد تنتظر من يلمُّها من شتات، ويحييها من مَوَات، ويجمعها من فرقة؛ فكان عبدالرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر. فاستولى عليها سنة١٣٨هـ بمعونة اليمنية. ونشر عَلَم بنى أمية فى قرطبة بعد ما طوته المسوِّدة فى دمشق. وتعاقب على عرشها من أولاده وحفَدته تسعة عشر خليفة فى أربعة وثمانين ومائتى عام، حتى أصابهم داء الأمم فتفرقوا وتمزقوا، وانحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف، كبنى جهور فى قرطبة، وابن عباد فى اشبيلية، وابن الأفطس فى بطليوس.

وكانت سياسة الأمويين فى الغرب غير سياستهم فى الشرق، فقد كانوا فى دولتهم الأولى يترفعون عن خلاط الموالى، ويعتزون بعصبية الجنس، فأصبحوا فى هذه الدولة مدنيين، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم، ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم، صُنع بنى العباس فى أبناء الفرس. فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث فى الأندلس ما حدث فى العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية، ونضج العقلية العربية، واستعار النهضة الأدبية، وازدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبنَاتُها[1] من العرب، لأن أوربا يومئذ كانت تخبط فى دياجير الجهالة، وترسف فى أغلال الأمية، فاقتبس الأسبان ثقافة العرب فاعتقدوا دينهم، وتكلموا لغتهم، وتعلموا أدبهم، وهجروا اللاتينية

(١) أما حضارة الإسلام فى بغداد فكانت من صنع الفرس والسريان والهنود، لأن العرب كانوا يومئذ وراث بداوة وجهالة، وهؤلاء كانوا وراث ملك وحضارة وفلسفة وعلم، فانتقل كل أولئك إلى الإسلام بانتقالهم إليه.

وآدابها حتى أنسوها ، وحتى جأر بالشكوى من هذه الحال كاهن[1] قرطبة . ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرفهم جرفاً حتى اضطرهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية .

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه ، ويستمدون من زعمائه وعلمائه ، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين ؛ فشيدوا المدارس الجامعة، وأنشأوا المكاتب العامة ،ونشطوا حركة التأليف ، وأذكوا نهضة الأدب، ورفعوا مجد الفنون ، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والغناء . بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) وبلغت أوج سلطانها وغاية عمرانها وتمام بنيانها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ – ٣٥٠) وابنه الحكم ، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد ، وما أدهشت به المؤرخ دوزى حتى قال : « إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى » . وهكذا كانت حضارة الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف مجاهيل الغرب ، ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه : فلم تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهي حتى دب في خلافة بني مروان دبيب البلى والهرم، وآل سلطانها إلى ملوك الطوائف فاضطلعوا به قليلا ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام. وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم ، ونازعوهم سلطانهم ؛ وراوحهم

(١) قال هذا الكاهن ما ملخصه عن كتاب تاريخ العرب في إسبانيا لدوزى ج ٢ ص ١٠٣ . إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية فنتعلم لغة عذبة الألفاظ بليغة الأداء جميلة الإنشاء ، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ، وشبابنا الأذكياء جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم . وكلما قرأوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها ، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه وقالوا إن الفائدة منه لا تساوى التعب في قراءته . وهكذا نسى المسيحيون لغتهم ، وجهلوا كتابتها وبلاغتها . وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه نثراً ونظماً بأسلوب أنيق ، وتصوير دقيق ، يفوقون فيه العرب أحياناً

الفرنج متكاتفين فاستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة ، حتى تمت الهزيمة وعم الجلاء بفرار أبى عبد الله محمد بن على من غرناطة سنة ٨٩٨ هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة .

ذلك مجمل من القول فى حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنُلم به إلماماً من وصف شعرهم وذكر نفر من شعرائهم .

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسى فنفصله ونحلله ، وإنما هى لمعة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه ، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه . فقد وجد الشعراء العرب فى أوربا ما لم يجدوه فى آسيا من الحياة المتنوعة ، والجواء المتغيرة ، والمناظر المختلفة ، والأمطار المتصلة ، والخمائل الجميلة ، والأدواح الظليلة ، والأنهار الروية ، والسهول الغنية ، والجبال المؤزرة بعميم النبت ، والمروج المطرزة بألوان لزهر ؛ فصفت أذهانهم ، وسما وجدانهم ، وعذب بيانهم ، ووسعوا دائرة الأدب ، وهذبوا الشعر فتأنقوا فى ألفاظه ، وتنوّقوا فى معانيه ، ونوعوا فى قوافيه ، وتفننوا فى خياله ، ودبجوه تدبيج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر ، وأكثروا من نظمه فى البحور الخفيفة القصيرة ، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقى الغناء . فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى ، ثم تطور عند انحطاط الأدب واضمحلال أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية .

وصرّفوا الشعر فى أغراض شتى كالمدح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمزاح والمجون وعالجوا سياسة الاجتماع ، ونظموا حوادث التاريخ ، وأبدعوا ما شاء الإبداع فى الوصف : فوصفوا الأبنية والتماثيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأودية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب ؛ وكل ذلك فى حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة . إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقى ، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من ابتداع الموشح وتنويع القافية ؛ وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل الذى يُرجع إليه ، والقالب الذى يضرب عليه .

ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربى

تصنُّع فى اللفظ ، وتعمُّلٌ فى الشكل ، وليس فيه خيال رائق ، ولا شعور صادق[1] فلن يصح هذا القول بحال فى شعراء الأندلس . فإنهم عبروا عن عواطفهم ، وترجموا عن مشاعرهم ، بلفظ جيد وأسلوب أنيق ، فطافوا[2] على قرائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشتهيه الأنفس . وإنك لترى فى وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج . ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة ، ضروباً شتى من الشعر ، كالمدح والهجاء والغزل ، كما أخذوا عنهم القافية ، وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها[3] .

ولو طال عَلَى الأندلسيين الأمد فى الحضارة ، وتعاقبت أطوار الرقى على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم . ولكن فاجأهم الانقسام ، ودهمهم الخصام ، فانشقت عصاهم ، وانفصمت عراهم ، ونضبت قرائحهم وأمحلت عقولهم ، وذهبوا كأمس الدائر ، سنة الله فى خلقه . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

(١) على أن من منصفى كتاب الفرنج من نقض هذا الحكم كالأستاذ جول لومتر (Jules lemaitre) (١٨٥٣ — ١٩١٤)إذ يقول فى مقدمته لكتاب حديقة الزهور لواصف باشا غالى « إن الشعر العربى على جملته أنق شعر عرفه العالم بما حوى من العواطف الرقيقة ؛ وهو أقرب الأشعار الى معانى الرجولة والشرف والحياء الصحيح والإيمان القوى » .

(٢) إشارة الى من شبه معانى الشعر العربى فى وحدتها وتنوع ألفاظها بشراب من نوع واحد يسقى بآنية مختلفة ، فنها الذهب والفضة والبلور والخزف .

(٣) كان التروبادور (les Troubadours) وهم شعراء جنوب فرنسا فى القرون الوسطى ، ينتقلون من قصر الى قصر منتجعين الأمراء والوجهاء بالمديح ، وكانت أشعارهم خلواً من القافية فاقتبسوها من عرب الأندلس بطبيعة الجوار والخلاط ، كما اقتبسوا فى النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء ، وفى النثر القصص والأمثال والملح . وإنما خفى ذلك الأثر العربى فى الأدب الفرنسى الحديث لأن الغلبة كانت لأهل الشمال ولغتهم أويل (Oil) ولشعرائهم التروفير (les trouveres).

وقال لويس فياردو (Louis Viardot) فى الجزء الثانى من كتاب تاريخ العرب والبربر فى اسبانيا : « كان الشعر الفرنسى على مثال الشعر الأسبانى المأخوذ عن الشعر العربى لا عن اليونانى ولا عن الرومانى ، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الرابع عشر حتى يقلدوه ... ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب . وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيليا وطولون مع التجار الاسبان الذين كانوا يفدون اليهما . . . »

نماذج من الشعر الأندلسى

قال أبو الفضل بن شرف القيروانى :

مطَلَ الليل بوعدِ الفَلَق | وتشكّى النجمُ طولَ الأرق
ضربت ريح الصَّبا مسك الدجى | فاستفاد الروض طيب العبق
وألاح الفجرُ خدّاً خَجِلا | جالَ من رَشح الندى فى عَرق
جاوز الليل إلى أنجمه | فتساقطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيها فيضة | أيقن النجم لها بالغرق
فانجلى ذاك السَنا عن حلك | وانمحى ذاك الدجى عن شفق
يأبى بعد الكرى طيفٌ سرى | طارقاً عن سكن لم يُطرِق
زارنى والليل ناعٍ سدْفَه | وهو مطلوب بباقى الرمق
ودموع الطل تمريها الصَّبا | وجفون الروض غرْقى الحدق
فتأبى فى إزار ثابت | وتثنى فى وشاح قلِق
وتجلى وجهه عن شعره | فتجلّى فَلَقٌ عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته | فحبا الخدّ ببعض الشفق
سلبت عيناه حدَّىْ سيفه | وتحلى خدُّه بالرونق

وقال ابن حمديس الصقلى يصف ديراً وراهبة تبيع الخمر .

وراهبة أغلقت ديرها | فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة | تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمى | فأجرت من الدّن دينارها
تفرس فى شمسه طيبها | مجيدُ الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حتى درى | عصير الخمور وأعصارها
يَعدُّ لما شئت من قهوة | سنِيها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالك أطلعت | على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم | تثور فيقتل ثوارها

وقد سكّنت حركات الأسى قيانٌ تحـــرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبــل مزمارها
وراقصة لقطت رجلَها حسابَ يد نقرت طارها
وقُضبٍ من الشمع مصفرة تريك من النـار نوارها
كأن لهـا عمداً صفقت وقد وزن العدل أقطارها

إلى أن قال :

ذكـرت صَقلِّيّةَ والأسى يهيّـج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلَت وكان بنو الظرف عمّارها
فإن كنت أخرجتُ من جنة فإنى أحدث أخبـارها
ولولا ملوحة ماء البـكا ء حسبت دموعىَ أنهارها

وقال ابن هانىء يصف أكولا :

ياليت شعرى ، إذا أومى إلى فمه أحلقه لهوَات أم ميادين ؟
كأنها — وخبيث الزاد يضرمها — جهنم ، قذفت فيها الشياطين
تبـارك الله ما أمضى أسنّته كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيـه مختزَنٌ ممـا أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أينَ الصوارم أم أين الخناجر أم أين السكاكين
كأنما الحمل المشوىُّ فى يده ذو النون فى الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها كأنمـا افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة كأنمـا اختطفتهن الشواهين
يخفّض الرز من قرن إلى قدم وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه نار ، وفى كل عضو منه كانون !
كأنما فى الحشا من حمل معدته قرنفل وجراريش وكمون
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا وجاذبتنا أعنتها البراذين
نصحتـكم ، نخذوا من شدقه وزراً أولا ، فأنتم سوَيق فيه مطحون

وقال المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وقد دخل عليه فى سجنه بناته يوم عيد فى أطمار بالية بعد أن سلبه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغمات :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا　　فساءك العيد فى أغماتَ مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة　　يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية　　كأنها لم تطأْ مسكاً وكافورا
أفطرت فى العيد لا عادت إساءته　　فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إنْ تأمرْه ممتثلا　　فردك الدهر منهيًّا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسَرُّ به　　فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال ابن دراج القسطلى من قصيدة يصف وداعه لزوجه وولده الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هفا　　بصبرىَ منه أنة وزفير
تناشدنى عهد المودة و الهوى　　وفى المهد مبغوم النداء صغير
عَيِيٌّ بمرجوع الجواب، ولفظه　　بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومُهدت　　له أذرع محفوفة ونحور
وطار جناح البين بى وهفت بها　　جوانح من ذعر الفراق تطير
ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى　　علىّ ورقراق الشراب يمور
أسلطح الهاجرات إذا سطا　　على حر وجهى والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهى لوافح　　وأستوطىء الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبان تلون　　وللذعر فى سمع الجرىء صفير
لبان لها أنى من البين جازع　　وأنى على مض الخطوب صبور

وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين :

ما على ظنىَ باس　　يجرح الدهر ويأسو
رُبما أشرف بالمر　　ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفا　　لٌ ويُرديك احتراس
والمحاذير سهام　　والمقادير قياس

وَلَكَم أجــدى قعودٌ   وَلَكَم أكدى التماس !
وكذا الحكم : إذا ما   عــز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخيــــا   فٌ سَرَاةٌ وخِساس
نلبس الدنيا ، ولكن   متعةٌ ذاك اللبــاس
يا أبا حفص وما سا   واك فى فهم إياس
من ســنا رأيك لى فى (م)   غَسق الخطب اقتباس
لا يكنْ عهدك وَرْداً   إن عهــدى لك آس
وأدر ذكرىَ كأساً   ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفــو الليالى   إنما العيش اختلاس
ما ترى فى معشر حا   لوا عن العهد وخاسوا ؟
أَذؤُبٌ هامت بلحمى   فانتهابٌ وانتهــاس
كلهم يســأل عن حا   لى ، وللذئب اعتساس
إن قســا الدهر فللما   ء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبــو   ساً فللغيث احتبــاس
ويُفتُّ المســك فى التر   ب فيــوطأ ويُداس

ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقى :

خذ حديث الشوق عن نَفَسى   وعن الدمع الذى همـــــا
ما ترى شوقىَ قد وقدا
وهما دمعىَ واطردا
واغتدى قلبى عليك سدى !
آه من ماء ومن قبس   بين طرفى والحشا جُمعا !

***

بأبى ريم إذا ســفرا
أطلعت أزرارُه قمــراً

فاحذروه كلما نظرا

فبألحاظ الجفون قِسى أنا منها بعض من صُرِعا

وقال بعضهم :

ما المـــوَلّه من سكره لا يفيق

يا له سكرانا !

من غير خمر . ما للـكئيب المَشـــوق

يندب الأوطانا

هل تســـتعاد ، أيامنـــا بالخليج

وليـــالينا

أو يســـتفاد ، من النسيم الأريج

مسـك دارينا

وادٍ يكاد ، حسن المكان البهيج

أن يحيينــا

ونهر أظـــلّهُ دوح عليـــه أنيق

مورق فينـان

والمـــاء يجـرى وعائم وغـــريق

من جَنَى الريحان

ومن موشح ابن سهل الإسرائيلى :

هل درَى ظبي الحمى أن قد حمى قلبَ صب حله عن مكنس

فهـــو فى حر وخفق مثـــل ما لعبت ريح الصَّبا بالقبَس

* * *

يابدوراً أطلعت يوم النوى غرراً تسلك فى نهج الغرر

ما لقلبي فى الهوى ذنب سوى منـكم الحسنُ ومن عيني النظر

أجتنى اللذات مكلومَ الجوى ⁂ والتذاذى من حبيبى بالفِكر
كلما أشكوه وَجداً بَسَما ⁂ كالرُّبى بالعارض المُنْبَجِس
إذ يقيم القَطـرُ فيه مأتما ⁂ وهى من بهجتها فى عُرسُ

* * *

غالبٌ لى غالبٌ بالتُّؤده ⁂ بأبى أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نَضَّدَه ⁂ أقحوانًا عُصِرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربده ⁂ وفؤادى سكرُه ما إن يُفيق
فاحم الجمَّة معسول اللمَى ⁂ أكحل اللحظ شهىَّ اللَّعَس
وجهه يتلو الضحى مبتسما ⁂ وهو من إعْرَاضه فى عبس

شعراء الأندلس

أبن عبد ربه

٢٤٦ — ٣٢٨ هـ

نشأته وحياته

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموى بالولاء ، لأن جده كان مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ثانى خلفاء الأمويين بالأندلس . ولد هذا الكاتب الشاعر بقرطبة ونشأ بها ، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وامتاز بسعة الاطلاع فى العلم والرواية ، وطول الباع فى الشعر والكتابة . قال ياقوت فى معجمه : « وكان لأبى عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة ، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق ، فساد بعد الخمول ، وأثرى بعد الفقر ، وأشيرَ إليه بالتفضيل ، إلا أنه غلب عليه الشعر » ثم أصيب فى أعقاب عمره بالفالج . وتوفى سنة ٣٢٨ هجرية

شعره

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل . وهو أشبه بشعر ابن زيدون في الجمع بين روعة الشرقيين وجزالتهم ، ورقة الغربيين وسلاستهم . وهو أكثر ترديداً لأخبار المشارقة وأصح تقليداً لأشعارهم . وقد اتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره ، ورددوا ذكره ، وشهدوا له بالتقدم والإجادة . روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرّج في منصرفه على مصر ، فلقي بها أبا الطيب المتنبي في جامع عمرو بن العاص ، فأفاضا في الحديث مليا ، ثم قال المتنبي : ألا تنشدني لمليح الأندلس ؟ يعني ابن عبد ربه . فأنشده الوليد شيئاً من شعره ، فصفق له واستعاده ثم قال : « يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا ! » وكفى بشهادة المتنبي دليلا على فضل الرجل وعلو كعبه . وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين . فقد رأى الحميدي من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه . وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى . وقال في مقدمته : « وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والمنثور » .

وهو من السابقين إلى اختراع الموشحات ، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية . من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره ، ولكنها إلى الشعر التعليمي (Didactique) أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبعدها عن قواعد الملحمة ، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد .

ولما تناهت به السن وأرعشه الكبر ، أقلع عن صبوته ، وأخلص لله في توبته ، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالممحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل

واللهو ، بقطعة من بحرها ورويها فى الموعظة والزهد ولم يكتف ابن عبد ربه بنبوغه فى الشعر وتفوقه فى النثر ، فأراد أن يدل على براعته فى التأليف أيضاً ، فصنف كتاباً فى الأدب سماه العقد الفريد .

العقد الفريد

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب ، جامع لشتيت الفوائد ومنثور المسائل فى الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى . وقد استوعب خلاصة ما دُوِّن من كتب الأصمعى وأبى عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم . ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشّى كتابه بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح . وقد تأنق فى تبويبه وتفنن فى ترتيبه ، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً فى موضوعات شتى بدأ كلا منها بمقدمة بليغة من إنشائه تبين الغرض منه ؛ وسمى كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد كاللؤلؤة والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ .

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسى لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها بكلمة ، اللهم إلا إلى نفسه ! حتى إن الصاحب بن عباد لما سمع بهذا الكتاب حرص حتى حصل عليه . فلما تصفحه قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا . ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم ، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا . لا حاجة لنا به ، ثم رده » . والكتاب فى ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً فى خمسة مجلدات .

نموذج من شعره

قال فى الغزل :

يا لؤلؤا يسبى العقول أنيقا   وَرَشاً بتقطيع القلوب رفيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله   دراً يعود من الحياء عقيقا

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه   أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصرهُ من رقة   ما بال قلبك لا يكون رقيقا ؟

وقال فى موقف الوداع :

ودَّعتنى بزورة واعتنـــــاق   ثم نادت متى يكون التلاقى !
وبدت لى فأشرق الصبح منها   بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم   بين عينيك مصرعُ العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم   ليتنى متّ قبل يوم الفراق !

وقال فى وصف رمح وسيف :

بكلّ ردَيْنِىٍّ كأن سنانه   شهاب بدا فى ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال فى طُول متنه   وعادت به الآمال وهى فجائع
وذى شُطَب تقضى المنايا لحكمه   وليس لما تقضى المنية دافع
يسلل أرواح الكماة انسلالُه   ويرتاع منه الموت والموت رائع

وآخر شعر قاله قوله :

بليت وأبلتنى الليالى بكرِّها   وصرفان للأيام معتوران
ومالى لا أبلى لسبعين حِجَّةً   وعشر أتت من بعدها سنتان
ولست أبالى من تباريح علتى   إذا كان عقلى باقياً ولسانى

ابن هانىء الأندلسى

٣٢٦ — ٣٦٣ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الأندلسى بأشبيلية فى زهرة العهد الأموى . وفى أوج عصره الذهبى ، وفى حكم الملك الناصر . وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً ، فنشأ بها ودرس الأدب العربى على النمط المألوف .

يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة ، وأبوه هانىء يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر . واستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليلهم ، حتى اتصل بصاحب أشبيلية فنال حظوته وكسب محبته . وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت فى ذلك الحين ، فقطف ابن هانىء منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين . وأخذ بشىء من مذاهب الفلاسفة ، والأندلسيون على نقيض الشرقيين يمقتون البدعة وينصرون السنة وينكرون الفلسفة ويصدون عن البحث فى الدين ، فتألب أهل أشبيلية عليه ، وكادوا يصلون بالأذى إليه . واتهموا الملك بمشايعته على رأيه ، فأشار عليه أن يغيب ريثما تهدأ ثائرة القوم وينسونه . فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة ، فلقى القائد جوهراً فاتح مصر للمعز فمدحه . وأخصب زرع آماله فوصله الجد الميمون بالمعز لدين الله العبيدى فاصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه . ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعه ابن هانىء وتخلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر . فلما كان فى طريقه إليها عرج على برقة ونزل فى ضيافة رجل من أهلها ، فأقام عنده يقصف ويلهو ، حتى أمعن ذات يوم فى الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت . فقيل إن ندماه من أهل ضيافته عربدوا عليه وقتلوه ، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعته الخمر فى الطريق فمات ، وعمره ست وثلاثون سنة . فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال : «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقَدَّر لنا ذلك» .

أخلاقه

كان ابن هانىء ماجناً خليع العذار صاحب لهو وخمر . وكان ذكى الفؤاد فكه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالى أين يقع ذلك من الناس

ومصداق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها بيئته ، وترفضها طبقته ، ومبالغته فى شعره إلى حد الكفر ، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس . ناهيك بميتته الداعرة التى قل أن ماتها رجل .

شعره

ابن هانىء على رأى الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع . وفى هذا الرأى على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون . على أن شعره من الطبقة العالية التى تجمع بين سلاسة التفكير ، وسلامة التعبير ، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوالج النفس . وقد اطلع[1] على شعر المتنبي وهو معاصره فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على منهاجه وائتم بهديه : فهو مثله يذهب فى الشعر مذهب الفلاسفة ، وينثر فى ثنايا مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته الخاصة مورداً لشعره ، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب ، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجادة نادرة ، ولذلك سموه متنبي الغرب على عادة المغاربة من حب التشبه بفحول المشارقة . ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر ، والعزيمة والدهر ، والكرم والبحر ،فى هذه التشابيه المعروفة . فشتان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد . وكأن هذه الموازنة أثارت سخط أبى العلاء ، وعصبيته للمتنبي شديدة كما تعرف ، فقال فى ابن هانىء : « ما أشبهه إلا برحا تطحن قروناً لأجل القعقعة التى فى ألفاظه » ومن يدرى ؟ فلو أن الله نسأ فى أجل ابن هانىء فلم تأخذه المنون عَبْطةً لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأى آخر .

(١) يؤيد ذلك قصيدته الرائية التى كتبها الى رجل زعم أنه اتى للتنبى وقرأ عليه شعره. فاستعاره ابن هانىء الديوان فأعاره إياه ثم أساء معاملته فى تقاضيه :

ومطلعها : تنبـه للتنبى فيكم عصراً ولو أراد كم فى شعره كفراً
ومنها : تهتم عليه بمرآه وخلتكم لم تدركوا منه لاعيناً ولا أثرا
ومنها : أريتمونى مثالا من روايتكم كاعجمى أتى لايفصح الخبرا
ومنها : فلو رأى ما دهانى فى كتابكم وما دهى شعره فيكم لما شعرا
ومنها : أعرتمونى نفيساً منه فى أدم فمن لكم أن تماروا البحث والنظرا

أما الأغراض التى قال فيها فالمدح وهو معظم شعره ، والغزل ولا يقوله إلا ابتداء لقصيد أو ابتغاء لتقليد ؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد . وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها فى شعره غير حظ ضئيل .

نموذج من شعره

قال من قصيدة فى الرثاء وهى من أجود شعره :

إنا وفى آمال أنفسنا ... طول وفى أعمارنا قِصَرُ
لنرى بأعيننا مصارعنا ... لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرَنا ... أجفاننا والغائبَ الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا ... فأكلهنَّ العينُ والنظر
لو كان للألباب ممتحن ... ما عُدَّ منها السمعُ والبصر
أىُّ الحياة ألذَّ عيشتها ... من بعد علمى أننى بشر
خرست لعمر الله ألسننا ... لما تكلم فوقنا القدَر

ومنها :

وإذا صحبت العيش أوله ... صفواً ، فهنّ بعده الكدَرُ
وإذا انتهيت إلى مدى أمل ... دركا ، فيومٌ واحد عُمُر
وتخيرُ عيش أنت لابسه ... عيشٌ جنى ثمراته الكبَر
ولكل حَلَبة سابق أمدٌ ... ولكل نَهْلَةٍ واردٍ صَدَر
وحدود تعمير المعمرِ أن ... يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة ... وتنال منه الهام والقصر
والمرء كالظل المديد ضُحًى ... والفىْءُ يحسره فينحسر

ويقول فى ختامها :

غرض ترامى فى الخطوب ، فذا قوس ، وذا سهم ، وذا وتر
فجزعت حتى ليس بى جزع وحذرت ، حتى ليس بى حذر

وقال فى الغزل :

امسحوا عن ناظرى كُحْل السهادِ وانفضوا عن مضجعى شوك القتادِ
أو خذوا منىَ ما أعطيتمُ لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوًى ؟ أو تفكون أسيراً من صفاد ؟
أسُلُوًّا منكم من هجركم قلما يسلو عن الماء الصوادى !
إنما كانت خطوب قيِّضت فعدتنا عنكُم إحدى العوادى
فعلى الأيام من بعدكُم ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مزَارٌ منكم يدنو سوى أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قلَّ تنويل خَيال منكُم يَطَّبى بين جفون ومهاد
لم يزدنا القرب إلا هجرة فرضينا بالتنائى والبعاد
وإذا شاء زمان رابنا برقيب أو حسود أو مُعادى

ومن قصيدة له يمدح جوهراً ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر .

رأيت بعينى فوق ما كنت اسمعُ وقد راعنى يوم من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأُفق سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدْر إذا سلَّمتُ كيف أُشيِّعُ ولم أدر إذ شيَّعت كيف أُوَدِّعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش لُجَّةٌ وإنى بمن قاد الجيوش لمولعُ
فلا عسكرٌ من قبل عسكر جوهرٍ تخبُّ المطايا فيه عشراً وتوضعُ

وقال فى المدح :

أبنَى العوالى السمهرية والسيو ف المشرفية والعديد الأكثر

مَن منكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تُبّعٌ فى حِمْيَر
القائد الخيلَ العتاقَ شوازياً ... خُزراً إلى لحظ السنان الأخزر
شعث النواصى حشرة آذانها ... قبّ الأياطل ، داميات الأنسر
تنبو سنابكهن عن عفر الثرى ... فيطأن فى خد العزيز الأصعر
جيش تقَدّمه الليوث وفوقه ... كالغيل من قصب الوشيج الأسمر
ويقوده الليث الغضنفر مُعَلماً ... فى كل شثن اللبدتين غضنفر
فى فتية صدأ الدروع عبيرهم ... وخَلُوقهم علَق النجيع الأحمر
لا يأكل السرحان شلوَ طعينهم ... مما عليه من القنا المتكسر
قوم يبيت على الحشايا غيرهم ... ومَبيتهم فوق الجياد الضُّمر
وتظل تسبح فى الدماء قبابهم ... فكأنهن سفائنٌ فى أبحر
فخياضهم من كل مهجة خالع ... وخيامهم من كل لبْدَة قسور
حىٌّ من الأعراب إلاّ أنهم ... يَردون ماء الأمن غير مُكدَّر

وقوله فى وصف الخيل :

وصواهل ، لا الهضب يوم مُغارها ... هضب ، ولا البيد الحزون حزون
عُرِفت بساعة سبقها ، لا أنها ... عَلقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق عنها أنها ... مرت بجانحتيه وهى ظنون

ابن زيدون

٣٩٤ — ٤٦٣ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ . وكان أبوه من وجوه الفقهاء وعيون الأدباء ، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم. ورُزق

فى الإنشاء قريحة طيعة وطبعاً سليما . وسمت به كفايته ومكانته إلى أن وزَر لأبى الحزم بن جهْور أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، فاشتهر أمره وارتفع قدره . وألقى إليه مقاليد الأمور فدبرها وساسها بحذق وكياسة : وكثيراً ما سفر بين مولاه وملوك الأندلس فأحسن سفارة وفض المشكل . ثم دبت بينهما عقارب السعاية ، فنقم عليه ابن جهور وسجنه ، ولم يشفع له سالف خدمته ولا سابق حرمته . فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته ، ويستدفع نقمته ، فلم يلن لها ذلك القلب الجماد . ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبى الوليد ابن جهور إلى أبيه فشفّعه . وظل فى حماية هذا الأمير حتى آل الملك إليه بعد أبيه فاستصحبه وقرّبه . ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه . فلجأ إلى المعتضد عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤١ فاستخلصه إليه ، وعول فى أموره عليه . ثم وزر لابنه المعتمد وقضى فى أشبيلية بقية عمره .

فأنت ترى من هذا المجمل أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة ، ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة . فقد ابتلى وهو فى قرطبة بحب ولادة بنت المستكفى أحد خلفاء بنى أمية ، وكانت شهيرة بالجمال والأدب شاعرة ، سافرة ، تساجل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة يغشاه الأمراء والوزراء والأدباء والقادة ، وفى هؤلاء ابن زيدون ، وكانت فيه خفة روح وحسن دعابة وبراعة أدب ، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله. وبادلته هى هذا الحب ، فاذكى هذا الفوز نار الحسد فى قلوب منافسيه ومزاحميه ، فسعوا فى إفساد ذات بينهما . واشتهر منهم الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو عظيم الحول والطول ، فتزلف إلى ولادة فى ساعة من ساعات ملالها من ابن زيدون فظفر برضاها : ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون ، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية الذيل عن لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية ، وضمنها كثيراً من المَلح فى الأدب والتاريخ .

شعره

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس ، لانبجاسه من أعماق فؤاده ، وانبعاثه من طبيعة بلاده . فلم يجر جريان ابن هانىء وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم . لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبيلاً من سبل الشهرة ، وإنما كان يشعر لنفسه ، ويعبر عن نزوات حسه . وهو آخر شعراء بنى مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة . تقرأ فى شعره أجود ما خَصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر ، وشرح العواطف ، وسمو الخيال ، وصفاء الديباجة . وقد تظهر أحياناً على فخره ومدحه علائم الضعف ، إلا أنك لاتجد ذلك إذا تغزل أو تشوق، أو استعطف ، فإن طبعه فى هذه الأغراض فياض ، وقلمه لشرحها مجيد . وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له . وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه .

وقد تضلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليبهم فى الكتابة والخطاب حتى قيل إنه أصيب فى بعض حرَمه فقعد للعزاء عنها ، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يعزونه ، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جنانه . وإنك لتجد أثر هذا الاطلاع بادياً فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والتشابيه والملح .

نثره

لابن زيدون نثر أنيق الوشى ، دقيق النسج ، قليل التكلف والسجع ، كثير الازدواج والإطناب ، شديد الشبه بطريقة الجاحظ ولا سيما فى التنويع بحروف الجر . وله من طريقة ابن العميد تضمين الأمثال والملح ، والتمثُّل بالشعر فى غضون النثر . ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية ، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين ، وبالأخرى إلى ابن عبدوس عن لسان ولادة ، وهى التى سبق ذكرها . وقد حرص الأدباء على حفظهما وعُنىَ العلماء بشرحهما .

نموذج من كلامه

قال مخاطباً بنى جهور :

بنى جهور أحرقتمُ بجفائكم فؤادى فما بال المدائح تعبَق
تعدوننى كالعنبر الورد إنما تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق

وقال يتشوق إلى ولادة وهى بقرطبة وهو بأشبيلية

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحُنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لبُعدكُم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
ليُسقَ عهدكُم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
منْ مُبلغ الملبسينا بانتزاحهمُ حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذى ما زال يضحكنا أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغصّ فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يُخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
لا تحسبوا نأيَكم عنا يغيرنا إن طال ما غيّر النأىُ المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياسارىَ البرق غادِ القصر فاسق به مَن كان صِرفَ الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصَّبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيًّا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياةً تملينا بزهرتها مُنىً ضروباً ولذاتٍ أفانينا
لسنا نُسَمّيك إجلالاً وتكرمة فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

كأننا لم نبتْ والوصل ثالثنا ... والسعد قط غض من أجفان واشينا
سرّان فى خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
يا جنة الخلد أبدِ لنا بسلسلها ... والـكوثر العذب زقوماً وَغِسْلينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقْينا

وقال يودعها :

ودعَ الصبرَ محبٌّ ودعك ... ذائعٌ من سره ما استودعك
يقرع السنَّ على أن لم يكن ... زاد فى تلك الُخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنىً ... رحم الله زماناً أطلعك !
إن يطل بعدك ليلى فلـكَمْ ... بتُّ أشـكو قِصر الليل معك

وقال أيضاً :

أما رجا قلبى فأنت جميعه ... ياليتنى أصبحتُ بعضَ رجاك
يدنو بوصلك حين شط مزارُه ... وهمٌ أكاد به أقبِّـل فاكِ

نموذج من نثره

قال من رسالته الجدية :

يامولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضىَ حدِّ العزم ، وارىَ زَند الأمل ، ثابت عهد النعمة سلبتنى أعزك الله لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى ورد إسعافك ، ونفضت بى كيف حياطتك ، وغضضت عنى طرْف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستحمادى لك . فلا غرو قد يغص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذرِ من مأمنه ، وتـكون منية المتمنى فى أمنيته . والحيْن قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الحساد

وإنى لأتجلد ، وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع . فأقول : هل أنا

لا بد أدماها سوارها ، وجبين عض به إكليله ، ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله ، وسمهرى عرضه على النار مُثَقِّفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم

ومنها : ... وأعود فأقول . ما هذا الذنب لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل ؟ أو مسيئاً فأين الفضل ؟

إن لا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لى ذنب ففضلك أوسع

وكلها على هذا الأسلوب الرائق ، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم ، والافتنان الرائع .

وقال فى رسالته الهزلية :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، والمورَّط بجهله ، البيِّن سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب ، فإن العجبَ أكْذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب . وأنت راسلتنى مستهدياً من صلتى ماصفرت منه أيدى أمثالك ، متصدياً من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إلىَّ ، وتخاف بعدها على :

ولستَ بأول ذى هِمّة دعَتْه لِمَا ليس بالنّائل

ومنها :

هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعِلاوة ، مفرط الحمق والغباوة . بغيض الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كلامك تمتمه ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهه ، وضحكك قهقهة ، ومشيتك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة .

مساوٍ لو قُسمن على الغوانى لمَا أُمهرن إلا بالطلاق

وكلها على هذا النحو من الاقذاع والفحش والتهكم .

ابن حمديس الصقلى

٤٧٧ — ٥٢٧ هـ

نشأته وحياته

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف فى بيئته منذحداثته بمعالجة القريض ؛ ولكنه ظل مجهول الذكر فى أسواق الأدب فلايسيرشعره ولا يُعرف قدره . حتى استولى النرمنديون على وطنه وهو فى ميعة الشباب ، فرأى بعينه وسمع بأذنه كيف سام الغاصب قومه سوء العذاب ، وكيف جر على بلده شر الخراب ، فهاجر إلى أسبانيا عام ٤٧١ ، ونزل بأشبيلية يمتاح فضل المعتمد بن عباد ، فحجبه مدة لا يلتفت إليه ولا يعبأ به ، حتى قال ابن حمديس : « قنطت لخيبتى مع فرط تعبى ، وهممت بالنكوص على عقبى . فإنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذ بغلام معه شمعة ومركب ، فقال لى . أجب السلطان ! فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة من فرو الفنَك ، وقال لى افتح الطاق التى تليك ، ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من بابيه ، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملتهما قال لى :

أجز : انظرهما فى الظلام قد نجما فقلت : كما رنا فى الدُّجُنة الأسد

فقال : يفتح عينيه ثم يطبقها فقلت: فعلَ امرىء فى جفونه رمد

فقال : فابتزه الدهر نور واحدة فقلت : وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمرلى بجائزة سنية وألزمنى خدمته .

وظل الشاعر يتقلب فى نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسته ، ونفاه من ملكه ، فتبعه ابن حمديس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع

سنين من نكبته ، وأقام الشاعر فى المهدية قاعدة أفريقية ، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفى بها معوَجّ القناة مكفوف البصر .

أخلاقه

كان ابن حمديس صحيح العقيدة ،وقور النفس،رقيق الشعور،قوى الملاحظة ظاهر الجد ، كثير الانقباض ، شديد التشاؤم ؛ ولكنه كان سمح الأخلاق ،حلو المعاشرة ، يحضر مجالس الطرب ، ويخالط أصحاب اللهو ، فى عفة نفس وكرم خلق وسلامة عرض ، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع . وهو القائل :

أصف الراح ولا أشربها ... وهى بالشّدو عَلَى الشَّرْب تدور
كالذى يأمر بالكرّ ولا ... يصطلى نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التى ذكرناها إنما استنتجناها من شعره ، ولا ندرى أهى فيه من طبيعة ميلاده . أم هى أثر من آثار نكبته فى بلاده .

شعره

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه : فهو عفيف اللفظ ، نبيل الفكرة ، لا يسفّ إلى المجون ، ولا يتورط فى الغى . وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة ، والشكوى من الناس، والثورة على النفس، وسلوك مذهب أبى العتاهية فى الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المُشرق . ثم تأتلق نفسه وينشرح صدره أحياناً فتتفتح مشاعره لجمال الطبيعة ، ولذات الحياة ، وعجائب السكون ، فيصف النهر والزهر والصيد والخيل والليل وقصور الترف ، ومجالس الطرب ؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق ، وتصوير دقيق وعبارة بينة . ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره ، وكله مجموع مطبوع فى بالرم سنة ١٨٧٣ وفى رومية سنه ١٨٩٧ م .

نموذج من شعره

قال فى وصف نهر :

ومُطَّرد الأجزاء يصقل متنه صباً أعلنت للعين ما فى ضميره
جريح بأطراف الحصا كلما جرى عليها شـكا أوجاعه بخريره

وقال يصف بركة فى قصر ابتناه المنصور بن أعلى النـاس ببجاية ، عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر ، والماء يخرُج من أطراف تلك وأفواه هذه :

وضراغم سكنت عرين رآسة تركت خرير المـاء فيه زئيراً
فـكأنما غشّى النضار جسومَهَا وأذاب فى أفواهها البلورا
أسدٌ كأن سكونها متحركٌ فى النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتذكّرت فتكاتها فـكأنما أقعت عَلَى أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ناراً وألسنها اللواحس نورا
فـكأنما سلَّتْ سيوف جداول ذابت بلا نار فُعدّنَ غديراً
وكأنمـا نسج النسيمُ لمائه دِرعاً فقدَّر سَرْدها تقديراً
وبديعة الثمرات تعـبر نحوها عيناى بحر عجائب مسحوراً
شجريّة ذهبية نزعت إلى سِحْر يؤثِّر فى النهى تأثيراً
قد سُرّجت أغصانها فـكأنما قبضت بهنّ من القضاء طيوراً
وكأنمـا تأبى لوُقّع طيرها أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كلّ واقعةٍ نرى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تُعَدُّ من الفصاح فإن شدت جعلت تُغَرِّد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجروراً
وتريك فى الصهريج موقع قَطْرِها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا

ضحكت محاسنه إليك كأنما جُعِلت لها زُهر النجوم ثغورا

وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه :

ياذنوبي ثقّلْتِ والله ظهري بان عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبت ساعة عدت أخرى لضروب من سوء فعلي وهُجري
ثقلت خطوتي وفودي تعرّى غيهب الليل فيه عن نور فجري
دبّ موت السكون في حركاتي وخبا في رماده حرُّ جمري
وأنا حيث سرت آكل رزقي غير أن الزمان يأكل عمري
كلما مرّ منهُ وقتُ بربح من حياتي وجدت في الربح خسري
يا رفيقاً بعبده ومحيطاً علمه باختلاف سري وجهري
مِل بقلبي إلى صلاح فسادي منه واجُبر برأفة منه كسري
وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وساوس فكري

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان :

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرا خيانة دهري أو خيانة صاحبي ؟
تغذى بأخلاقي صغيرا ولم تكن ضرائبُه إلا خِلافَ ضرائبي
ويا رُبَّ نبت تعتريه مرارة وقد كان يُسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبي أموراً جهلتها وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى في رحل كل نجيبه تواصل أسبابي بقطع السباسب
ولما رأيت الناس يُرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وقال في الغزل :

عذّبت رقة قلبي ظلماً بقسوة قلبك
وسُمتِ جسميَ سقما وما شفيت بطبك
من لي بصبر جميل عَلَى رياضة صعبك ؟

فيا تشوقَ بعدى !   إلى تَنَسُّم قربك !
ووجنـــــة غمستها   فى الورد صنعة ربك
لقد جنحت اسلمى   كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زا   د فى ملاحة عُجبك
فكِّى من الأسر قلباً   عليه طابَعُ حبك
ونعميــــنى بِعتْبى   فقد شقيت بعتبك

ابن خفاجة الاندلسى

٤٥٠ — ٥٣٣ هـ

نشأته وحياته

أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسى وُلد بمدينة شقَر أو جزيرة شقَر كما يسميها العرب . والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق الإسار فلم يَسْم إلى معالى الأمور ، ولم يتول عملا من الأعمال العامة ، ولم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم الشديد عَلَى أمثاله . وإنما أخلى ذرعه من مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحسه للذة، وكله للطبيعة . فهو يتنقل بين رباها وخمائلها ، ويجول بين مروجها وجداولها ، فيقف عند كل رائعة ، ويصف كل واقعة ، ثم يعود إلى كأس روية فيحتسيها ، أو صورة فاتنة فيجتليها ، أو ثمرة محرمة فيجتنيها . وتنفّس به العمر عَلَى تلك الحال حتى أتاه اليقين فى مسقط رأسه سنة ٥٣٣ .

شعره

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها . قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة ، فراح يبرز هذا الجمال المعنوى فى صور مختلفة من الجمال اللفظى ؛ فانتقى الأساليب الصافية ، والألوان الزاهية ، ودبجها بزخرف البديع ،

ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه ، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة تكراره ، ووقوفه عند المناظر الحسية فى استيحاء أشعاره . أما طلاب الآراء الناضجة والمعانى العميقة ، والأفكار الفسلفية ، فما أظنهم يرجعون من قراءته بطائل . ولهذا الشاعر نثر(1) متكلف سخيف . يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة الصناعتين قلما تتفق لأحد .

نموذج من شعره

قال يصف زهرة :

ومائسة تُزْهَى وقد خلع الحيا   عليها حِلَى حمراً وأردية خُضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضة   ويجمد فى أعطافها ذهباً نضرا

وقال يصف نهيراً ينساب فى أحد المروج قد تعرّج مجراه وتعددت مناظره :

لله نهر سال فى بطحاء !   أشهى وروداً من لَمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه   والزهر يكنفه ، مجرُّ سماء
قد رقّ حتى ظنّ قرصاً مفْرَغاً   من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها   هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً   متلوياً كالحية الرقّطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الأصيل عَلَى لجين الماء

وقال يصف بلاد الأندلُس :

يا أهل أندلسٍ لله درُّكمُ   ماء وظل وأنهار وأشجار !

(١) قال من رسالة إلى بعض إخوانه يصل وده به وقد قطعه ، وهى غاية فى التكلف والغثاثة : أطال الله بقاء سيدى النبيهة أوصافه النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة أماراته الكريمة بالابتداء ؟ ما حذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت ويغزو لموضع الضم . كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال ، والله يجعل ما بيننا من الأحوال الثابتة اللازمة . ويعصم هذا بعدنا من الحروف الجازمة ، وأنا أستنهض طولك إلى تجديد عهدك بعطالمه ألف الوصل ، وتعديه فعل التسل ... الى آخر هذا الهراء .

ما جنة الخلد إلا في دياركمُ ولو تخيرت هذى كنت أختار

وقال أيضاً :

إن للجنة بالأندلس مجتلى عين وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صبا صحتُ : واشوقي إلى الأندلس !

وقال يصف طيفاً ألمّ به في ليلة طويلة :

ورداء ليل بات فيه مُعانقي طيف ألمّ لظبية الوعساء
فجمعت بينَ رُضابهِ وشرابه وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليلُ مُشْمَطُّ الذَّوائب كبرةً خرفٌ يدبُّ عَلَى عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه وَيجرّ منْ طرَب فضول رداء
تندى بفيهِ أقحوانة أجرع قد غازلتها الشمس غبّ سماء
وتميس في أثوابهِ ريحانة كرعت على ظمأ بجدولة ماء
نفّاحة الأنفاس إلا أنها حَذَرَ النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً ، حسبها فيه بقطر الدمع مِن أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنوره أغرى بها بينفسج الظلماء

وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهبته :

لاعب تلك الرّيح ذاك اللهبُ فعاد عين الجدّ ذاك اللعب
وبات في مَسرى الصبا يتبعه فهو لها مضطرم مُضطرب
ساهرتُه أحسبه مُنتشياً يهزّ عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى ألهبٌ متقّد أم ذَهب
تلثم منه الرّيح خداً خَجِلاً حيث الشرار أعين ترتقب

في موقد قد رقرق الصبح به ماء عليه من نجوم حبب
منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلفه ملتهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب

وقال يصف شاباً جميلا يسبح :

وصقيل إفرند الشباب ، بطرفه سقم ، وللعضب الحسام ذبابه
يمشي الهوينى نخوة ولربما أطرته طوراً نشوة وشباب
شتى المحاسن ، للوضاءة ريطة أبداً عليه ، وللحياء نقاب
وبعطفيه للشبيبة منهل قد شف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حبابة ويموج من ردف ألفّ عباب

لسان الدين بن الخطيب

٧١٣ — ٧٧٦ هـ

نشأته وحياته

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب : ولد بغرناطة سنة ٧١٣ في مهد السؤدد والعلم والرياسة ، وتخرج على علمائها في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ ، وبذ في كل ذلك معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس . ثم وصلته ماتة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة (٧٣٣ — ٧٥٥) فاستكتبه ، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه فاتسع نفوذه وضخم أمره . وما زال في هذا المنصب وتلك الحظوة حتى توفي أبو الحجاج وخلفه ابنه محمد الخامس فأقر لسان الدين في الوزارة . ولكن عقارب الوشاية دبت بين الرجلين فتنكر له السلطان ، ففر منه إلى إفريقية فأكرمه ملوكها . ثم توالت عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه ، فاعتقلوه

بفاس وأغروا جماعة من الفقهاء فأفتوا بإلحاده لاشتغاله بالفلسفة . فتسور عليه السجن بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً .

منزلته فى الكتابة

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع ، سائر فى صناعته مع الطبع ، يذهب إلى الإطناب فى رسائله شأن كتاب الأندلس . وربما ساق الرسالة الضافية كلها على روى واحد . والنثر فى الأندلس مبنى على الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله . وقل أن تجد فيه السائغ المقبول لتكلفهم السجع ، وتعملهم التنميق ، وتوخيهم الإطالة . فهم شعراء بالطبع ، وكتاب بالصنعة ، على غير ما نرى فى أهل الشرق .

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة . وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب فى الأندلس ، كما انتهت إلى ابن خلدون معاصره فى إفريقية . ولابن الخطيب القدم الراسخة فى التاريخ ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً ، أشهرها كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة ، وهو معجم تاريخى لرجالات غرناطة فى ثلاثة مجلدات .

نموذج من كلامه

قال فى موشحه المشهور الذى عارض به موشح ابن سهل :

جادكَ الغيثُ إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلُماً   فى الكرى أو خلسة المختلس

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى   تنقل الخطو على ما ترسم
زُمراً بين فرادى وثُنَى   مثلما يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا   فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروى مالك عن أنس

فكســـاه الحسن ثوباً مُعْلماً يزدهي منه بأبهى ملبس

* * *

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس القــدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى أنه مـــــر كلمح البصر
حين لذ النوم منا ، أو كما هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا ، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

***

أي شيء لامرىء قد خلصا فيكون الروض قد كُنِّنَ فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجي والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً برما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيبــاً فهما يسرق السمع بأذنى فرس

* *

يا أُهَيْلَ الحي من وادي الغضا وبقلبي سَكَنٌ أنتم به
ضاق من وجدي بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تُعْتِقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفســاً في نفس
حبس القلب عليكم كرماً أفترضون عفاء الحُبُس ؟

* * *

وبقلبي منكم مقترب بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب في هواه بين وعد ووعيد

ساحر المقلة معسول اللمى ... جال فى النفس مجال النفَس
سدد السهم وسمى ورمى ... ففؤادى نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل ... وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ... ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
حكم اللفظ بها فاحتكما ... لم يراقب فى ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ... ومجازى البر منها والمسى
ما لقلبى كلما هبت صبا ... عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا ... قوله : إن عذابى لشديد
جلب الهم له والوصبا ... فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما ... فهى نار فى هشيم اليبس
لم يدع فى مهجتى إلا ذما ... كبقاء الصبح بعد الناس

ومن قصار رسائله فى الشوق إلى ابن خلدون وهى تمثل طريقته فى الكتابة :

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج . وأما الصبر فسل به أية درج ، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج . وأنى بالصبر ، على إبر الدبر ، بل الضرب الهبر ، ومطاولة اليوم الشهر ، حتى حكم القهر . وهل للعين أن تسلو سلو المقصر ، عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد ، عن سرها الرائى والمشاهد ، وفى الجسد مضغة يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ؟ و إذا كان الفراق هو الحمام الأول ، فعلام المعول ؟ أعيت مراوضة الفراق على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تفضى إلى السياق .

تركتمونى بعد تشييعكم ... أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سنى ندماً تارة ... وأستميح الدمع أحيانا

الشعر والكتابة والعلوم والفنون فى مصر على عهد الفاطميين

ذهبت ريح العباسيين بعد المتوكل على الله لفساد الحكم وسوء النظام واستبداد الوزراء وتنافس الزعماء ؛ وانتقص الولاة دولتهم من أطرافها ، وغلب الثوار على كثير من أملاكها . وكان العلويون الفاطميون ممن شارك فى هذا النهب المقسم ، فاقتطعوا منها شمالى إفريقية ثم مصر والشام والحجاز .

قام خليفتهم الأول عبيد الله بن محمد بالقيروان سنة ٢٩٦ ﻫ ثم أرسل خليفتهم الرابع المعز لدين الله قائده وكاتبه جوهرا الصقلى إلى مصر فى جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب ، وحفر حيث نزل سنة ٣٥٧ أساس القصر الكبير لمولاه ، وأساس الجامع الأزهر لله . وأنزل طوائف الجيش حولها فى نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التى اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة ٣٥٧ إلى ٥٦٧ ﻫ حتى غلبهم عليه صلاح الدين .

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر ، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود فى بغداد ، وللعلم الأخضر فى قرطبة ؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية فى ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلا إلى الانتشار ، ومساعداً على الازدهار ، ومعيناً على النمو . وكان الفاطميون فى مصر والأمويون فى الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين فى العراق ، يأتمون بهديهم ، ويسترشدون بوحيهم ، فى السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن ، فلم يحدثوا فى شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيه عليهم ، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع . ولكن المطاولة بين هذه الخلافات

الثلاث كانت تستلزم المنافسة فى تقريب الشعراء ، وتعضيد العلماء ، وتشييد المدارس ، و إنشاء المكاتب . فكما اشتهر الرشيدوابنه المأمون فى آسية ، اشتهر الناصر وابنه الحكم فى أوربة ، والعزيز بالله و ابنه الحاكم فى إفريقية . فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها و إقرائها حتى بلغ ما فى « خزانة الكتب » التى ابتناها فى قصره زهاء ألف ألف مجلد فى الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم. وكان لوزيره يعقوب بن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة فى إنهاض الأدب والعلم فى مصر ، فقد كان يندو فى داره رجال الأدب والشعر والفقه والصناعة ، فيرفدهم ويرشدهم . وكان يجلس للناس فى كل جمعة فيدرسهم و يقرأ عليهم ما يؤلف فى القراءات والفقه . وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذى أنشاه المأمون فى بغداد سماها « دار الحكمة » ، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأباح دخولها الناس ، فكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات ، والحاكم نفسه يحضرها و ينصرها ، و يعنى بها كما كان يصنع المأمون . وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها أن راقبوها فى الدواوين وجعلوا لها فى ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكاتبين بها ، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها . كابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ﻫ وابن برى المتوفى سنة ٥٨٢ ﻫ . وأخذ الأزهر يشع نوره فى خلافة العزيز بالله ، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامى لينصروا مذهب الشيعة ، و يؤيدوا دعوى الخلافة ؛ وأن يجرى عليهم الوظائف و يشيد لهم المساكن ، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء ، ومن المدارسة إلى الجدل والمراء ، حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى .

و بلغت القاهرة المعزية فى أواسط القرن الخامس أوج حضارتها ، وغاية عمارتها ، فغصت برجال الأدب والفنون ، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون . وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر ، و إقامة الدور ،

وتفخيم القصور ، وعقد القباب العجيبة ، وصنع المقرنصات البديعة ، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصناع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان ، وتوشيته بالزجاج الملون ، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشانى الجميل ، ورصفه بالفسيفساء المفوفة « مما طاولت به القاهرة بغداد وقرطبة ، وكان نموذجا صادقًا لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن . وقلما سمع فى تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين فى سرفهم وامتلاء خزائنهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب . ولم يقم فى مملكة من الاحتفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة فى المواسم والأعياد» . وكان للشعر فى تلك الحفلات رواج ونفاق ، وللشعراء فى ميدانه استنان واستباق ، فنبغ فى آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصر يين جروا على أساليب البغداديين فى عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية . وكذلك من نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل فى شيء من التوفيق والإجادة . وحسبك أن تعلم أن القاضى الفاضل إمام الطريقة الرابعة فى الأدب العربى إنما تعلم الكتابة فى ديوان القاضى ابن حديد فى الإسكندرية ، وكتب فى ديوان الظافر بالقاهرة . ووزر لصلاح الدين بن أيوب بعد ذلك . فطريقته من غير شك كانت هى الطريقة الفاشية فى مصر على عهده . وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكاتب ص٢٢٨ ص ٣١٨ فارجع إليه .

الشعراء فى مصر

نبغ من الشعراء فى ربوع النيل أبو على تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى المتوفى سنة ٣٧٥ ، وقد اشتهر بشعره الغزلى ، وحواره العمرى ، وأسلوبه القوى ، ونسجه الدقيق . روى منه صاحب اليتيمة نخبة صالحة فى الجزء الأول ص ٣٤٧ وله ديوان مطبوع .

وابن وكيع الملقب بالعاطس ، ولد فى قرية قريبة من دمياط وتوفى بها

سنة ٣٩٤ هـ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه .

وأبو الفتح نصر الله بن قلاقس الاسكندرى الملقب بالقاضى الأعز ، رحل فى أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه ، ولكن السفينة التى كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فعاد إلى اليمن صفر البدين ، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات فى عيذاب سنة سنة ٥٦٧ .

وهبة الله بن سناء الملك الملقب بالقاضى السعيد، كان من الشعراء المجدودين والرؤساء المعدودين . اتصلت أسبابه بالقاضى الفاضل والعماد الكاتب، وسمت به كفايته إلى مكان رفيع من الحظوة والثروة . وكان فى مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون و يتناشدون ويتسامرون، وكان هو واسطة قلادتهم ومحل رياستهم . وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شعراء الشرق . وله الموشحة المشهورة التى مطلعها .

كللى ياسحب تيجان الربى بالحلى   واجعلى سوارك منعطف الجدول

ثم جمال الدين بن مطروح وُلد بأسيوط ونشأ فى قوص واتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبى حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً لنائب دمشق ، ثم تقلبت به الحال من سفر وحضر ورضاً وسخط حتى توفى بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ .

ثم الشاعر الغزلى الرقيق كمال الدين بن النبيه ، وإليك ترجمته .

كمال الدين بن النبيه

المتوفى سنة ٦١٩ هـ

نشأته وحياته

نشأة هذا الشاعر القدير مجهولة ، وحياته مرت عادية هادئة ، كالجدول السلسال فى الروض الأفيح ، لا تسمع غير أنغامه وخريره . فلم يلق بنفسه فى غمار السياسة وهو يعج بين يديه ومن خلفه ، واكتفى بمدح بنى أيوب فى مصر حتى

اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط ، فكتب له فى ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين فى خدمته حتى توفى بها سنة ٦١٩ هـ .

شعره

ابن النبيه شاعر غَمْرُ البديهة مليح النادرة ، منسجم الأسلوب ، حسن الوشى مطبوع على البديع ؛ فهو يتوخى الحلية اللفظية و يشتد فى طلبها ، ولكن يخيل إليك أنه لا يتلقفها ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته . وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلفُ بالبديع هذا الكلف ، و يسرف فيه هذا السرف ، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به . ذلك لأن أسلوبه قوى الحياة ، شديد الحركة ، كثير التنوع ، مزدهر الألوان ، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته ، كقوله فى المدح مثلاً :

خريق حمرة سيفه للمعتدى ورحيق خمرة سيبه للمعتفى
يا بدر ! تزعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة المتكلف ؟
ياغيم ! تطمع أن تكون ككفه كلا وأنت من الجَهام المخاف

ولم يكد شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها فى عصره . وهى المدح ، وكله فى بنى أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر العباسى ؛ والغزل والوصف ، ولا يجىء بهما مستقلين ، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه . فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح والنصر والبأس والجود . وأما غزله فمن النوع الحسى الشهوانى الذى لا يتعدى جمال الشكل ، من ليل الشعر ، وصبح الوجه ، وسحر الجفون ، وسهام العيون ، ولؤلؤ الثغر ، وياقوت الشفة الخ . أما الإحساس القلبى بالحب والإدراك النفسى للجمال فشىء لا تظفر به فيه . والراجح فى الظن أنه كان يقوله عَلَى أنه باب من أبواب الشعر ، لا على أنه فيض من الشعور ، ونور من الإلهام . أما وصفه فأكثره فى الخمر ومجالسها ، وأقله فى الطبيعة ومناظرها .

وعلى الجملة فابن النبيه شاعر عذب الروح ، كثير الافتتان ؛ مغرق فى المجاز والتشبيه والبديع . مجيد للمطالع ، محسن للتخلص . وله ديوان طبع فى بيروت وفى مصر .

نموذج من شعره

قال فى أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسى :

باكُرْ صبوحك ، أهنى العيش باكرهُ ... فقد ترنم فوق الأيك طائرة
والليل تجرى الدرارى فى مجرّته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب ، على يده ... مُخلّق تملأ الدنيـا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبَبٌ ... فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكوّن من صبح ومن غسق ... فابيض خداه واسودت غدائره
مهفهف القد يندى جسمه ترفاً ... مخصر الخصر عبل الردف وافره
سودٌ سوالفُه ، لُعس مراشفه ، ... نُعْسٌ نواظره ، خُرْس أساوره
تعلمتْ بانة الوادى شمائله ... وزوّت سحرَ عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهـــذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله ... لكنه ربما مُجّت أواخره

وقال فى مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف :

أفديه إن حفظ الهوى أوضيعا ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا ؟
من لم يذق ظلم الحبيب كظَلْمه ... حلواً فقد جهـل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الص ... بر الجميل فقد عفى وتضعضعا
هـــل فى فؤادك رحمة لمتيم ... ضمت جوانحه فؤاداً موجعاً ؟

ومن غزله أيضاً فى بعض قصائده :

أجفانه شَرَكُ القلوب كأنما ... هاروت أودعها فنونَ فنونه

يا قوته متبسم عن لؤلؤ خجلت عقود الدر من مكنونه
ساق صحيفة خده ماسوّدت عبثاً بلام عذاره وبنونه
جمد الذي بيمينه في خده وجرى الذي في خده بيمينه
طاب الربيع كأنما عجن الصبا كافور مزنته بعنبر طيبه
وتفضضت أزهاره وتذهبت فكأنها طاووس في تلوينه

ومن غزله أيضاً :

أماناً أيها القمر المطل ! فمن جفنيك أسياف تُسَلّ
يزيد جمال وجهك كل يوم ولي جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمي ولكن دَلّ من أهوى يَدل
يميل بطرفه التركي عني صدقتم . إن ضيق العين بخل
إذا نشرت ذوائبه عليه ترى ماء يرف عليه ظل
أيا ملك القلوب فتكت فيها وفتكك في الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعها فإن لم يُصبها وَابل منه فطل
أدر كأس المدام على الندامى فمن خديك لي راح ونقل
بمنظرك البديع تدل تيهاً ولي ملك بدولته أدل

وله قصيدة الرثاء المشهور التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها :

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد .
والله لا يدعو إلى داره إلا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد ، على كفه جواهر يختار منها الجياد
لاتصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجسام هذا الفساد

ابن الفارض

٥٧٦ — ٦٣٢ هـ

نشأته وحياته

هو أبو حفص عمر بن على المعروف بابن الفارض . أصل آبائه من حماة ووُلد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦ ، وتفقه فى الدين ، وتوسع فى اللغة والأدب ، حتى أحرز منهما قسطاً وافراً . ثم وقع فى نفسه أن ينهج منهج الصوفية ، فاقتفى آثارهم وعرف أسرارهم . وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زماناً ثم رجع إلى مصر فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفى بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة ٦٣٢ هـ .

صفاته

كان ابن الفارض عَلَى تقشفه وتصوفه جميل الهيئة ، حسن البزة ، ظريف المحضر ، محمود العشيرة ، وقوراً ، كثير الورع ، إذا مشى فى المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء . وإذا حضر مجلساً عقدت هيبته ألسنة أهله فلا يتكلمون . فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل ، لا يأكل أثناءها ولايشرب ولا يتحرك ، فإذا أفاق أملى شعره ! .

شعره

نشأ ابن الفارض فى عصر الأيوبيين وهو عصرٌ تنازعَ النفوس فيه عاملان مختلفان : عامل التصوف والتقوى ، لدوام الحروب وتوالى الكروب من المجاعات والموَتان ؛ وعامل الفسوق والمجون ، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات ، وانتشار المخدرات . واتجه الشعر فى مصر وفى غير مصر إلى هاتين الوجهتين . فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان . وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية ، وربى

تربية صوفية ، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم فى شعره ، ينظم إشاراتهم ، ويصف مقاماتهم ، ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل ، مريداً بذلك الذات الإلهية على اصطلاحهم . فكان بذلك مُوجد الطريقة [1] الرمزية فى الشعر العربى (Sympolisme) وهو أكثر الشعراء تعملا للكلام وتكلفاً للبديع ، وولوعاً بالجناس والطباق ، وأسيرُ معاصريه شعراً ، لرقته واشتماله على ما يرضى المتصوف الزاهد ، والعاشق الماجن : ذاك بباطنه وهذا بظاهره . فالمتصوفون ينشدونه فى مجالس الذكر ، والخلعاء يغنونه فى مجالس الخمر . وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا فى أغراضه ، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئاً كالبوريني (١٠٢٤) ومنهم من شرحه وأوّله على طريقة الصوفية كالنابلسى (١١٤٣) .

ومن أشهر شعره تائيتاه الكبرى والصغرى ، تبلغ الأولى نحو ٦٠٠ بيت والأخرى نحو ١٠٣ بيت . وقد استوعبتا أغراض الصوفيين وأسرارهم ، ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد على حلّ هذه الرموز ، يقول فى مطلع الكبرى :

نعم بالصَّبا قلبي صبا لأحبتى ... فياحبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرنى العهدَ القديم لأنها ... حديثة عهد من أهيْل مودتى

أما سائر شعره فجلىّ واضح يغلب فيه الحنين إلى الحجاز وأهله ، والإكثار من ذكر جباله وقراه .

نموذج من شعره

قال فى الغزل :

لم أخلُ من حسد عليك فلا تضع ... سهرى بتشييع الخيال المرجف
وأسأل نجوم الليل هل زار الكرى ... جفنى ؟ وكيف يزور من لم يعرف

(١) ظهرت الطريقة الرمزية فى فرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر نتيجة للطريقة البرناسية (Ecole Parnasienne) وقد بلغ أربابها بالكتابة والشعر حد التعمية والتعجيز . اقرأ ماكتب عنها فى كتابنا « دفاع عن البلاغة » .

وقال :

أعِدْ ذكر من أهوى ولو بملام   فإن أحاديث الحبيب مدامى
كأن عذولى بالوصال مبشرى   وإن كنت لم أطمع برد سلامى
طريحُ جوًى صبٌّ جريح جوارح   قتيلُ جفون بالدوام دوامى
صحيحٌ عليلٌ فاطلبونى من الضنى   ففيها كما شاء النحول مقامى

وقال فى الخمر وفيها كثير من رموز الصوفية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمْ
لها البدر كأس وهى شمس ، يديرها   هلال ، وكم يبدو إذا طلعت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها   ولولا سناها ما تصورها الوهم
يقولون لى : صفها فأنت بوصفها   خبير ، أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ، ولطفٌ ولا هوا ،   ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقدَّم كل الكائنات حديثُها   قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا شربت الإثم ، كلا وإنما   شربت التى فى تركها عندى الإثم
فلا عيش فى الدنيا لمن عاش صاحياً   ومن لم يمت سُكراً بها فاته الحزم
على نفسه فليبكِ من ضاع عمره   وليس له فيها نصيب ولا سهم

بهاء الدين زهير

٥٨١ — ٦٥٦ هـ

نشأته وحياته

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى وُلد بوادى نخلة على مقربة من مكة ونقل إلى مصر فنشأ بها وتأدب فلما بلغ أشُدّه واستوى فى العلم والجسم ، وبرع فى النظم والنثر والخط ، اتصل بالملك الصالح بن الملك الكامل الأيوبى ورافقه إلى الشام والجزيرة . فلما غلبه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله على أثر موقعة

بينما خذله فيها قواده ، وتألبت عليه أجناده ، وانضووا تحت لواء ابن عمه لم ينقض البهاء عهد ملكه ، ودعاه الوفاء ألا يخدم غيره . فأقام بنابلس حتى عاد الماء إلى مجراه ، ونهض الجد بمولاه ، فاسترد الصالح مُلك الديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته . وعرف له ولاءه ووفاءه ، فاتخذه وزيره وموضع سره ، يصدر عن رأيه ويمضى على مشورته . وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته . وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد فى أيدى التتار .

شعره

كان بهاء الدين دمث الأخلاق ، رقيق الطباع ، لين الجانب ، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات فى شعره ، فجاء عذباً رقيقاً يطمع السامع أن يأتى بمثله لسهولته ورقته ، فإذا حاول عجز . فشعره فيض قريحته ، ووحى طبيعته ، وصورة بيئته لم يقلد فيه أحداً ، ولم يطلب من غير شعوره مدداً ، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبهم . فلا تجد كلمة غريبة ، ولا جملة معقدة ، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدفقه ، وتلمح عليه جمال جوّه وتألقه وقد أحسن وأجاد فى الغزل والعتاب ، وقصر فيما عداهما . وليس فى معانى البهاء ابتداع ولا تخيل ؛ وإنما هى معان عادية كساها ألفاظاً سهلة ، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى أحرار المعانى . وشعره مجموع مطبوع متداول . وقد ترجمه المستشرق الإنجليزى بَلْمَرْ إلى الإنجليزية نظماً وطبعه فى كمبردج سنة ١٨٧٦ فى مجلدين وعلق عليه .

نموذج من شعره

قال يخاطب المُتَبَرِّمَت من صروف الدهر :

لا تعتب الدهر فى خطب رماك به   إن استرد فَقِدْماً طالما وهبا
حاسب زمانك فى حالىْ تصرفه   تجده أعطاك أضعاف الذى سلبا

والله قد جعل الأيام دائرة فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهى الروح قد سلمت لا تأسفنّ لشىء بعدها ذهبا
ما كنت أول مفدوح بحادثة كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجبا !
فرب مال نما من بعد مرزأة أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا ؟

وله فى الغزل :

خليلىّ أما هذه فديارهم وأما غرامى فهو ما تريان
خليلىّ هذا موقف يبعث البكا فماذا الذى بالدمع تنتظران ؟
فإن كنتما لا تسعدانى على الأسى قفا وَدِّعانى ساعة ودعانى
فياويح قلبى بالغرام أطعنه ! فمالى أراه فى السلو عصانى ؟
وإنى وإياه كما قال قائل : رفيقك قيسىٌّ وأنت يمانى !

ومن قوله فى الغزل أيضاً :

إن شكا القلب هجركم مهّد الحب عذركم
لو رأيتم محلكم من فؤادى لسرَّكم
قصِّروا حدة الجفا طوَّل الله عمركم

ومن قوله فى المزاح :

لك ياصديقى بغلة ليست تساوى خردله
تمشى فتحسبها العيو ن على الطريق مشكّله
وتخال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطويلة حين تسرع أنمله
تهتز وهى مكانها فكأنما هى زلزلة
أشبهتها بل أشبهتك كأن بينكما صله
تحكى صفاتك فى الثقا لة والمهانة والبله

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وُضع فى عهد بنى أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر فى هذا العصر الذى ثابت فيه العقول من غفلتها، وهبّت الفطن من غفوتها. فلقد عنىَ خلفاؤه وعلماؤه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشريعة، واستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جنديسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً فى النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السندِ هَند فى الفلك، وكتاب أُقليدس فى الرياضة. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادى والمهدى حتى قوّاها الرشيد برْوح البرامكة، ونشرها فى مملكته المتسعة، وضم إيوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر. وكان يجل العلماء على تباين نِحَلهم، فكان أطباؤه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه. وقد ترجم فى زمنه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحِيَل[1] والجبر والنبات والحيوان.

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون ـ وهو فى العرب كبريكلس فى اليونان، وأغسطس فى الرومان ـ استعر أُوار هذه النهضة العلمية. فأتم ما بدأ به آباؤه، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء

---

(١) علم الحيل فرع من الفلسفة الرياضية يبحث عن نواميس الحركة والموازنة وتطبيقها وهو ما يسميه الفرنج ميكانيك (Mécanique).

من كل حدَب ونِحْلة . وأمر سفراءه وعماله فى أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب فى تلك الأصقاع ؛ فكانت الإبل ترى من آن إلى آن داخلة بغداد موقرة ظهورُها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية . وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه . وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خير التراجمة فترجم على خير ما يمكن . فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها، ورقوها بالتفصيل والتكميل وأصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم . ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة ، وضبطوا قواعد اللسان، ووضعوا علوم البيان، ووقعوا على علمى العروض والقافية. وحذا الملوك فى الشرق والغرب حذو العباسيين فشادوا المدارس ، وأقاموا المراصد ، وشجعوا العلماء ، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب واخترعوا مالا يجهله العالم ولا ينكره التاريخ(١)

ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وتسلط الترك فسقطت رغبة الملوك فيه ، وانقطعت أسباب الطالب ، ودرست المصنفات ، وكسدت بضاعة العلم ، وظن الناس أن تحصيله سعيٌ باطل ، فاقتصروا على شرح الكتب واختصارها ولم يعنوا إلا بألفاظها .

فلما رأت العلوم أن الشرق قد تجهم لها ، وأن الزمان قد أضعف أهلها ، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوربا عن طريق المغرب والشام ، ففتح لها الغرب صدره ، وفعل ملوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية . وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد فى الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن !

---

(١) من ذلك كشفهم قوانين لثقل الأجسام مائعها وجامدها ، واختراعهم الساعة الدقاقة كالتى أهداها الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا فى عهده . والبندول وبيت الأبرة وهم الذين وضعوا الكيمياء الحقيقية ورقوا علم الجبر وزادوا عليه . وألفوا الأرصاد والأزياج وحسبوا الكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعى والخريفى ، ونشروا الأرقام الهندسية وسبقوا الى صناعة الكاغد ؛ وغير ذلك مما أطال القول فيه مؤرخو الفرنج لا مؤرخو العرب (انظر تاريخ العرب وحضارتهم لسديو (Sedillot) وكتاب (فى أصول الأدب) للزيات طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ .

العلوم الأدبية

علم الأدب

كان للأدب فى عهد بنى أمية ما للعلم فى عهد بنى العباس من سموّ المكانة وفرط العناية لحداثة عهد القوم بالبداوة ، وتمدّح رجالاتهم باللسن ، وحاجتهم إلى فُصَح اللغة وطرَف الشعر فى استجلاء[1] غامض الكتاب ، واستيضاح غريب السنة ، والاستشهاد على ضوابط النحو ، واكتساب ملكة اللسان . وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يُحفظ فى الصدور وتُضرب إلى مظانّه أكباد الإبل . فلما بزغ هلال العصر العباسى وخامر العربَ داء العجمة واستشرى فساد اللحن ، اختص بالرحلة إليه والتلمّس له طائفة من العلماء شهروا بالرواة ، كحماد الراوية (١٥٦) والخليل بن أحمد (١٧٥) ، وخلف الأحمر (١٨٠) ، وأبى عبيدة (٢٠٩) ، وأبى زيد الأنصارى (٢١٥) ، والأصمعى (٢١٦) . كانوا يرُودون البادية ويداخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستملح ، أو شعر مستطرف ، أو كلمة غريبة .

وظل الشأن فى رواية الأدب للسماع والحفظ ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم . فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون . بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعى ؛ ولكن الجاحظ هو أول من ضم شتيت الأدب ، واستوعب أطرافه بكتابيه البيان والتبيين والحيوان . ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل ، وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبى على القالى صاحب الأمالى ، وأبى الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى . هؤلاء هم رجال الأدب ومراجعه ، وكتبهم هى موارده ومشارعه

---

(١) كان ابن عباس يقول : إذا قرأتم شيئا من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب . وقال الشافعى : طلبت اللغة والأدب عشرين سنة لا أريد بذلك إلا الاستعانة على الفقه.

الأدباء

الأصمعى

١٢٣ — ٢١٦ هـ

حياته وعلمه

وُلد أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعى (نسبة إلى جده أصمع) سنة ١٢٣ هـ فى بيت عربى عريق فى الكتابة ، ونشأ بالبصرة ، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة، وأكثر الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب وساكنهم . وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج فى أثنائها ويلتقى بالفصحاء فى المواسم حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره وكان معاصراً لأبى عبيدة منافساً له فى اللغة والرواية . وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال « إن أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين . وأما الأصمعى فبلبل يطربهم بنغماته . وحدث الأصمعى عن نفسه قال : « حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لى : كم كتابك فى الخيل ؟ فقلت : مجلد واحد . فسأل أبا عبيدة عن كتابه فيها فقال خمسون مجلداً ؛ فقال له قم إلى هذا الفرس وامسك كل عضو منه وسمِّه ؛ فقال : لست بيطاراً ، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب . فقال لى قم يا أصمعى وافعل أنت ذلك . فقمت وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً ، وأنشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه ؛ فقال خذه فأخذته . وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه » وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذاكرة الأصمعى وشدة حافظته . فلا بدع إذا قال إنه يحفظ اثنى عشر ألف أرجوزة . وكان الأصمعى مع اشتهاره بالثقة فى الرواية والتضلع

من اللغة مشهوراً بنقد الشعر أيضاً ، أخذ ذلك عن خلف الأحمر . وله فى الشعر والشعراء آراء عالية . وهو على ظرفه شديد الورع كثير الاحتراز فى تفسير الكتاب والسنة . فإذا سئل عن شىء منهما كان يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة . وما زال نديماً للخليفة الرشيد حتى توفى . فلما ولى المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع فى كسر بيته ، وحرص المأمون على أن يصير إليه ، فاحتج بكبر سنه وضعفه ، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها . ورُئى بعد ذلك راكباً حماراً دميا ، فقيل له : « أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال هذا وأملك دينى أحب إلىّ من ذاك مع فقده » . وهكذا رضى من العيش بالكفاف حتى توفى سنة ٢١٦ ، وله من العمر تسعون سنة .

مؤلفاته

ترك الأصمعى من المصنفات ما ينيف على اثنين وأربعين مصنفاً أكثرها فى اللغة ، ككتاب خلق الإنسان ، وكتاب الأجناس ، وكتاب الخيل ، وكتاب النبات ، وكتاب النوادر ، وكتاب معانى الشعر ، وكتاب الأراجيز ، وأغلبها غير مطبوع .

أبو الفرج الاصبهانى

٢٨٤ — ٣٥٦ هـ

نشأته وحياته

أبو الفرج على بن الحسين المروانى ولد بأصبهان ونشأ ببغداد . واختلف إلى العلماء والرواة ، فسمع الحديث والأخبار ، وروى الأنساب والأشعار ، وتوسع فى النجوم والسِّيَر والبيطرة والطب فنُبه ذكره وظهر فضله ، والشرق

تتنازعه دول مختلفة ، فاستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه ، ويمتعهم بكتبه ، ويستفيد من مالهم ، ويتقوّى بنفوذهم . وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه ، فكان يؤلف الكتب للأمويين بالأندلس سراً فينعمون عليه . وكان يجاهر بالتشيع وهو أموى تَقيّةً للشيعة ومداراة ؛ لأنه في بلادهم نشأ وبفضلهم ظهر .

وكان أكثر الناس حدباً عليه وإيثاراً له ، الوزير المهلبي وزير معز الدولة ابن بويه . فانقطع إليه ومدحه ونادمه حتى مات ببغداد سنة ٣٥٦ هـ وقد خولط قبل موته .

اخلاقه وعلمه

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه ، سليط اللسان ، مخشىّ البادرة ، تتقيه الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات . وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله . والوزير المهلبي على تنَطسه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه . فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم ، راوياً لمختار المنثور والمنظوم ، ثقة فيما يحدّث ، ناقداً لما يسمع . ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً ، ومؤلفاً قديراً ، ومصنفاً مجيداً ، وراوية أميناً . وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغانى .

كتاب الأغانى

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف فى بابه مثله ، وأن كل كتاب فى الأدب كلٌّ عليه ، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بنى أمية ؛ ألفه فى خمسين سنة ، وبناه على مائة الصوت التى اختيرت للرشيد وزيدت للواثق ، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغانى ، فترجم بقائليها ومغنيها ، وذكر ما يدخل فيهما من حرب وحب وشعر وفكاهة ؛ وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان

فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه . وكان الصاحب بن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً . فلما اقتناه استغنى به عنها وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً فى سنة ١٢٨٥ ﻫ ، ثم عثر أحد المستشرقين على جزء آخر فى إحدى مكاتب أوربا فكملت الأجزاء واحداً وعشرين ، ووضع لها الأستاذ جويدى الإيطالى فهرساً أبجدياً مطولا بالفرنسية طبعه فى ليدن سنة ١٩٠٠م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية فى مصر وطبع بها هو والكتاب سنة ١٣٢٢ ﻫ . وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة منقحة بمعونة سَرِى من سراة المصريين ولم يتم وقد اختصره أبو الفرج فى مجلد واحد فقد مع سائر كتبه .

نموذج من شعره

قال يمدح الوزير المهلبى :

ولما انتجعنا لائذين بظله ... أعان وما عَنى ومنَّ وما منَّا
وَرَدْنا عليه مُقْتَرِينَ فَرَاشنا ... وَرُدْنا حماهُ مُجْدِبين فأخصبنا

وقال يخاطبه من قصيدة :

فداؤك نفسىَ ، هذا الشتاء ... علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبىَ درهم ... ولا من ثيابى إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهواء ... وتخرقها خافيات الوهم
فأنت العماد ونحن العفاة ... وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علم يدرس فى المساجد ويدوّن فى الكتب ، وقد أحكمت روابطه ، وحُققت ضوابطه ، وأشبع الكلامَ فيه علماء المصرين : البصرة والكوفة . وإلى الأولين يرجع الفضل فى تكوينه وتدوينه . فمنهم أبو الأسود الدؤلى واضعه ، وابن إسحق الحضرمى مُعَلِّلُهُ ، وهرون بن موسى ضابطه ، وعيسى

ابن عمر أول من ألف فيه ، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه . ولم يشتغل به الكوفيون إلا بعد ذيوعه بالبصرة وما جاورها : أخذوه عن البصريين وجاروهم في تلقينه وتدوينه ، ونافسوهم في تحصيله وتفصيله . واشتد الحجاج واللجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويعضده . ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع : فلا يرون القياس إلا في حال تضطرهم ، ويتشددون في الرواية ، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخلص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة ، وقربها من عامر البادية . أما الكوفيون فلخلاطهم أهل السواد والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس ، ولا يتحرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم . فأهل البصرة أوسع دراية ، وأوثق رواية ؛ ولكن العباسيين آثروا الكوفيين عليهم لالتجائهم إليهم ، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لبني هاشم . فانتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة . ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر . وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران ، فجلا علماؤهم إلى بغداد ، ونشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين ، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس . وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين ، وضعفت أنصار الفئتين ، فانقطع النزاع ، وانحسم الجدال ، وجرى المؤلفون على المذهب البصري فبسطوه وشرحوه واقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف .

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده ، وتشعبت أطرافه ، حتى جاء المتأخرون فقصروا ذلك الطول واقتصروا على المبادىء كما فعل ابن مالك في التسهيل ، والزمخشري في المفصل . على أن هذا العلم مُنِيَ بطائفة من فلاسفة النحاة وسعوا الجدل فيه ، فقلّبوا وجوه الألفاظ ، وأحيوا موات اللغات ، وخلطوا الشاذ بالصحيح ، وجاءوا بالتعليلات الباردة والتقديرات الفاسدة والأقوال المتضاربة ، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها المخطىء عن قول يبرر به وهمه ، وحجة يؤيد بها زعمه .

وها نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهى النحاة عدا من تُرجم به منهم فى غير هذا الباب ، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناه لأنفسنا فى هذا الكتاب .

النحاة

سِيبوَيْه

المتوفى سنة ١٧٧

نشأته وحياته

وُلد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة . وكان فى بدء أمره يطلب الحديث والفقه ، حتى كان ذات يوم يستملى على حماد بن سلمة ، فأملى عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم : «ليس من أصحابى أحدٌ إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء » ، فقال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » فصاح به حماد : لحنت يا سيبويه ؛ إنما هذا استثناء » فقال : « لا جرم لأطلبن علماً لا يلحننى معه أحد » فطلب النحو ولازم الخليل ،وأخذ عن يونس وعيسى بن عمر ، حتى حذَق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها ، ووقف على شاذها ومقيسها . ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصريين ناسباً إلى كل منهم قوله . فجاء كتابه فريداً فى فنه ، سديداً فى منهجه ، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مَساغ لمستفيد . وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن اقتصروا فى تسميته على « الكتاب » فإذا أطلق هذا اللفظ عند النحاة لا ينصرف إلا إليه . وكان المبرد إذا أراد مريد أن يقرأه عليه يقول له : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيما له واستصعاباً لما فيه . وقال أبو عثمان المازنى : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً فى النحو بعد سيبويه فليستحِ » ولولا هذا الكتاب لخمل ذكر صاحبه .

ولما آنس سيبويه من نفسه التفوق فى النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة ؛ والكسائى يومئذ بها يعلم الأمين بن الرشيد . فجمع بين الرجلين يحيى بن خالد . فتناظرا فى مجلس أعدّ لذلك . فكان من أسئلة الكسائى لسيبويه قوله : ما تقول فى قول العرب « كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها » فقال سيبويه « فإذا هو هى ، ولا يجوز النصب » فقال الكسائى « بل العرب ترفع ذلك وتنصبه » فلما اشتد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابى خالص اللهجة ، فصوّب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائى لأنه معلمه ولأنه كوفى وضلع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء — فأراد الأعرابىّ على أن يقول بمقالة الكسائى . فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء إليه غادر بغداد وارتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفى بالغاً من العمر أربعين سنة ونيفا .

الكسائى

المتوفى سنة ١٨٩ ﻫ

نشأته وحياته

هو إمام الكوفيين أبو الحسن على بن حمزة الملقب بالكسائى . نشأ بالكوفة وأخذ القراءة عن حمزة الزيات ، وتميز بقراءة خاصة فعدّ من القراء السبعة . ولم يكن له يد فى الشعر ، حتى قيل « ليس فى علماء العربية أجهل من الكسائى بالشعر » وبلغه الكبر وهو لا يدرى من النحو شيئاً ؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوها من مشى طويل : « لقد عييت ! » فقالوا له : تجالسنا وأنت تلحن ! » فقال كيف لحنت ؟ فقالوا له : « إن كنت أردت من التعب فقل أعييت . وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عييت » فأنف من ذلك التجبيه ولازم معاذاً الهراء والرؤاسى من نحاة الكوفة حتى حصل ما عندها .

وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله : أنى لك هذا العلم ؟ فقال الخليل : من بوادى الحجاز ونجد تهامة . فخرج الكسائى إلى البادية فطاف أحياءها ، وسمع فصحاءها ، حتى استكمل حظه من الرواية ، واستوفى قسطه من اللغة . ولما رجع من البادية استقدمه المهدى واستخلصه لنفسه. ثم أقامه الرشيد مؤدبا لولده الأمين. وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضى محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته ويأمرهما ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الرى وهما بصحبته ، فماتا فى يوم واحد بِرَنْبَوَيه على مقربة من الرى فبكاهما وقال : دفنت الفقه والعربية بالرى » .

مؤلفاته

انتهت إلى الكسائى الزعامة فى العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحواً من عشرين كتاباً . منها كتاب معانى القرآن . وكتاب النحو . وكتاب النوادر ، وكتاب الهجاء ، ورسالة فى لحن العامة

الفرّاء

١٤٤ — ٢٠٧ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة . ولزم الكسائى حتى استمد منه وتخرج عليه . وشافه الأعراب وأخذ عنهم . ثم نظر فى علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها ، فامتاز بذلك من أستاذه الكسائى . وكان ميالا إلى مذهب المعتزلة . ويحب النظر فى علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه ، فاكتسب بذلك ملكة النظام والترتيب ،وقوة الاستنباط والتعليل، ولا يعرف فى الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره .

قال أبو العباس ثعلب : (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية . لأنه حصلها وضبطها ولولاه لسقطت) وقال أبو بكر الأنبارى : (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائى والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس) .

ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائى الإقامة بها وخلفه على درسه بعد موته . فلما ولى المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعليم ولديه الأدب . واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية . وأمر أن تفرد له حجرة من الدار ووكل به جوارى وخدماً ، وسير إليه الوارقين يكتبون ما يملى حتى صنف كتاب الحدود فى سنتين . ثم خرج للناس فأملى كتاب المعانى فخزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا بنسخه كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إليه . فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملى كتاباً آخر فى المعانى أطول وأوسع فخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم .

وعظم قدر الفراء فى الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهم بالخروج ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً . وبلغ المأمون ذلك فاستدعاه وقال له : « مَن أعزّ الناس ؟ » فقال « ما أعرف أعزّ من أمير المؤمنين » قال : « بلى ، من إذا نهض تقاتل عَلَى تقديم نعليه وليا عهد المسلمين » فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكنى خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكسر نفسهما عن شريفة حرصا عليها » ؛ فقال له المأمون : « لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً . وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما وبين من جوهرهما . وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلمه » .

وللفراء مؤلفات كثيرة كان يمليها عَلَى تلاميذه دون كتاب لقوّة حافظته. وكان أكثر مقامه فى بغداد ، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفى سنة ٢٠٧ هجرية .

ابن الحاجب

المتوفى سنة ٦٤٦ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر . وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحى فقدم القاهرة صغيراً واشتغل بالقرآن حتى حفظه ، وتفقه فى الدين على مذهب الإمام مالك . وتلقى القراءات وشارك فى سائر العلوم ، وغلب عليه علم العربية . ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعها أمالى فى النحو على مواضع من المفصل والكافية. ثم عاد إلى الاسكندرية فقضى بها نحبه سنة ٦٤٦ هـ .

مؤلفاته

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية فى النحو ، وكتاب المقصد الجليل فى علم الخليل فى العروض ، والأمالى النحوية ، ومنتهى السؤل والأمل ، فى علم الأصول والجدل ، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره فى كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب ، وكتاب جامع الأمهات فى الفقه .

علم الفقـــه

فسدت ملكة اللسان فى الحركات فاستنبط العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة وما بطأت باللحن . بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ واستعمالها ، ففزعوا فى حفظها إلى الكتابة والتدوين ضناً بكتاب الله ولسان العرب على الجهالة والدروس . بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة فى الألفاظ الخاصة بخلق الانسان أو الجمل أو الخيل أو النبات . فلما جاء الخليل

ابن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين) ، فإنه أحصى ماتركب من حروف المعجم من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى بمتوالية حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل ، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين ، وبدأه بحروف العلة . وقد اختصره أبو بكر الزبيدى المتوفى سنة ٢٧٩ لهشام المؤيد بالأندلس ، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله ومضى على معجم الخليل أكثر من قرن لم يدوّن فى اللغة غيره ، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فاستمد منه ومن غيره كتاب الجمهرة ورتبه على حروف المعجم، وتلاه الأزهرى فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل . ثم وضع الجوهرى من المشرقيين كتاب الصحاح ، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم ، وابن فارس كتاب المجمل . وتلك هى أصول المعجمات وأسسها . أما غيرها من العباب والتكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهى جمع لها أو اختصار منها .

ومما يجمل التنبيه إليه والثناء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال ، وجمع به المعانى المترادفة والمتقاربة فى باب واحد ، مبيناً مابينها من فروق ومانالها من تدرج أو تفرع ؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ ، فإنه بيّن فيه ماتجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات . و إنك لتجد فى هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة، والفحص عن أسرار العربية ، ما لا غُنية عنه لكاتب ، ولا غاية بعده لطالب .

اللغويون

الخليل بن احمد

١٠٠ — ١٧٤ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى بالبصرة ونشأ بها ؛ وأخذ

النحو والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعِلية الرواة كأبى عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر . ثم أبْدَى فسمع الفصيح وجمع الغريب حتى نبغ فى اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ لغيره . وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر بن شميل ومؤرج السدوسى . وبقى بالبصرة مقيما طول حياته على فاقة وتقشف ، نُزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة ، وتجافياً بها عن مطارح الهوان ؛ حتى قيل إن سليمان بن على وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً قفاراً وقال له : « كلْ ، فما عندى غيره ، ومادمت أجده فلا حاجة بى إلى سليمان » وانكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط و يؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه فى سبيله . فقد رُوى أنه قال : أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضى به الجارية إلى البقال فلا يظلمها . فدخل المسجد وهو يُعمل فكره ، فاصطدم فى سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته .

علمه وعمله

كان الخليل غاية فى تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله ؛ وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه . وكان على معرفة بالموسيقى : وضع أول كتاب فيها على غير إلمام بلغة أجنبية ولا علم بآلة موسيقية . وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الايقاع فى الأنغام والتقطيع فى الأجزاء من الشبه ؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر ، وحصرها فى دوائرها الخمس ووقفها على المقاطع والحركات . وشغل بذلك نفسه ووقته حتى كان يقضى الساعات فى حجرته يوقع بأصابعه ويحركها . فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خبال ، فقال له الخليل :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

والخليل أول من ضبط اللغة ، وابتكر المعجمات ، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل .

مؤلفاته

ألف كتاب العين فى خراسان وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف ووافته المنية دون إتمامه ، فقصد إلى ذلك بعض تلاميذه فقصر عنه ، فجاء الكتاب مضطرباً مختلا وله غيره كتاب النغم ، وكتاب العروض ، وكتاب الشواهد ، وكتاب النقط والشكل ، وكتاب الإيقاع .

ابن دريد

٣٢١ — ٢٢٣

نشأته وحياته

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها كالرياشى والسجستانى ، ثم غادرها فى فتنة الزنج إلى عمان ، فأقام بها اثنتى عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب . ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال وولده ، وهما يومئذ على عمالة فارس ، وألف لهما كتاب الجمهرة فى اللغة ، وامتدحهما بالمقصورة ، فقلداه الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه ، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه . ولما عزل ربنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام ٣٨٠ فاحتفى به الوزير على بن الفرات وأفضل عليه . وعلم الخليفة المقتدر به وبمكانه من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً فى كل شهر كفته مؤونة السعى . فانقطع إلى العلم والأدب ، وعكف على التأليف ، حتى أصيب بالفالج فمات سنة ٣٢١ .

أخلاقه وعلمه

كان ابن دُرَيد مولعاً بآلات الطرب . مدمناً للخمر ، مفيداً للمال ، مبيداً له، في اللهو والهبات ، حتى أن سائلاً سأله شيئا فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دَنَّ نبيذ . فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به فقال : ليس عندى سواه . وقرأ قوله تعالى : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون) ثم اتفق أن أهدى إليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : الحسنة بعشر أمثالها . أخرجنا دناً فجاءنا عشرة .

وقد نبغ ابن درَيد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل ابن أحمد . وبرع في الشعر حتى قيل فيه : إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء . وقد وضع على العرب أربعمائة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية ، وتوخى فيها جمال الإنشاء ، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة . وهى منثورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروى عنه من الأخبار والنوادر . ويُظن أنها كانت الملهم الأول لابتداع فن المقامات ، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقريحة سخية ، خيره مقصورته ، وهى تسعة وعشرون ومائتا بيت ، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم : وقد شرحها كثير من العلماء ، وعارضها غير واحد من الشعراء : يقول في مطلعها :

إمَّا ترى رأسىَ حاكى لونه ... طُرَّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضُّ في مسودِّه ... مثل اشتعال النار في جزل الغضا

ومنها :

والناس كالنبت فمنه رائق ... غضٌّ نضيرٌ عُوده مُرُّ الجنى
ومنه ما تقتحم العين ، فإن ... ذقت جناه انساغ عذبا في اللّها
والناس ألف منهُم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى
وللفتى من ماله ماقدمت ... يداه قبل موته لا ما اقتنى
وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

واللوم للحر مقيم رادع ... والعبد لا يردعه إلا العصا
وآفة العقل الهوى ، فمن علا ... على هواه عقلهُ فقد نجا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه ... أصفيته الود لِخُلق مرتضى
إذا بلوت السيف محموداً فلا ... تذممه يوماً أن تراه قد نبا

مؤلفاته

له غير المقصورة كتاب الجمهرة فى اللغة ، وكتاب الاشتقاق فى أسماء القبائل والعمائر وشعرائها وفرسانها ، وكتاب السحاب والغيث ، وأخبار الرواة وغير ذلك.

علوم البيان

الغالب فى الظن أن أول من تكلم فى علم البيان أبو عبيدة فى كتابه مجاز القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » فأجاب بأنه كقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفىُّ مُضاجعى ... ومسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوال

وانقضى العصر العباسى الأول ولم يدون فى علم المعانى إلا ما أثر عن فحول الكتاب فى حد البلاغة جوابا لسؤال أو عرضا فى مقال ، حتى جاء الجاحظ فألمَّ ببعض أغراضه فى كتابه البيان والتبيين . وحذا حذوه قُدامة الكاتب وأبو بكر بن دريد وأبو هلال العسكرى ؛ إلا أن هؤلاء وإن تكلموا فيه فليسوا واضعيه لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم . وإنما يعرف الفضل فى وضع هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ، وللإمام أبى يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ : ذلك اخترع مباحثه وقعَّد قواعده ، وهذا مخض زبدته وماز المعانى من البيان فجعلهما علمين مستقلين .

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله بن المعتز . جمع منه سبعة عشر نوعا ووقع معاصره قدامة بن جعفر على عشرين توارد معه على سبعة منها . ثم اقتفاها

الناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع فى خزانة الأدب لابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ اثنين وأربعين ومائة نوع ا .

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن الكمال لنشوئها عند استضعاف العرب واستعجام اللغة . والمشارقة أقوم عليها من المغاربة ، لعناية العجم بها وبعد نظرهم فيها . ولم يُعن المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعددوا أبوابه .

التـاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب فى مستهل هذا العصر . وكان يومئذ مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروعه « كالمغازى » للوقوف على الأزمنة والأمكنة التى نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث «والفتوح » لعلم ما فتح من البلاد صلحا أو عنوة ، فينتظم أمر الخراج والجزية . « والطبقات » للتعريف برواة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين . والعرب أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ . « والأنساب » لتمييز أشراف القرشيين وسادات القبائل ، فتعلم مراتبهم ، وتقدر رواتبهم . « وأيام العرب » لتفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه . وأشهر الكاتبين فى هذه الأنواع على الترتيب ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١ ، والواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ ، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ، والكلبى المتوفى سنة ٢٠٦ ، والأصمعى المتوفى سنة ٢١٦ .

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم ، وانقضت الحاجة إلى التاريخ الخاص بانقضاء أسبابه ، خطوا فى التاريخ خطوة واسعة ، واختطوا فيه خطة جامعة . فكتب عمدة المؤرخين محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ تاريخه العام مرتبة حوادثه على السنين فنهج المؤرخون طريقته فى التصنيف . وفضلوه

بما أدخلوه فى كتبهم بعدُ من المباحث العلمية والأدبية كأبى زيد البلخى[١] . صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة ٣٢٢، والمسعودى صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ ، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة ٤٢١ . ثم عنى المؤرخون بتذييل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه . فتعاقب جماعة منهم على الطبرى بالتذييل والتكميل حتى مدوه إلى سنة ٦١٦ . وجاء خاتمة مؤرخى هذا العصر أبو الحسن على بن الأثير[٢] ففصَّل كتابه الكامل من الطبرى وذيوله وأضفاه إلى سنة ٦٣٧ هـ .

مذهب العرب فى التاريخ

للعرب فى كتابة التاريخ طريقتان : إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث فى أى مكان مُسندة من غير اتصال ولا رابطة ، كما فعل ابن جرير الطبرى وابن الأثير الجزرى وأبو الفداء . وتلك الطريقة على إضجارها القارىء هى الأصيلة عندهم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ : أى التوقيت . خلافاً لتسميه اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع . وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودى وابن الطقطقى وابن خلدون وابن العبرى .

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن ،

(١) كان المعروف أن أبازيد البلخى هو صاحب هذا الكتاب ، ولكن الأستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسى الذى طبعه عن نسخة مخطوطة فذة جلبها من مكتبة بالآستانة وترجمه إلى اللغة الفرنسية أثبت بعد طبعه الجزء الأول منه أنه للمطهر بن طاهر المقدسى المقيم ببست من أعمال سجستان ، لقرائن وجيهة وأدلة قوية ، ذكرها فى مقدمة الجزء الثانى والثالث من الكتاب .

(٢) ابن الأثير هو عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى ولد سنة ٥٥٥ بجزيرة ابن عمر بالجزيرة . ورحل هو وأخواه صاحب النهاية فى غريب الحديث ، وضياء الدين صاحب المثل السائر مع أبيهم إلى الموصل فتخرجوا على علمائها : وطاف هو فى بعض بلاد الشرق طلباً للجاه وتحصيلا للعلم . ثم انقطع فى الموصل إلى الدرس والتأليف فوضع كتابه فى التاريخ وكتاب (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) وتوفى سنه ٦٣٠ .

ولم يوفقوا إلى إتقانه ، لقلة الوسائل عندهم ، وتأثير الحاكمين فيهم ، فجانبوا سبيل النقد محاباة للخلفاء ومهاواة الملوك ، وكالوا الحوادث جزافا دون تحقق من صوابها ، ولا نظر فى أسبابها وأعقابها ، وأمسكوا عن الخوض فى أحوال الأمة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاة ، وفاتهم أن تطوّر الأحوال وتغير الميول فى طبقات الأمة له أثر عظيم فى سياستها . وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب .

على أن لمؤرخينا العذر فى هذا القصور ، فإن فن التاريخ لا يتسنى إتقانه إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه : كعلم المسكوكات ، وعلم السجلات ، وعلم العاديات وعلم الاقتصاد ، وعلم الإحصاء ، وعلم النقد ، وجهل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث ، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث .

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه . فأمر مالك بن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعا بين الحديث والفقه . ثم تبارى العلماء فى تحصيل الحديث توسعا فى الفقه ، وتذرعا إلى الفضل ، فراجت بضاعته ، وانتشرت روايته . وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتباع الضلالة وأشياع الفرق فتقوّلوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتريات وعُمِّىَ على الناس الحق . فشمر الأئمة للحديث بالنقد والتمحيص ، وللرواة بالجرح والتعديل . وكان أسبقهم إلى ذلك إسحق ابن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ فماز الحديث من الفقه . وتلاه شيخ الحديث البخارى ، وإمام السنة مسلم ، فجمعا صحاح الأحاديث فى كتابيهما . ثم ظهر بعدهما أربعة كتب فى

عصر واحد تمت بها الستة الصحاح . وهى كتاب أبى عيسى الترمذى ٢٧٩ ، وكتاب أبى داود السجستانى ٢٧٥ ، وكتاب أبى عبد الرحمن النسائى ٢٧٥ ، وكتاب أبى عبد الله بن ماجه ٢٧٣ .

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص . وكلُّ كتاب بعدها كَلٌّ عليها وراجع إليها .

المحدثون

البخارى

١٩٤ — ٢٥٦ هـ

نشأته وحياته

وُلد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ببخارى ونشأ بها يتيماً . فحفظ القرآن وثقف العربية وطلب الحديث فى التاسعة من عمره . ولم يكد يبلغ الحلم حتى حفظ منه عشرات الألوف . وفى سنة ٢١١ خرج إلى مكة حاجاً مع أمه وأخيه . فعادا وتخلف هو للتوسع فى الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن فقهائها حتى أرجعه الجد العاثر إلى بلاده فابتلى فيها بفتنة القول بخلق القرآن ، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق ، فأخرج من بخارى مطروداً ، فلاقته المنية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند .

جمع كتابه « الجامع الصحيح » فى ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف حديث تنخَّلها من ستمائة ألف . وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرر وجوهها . وقد أجمع العلماء على أنه أصح كتاب فى الحديث حتى من « صحيح مسلم » :

مسلم بن الحجاج

٢٠٦ — ٢٦١ هـ

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى . ولد سنة ٢٠٦ ورحل فى طلب

الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر . وقدم بغداد غير مرة ، وأخذ عن البخارى وصادقه ودافع عنه . وروى عن ابن حنبل وابن راهويه ، وجمع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث . وهو ثانى صحيح البخارى فى الصحة والمكانة ... ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور ، وعاش بها وادعا فى ظل ثروته وربح تجارته حتى لقى ربه .

علم الفقه

فى صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم وفى عصر بنى العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه . وكانت المدينة حينئذ عش الفقهاء ومقر المحدثين وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث . فلما استقر ملك العباسيين فى العراق انتشر الفقه بين أهله ، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين فى التشريع . ففقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم فى الحديث بنوا أحكامهم على النصوص ، فلا يرجعون إلى القياس الجلى أو الخفى ما وجدوا خبراً أو أثراً . وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس . وفقهاء العراق لتشددهم فى الرواية ، وقلة بضاعتهم من السنة ، وتأثير الجنسية الآرية فيهم ، عمدوا إلى القياس فى استنباط الفقه . وهم أصحاب الرأى وزعيمهم أبو حنيفة النعمان . واقتضت سياسة المنصور أن يظهر العراق على الحجاز ، وبغداد على المدينة ، والفرس على العرب ، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه ، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك . واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس . ثم جاء محمد بن إدريس الشافعى وهو أحد أتباع مالك ، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبى حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبين . وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه ، فوضعه وضعاً جديداً ونشره بها . ثم نبغ من بعده أحمد بن حنبل فقبس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية ، واختص بمذهب آخر انتشر فى بلاد نجد والبحرين تقيد فيه بالسنة وتشدد فى الفروع .

وهذه هى المذاهب الأربعة التى قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد فى سائر الأمصار .

الفقهاء

ابو حنيفة النعمان

٨٠ — ١٥٠

نشأته وحياته

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة ، وأصل أبيه من فُرس كابل . كان أول أمره خزّازاً ، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها عمن شافه الصحابة ونقل عنهم . واشتهر بالنبوغ فيها حتى أراده المنصور على أن يلى القضاء فأبى وقال : « اتق الله ولا ترعَ فى أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ؟ » فقال له المنصور : كذبت ! أنت تصلح . فقال له : قد حكمت لى على نفسك . كيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب ؟ .

فلم يقتنع المنصور وألقاه فى السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه . والراجح أن هذا سبب مفتعل ، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين .

صفته وأخلاقه

كان أبو حنيفة رَبعة فى الرجال تعلوه سمرة ، وكان من أحلى الناس نغمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً . وكان كثير الخشوع ، طويل الصمت ، قليل الدعوى ، بعيداً عن الغيبة ، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً .

علمه وأدبه

كان راسخ القدم فى علوم عصره إلا العربية ، فقد كان يرتضخ لكنة

أعجمية ولا يقيم لسانه لحناً . وكان قوى الحجة حتى قال عنه الإمام مالك: «إنه رجل لو كلمته فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته » وهو أول من بوّب الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأى لكثرة الوضاعين من زنادقة العراق ، وحرصه على ألا يأخذ بالشك فى دينه . فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً . تخرج عليه من فقهاء العراق والكوفة القاضى أبو يوسف (١٨٢) ومحمد بن الحسن (١٨٩) وزفر بن الهذيل (١٥٨) وغيرهم . وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر فى أصول الدين ، وكتاب المخارج فى الحيل ، ووصيته لأصحابه فى الأصول .

مالك بن أنس

٩٥ — ١٧٩

نشأته وحياته

ولد أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحى بالمدينة ونشأ بها ، وأخذ العلم عن ربيعة الرأى (١٣٦) وتعمق فى علوم الدين حتى صار حجة فى الحديث وإماماً فى الفقه . قيل إنه أفتى بخلع المنصور ومبايعة محمد بن عبد الله من آل على ، فأحفظ ذلك جعفر بن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرّده وضربه سبعين سوطاً فما ازداد إلا علاء وشرفاً . وما عتم المنصور أن اعتذر إليه وترضاه وقال له : «لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك . وقد شغلتنى الخلافة ، فضع للناس كتابا ينتفعون به وتجنب رُخص ابن عباس وشدائد ابن عمر وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة » فصنف الموطأ . سمعه عليه المهدى ثم الرشيد سنة ١٧٤ وظاهرا عليه ثوب النعمة . وبقى مشرقا لنور العلم ، وقبلة لرواة الحديث ، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة .

صفته وأخلاقه

كان مالك أشقر شديد البياض ، أصلع كبير الرأس ، حسن البزة وقوراً مهيبا عفيفاً لا يحدث إلا على وضوء ، ولا يركب دابة فى دار الهجرة على ضعفه. وكان أميناً على العلم فلا يترفع أن يقول فى الشيء لا يعلمه : (لا أدرى) .

علمه وفضله

كان مالك من حجج الله على خلقه . لا يحدث إلا عن صحة ، ولا يروى إلا عن ثقة . قد توفر حظه من السنة فبنى مذهبه عليها وانفسح ذرعه فى الفقه فانتهت إليه الفتوى . وهو القائل عن نفسه : « قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئنى ويستفتينى » وبذلك سار المثل . «لا يفتى ومالك فى المدينة ». له كتاب الموطأ فى الحديث وهو أساس المذهب المالكى ، ورسالة فى موعظة الرشيد .

محمد الشافعى

١٥٠ — ٢٠٤ هـ

نشأته وحياته

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشى الشافعى نسبة إلى جد جده. ولد بغزة فى فلسطين على مهد الفقر ، ونقل بعد عامين إلى مكة ، فنشأ فى بنى هذيل ودرج بينهم ، وكانت أمه الأيم تعوله مستعينة ببر ذوى قرابته من قريش . وما كاد يناهز الإدراك حتى أندر فى الذكاء والحفظ . قرأ القرآن ودرس العربية وراد البادية فى طلب اللغة والأدب، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة. ثم رحل فى هذه السن إلى مالك فقرأ عليه الموطأ حفظاً . فقال مالك : « إن أحد يفلح فهذا الغلام » ، وفى سنة ١٩٥ وفد إلى بغداد فالتف حوله علماؤها

يأخذون عنه ، وفيهم أحمد بن حنبل ، ولقى محمد بن الحسن فبصّره بالقياس . ثم دخل مصر عام ١٩٩ فاتخذها دار إقامته ، وسكن الفسطاط وأملى بجامع عمرو مذهبه الجديد : وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى اصطفاه الله لجواره فدفن بالقاهرة .

صفته وأخلاقه

كان رضى الله عنه طويلا نحيلا ، خفيف العارضين ، حسن الصوت ، والسَّمْت ، فصيح المنطق ، راجح العقل قوى الحجة ، ثقة فى دينه كريما فى خلقه .

علمه وفضله

كان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأبصرهم بأصول العلم والفقه ، وحجة فى اللغة ، وآية فى الأنساب والأخبار . وقد بلغ من المكانة فى الأدب والدراية فى اللغة أن قرأ عليه الأصمعى أشعار الهذليين . وقال أحمد بن حنبل : « ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعى عليه منّة » .

توسط فى مذهبه بين أهل الرأى وأهل السنة . وكثر أشياعه فى الأمصار فقاسموا الحنفية مناصب التدريس والفتوى . وشجر الخلاف بين أتباع المذهبين ، وتعددت المناظرات ، حتّى نشأ من ذلك علم الخلاف والجدل . والراجح أن الشافعى أول من تكلم فى أصول الفقه وصنف فيه . وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس فى أيدى الناس منها إلا كتاب الأم فى الفقه فى سبعة مجلدات ، والرسالة فى أصول الفقه ، ومسند الشافعى فى الحديث .

أحمد بن حنبل

١٦٤ — ٢٤١ هـ

نشأته وحياته

أبو عبد الله بن حنبل الشيبانى ولُد ببغداد ، ونشأ بها يتيما . وطلب الحديث لست عشرة سنة ، وقد كثرت رواته ، وعرفت ثقاته ، وتميز صحيحه ، فجاب الأقطار الإسلامية فى سبيل تلقيه وجمعه ، حتى حفظ ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها فى كتابه المسند . وهو من أصحاب الشافعى وصفوة تلاميذه ، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » .

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابه بشىء من القياس ، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية . وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة فى عصر الرشيد والمأمون . ودعُى إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى ، فضُرب تسعة وعشرين سوطا حتى تقطر دمه وغاب رشده واعتل جسمه . ولم ينعم باله إلا فى عهد المتوكل نصير السنة . وعاش ماعاش حتى نقله الله إلى دار كرامته فشيعه ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة . وكفى بذلك شهيداً عَلى رفعة شأنه وعظم خطره .

العلوم العقلية

الفلسفة

كانت حرية الفكر فى الإسلام سببا فى تعدد الفِرق وظهور المعتزلة . وهم يذهبون إلى تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية . وبنو العباس كما علمت

أميل إلى القياس والرأى . فاستفاض فيهم هذا المذهب . وانضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن . وضرّم نار الجدل بين السنة والاعتزال ، وزُين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه ، فهب ترجمة الفلسفة وأنضى الركائب فى طلبها ، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها : فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربيةُ .

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامى ، وحادث من تاريخ التمدن العربى ، فكان عدد الفلاسفة قليلاً ، وأثرهم فى الشرق ضئيلا ، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً لأوربا العامهة يومئذ فى غياهب الجهالة ، التائهة فى مجاهل القرون الوسطى ، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية .

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحا يقارعون به أهل السنة ، وأنحى هؤلاء بالطعن عليهم وعليها ، وحذروا الناس منهم ومنها ، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضاً للمقت والسخرية . كان ذلك سراً فى عهد المأمون والمعتصم والواثق نصراء الفلسفة وظهَواء الحكمة ، وجهراً فى عهد المتوكل وأخلافه محيى السنة ومميتى البدعة فإنهم خفّضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكائمهم ، وألجأوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية : فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهى أشبه بجماعة « الماسون » فى رسومها ورموزها . تألفت بالبصرة فى أواسط القرن الرابع للبحث فى ضروب الفلسفة ، والعمل على نشرها ، فكتبوا خمسين رسالة غفلا ضمنوها جملة الفلسفة العربية ، وزبدة الحكمة اليونانية . وقد بعثت فى الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيوع . ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد(٣٤٣) وهم شيعيون ، ونصرتهم فى خذلان السنيين ، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع ، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور

أما تاريخ الفلسفة فى الأندلس فهو أشبه بتاريخها فى الشرق . انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وانصرافهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبى الحكم عمرو الكرمانى سنة ٤٥٨ فنبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء . ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، ووزرايتهم عليهم كانت أشد : فاستبد الملوك بهم مسايرة للشعب ، وتحبباً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم ، فإذا زل أحدهم فى كلمة رجموه أو أحرقوه . وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدى بهم فى أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم .

وهكذ ظل ولاة الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها حتى فرت من وجوههم لائذة بجيرانهم الفرنجة . ولا بدع فللعلوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول .

الفلاسفة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب بن إسحق الكندى المتوفى سنة (٢٤٦) وكان معاصراً للمأمون بارعاً فى الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان . وألف فى تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتى كتاب حذا فيها حذو أرسطو . وكان أبرع الناس فى الترجمة عن اليونانية . ويليه أبو نصر الفارابى المتوفى سنة (٣٣٩) الملقب بالمعلم الثانى صاحب كتاب السياسة المدنية ، ومخترع القانون فى الموسيقى . ثم أبو على بن سينا وأبو حامد الغزالى . وأما فى الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر بن باجه المتوفى سنة (٥٣٣) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (٥٨١) صاحب رسالة حى بن يقظان . وبحسبنا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم

ابن سينا

٣٧٠ — ٤٢٨ ﻫ

نشأته وحياته

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) ولد بقرية من قرى بخارى كان أبوه عاملا عليها لنوح بن منصور الساماني. ثم انتقل في طفولته إلى بخارى فحفظ القرآن والآدب وشيئاً من مبادىء العلوم . وورد بخارى إذ ذاك أبو عبد الله الناتلي فاقرأه كتاب إيساغوجي، وخرّجه في المنطق فبرّز عليه فيه ، وبصره بمواضع منه . ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسيحي ، ودرس فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه . فقصده الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويقتبسون منه . كل ذلك وسنه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة . ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض برّح به ، فقربه إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه ، فقرأ فيها أثمن الكتب وأجلها . ثم اتفق أن أحرقت تلك المكتبة فتفرد أبو علي بما فيها . ويقال إنه أحرقها لذلك عمداً .

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه فخرج إلى قصبة خوارزم وأخذ يضرب في الأرض ، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب. ثم انقلب إلى همذان فتقلد الوزارة لشمس الدولة بن بويه ، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونهبوا ماله وسألوا الأمير قتله فاكتفى بنفيه . ولم تهادنه المصائب بعد ذلك فاتّهم عند تاج الدولة بخيانة منكرة فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلا فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان ، فأقام في حماه

وادع النفس أحياناً ؛ ولـكن تعاقب الحوادث عليه أوهن عزمه ، واستبداد الشهوة به أنهك جسمه، فأصيب بداء عياء نـكل عنه تدبيره وطبه ، وتوفى بهمذان .

علمه ومصنفاته

لابن سينا القدم الراسخة فى الطب والمكانة السامية فى الفلسفة . أَخذ بمبادىء أرسطو ولم يُفتن عن دينه ، ولم يشك بعد يقينه . إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً . وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تآليفه إلى اللاتينية واعتمدوا عليها فى بناء الفلسفة الحديثة وهى تبلغ مائة مؤلف ، وأشهرها كتاب القانون فى الطب ، وكتاب الشفاء فى الحكمة، يقع الأول فى أربعة عشر مجلداً ، والثانى فى ثمانية عشر .

حجة الإسلام الغزالى

٤٥٠ — ٥٠٥ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو حامد محمد بن حامد الغزالى بطوس ، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج فى أمد يسير على إمام الحرمين أبى المعالى ، ولازمه حتى توفى . فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فاحتفى بقدومه وأعجب بعلومه . وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره . ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فاشتغل بها وهو يعلِّم . ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها . فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والدين ضدان : فناصب الفلاسفة العداء وحمل عليهم بأسلحتهم ، وقارعهم بحججهم . فلقب لذلك حجة الإسلام . ثم سلك

طريق التزهد ، ونهج سبيل التصوف ، فوطده على أساس الحكمة، وأيده بحقائق العلم . ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية ؛ وعزم الرحلة إلى مراكش ليلقى الأمير يوسف بن تاشفين ، فجاءه نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس واشتغل بالتعليم والتأليف. ثم اضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية، ولـكنه ما عتم أن رجع إلى وطنه فابتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية ، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله .

مؤلفاته

ألف الغزالى كتاب البسيط والوسيط والوجيز فى فقه الشافعى ، وكتاب إحياء علوم الدين فى التصوف، وهو مرتب على أربعة أقسام : العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات . وقد قيل فى فضله : « لو ذهبت كتب الإسلام وبقى (الإحياء)لأغنى عما ذهب » وله كتاب تهافت الفلاسفة فى الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم ، وقد طبع أخيراً بمصر ، وكتاب مقاصد الفلاسفة فى الموضوع نفسه .

ابن رشد

٥٥١ — ٥٩٥ هـ

نشأته وحياته

هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، ويسميه الفرنج (averroès)ولد بقرطبة من بيت عريق فى المجد أصيل فى القضاء ، وتخرج على علماء عصره فى الفقه والطب والفلسفة ، وانقطع إلى النظر فى الحكمة حتى توسط باحتها وشارف غايتها . وفى سنة ٥٤٨ قدمه ابن طفيل إلى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة، فلخص له كتب أرسطو . ثم تولى قضاء أشبيلية سنة ٥١٥ ورجع إلى موطنه بعد عامين ، وشخص منه إلى مراكش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذه طبيباً له ، ولـكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضيا. ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده

يعقوب المنصور أقر ابن رشد فى مقامه ، وبالغ فى إكرامه ، ولكن الدهر أبى أن ينعم بال الحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق ، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه . ثم عاد الأمير إلى نفسه فاستدعاه إلى مراكش واعتذر إليه ، وظاهر نعمته عليه . ولكن مالبث أن لقيه حمامه بمراكش .

فلسفته وكتبه

لو صح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقمصت جسم ابن رشد لتجدّد عهود الحكمة ، وتفسر غموض الفلسفة . فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان ، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعد غاياته . فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه . واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه ، فكان أساساً لحكمتهم ونبراسا لنهضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسى (إرْنِسْتْ رِينان) فى كتابه ابن رشد ومذهبه : « إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو ، ونهج سبيل الحرية فى الفكر والقول » . ومذهب ابن رشد وأشياعه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحلول : فيزعمون أن المادة أزلية ، وأن الخلق حركة اضطرارية فى هذه المادة ، والخالق هو تلك الحركة أو المحرك . ويرون أن المخلوقات تشارك المادة فى أزليتها لكونها منها . فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدريج إلى الاستغراق فى الله ؛ وأن العقول واحدة فى البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذى يسمونه (العقل الفاعل)، وهذا العقل العام هو وحده متصل بالله دون العقول الفردية ، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب ، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وقد فنَّد هذا المذهب حجة الإسلام الغزالى وكثير من علماء أوربا . على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين . فكتب

فى ذلك كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال »، وكتاب « مناهج الأدلة فى عقائد الملة » ، وعُنى بالرد عَلى « تهافت الفلاسفة » للغزالى بكتاب سماه « تهافت التهافت » يقول فى آخره · « لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة ، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت فى ذلك » وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات فى الطب ، وفلسفة أرسطو ، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية .

الفصل السابع

القصص والمقامات فى الأدب العربى(١)

القَصَصُ فن من فنون الأدب الجليلة ، يقصد به ترويح النفس باللهو ، وتثقيف العقل بالحكمة . وله عند الفرنج مكانة مرفوعة ، وقواعد موضوعة . أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به ، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه ، ولا غناء للملك فيه ؛ وللأسباب التى دعت إلى قصورهم فى الشعر القصصى ؛ ولأنه نوع من أنواع النثر ، والفن الكتابى أو النثر الفنى ظل فى حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية ، حين وضع ابن المقفع الفارسى مناهج النثر وفكر فى تدوين شىء من القصص . فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليلة ودمنة ، وهزار أفسانه (ألف خرافة) ودارا والصنم الذهب ، حُدَيًّا العرب ونموذجا لهم فى وضع ما وضعوه منها .

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا لياليهم بالمنادمة والمسامرة . فتنافس الندماء فى حفظ الأقاصيص والأسمار ، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاها . واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك فى ديارهم وأملائهم وأعراسهم . واشتدت هذه الحاجة عندما توالت المصائب والمحن على العالم الإسلامى فى أواخر العصر العباسى وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة ، وعنف المتغلبين من المغول ، وإخلاد الشعب فى مصر إلى التبطل والمجون ، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون ؛ فتقدم إليهم القصاص والمحدثون ، وهم للسوقة أشبه بالندمان

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتابنا : (فى أصول الأدب) .

والمهرجين للملوك لحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان ، وأخبار الجان ، وأعمال السحرة ، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان ، وشاهده التجار والرحالون فى أطراف البلدان . ثم عملت فى هذه الأحاديث المبالغة وأعملها الاختلاق حتى قيض الله لهذه السير من دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة . ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفى القصص الأفرنجية القديمة ، فكان من ذلك قصص عنترة[1] ، وبنى هلال ، وسيف بن ذى يزن ، والأميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وعلى الزيبق المصرى ، وفيروز شاه . وفى رأيى أن هذه القصص كتبت كلها بمصر فى القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة ، فبعضها حين نشوب الحروب الصليبية ، وبعضها بعد سقوط بغداد . أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها ، وموضوعات حوادثها ، وأسماء أشخاصها . وأما أنها كتبت فى هذه العهود فذلك بيِّنٌ من لغتها المشوبة ، وأساليبها المبتذلة ، وخيالها الغريب القوى من أثر المخدرات . وحال الاجتماع يومئذ ، ونشوب الحروب الصليبية ، اقتضيا تدوين هذه القصص فى وصف الوغى ، ومدح البطولة ، وتمجيد القادة ، إثارة للنفوس وتحميسا للجند ، كما كان المسلمون يفعلون فى القرن الأول للهجرة[2] .

---

(١) قصة عنترة هى قصة حماسية غرامية تمثل حياة العرب فى الجاهلية تمثيلا صادقاً ، وتصف أخلاقهم وحروبهم وصفا ناطقاً ، وتبعث فى النفس الحمية والنجدة والوفاء والسخاء ، فهى أفضل القصص العربية وأولاها أن تسمى (الياذة العرب) . أسلوبها شائق منسق ، وقد تدركه الركاكة أحياناً . ونثرها مسجوع متكلف مطرز بقصائد بعضها مسموع ، وبعضها مصنوع . والراجح فى الرأى أنها تجمعت مما سار على ألسنة الرواة والسمار طوال السنين من أخبار العرب ووقائعها ، وتمت بالمناقلة والمبالغة ، حتى انتهت الى رجل حافظة يدعى يوسف ابن اسماعيل فى عهد العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ — ٣٧٦) فألفها بأمره الماء للشعب عن التحدث بريبة حدثت فى بيته . ثم أصدرها تباعا فى اثنين وسبعين جزءا ، ونسبها الى الأصمعى إجلالا لقدرها ، واحتيالا لنشرها ،

(٢) ذكر ابن الأثير سنة ٧٧ هـ أن عتاب بن ورقاء سار فى أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم . ثم قال أين القصاص ؟ فلم يجبه أحد فقال : أين من يروى شعر عنترة فلم يجبه أحد الخ .

ذلك كان مولد القصة فى الأدب العربى وهو شبيه بمولدها فى الأدب الغربى ؛ فكلتاهما ولد على إثر الملاحم ، وكلتاهما ابتدأ بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة . إلا أن القصة الغربية لاحظتها عناية الأدباء ، ورعاية النقد ، واتساع الحضارة ، وتقدم العلم ، فنمت وتقدمت . أما القصة العربية بمعناها الفنى المعروف فظلت فى حجر الطفولة ومهد الخمول يلهو بها العامة ، ويأنف منها الخاصة ، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مُدْرَجَةً فى لفائف الميلاد . وإنما برع العرب فى الحكايات والأمثال والمقامات .

الحكايات

ألف ليلة وليلة (١)

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس . وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها : كلستان للسعدى ، وأصل ألف ليلة وليلة . وهذان الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن فى الشرق والغرب . على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية . ولقد طغى ما أدخلوه فى ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه . وأصبح الكتاب عنوانا عريضا من عناوين الأدب العربى وأثراً خالداً من آثار بنيه .

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهر زاد وجاريتها دنيازاد . وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة ، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريعه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود واليهود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد فى الجاهلية والإسلام . وبقى بابه مفتوحا للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة ، فتكامل نقصانه واستتم بنياته ، وتضاءل ما فيه من

---

(١) اقرأ عن هذا الكتاب بحثاً علمياً مفصلا فى تاريخه وتحليله فى كتابنا : (فى أصول الأدب) .

وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص الجان ومخاطر الشجعان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة ، التى تستهوى القلب ، وتشحذ الخاطر ، وتخصب المخيلة .

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم فى العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعى والفيلسوف المؤرخ . ومن ثَمَّ عنى به الفرنج عناية خاصة فترجموه إلى لغاتهم ، وأفردوه بأبحاثهم . أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم : فأخبار العرب ونوادر الخلفاء وما ترجم فى الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة . وأما ما وضعه القصاصون المتأخرون من عامة مصر والشام فركيك العبارة ، عامى الألفاظ ، مبتذل التراكيب ، إلا أن مساق الأحاديث جيد ، ورباط الحوادث متين .

الأمثال

كليلة ودمنة

أما الأمثال فمنشأها الشرق ؛ لأنه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف . انبعث فى صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتا لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفسا ولا طريقا إلى آذان الطغاة إلا هذه الكنايات والرموز يستترون وراءها ما يريدون من نصح وعظة . وقد بدأ ظهور هذا النوع فى الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق . وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم ، وإيزوب الرومى ، و بيدبا الهندى . وأشهر من كتب فيه من أدباء العربية ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة . وهذا الكتاب من خيرة الكتب فى تقويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة : وضعه باللغة السنسكريتية بيدبا الهندى لدبشليم الملك منذ عشرين قرنا ونيفا على ألسنة البهائم والطيور ، وعقده على اثنى عشر بابا ثم ترجم إلى الفهلوية ، ونقله عنها إلى

العربية عبد الله بن المقفع ، وصدره بمقدمة بليغة فى التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته ، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية ، فإنها بقيت أصلا تفرعت عنه الترجمات القديمة والحديثة . وزاد الكتاب بتوالى الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية ، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين بابا .

وقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية (وهى موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشر ونها تباعا بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمى لا يعرف اسمه . ألفه فى كشمير حوالى القرن الثالث قبل الميلاد فى مقدمة وخمسة أبواب وسماه (تنترة) على ما رواه هرتال Hertal ، وهرتال هذا هو الذى نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشى وطبعه فى ليبسك وبرلين فى مجلدين سنة ١٩٠٩ م .

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة تنترة) ترجمها إلى الفهلوية برزويه طبيب أنو شروان بأمره . وأضاف إليها أبوابا من القصص الهندى ، وعن هذه الترجمة نقل ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه . والراجح أنه أضاف إلى مقدمة برزويه ما يدل على الشك فى الأديان . وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيفه . وفى بعض النسخ زيدَ عَلَى الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما ، وهما باب مالك الحزين والبطة ، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين . انتهى .

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله بن المقفع ، وما نسبه إلى علماء الهند إلا أملا فى رواجه وانتشاره ؛ ولكنه فى اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء فى كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار . وقد نظمه كثير من شعراء العرب كأبان اللاحقى وابن الهبارية ، وعاوضه سهل بن هرون بكتاب سماه (ثعلة وعفرة) .

ثم اشتهر بالكتابة فى الأمثال أيضا ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هـ ناظم

كتاب الصادح والباغم ، وهو منظومة فى ألفى بيت على أسلوب كليلة ودمنة . ثم ابن عرب شاه الدمشقى المتوفى سنة **٨٥٤** صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كليلة ودمنة وجعلها فى عشرة أبواب ، إلا أن أمثالها يعيبها التطويل والحشو ، وإنشاءها بضعفه التعمل والتكلف .

المقامات وكتابها

المقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحَة . ومعنى المقامة فى الأصل المقام أى موضع القيام ، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان ، ثم كثرت حتى سموا الجالسين فى المقام مقامة كما سموهم مجلساً ، إلى أن قيل لما يقام فيها من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس ، فيقال : مقامات الخطباء ، ومقامات القصاص ، ومقامات الزهاد : وقد نشأ هذا النوع من القصص فى أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبى والإنشاء الصناعى الأنيق . وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم .

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم ، وإنما هى قطعة أدبية فنية يقصد بها «الفن للفن» وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب فى أسلوب مسجوع أنيق الوشى يعجب أكثر مما يؤثر ، ويلذ أكثر مما يفيد . ولم تُراعَ قواعد الفن القصصى فيما كتب من هذا النوع ؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص ، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه .

وتدور المقامة على حادث عادى يسند إلى شخص معين هو ما يسمى فى اصطلاح الفن القصصى بالبطل ، كأبى زيد السروجى فى مقامات الحريرى ، وأبى الفتح الإسكندرى فى مقامات البديع ؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة ، فهو يراه فى كل حادثة ، ويسمعه فى كل مجلس ، ويفجأه فى كل

سر ، ثم يروى للناس ما عليه من خير أو شر . ذلك هو الراوى ، كعيسى ابن هشام فى مقامات البديع ، والحارث بن همام فى مقامات الحريرى .

أما كتابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثا عرضها عرضاً تصويرياً دقيقاً كانت الطور الأول لنشوء المقامة . ثم جاء بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فأملى أربعمائة مقامة فى الكدية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندرى على لسان عيسى بن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة . وقد مضى الكلام عنها فى ترجمته . ثم جاء بعده الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبى زيد السروجى على لسان الحارث بن همام ، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضا . ثم عالج المقامات بعد هذين النابغين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوهما كالمقامات السَّرَقُسْطية لابن الأشتركونى المتوفى سنة ٣٥٨ هـ وهى خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريرى بالبصرة ، وقد أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم فى نثرها لزوم ما لا يلزم . حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام ومقامات الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهى مشهورة والمقامات المسيحية لأبى العباس يحيى بن سعيد ابن مارى النصرانى البصرى الطبيب المتوفى سنة ٥٨٦ هـ نسجها على منوال الحريرى . ثم مقامات أحمد بن الأعظم الرازى وهى اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة ٦٣٠ هـ وجعل الراوى فيها القعقاع بن زنباع وغيره والمقامات الزينية لزين الدين بن صيقل الجزرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وهى خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريرية . نسبها إلى أبى نصر المصرى وعزا روايتها إلى القاسم بن جريان الدمشقى . ثم مقامات السيوطى وهى بالرسائل أشبه منها بالمقامات .

الباب الرابع

بعد سقوط بغداد

كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة؟

انتكث فتل العباسيين كما علمت فى بغداد بعد عهد المتوكل لتنافس الفرس والترك ، وتحارب الشيعة والسنة ، وذهاب جلال الخلافة من النفوس ، فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء ، حتى قوض عرشها هلاكو سنة ٦٥٦ ﻫ . وتضعضع أمر الأمويين فى الأندلس بتغلب البربر والموالى على ملكهم ، وتقسيمه بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرنج ازدرادها قطعة قطعة ، حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة ٨٩٨ ﻫ . ودالت دولة الفاطميين فى مصر والشام فوقعتا فى أيدى الأيوبيين ، ثم صارتا إلى المماليك ، وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا فى حكم الأتراك العثمانيين ٩٢٣ ﻫ . فأنت ترى أن العالم الإسلامى أتى عليه ستون وخمسمائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا ظل ممدود ، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل . وضع هؤلاء العجم وهم وحشيون أميون أيديهم على تراث العرب ، فخربوا الدور وهتكوا الخدور ، وجعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب ، وتعطيل المدارس وتقويض المراصد ، وتقتيل العلماء . وناهيك بما فعله التتار ببخارى وبغداد ، والصليبيون بالشام ، والفرنج بالأندلس ! فلو أن الزمان عَفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بِدْعاً من القول ولا حدَثاً فى التاريخ . ولكنها بقيت على مرغمة الحوادث لساناً للدين والعلم ، ولغة للحكومة والأمة ،

فى بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة . ولولا نُعَرَة الترك وعصبية الفرس لـكانت لغة المسلمين كافة .

والفضل فى بقائها على فناء أهلها إنما كان للذكر الحكيم ، وللأزهر الشريف ، ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك ؛ فقد كانوا لها رِدءاً ، ولأبنائها حرزاً ، ولعلمائها وزَراً ، من غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق ؛ لأن الأيوبيين وإن كانوا أكراداً قد تـكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبغ فيهم الشاعر والعالم والمؤرخ ، كالملك الأفضل[1] على بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٠١ هـ وبهرام شاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ ، والملك المؤيد عماد الدين أبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ . وكذلك قل فى المماليك فقد نبغ فيهم أحد السلاطين فى الشعر وهو قانصوه الغورى المتوفى سنة ٩٢٢ ، لأنهم اتخذوا مصر وطناً ، والإسلام ديناً ، والعربية لغة ، وعضدوا العلماء وقربوا الأدباء ، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين حتى نبغ فى ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة والعلوم فى المجموعات والموسوعات ، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص ، وهذبوا التاريخ ووضعوا فلسفته ، وأقاموا للشعر وزناً على قلة العارفين بفضله ، والمستمعين إلى أهله ، كابن منظور صاحب لسان العرب ، والفيروزابادى صاحب القاموس ، وابن خلدون منشىء المقدمة ، والقلقشندى جامع صبح الأعشى .

---

(١) كان الملك الافضل ضعيف الرأى كثير الغفلة فغلبه عمه العادل أبو بكر وأخوه العزيز عثمان على ملك الشام ومصر ، فكتب إلى الخليفة الناصر العباسى كتابا يشكو إليه ذلك فيه وقد بدأه ببيتين من الشعر أجاد فى نظمهما كل الإجادة وهما :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذا بالسيف حق على
فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقى من الأواخر ما لاقى من الأوله

يريد بأبى بكر عمه ، وبعثمان أخاه . فأجابه الخليفة الناصر بقوله :

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

والشاب الظريف وصفى الدين الحلى ، وابن الوردى ، وابن معتوق ، والصفدى ، ولكن هؤلاء أفراد تقسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاض اللغة الشكلى وقد كبّت بدنها الجدود العواثر ، فامّحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم والأندلس ، وبقيت فى مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد رنّقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا الذّماء .

ولقد كان أسلوبهم فى النثر والشعر كأسلوب من تقدمهم من متأخرى العصر العباسى ، ولكنهم فى الغالب لم يحسنوا التقليد ، ولم يصيبوا الغرض ؛ فتبدلوا فى اللفظ ، وتوغلوا فى الصنعة ، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى إذا حال ذلك دون تورية أو سجعة أو جناس .

فلما أدال الله بنى عثمان من المماليك أصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية ، وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة ، واللغة الرسمية التركية لا العربية[1] ففشا فى اللغة الدخيل ، وزاحمتها العامية والتركية فى الدواوين ، وذهبت أساليبها من النظم والنثر ، وتمكن الذل من النفوس فخمدت القرائح ، ونضب معين العلم ، واطمأنت الكتب فى الخزائن فلم يزعجها إلا اشتغال الأرضة فى صفحاتها ، وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعموا ، وفدحتهم أعباء الذل فرزحوا ، وطال

---

(١) على أن الأتراك فى عهدهم الأول كانوا يتعلمون اللغة العربية ويتكلمون بها ويضعون المؤلفات القيمة فيها كالفيروزابادى ، والبركوى المتوفى سنة ٩٨١ هـ وأبى السعود . والقنارى وملاخسرو ، والجامى ، والخيالى ، وخوجه زاده ، وحاجى خليفة ، وطاشكبرى ، وابن كمال باشا صاحب كتاب التنبيه على غلط الجاهل والنبيه .

وكان ملوك العثمانيين أنفسهم يدرسون العربية وآدابها كما يدرسون التركية وآدابها : ومنهم من قرض الشعر العربى ورواه كالسلطان أحمد الأول ، فقد رووا له قصيدة مطلعها :

ظبى يصول ولا وصول إليه ... جرح الفؤاد بصارى لحظيه

ومنها : يا شعر فى بصرى ولا فى خده ... إنى أغار من النسيم عليه

ولم تضعف عناية علماء الترك باللغة العربية إلا فى عهد السلطان محمود الثانى وابنه السلطان عبد المجيد الأول حين أحيوا اللغة التركية وقربوا مواردها وبسطوا قواعدها وسموها اللغة العثمانية ((أنظر مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٦ جزء ٧ ص ٢٩) .

عليهم الأمد فغشاهم النعاس ، وخيم عليهم الظلام ، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة !

أعلام هذه المفازة

أغطشت سماء الأدب العربى فى عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح ، ومشى الناس فى دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق فى سماء مصر ، أو بارق فى جو الشام . وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود اللغة ، ورفعا سقوط الأدب ، وجمعا شمل العلم ، ولولاهما لانقطع ما بين الأدبين : القديم والحديث . وما كان أروح للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم مواطنىّ وجيرتى ! ولكن البحث محدود والقلم موجز . ومهما يكن من شىء فلن يفوتنا ذكر أسمائهم مُعقّبة بأسماء معاصريهم فى العراق والمغرب ، اعترافاً لهذه النفوس الكبيرة المطمئنة بالإحسان والفضل .

فمن النابغين فى الشعر والأدب التَّلَّعفرى ، وُلد بالموصل سنة ٥٩٣ واتصل بالملك الأشرف موسى ، ثم هلك سنة ٦٧٥ هـ فريسة للقمار . والشاب الظريف ، ولد بمصر وتوفى بها غض الإهاب سنة ٦٨٨ هـ والبوصيرى صاحب البردة فى مدح الرسول ، وُلد وتوفى بمصر سنة ٦٩٥ هـ ، وابن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وابن حِجّة الحموى زعيم الأدباء فى عصره وصاحب خزانة الأدب ، توفى سنة ٨٢٧ هـ ، والقلقشندى المصرى جامع صبح الأعشى المتوفى سنة ٨٢١ هـ ، ثم صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، وابن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ . وشعرهم مثْقل بقيود الصنعة ، محصور فى دائرة التقاليد ، تغلب فيه مظاهر الضعف الخلقى كالجبن والملق والشكوى والإغراق والقِحة . إلا أن فى بعضه أثارة من الحسن وبقية من البيان . والنابغون فى اللغة وعلومها ابن مالك صاحب الألفية المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وجمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة ٧١١ هـ وجمال الدين بن هشام صاحب المغنى فى النحو المتوفى سنة ٧٦١ هـ

والفيرو زابادى صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ . وهؤلاء قد بسطوا قواعد اللغة واستوعبوا مواردها فى الكتب والمعجمات . ونوابغ التاريخ والجغرافية ، ابن أبى أصيبعة صاحب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وشمس الدين الذهبى صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، والمقريزى صاحب كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، ثم ابن الطقطقى صاحب الفخرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ ، وابن خلدون منشىء المقدمة المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، والمقَّرِى صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ ، وطريقتهم فى التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث ، واستنباط العبر ، والحكم بشىء من النقد ، والخوض فى بعض مسائل العلم والاجتماع . فكانوا بذلك خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى منهج التاريخ القويم .

ونبغ من العلماء أصحاب الأسفار العامة : النويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، وجلال الدين السيوطى صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وكمال الدين الدميرى صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة ٨٠٨ هـ. وهم أصحاب الفضل جميعاً فى ضم شتيت العلم والأدب فى أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة . فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالعقم حين ألحت عليها أرزاء الدهر ، وتخونتها أعراض الهرم ، حفظاً لكتابه وصوناً لدينه ، فكانت تنجب حيناً بعد حين علَماً من أولئك الأعلام يجدد منها ما اندرس ، ويرأب فيها ما انصدع ، وينقذها من يد البلى والعفاء .

نجوم سماء كلما انقض كوكب ... بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

وها نحن أولاء نترجم بذوى الأثر البارز منهم واقفين الآن عند ذلك

صفى الدين الحلى

٦٧٧ — ٧٥٠ هـ

نشأته وحياته

ولد صفى الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالحِلَّة فى العراق وبها نشأ وتأدب . ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى المهاجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمى الملوك من آل أرتق (٦٦٣ — ٧١٢) ؛ فخلوا عقدة الخوف عن قلبه ، ونزل منهم فى جناب مَرَبع . فمدحهم بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً ، يبدأ كل بيت بحرف من حروف الهجاء ويختم به ؛ وسماها (درر البحور فى مدائح الملك المنصور) وهى المعروفة بالأرتقيات .

وفى سنة ٧١٧ هـ ورد مصر فمثل بين يدى الملك الناصر بن قلاوون ومدحه فملأ يديه بجوائزه . وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفى بها .

شعره

لاخلاف فى أن صفى الدين زعيم الشعراء فى عصره . ولا تزال فى شعره بَلَّةٌ من فصاحة اللفظ وبقية من رشاقة الأسلوب . افْتَنَّ فى الصنعة ما شاء ، وأجاد فى القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال ، وغالى فى المجون والأحماض ، ودخل فى أحد عشر باباً من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه . واخترع فى النظم أنواعاً ، منها الموشح المضمن كقوله فى تضمين بائية أبى نواس :

وحق الهوى ماحُلت يوماعن الهوى   ولكن نجمى فى المحبة قد هوى

ومَن كنت أرجو وصله قتلى نوى   وأضنى فؤادى بالقطيعة والنوى

ليس فى الهوى عجب إن أصابنى نصب
(حامل الهوى تعب يستخفه الطرب)

نموذج من شعره

قال فى الحماسة :

سل الرماح العوالى عن معالينا وسائل البيض هل خاب الرجا فينا؟
وسائل العُرْب والأتراك مافعلت فى أرض قبر عُبَيْدُ الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا
يايومَ وقعةِ زوراء العراق وقد دِنَّا الأعادى كما كانوا يَدينونا
بِضُمَّر ما ربطناها مسوَّمة إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفِتْيَة إن نقلْ أصغوا مسامعَهم لقولنـــا أو دعوناهم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة يوماً وإن حكّموا كانوا موازينا
تدرعوا العقل جِلْباباً فإن حميت نارُ الوغى خِلْتَهم فيها مجانينا
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدّقة وإن دعوا قالت الأيام آمينا
إنا لقومٌ أبت أخلاقُنا شرفاً أن نبتدى بالأذى من ليس يؤذينا
بيضٌ صنائعنا ، سود وقائعنا ، خُضر مرابعنا ، حمرٌ مواضينا
لا يظهر العجزُ منا دون نيل مُنى ولو رأينا المنـــايا فى أمانينا

ابن منظور

٦٣٠ — ٧١٤ هـ

نشأته وحياته

ولد جمال الدين محمد بن المكرَّم بالقاهرة فى يوم الإثنين الثانى والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ فى بيت من بيوت العلم ، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن

أبى الطفيل ومرتضى بن حاتم وابن المقبّر حتى نال من العلوم والآداب قسطاً موفوراً جعله أهلاً للعمل فى ديوان الإنشاء . والعمل فى هذا الديوان يومئذ يقتضى مشاركة فى علوم وفنون كثيرة فصلها صاحب صبح الأعشى . ثم ولى قضاء طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو فى أثناء ذلك لا يفتر عن الدرس والتأليف حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه .

وكان ابن منظور صاحب جد وخلق وإرادة . وقد كان يتشيع فى غير رفض كما يظهر من أسلوبه فى لسان العرب كلما عرض ما يتصل بذلك . وقد توفى بالقاهرة .

مؤلفاته

لم يكن ابن منظور من أولى الاقتدار على الابتكار ، وإنما كان كجلة العلماء فى عصره أميل إلى الجمع أو الاختصار . وقد قال الصفدى صلاح الدين : « ما أعرف من كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره جمال الدين بن المكرم » . فمن مؤلفاته :

لسان العرب

وهو ذلك المعجم الجامع الذى حوى بين دفتيه تهذيب الأزهرى ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهرى وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير . وقد رتبه المؤلف على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهل الاستفادة منه . وتحرى صحة النقل فى مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواة الأولين وتأييدها بالشواهد الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر .

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدى أن النسخة الأولى التى كتبها بخطه الجميل من لسان العرب كانت فى ملك المقر الأشرف الكمالى ناظر ديوان الإنشاء بمصر ، وهى مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً . ولكنها طبعت فى مصر فى عشرين مجلداً سنة ١٣٠٠ هـ .

ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل مايقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما ، والاصطباح ومدحه ، والهلال وظهوره ، وانبلاج الفجر ، ورقة النسيم وقت السحر ، وتغريد الطيور على الشجر ، والشمس والكواكب وآراء المنجمين وأهل الفلك الخ . . . وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار كمختار الأغانى فى الأخبار والتهانى . وهو يطبع اليوم فى الدار المصرية للتأليف والترجمة بتحقيق بعض الأدباء ، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، ومختصر مفردات الحيوان للجاحظ ، ومختصر اليتيمة للثعالبى ، ولطائف الذخيرة لابن بسام .

ولقد كان يتعاطى الشعر ويجيده ، ومن ذلك قوله :

ضع كتابى إذا أتاك على الأر ض وقلّبه فى يديك لماما
فعلى ختمه وفى جانبيه قبلٌ قد وضعتهن تؤاما
كان قصدى بها مباشرة الأر ض وكفيك بالتثامى إذا ما .

وقوله :

يالله إن جزت بوادى الأراك وقبلت أغصانه الخضر فاك
فابعث إلى المملوك من بعضه فإننى والله مالى (سواك)

أبو الفداء

٦٧٢ — ٧٣٢ هـ

نشأته وحياته

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن على الأيوبى صاحب حماة . ولد بدمشق على مهد السراوة والفضل وربى فى حجر الرخاء والنعمة ، واستكمل حظه من العلوم وتفوق فى التاريخ والهيئة . وكان بطلا مقداما . خدم الملك الناصر ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتر فوعده بحماة ووفى بوعده ،

فأقامه عليها سلطاناً مطلق الإرادة حرّ التصرف ، ولقبه بالملك المؤيد وأقدمه إلى مصر وأركبه بشعار السلطنة ، فمشى الأمراء والكبراء فى خدمته . وكان أبو الفداء يحمل إليه فى كل عام أنفس الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر . وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء ، ظهيراً للعلماء ، ولوعا بالتأليف ، حتى استخار له الله ماعنده .

مؤلفاته

لأبى الفداء كتابان فى التاريخ وتقويم البلدان هما مرجع العرب والفرنج فى تحقيق هذين العلمين . فالأول كتاب (المختصر فى أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمة العربية يبلغ بها إلى سنة ٧٢٩ ، وقد لخصه من عشرين كتابا ونيفا ، وحذا فيه حذو ابن الاثير فى ترتيبه على السنين . وتحرى فى نقل الحوادث الصدق والنقد ، والآخر كتاب (تقويم البلدان) ، جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون فى الجغرافية والفلك ، وضبط الأسماء ، وحقق الأطوال والأعراض ، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية و بلاد العرب وفارس . وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه فى الوقوف على الجغرافية العربية .

ابن خلدون

٧٣٢ — ٨٠٨ هـ

نشأته وحياته

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون ؛ ينتهى نسبه إلى وائل من أقيال كندة . هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس فى أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته فى أشبيلية . ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث وُلد هذا العالم الكبير سنة ٧٣٢ هـ . ودرج فى مهد السراوة والعلم ، وتأدب على أبيه ثم على غيره ؛ فأتقن القرآن وضرب فى كل العلوم بسهم ، و برع فى الفقه والعربية

وتبحر في التاريخ فاستجلى غوامضه واستقصى مباحثه ، حتى أصبح فيه قريع دهره ونسيج وحده . وطمحت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فاتصل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب ، وتقلد الكتابة والحجابة والقضاء ، إلا أنه كان قليل المكث في كل منصب تقلده لعزة نفسه وصراحة قوله وكثرة حساده .

فلما كانت سنة ٧٦٤ هـ وفد على الأندلس فاهتز له الغنى بالله صاحب غرناطة وبعث بخاصته لاستقباله وإكرام وفادته ، وألزمه مجلسه وانفرد به دون وزيره . فحقد عليه هذا حقداً عرفه ابن خلدون ، فغادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه . ثم أخذ يجول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ هـ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر ، واتصل بالسلطان برقوق فعرف حقه وولاه على تمنع منه قضاء المالكية ، فأقام المعْدلة ، وحكم المَنْصفة ، وضرب على أيدي القضاة . فثار به ثائرهم واختلقوا عليه الأكاذيب ورفعوا شكواهم إلى السلطان فلم يقم لكلامهم وزناً . ولكن ابن خلدون سئم هذه الحياة المرة ، وضجر من تلك المكائد المستمرة . ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس ، فنالت منه هذه المحنة ، فاستعفى من القضاء وأدى فريضة الحج واعتزل في ضيعة له بالفيوم أقطعه السلطان إياها ، وانصرف إلى التدريس والتأليف . ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة الحظوظ ، فمازال يولَى ويعزل ، وينصر ويخذل ، حتى وافاه أجله بمصر سنة ٨٠٨ هـ .

أخلاقه

قال فيه لسان الدين بن الخطيب : كان رجلاً فاضلا ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، ظاهر الحياء ، وقور المجالس ، خاص الزى ، عزوفاً عن الضيم ، صعب المقادة ، خاطباً للحظ ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، بارع الخط ، مُغْرًى بالتجلة ، حسن العشرة ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤه وآثاره .

نثره وشعره

ظهر ابن خلدون فى عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصناعة روح الكتابة ، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حدّه . فرغب عن السجع وزهد فى البديع وسار باللفظ وراء المعنى . وقد صرح بذلك فى كلامه عن كتابته لأبى سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول : «وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع لضعف انتحالها ، وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة . ثم أخذت نفسى بالشعر فانثالت علىّ منه بحور ، توسطت بين الإجادة والقصور » . وحكمه على نفسه من الحق والصراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تعقيب .

كتابه فى التاريخ

نظر ابن خلدون فى التاريخ فحرر مباحثه ، وعلل حوادثه ، ووضع كتابه المشهور (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو ثلاثة كتب فى سبعة مجلدات . يمتاز بما تضمنه من المقدمات الفلسفية فى صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة ، والصراحة فى القول ، والسداد فى الرأى ، والإنصاف فى الحكم .

على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة ، لاشتماله على أبحاث مبتدعة منوعة فى الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ ، واستنباط الأسباب والعلل مما طالعه أو شاهده فى حياته العظيمة ورحلاته العديدة . وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول : الأول فى النشوء والارتقاء ، والثانى فى الاجتماع ، والثالث فى السياسة العملية ، والرابع فى الهندسة الحربية ، والخامس فى الاقتصاد السياسى ، والسادس فى تاريخ آداب اللغة العربية ، فهى خزانة علم وأدب فضلاً عن أسلوبها الرشيق المتسق .

والراجح أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طبيعة العمران فى الخليقة . وقد فصلها فى مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة ، مما دل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه فى الاستنباط والتعليل . على أن العلماء أخذوا عليه إخلاله بالقواعد التى وضعها لكتابة التاريخ ، ولم يسلم من المآخذ التى أخذها على سابقيه . وسبحان من تفرد بالكمال !

السيدة عائشة الباعونية

المتوفاة سنة ٩٢٢ هـ

نشأتها وحياتها

هى السيدة الفاضلة الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونى ، ولدت بالصالحية بدمشق فى بيت عريق فى العلم والورع ، فقد كان أبوها وعمها وولدها وأخوها من نوابغ العلماء فى الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلت من حياضهم ، وجنت من رياضهم . ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين اسماعيل الحورانى ، ومحيي الدين الأرموى ووردت بعد ذلك مصر فتلمذت للعلامة أبى العباس القسطلانى شارح البخارى . ثم عكفت على التدريس والتأليف فانتفع بعلمها وفضلها خلق كثير . ثم انتقلت إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين ، فى مدح الأمين ، وهو شرح لقصيدتها التى نظمتها فى علم البديع على منوال ابن حجة ، وكتاب فيض الفضل ، وهو ديوان شعر فى المدائح النبوية ، والمورد الأهنى فى المولد الأسنى ، وهو مولد النبى صلى الله عليه وسلم اشتمل على رقائق النثر والنظم .

منزلتها في الشعر والكتابة

يثير عاطفة الإعجاب فى المرء أن يرى فى هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تبَذُّ الرجال فى العلم والأدب ، ولا يعيبها أن تتكلّف بالسجع ، وتتكلف البديع ، وتُغْرَى باللفظ ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنيع بيئته . والشعر الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه . وقد علمنا كيف تشبث الشعراء فى هذه العصور بالصناعة اللفظية ، وانصرفوا إلى المعانى الدينية ، فلا بدع إذا تخلقت هى بأخلاق عصرها ، ونهجت سبيله فى نثرها وشعرها .

نموذج من كلامها

قالت فى مقدمة شرح البديعية :

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع ، شاهدة بسلامة الطباع ، منقحة بحسن البيان ، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان ، سافرة عن وجوه البديع ، سامية بمدح الحبيب الشفيع ، مطلقة من قيود تسمية الأنواع ، مشرقة الطوالع فى أفق الإبداع ، موسومة بين القصائد النبويات ، بمقتضى الإلهام الذى هو عمدة أهل الإشارات ، بالفتح المبين ، فى مدح الأمين .

ومطلع هذه القصيدة :

فى حسن مطلع أقمار بذى سَلَم أصبحت فى زُمرة العشاق كالعلم
أقول والدمع جارٍ جارحٌ مقلى والجارُ جارَ بعدل فيــــه متّهم

ومنها فى الجناس :

ياسعدُ إن أبصرت عيناك كاظمة وجئت سَلْعاً فسل عن أهلها القدَم
فَثَمَّ أقمــار تمٍ طالعين على سويلع حيِّهم وانزل بحيِّهم

ومنها فى الاستخدام .

واستوطنوا السر منى فهو موضعهم ولا أبوح به يوماً لغيرهم

ومنها فى التفريق :

قالوا هو الغيث، قلت الغيث آونةً   يهمى وغيث نداه لا يزال همى

ومنها فى حسن الختام :

مدحت مجدك والإخلاص ملتزمى   فيه وحسن امتداحى فيك مختتمى

وقالت فى جسر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق :

بنى سلطاننا برقوق جسراً   بأمر والأنام له مطيعه
مجـــاز فى الحقيقة للبرايا   وأمر بالمرور على الشريعه

ومن نظمها فى وصف دمشق :

نزه الطرف فى دمشق ففيها   كل ما تشتهى وما تختار
هى فى الأرض جنة فتأمّل   كيف تجرى من تحتها الأنهار
كم سما فى ربوعها كل قصر   أشرقت من وجوهه الأقمار
وتناغيك بينها صادحاتٌ   خرست عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال   وقصور مَشِيـدة وديار

الباب الخامس

العصر الحـــديث

الفصل الأول

نظرة عامة

مازال الزمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها فى أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربى والشام و بلاد العرب ومصر والسودان والمغرب : وفى تلك البلاد بقى النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد فى وناء وضعف ، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل ، فارفضّ عنها الوهنُ وَسرتْ فيها الحياة . ففى مصر كان ملاذها وغياثها ، وفى مصر كان بقاؤها وانبعاثها !

كانت مصر فى ذلك العهد تحت سلطان العثمانيين حكماً ، وتحت سيطرة المماليك فعلا . وكانت الأهواء المختلفة ، والقوى المتضاربة ، والأجناس المتباينة ، تنخر فى هيكل هذه الأمة البائسة ، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشتْ فيهم الأمية . واستولى عليهم الجهل وألحّت عليهم الأوباء والسنون . واستغلهم الظلم واستعبدهم الحكام . ووقفوا عن السير بأنفسهم ، وتحرك الفلك ، فغزاهم على هذه الحال الأليمة نابليون .

غزا نابليون مصر سنة ١٧٩٨ ، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا من جهتها الأدبية . فإن الجماعة العلمية التى صحبت هذا القائد العظيم لم تصدها القلاقل

والحرب عن غرس بذور الحضارة فى مصر ، فأنشأوا مدرستين وجريدتين[١] ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً[٢] ، ومكتبة ، ومطبعة ، ومعامل كيميائية ومراصد فلكية ، وسهلوا للناس النظر إليها ، والوقوف عليها . فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بالقَبَس الوضّاء سطع فى ذلك الغيهب الذى احلولك فى سماء مصر فبدده ، واستطاع الناس أن ينظروا ؛ ولكن ماذا رأوا ؟ رأوا أنهم فى القرن التاسع عشر ، وأن الغرب واقف منهم موقف الإنسان العاقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب فى سبيل الحياة الصحيحة ، مجدٌّ فى تذليل المادة ، فبهتوا ودهشوا .

ولكن محمد على رأس الأسرة الخديوية لم يدهش ، بل علم أن مافى الغرب من حضارة وعمارة إنما أساسه العلم . وأكبر ما تركه الفرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافعة على اضطراب حالهم وقصر احتلالهم ، وكان فى نفسه الطموح إلى الملك ، والاستبداد بحكم مصر والاستعداد له . فأخذ فى تعليم المصريين وقد عزّ فيهم القارىء ، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات فى المدائن والقرى وساق الناس إليها قسراً . واستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف . كالدكتور كلوت بك مؤسس المدرسة الطبية ، وجومار بك مدير البعثة المصرية . وبعث بمن أنجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ليستفيدوا ويستزيدوا . فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا

---

(١) الجريدتان هما (الأعشور المصرى) La Décade Egyptienne وسميت بذلك لأنها كانت تصدر كل أسبوع ، والاسبوع فى اصطلاح التقويم الجمهورى الفرنسى كان عشرة أيام . ثم بريد مصر Le cour:er d,Egypte وقد كانوا ينشرون بالعربية (التنبيه) لإذاعة المهم مما يجرى فى ديوان القضايا .

(٢) أنشأ بونابرت « المجمع العلمى المصرى » فى السنة التى دخل فيها مصر بمنزل حسن جركس فى الدرب الجديد بحى الناصرية ؛ وألفه من ثمانية وأربعين عضوا . ربعهم للرياضيات وربعهم الثانى للطبيعيات . والربع الثالث للاقتصاد السياسى ، والربع الرابع للآداب . وجعل رياسته للأستاذ منج ووكالته لنابليون نفسه . وقد قام هذا المجمع بأبحاث قيمة كان ينشرها كل ثلاثة أشهر ، ثم أغلق هذا بخروج الجيش الفرنسى من مصر ؛ وفى سنة ١٨٥٩ فكر جماعة من جالية الفرنسيين ان يعيدوه فأعادوه ، ولا يزال قائما بحى المنيرة بالقاهرة .

فى الترجمة و التعليم . ثم توالت البعوث بعد هؤلاء إلى أوربا وكلهم من الأزهر الشريف . وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة ساعدتها اليوم على النهوض كما حماها من قبل دون السقوط . وفتحت فى القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة ، و أقيمت المطبعة المصرية على أنقاض المطبعة الأهلية التى جاء بها الفرنسيون إلى مصر و ذهبت بذهابهم . وأنشئت الوقائع المصرية وهى أول صحيفة عربية فى الشرق ، فكان ذلك كله وقوداً جزلا للقبس الذى ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد على فذكا واشتعل و امتد لهيبه إلى الشام و إلى سائر بلاد العرب فأيقظ النيام وبدد الظلام . وحذا الأمير بشير الشهابى فى لبنان حذو محمد على فى مصر ، و أعانه على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع و تأليفهم الكتب ، وإصدارهم المجلات وتعليمهم التمثيل ، و اعتمادهم فى كل أولئك على اللغة العربية ، حتى تخرج فى معاهدهم صفوة الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان ، فتكاتف القطران على إحياء اللغة والعلوم ، فترجمت الكتب العلمية ، و نشرت المؤلفات العربية ، و دب فى اللغة دبيب الحياة ؛ إلا أن آدابها وعلومها لم تزل فى يد العفاء ؛ لأن محمدا علياً كان مصروف الهم إلى ما يُعْوِزُه ، كالعلوم الحربية و الطبية والصناعية والرياضية ، قانعاً من كتابه وعماله باللسان العامى ، والأسلوب الاصطلاحى . فكانت لغة الدواوين فى عهده وعهد أخلافه خليطاً مبهماً معجماً من التركية و العربية .

على أن اللغة المضرية لم تعدم فى ذلك العصر أنصاراً . فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن العطار ، وبطرس كرامة ، السيد على الدرويش ، ورفاعة بك الطهطاوى ، من حفظوا كيانها وجددوا بيانها .

وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو رَويداً حتى ولى الأمر عباس ثم سعيد ، نخبا أوارها ، ووقف تيارها ، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم .

فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة ۱۸٦٣ م فتح ما أغلق من المعاهد وزاد عليها . فأنشأ المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب ، وعاد إلى إرسال البعوث إلى أوربا ، وأسس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم ، وأنشأ المكتبة الخديوية ، وبنى مدرسة المعلمين ، وبسط يده للمؤلفين ، ونشر ألوية المدنية والسكينة على ربوع البلاد ، فنزح إليها الأجانب للكسب والتجارة ، وفيهم العلماء والأدباء ؛ فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين ، وكثرة المطابع ، ووفرة المدارس ، وانتشار الصحافة ، واقتباس التمثيل ، وترجمة العلوم ، والأندية الأدبية ، والمجامع العلمية ، وتعلم اللغات الأجنبية ؛ ونقل الحضارة الأوربية ، والحرية الشخصية ، كان كل أولئك سبباً فى خصب القرائح ، وسعة المدارك ، ونهوض اللغة ، وحياة الأدب .

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزى سنة ۱۸۸۲ م وكل شىء يتحفز للنهوض ، ويتوثب إلى الرقى ، فكأنما ألقيت ماء على نار ، أو أقمت سداً فى تيار كانت الحركة العلمية فى أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق ، والمدارس وافرة العدد ، واللغة العربية لسان التعليم ولغة التأليف ، فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة ، ويسيرون بالتعليم إلى وجهة أخرى . فأغفلوا البعوث ، وأغلقوا مدرسة الألسن ، وأبطلوا المجانية ، وأهملوا اللغة العربية ، وجعلوا التعليم كله بالإنجليزية ، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب .

ولكن الأمة المصرية قد استطاعت أن تقف على رجليها ، وأن تمسح عينيها بيديها ، فلم ترض النكوص والعالم يتقدم . فهبّ رجالها يطلبون سيادة لغتهم فى بلادهم . ويقومون هم بتعليم أولادهم ، فعادت اللغة إلى المدارس ، ورجعت البعوث إلى أوربا ، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية . وشبت ثورة الاستقلال فى وجه الاحتلال سنة ۱۹۱۹ م وردد العالم العربى صداها ، فأيقظت ما بقى من شعور خامد ، ودفعت النفوس الخانعة إلى طلب الحرية فى الحكم ، والرأى ،

والقول ،والعقيدة . حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور فى دستورها الذى نالته سنة ١٩٢٣ م .

ثم تابعت الجهاد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى نالت قسطاً آخر بمعاهدة سنة ١٩٣٦. ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فى عام ١٩٤٥ طلبت مصر من انجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحاديث طويلة لم تؤد إلى اتفاق ، لأن مصر أرادت أن تبنى المعاهدة الجديدة على أساسين من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى ، وجلاء الجيش الإنجليزى عن وادى النيل . وعارضت انجلترا فى الأساس الأول فالتجأت مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وظاهرتها دول الجامعة العربية . فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بأمريكا ، وتولى عَرضها رئيس حكومتها ، وكان يومئذ المغفور له محمود فهمى النقراشى ، قطع لسان الباطل بالحق ، وفند دعاوى الإنجليز بالحجج الدامغة ؛ ولكن مصانعة الدول لشيخة الاستعمار علق القضية فلم يفصل فيها حتى شبت ثورة الجيش المصرى بقيادة الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو من سنة ١٩٥٢ فعصفت بالفساد والاستبداد ، وطهرت البلاد من فجور الملك وشرور الحكم وطغيان الغنى فطردت فاروقاً ثم أعلنت الجمهورية وحددت الملكية واضطرت الإنجليز الى الجلاء عن القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه . فإما أن يستقل بأمره وإما أن يتحد مع مصر . وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية .

وفى شهر فبراير من عام ١٩٥٨ اندمجت مصر وسورية فى وحدة تامة باسم الجمهورية العربية المتحدة . وكذلك استقل لبنان وطبق على شعبه النظام الجمهورى وفى الرابع عشر من يوليو من سنة ١٩٥٨ ثار العراق على الملكية وأعلن الجمهورية ، ولا تزال فلسطين والجزائر وجنوب الجزيرة العربية يتطلبون الغاية من هذه السبيل ، ويترقبون الإصباح بعد هذا الليل المظلم الطويل .

الفصل الثانى

وسائل النهضة الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسى ، ونزعة الاستقلال عند محمد على ، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة فى آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها — تلك الومضات هى الوسائل التى تذرّع بها رأس الأسرة العلوية ووراثه على عرش مصر إلى ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر ، وأهم تلك الوسائل :

١ — المدارس

لم يجد محمد على فيما يُعلَّم يومئذ بالأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة، فأنشأ المدارس العلمية المختلفة وقسمها إلى ابتدائية وتجهيزية وخاصة ، ووصل بينها وبين أوربا بجلب العلماء منها وبعث البعوث إليها . فلما تعددت درجاتها وتنوعت أغراضها أنشأ لها إدارة خاصة فى سنة ١٨٣٩ سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختار بك من رجال البعثة العلمية الأولى . ومن أقوى المدارس الخاصة أثراً فى النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم . فاما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش سنة ١٨٣٦ فى أبى زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتمرين الطلاب ومعالجة المرضى . واستُقدم أساتذتها من فرنسا برياسة الدكتور كلوت بك ، واختير طلبتها من المصريين وغيرهم . ثم نقلت فى سنة ١٨٣٨ إلى قصر ابن العينى بالقاهرة وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل فى إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة ؛ لأن الأساتذة كانوا يلقون دروسهم باللغة الفرنسية ثم تؤدى فى الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة

العربية ، وكان ذلك يضطر المترجمين من المغاربة واللبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات فى المعجمات اللغوية والكتب الفنية القديمة .

وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد على لتخريج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم فى ترجمة الدروس إلى الطلاب ، ونقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية . وجعل إدارتها إلى المرحوم رفاعة بك الطهطاوى حتى إذا خرّجت طائفة من أفاضل المترجمين تألف منهم قلم للترجمة سنة ١٨٤٢ برياسة رفاعة بك اضطلع بترجمة كثير من الكتب العلمية الأجنبية فى مختلف العلوم الحديثة .

وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم على مبارك باشا فى سنة ١٨٧١ م بأمر الخديو اسماعيل ليتخصص طلابها فى العلوم العربية ، ويشاركوا فى بعض العلوم الدينية والعقلية ، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة ، وليعلموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين فى مدارس الحكومة . وكان أساتذتها من نابغى شيوخ الأزهر ، وتلاميذها من متقدمى طلابه . ولهذه المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ فى ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى عَلى ألسنة خريجيها وأقلامهم فى التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة . وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدى رسالتها حتى ألحقت بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٦ وسميت كلية دار العلوم .

٢ — الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع فى القاهرة ، وأقدم مدرسة فى مصر ، ومن أعرق الجامعات الكبرى فى العالم . بناه جوهر الصقلى بعدما خط القاهرة ، لإقامة الشعائر الدينية وتأييد الشيعة العلوية من طريق الدين . وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض ، وأدر عليهم أخلاف الرزق ، ورفع عنهم أكلاف الحياة ، دون حساب ولا تقرير ، حتى جاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، وهو يهودى قد أسلم وتفقه ، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن عَلى مقربة من الجامع . ثم أخذ هؤلاء الفقهاء يقرأون بعد كل صلاة فقه الشيعة ، ويأخذون

فى سبيل الوعظ ، ويميلون إلى شىء من البحث ، ويتكلمون فى مسائل اللغة والنحو . ويعقدون فيه مجلس المناظرة ، حتى دالت دولة الفاطميين ، وغلب على مصر زعيم الأيوبيين صلاح الدين سنة ٥١٧ وهو من أهل السنة فبايع العباسيين ، وأحل الفقه الشافعى محل الفقه الشيعى فى الأزهر . وقرر فيه كذلك فقه أبى حنيفة لأنه مذهب الخلفاء فى بغداد . ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المسلمين كافة فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه . وجر ذلك إلى بسط العلوم اللغوية والأدبية ، والإلمام بالعلوم الرياضية والطبيعية . وزها الأزهر فى عهد المماليك بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر ، فحفظ اللغة من الزوال ، وعلومها من الاضمحلال . وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامى ، لا يخرج عالم إلا منه ، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه وحتى أدركته الغفوة الشرقية العامة فى عهد بنى عثمان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم ، باق عَلَى مذهبه الموروث . ومع ذلك فقد كان رجاله فى صدر العصر الحديث عدة نابليون فى تنظيم عمله ، وساعد محمد على فى تحقيق أمله ، وموئل اللغة والدين والآداب من عصف المحن وطغيان الجهالة وتغلب الأمية . ولكن مصر هبت من رقادها ، ولم تجد الأزهر كما كان كفؤاً لقيادتها وإرشادها ، فولت وجهها شطر الغرب تكرع من حياضه . وتقطف من رياضه ، حتى اتسعت مسافة الخلف بين التعليم الجديد والتعليم القديم ، وانتشرت فى مصر ثقافتان مختلفتان تناهض إحداهما الأخرى . ثقافة قائمة على الكتب القديمة والطرق العقيمة ، وثقافة مبنية على العلم الغربى والتعليم الحديث ؛ فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشارك فى النهضة العامة) . بدأت الحكومة الخديوية ذلك فى عهد شيخه الشيخ الانبابى سنة ١٣٠٥ هـ فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بعد لأى ومشقة وفتوى شرعية . ثم تصدى الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه ، فوضع الأساس ، وحال الأزهريون بينه وبين البناء : ولكن السيل جارف والتيار قوى فلم يستطع أهله الوقوف فى سبيله ؛ فألقوا

السلاح ، وقبلوا الإصلاح ، ولكن إصلاحه استعصى على المصلحين لعوامل سياسية وأخرى دينوية . فآثروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن .

ثم قسم الأزهر الآن إلى معاهد للتعليم الابتدائى ، وأخرى للتعليم الثانوى ، وجعل التعليم العالى فيه فروعاً ، فكلية للشريعة ، وكلية للغة العربية ، وكلية لأصول الدين : وقد أنشئت لهذه الكليات دور خاصة منفصلة من الأزهر . ونمت موارده حتى بلغت فى العام مئات الألوف من الجنيهات ، وزاد طلابه حتى نيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والمسكن ومن بينهم العربى والتركى والسودانى والمغربى والإيرانى والسعودى والعراقى والهندى والباكستانى والإندونيسى والشركسى والأفغانى وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتغذون بالثقافة الإسلامية ، ولهؤلاء أقيمت مدينة على القرب من الأزهر يجد فيها الطلاب الأغراب الغذاء والمأوى .

٣ — الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذى بدا من المحتلين فى سياسة التعليم بمصر وحصره فى دائرة ضيقة من نواحى الثقافة ، وقصره على تخريج الموظفين للحكومة ، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا هم بتعليم أولادهم ، وأن يقيموا للعلم الصحيح وزناً فى بلادهم ، فاجتمعت طائفة منهم سنة ١٩٠٦ على إنشاء جامعة أهلية تقضى حاجة البلاد من التعليم . وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا المسعى الخطير ، فلبى المحسنون النداء وفى طليعتهم الأميرة فاطمة بنت اسماعيل . وفى سنة ١٩٠٨ افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رياسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوى على عرش مصر . فاستقدم إليها طائفة من علماء أوربا ، واختار لها صفوة من أدباء مصر ، فألقوا على طلبتها من الازهريين والموظفين محاضرات قيمة فى الآداب والفلسفة : وكان من بين العلماء الاوربيين المستشرقون جويدى ونلينو ولتمان فنهجوا لدراسة الأدب العربى وتاريخه المنهج القويم الواضح .

وفى سنة ١٩٢٥ تولتها وزارة المعارف فشادت لها الابنية العظيمة ، واقتبست لها الأنظمة الأوربية الحديثة ، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيدلة وطب الاسنان ، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب ، ثم سميت بجامعة القاهرة . ولما اشتدت الرغبة فى التعليم وازداد عدد الطلاب أنشئت فى الاسكندرية جامعة ثانية سميت بجامعة الاسكندرية. وأقيمت فى القاهرة جامعة ثانية سميت بجامعة عين شمس : وفى أسيوط جامعة رابعة سميت بجامعة أسيوط . ومما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع جامعة الازهر وجامعة دمشق قد آتين ثمار العلم ، ونشرن أضواء الثقافة ، ووصلن الماضى بالحاضر ، وربطن الشرق بالغرب ، وقرنّ العلم بالعمل ، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة .

٤ — الطباعة

اخترع الطباعة بالحروف « حنا جوتمبرج » الالمانى سنة ١٤٤٠ ، فكان لاختراعه من الأثر فى الأدب والحضارة ما كان . وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف فى أوربا حتى صيغت منها قوالب للغات الشرقية . وطبع أول كتاب باللغة العربية سنة ١٥١٤ م وأخذت المطبوعات الشرقية ولا سيما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى صدرت عن أكثر العواصم الأوربية . وكان منها المؤلفات الجليلة كالعهدين القديم والجديد ، ونزهة المشتاق للأدريسى . وقانون ابن سينا ، وتحرير أصول إقليدس. ومازالت تطبع فيها نفائس الكتب المخطوطة إلى الآن . ثم دخلت الطباعة الشرق عن طريق الآستانة ١٤٩٠ م على يد عالم يهودى طبع بها مؤلفات دينية وعلمية ؛ ولكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة ١٧٠٨ م . ومن أشهر المطابع العربية فى الآستانة « مطبعة الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ؛ طبع فيها طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية . أما فى البلاد العربية فكان السبق للبنان فى استعمال المطبعة بفضل دعاة المسيحية ؛ فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة ببيروت فى أوائل

القرن السابع عشر . ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨م ، ولها الأثر الجليل والفضل الجزيل فى نشر المخطوطات العربية القديمة ، وطبع الكتب الأدبية والعلمية ، و إتقان فن الطباعة العربية ، ثم تلت مصر لبنان فدخلتها الطباعة على يد نابليون سنة ١٧٩٨م ، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها « المطبعة الأهلية » ثم ذهبت معه . وأقام محمد على على أنقاضها المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة ١٨٢١ . وعهد بأدارتها إلى نقولا مسابكى السورى ، وصبت حروفها على أجمل قاعدة نسخية من حجوم مختلفة . ثم صبت ثانية على قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين فى مصر ، وهى المستعملة الآن . وقد طبعت و ثلثمائة كتاب فى الرياضيات والطب والجراحة مما ترجم عن اللغات الأجنبية ، وطبعت أمهات الكتب الأدبية بفضل (القسم الأدبى) الذى فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية . ومنذ يومئذ إقتصرت مطبعة بولاق على طبع (الوقائع المصرية) والكتب المدرسية والأعمال الحكومية ، وهى الآن أكبر مطبعة عربية فى العالم . ثم إنتشرت بعد ذلك المطابع فى مصر فسهلت سبل الأدب وأدنت قطوف العلم ، وساعدت على انتشار القراءة

٥ — الصحافة

الصحف مدارس متجولة فى البلدان ، ليست محصورة بين جدران ، ولا يختص بها مكان دون مكان . وهى أوسع دائرة للارشاد من كل دوائر التعليم : تهذب عقول العامة ، وترتب أفكار الخاصة ، وتنهض الهمم القاعدة ، وتصلح الألسنة الفاسدة ، وتقرب الأمم المتباعدة . وهى سجل الأخبار ووعاء التاريخ وتقويم الزمن . وأول جريدة عربية بالمعنى الفنى المعروف هى الوقائع المصرية ، أنشأها الأمير محمد على سنة ١٨٢٨م بمعونة الأستاذ رفاعة بك الطهطاوى ، وكانت تصدر أولا بالتركية والعربية ، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن العطار ، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك ، والإمام محمد عبده ،

والشيخ عبد الكريم سلمان ، وسعد زغلول . ولا تزال تصدر عن القاهرة ثلاث مرات فى الأسبوع . ثم ظهر بعد ذلك فى الشام جريدة مرآة الأحوال سنة ١٨٥٥ م وهى سياسية يحررها رزق الله حسون الحلبى ؛ وحديقة الأخبار سنة ١٨٥٨ م لصاحبها خليل الخورى ؛ والجوائب فى الآستانة سنة ١٨٦٠ لأحمد فارس الشدياق ؛ وجريدة الرائد التونسى فى تونس سنة ١٨٦١ م .

وفى زمن إسماعيل أصدر محمد على باشا البقلى (اليعسوب) وهى مجلة طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقى وهى أول مجلة عربية ظهرت فى العالم . وفى سنة ١٨٦٦ ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهى وادى النيل لأبى السعود افندى ، كانت تصدر مرتين فى الاسبوع بالقاهرة . وفى سنة ١٨٦٩ أصدر إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال جريدة (نزهة الأفكار) وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغاها الخديو اسماعيل . وفى سنة ١٨٧٠م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهى مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوى المكانة فى العلم والأدب . ثم صدرت الأهرام سنة ١٨٧٦ م وسياستها عثمانية فرنسية ، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية ، والوطن سنة ١٨٧٧ م وهى جريدة طائفية احتلالية . وعلى منهاجها سارت جريدة مصر ؛ والمحروسة لصاحبها أديب إسحق سنة ١٨٨٠ . وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة ١٨٨٨ م وهى احتلالية . والمؤيد وهى إسلامية خديوية . واللواء وهى إسلامية وطنية . والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد وكوكب الشرق والمصرى والكتلة والزمان والجريدة المسائية . وتلك هى كبرى الصحف اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة . وأكثرها انقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء . وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالرسالة والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير ، وشهرية كالمقتطف والهلال والكتاب ومجلة الأزهر فى مصر ، والأديب والآداب فى بيروت ، ومجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة ومجلة المجمع العلمى العربى

فى دمشق. وأكثر المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد احتجب لقلة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء .

والبحث فى سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل . ومما لا بد من ذكره أن الفضل فى تقدم الصحافة ورقى التحرير والترجمة إنما كان للبنانيين ، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوربية ، وخلاطهم للأمم الغربية .

٦ — التمثيل

التمثيل بمعناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا فى أواسط القرن الماضى . وكان اللبنانيون أسبق الشرقيين إلى اقتباسه ؛ لتخرجهم فى المدارس الأجنبية ، ودراستهم للآداب الإفرنجية . وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفى سنة ١٨٥٥ فقد مثل أول رواية عربية سنة ١٨٤٠ م . ولما تبوأ إسماعيل عرش الخديوية شجع الأدباء ، وعضد العلماء ، وساعد الفنانين . وتم حفر قناة السويس فى عهده فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور . ورأى من كرم الضيافة ألا يحرم ضيوفه الأوربيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر ، فابتنى دار الأبرا الخديوية واستقدم لها فرقة أجنبية مثلت رواية (عايدة) بالفرنسية . وورد مصر فى أثر ذلك جماعة من أدباء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحق ، فمثلوا فى الاسكندرية بضع روايات على مسرح زيزنيا سنة ١٨٧١ م ففشلوا ، وتخلوا عن الفرقة لأحدهم يوسف خياط ، فقدم القاهرة واتصل باسماعيل ففتح له الأبرا وشهد أولى رواياته ، وكانت روايه (الظلوم) ، فظن أنهم يعرضون به فنفاهم إلى وطنهم . وأقفلت الأبرا فى وجه التمثيل العربى فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة سليمان القرداحى وزميله الشيخ سلامة حجازى .

لم يكن التمثيل فى تلك الفترة الماضية شعبياً ، وإنما كان حكومياً أرستقراطياً لا يحضره إلا الأمراء والحكام ، فلما بنى اسكندر فرح مسرحه فى شارع

عبدالعزيز بالقاهرة وضم إليه الشيخ سلامة حجازى أصبح للجمهور. وكان التمثيل حينئذ بعيداً عن الكمال والذوق لا يرجع إلى فن ولا يعتمد على قاعدة ، وإنما كان أساسه الغناء والمجون استمالة للعامة و إرضاء للدهماء ، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة . وأول خطوة خطاها هذا الفن فى سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التى ألفها جورج أبيض بعون الخديو عباس حلمى ، وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب . إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وقلة المال وزهادة الجمهور فى التمثيل الفنى . وظل التمثيل بعد ذلك يرسب ويطفو تبعاً للحوادث والظروف . على أن حالته الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس ، فقد انشأت وزارة الثقافة والارشاد معهداً للتمثيل وألفت فرقة حكومية وفرقا أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوى فى إنهاض المسرح بعد أن اعتدت عليه السينما وخذله الجمهور.

٧ — المجامع الأدبية

المجمع العلمى العربى بدمشق

كان اخواننا فى الجمهورية العربية السورية أسبق الأمم العربية إلى إنشاء المجامع العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم ، كما كان اللبنانيون أسبقها إلى الترجمة والصحافة والتمثيل فقد أنشىء المجمع العلمى العربى بدمشق فى اليوم الثامن من شهر يونيو سنة ١٩٦١م بعد دخول الأمة السورية فى وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذاك « تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الآداب العربية ، وتلقين أصول البحث والدرس لنبهاء الدارسين . وقد عنى هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الالفاظ فى المصطلحات العلمية الحديثة ، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية ، وقوّم ما أمكن لغة الدواوين ، وصحح بعض أغلاط الكتاب والشعراء والخطباء ، وعاون عدة

من المؤلفين والمترجمين على ماهم بسبيله[1] « وضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء فى الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء للشرقيات فى أوربا . وأصدر مجلة شهرية لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته . وبعد أن اتحدت مصر وسورية فى الجمهورية العربية المتحدة حينا من الدهر أصبح مجمع دمشق ومجمع القاهرة مجمعا واحدا ومؤتمر سنوى واحد .

مجمع اللغة العربية بالقاهرة

وفى ١٤ من شعبان سنة ١٣١٥ هـ ٣ ديسمبر ١٩٣٢ م صدر مرسوم ملكى بإنشاء مجمع ملكى للغة العربية يكون تابعاً لوزارة التربية والتعليم فى القاهرة والغرض منه :

١ — « أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر ، وذلك بأن يحدد فى معاجم أو تفاسير خاصة ، أو بغير ذلك من الطرق ماينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتركيب .

٢ — أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

٣ — أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٤ — أن يبحث كل ماله شأن فى تقدم اللغة العربية مما يعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية » وهو مؤلف من « أربعين عضواً عاملا يختارون من غير تقيد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتبحرهم فى اللغة العربية ، أو بأبحاثهم

(١) ما بين القوسين منقول عن التقرير الرابع للمجمع .

فى فقه هذه اللغة أو لهجاتها » وخمسة وعشرين عضواً مراسلا فى مختلف البلدان الشرقية والغربية. ومن بين أعضائه العاملين اليوم ثلاثون عضوا مصريا، وعضوان أوربيان فرنسي وانجليزى، وعضو عن المغرب، وعضو عن تونس، وعضو عن المملكة العربية السعودية، وعضو عن العراق. يرأسهم الأستاذ أحمد لطفى السيد. والمجمع يتألف من هيئتين: مؤتمر المجمع ويتكون من أعضائه جميعاً ويجتمع أربعة أسابيع متوالية فى كل سنة. ومجلس المجمع ويتكون من الأعضاء المصريين ويجتمع مرة فى كل أسبوع. وللمجمع مجلة تنشر ما يقره من البحوث اللغوية والمصطلحات العلمية صدر منها ستة عشر جزءا، والمجمع يبذل جهوده اليوم فى وضع المعجم اللغوى الكبير، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات العلوم الحديثة. بعد أن وضع المعجم الوسيط فى نحو ألف صفحة ونشره على الناس فقابلوه بالثناء وحسن التقدير.

المجمع العلمى العراقى:

تألف فى بغداد على غرار المجمع العلمى العربى بدمشق.. ونشاطه مقصور على البحوث والمحاضرات، ونشر بعض المخطوطات.

الفصل الثالث

النثر

الكتابة

كان النافق فى صدر هذا العصر من كتب السّلف كتابان يمثلان مذهبين مختلفين فى الكتابة : أحدهما مقامات الحريرى، والآخر مقدمة ابن خلدون . فالأول يمثل الأسلوب الصناعى الأجوف المموه ، والثانى يمثل الأسلوب الطبيعى العامر المحكم . وكانت القلوب لا تزال مأخوذة بسحر المقامات لدقة صناعتها، وذيوع طريقتها ، وقصور العقول عن البحث، وعجز القرائح عن التوليد ولكن النابغين من خريجى المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة آثروا الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية، لجريانها مع الطبع، وملاءمتها الروح العصر ، ومشابهتها لأساليب الفرنجة ، فظهرت مهذبة فيما كتب قاسم أمين ، وفتحى زغلول ،ولطفى السيد ، ومن جرى مجراهم . وانفرد بالأسلوب البديعى رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر من أمثال الشيوخ حمزة فتح الله ، وتوفيق البكرى ، وحفنى ناصف ، ومن حذا حذوهم . وبدت على أساليب هؤلاء مظاهر التكلف فأسرفوا فى المحاكاة، وأوغلوا فى الصنعة. وتشددوا فى القياس، وتصعبوا فى استعمال اللغة، كما بدت على أساليب أولئك مظاهر التطرف فتجوزوا فى القواعد وتسامحوا فى اللغة ، واستخفوا بجمال الصياغة ، وهبطوا إلى مستوى العامية . وفى ذلك العهد نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع ، ولكن فيها الركاكة والتساهل والدخيل والعجمة ؛ فكان من رد الفعل الذى لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعاً

تلك كانت طريقة إحياء الاسلوب العربى الخالص مكمل النقص . عما فاته من صور البيان لانقطاع أهله عن مسايرة التمدن الفكرى الحديث . استبانت معالم هذه الطريقة فى نثر المنفلوطى ، كما استبانت فى شعر البارودى، ثم نهجها الكتاب الموهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت بالرقة والدقة والسلامة والرصانة والقصد. ثم نبغت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد فبلغوا بالنثر الفنى منزلة لم يبلغها فى عصر من عصوره . فالأسلوب الذى كتب به المنفلوطى والبشرى والرافعى والمازنى ، ويكتب به العقاد وطه حسين هو ثمرة التطور الحديث فى الأدب والعلم والفن والحضارة. وهو وإن اختلف بين الكتاب فى القوة والضعف ، والعمق والضحل ، والدقة والتجوز ، والتركيز والانتشار ، يشترك فى الصفات الجوهرية للغة وهى الصحة والنقاء والمرونة ، وفى الخصائص الأصلية للبلاغة وهى الأصالة والوجازة والتلاؤم [1] .

ولقد تعددت الأساليب فى هذا العصر ، فكان لكل طبقة أسلوب، كالأدباء والفقهاء والمحامين والصحفيين. وتنوعت الأغراض، فكتبوا فى القانون والسياسة والاجتماع ، ونسجوا على منوال ما ترجموه من القصص والروايات الأوربية .

وعلى الجملة فالمذهب الكتابى المعاصر يجمع كما قلت صفات اللغة الجوهرية وخصائص البلاغة الأصلية ، إلى تأثره بالمذاهب الأوربية والعوامل الاجتماعية والمناحى الثقافية والمعانى الحضرية . والكتاب الذين يتزعمونه اليوم أو يتبعونه نفر من الأدباء الكهول، وطائفة من الأدباء الشباب، توفر حظهم جميعاً من علوم اللسان ومفردات اللغة، واستنزفوا الشباب فى تحصيل الأدب ومعاناته، حتى وقفوا على أطواره وكشفوا عن مخبآته . ويمتاز زعماء هذا المذهب بقسط عظيم من الثقافة الحديثة و الاطلاع الواسع والبراعة العجيبة فى التوفيق بين القديم المنبعث والحديث المتولد، والتأليف بين الشرق المتخلف والغرب المتطرف، حتى ليقرأهم القارىء البصير بمذاهب الكلام فلا يرجع أساليبهم إلى مذهب من مذاهب العرب

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (دفاع عن البلاغة) .

ولا إلى مذهب من مذاهب الفرنجة ؛ إنما هى أساليب مستقلة تتسم بالشخصية وتمتاز بالأصالة وتنفرد بمكان ظاهر بين أسلوب السلفيين الذى جمد ، وأسلوب المتطرفين الذى ماع[1] .

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن هناك طائفة من ضعفة الكتاب قعد بهم وهن السليقة وقلة الاطلاع عن مجاراة البلغاء ، فأخذوا يدعون إلى العامية باسم المذهب الجديد . ليس لهؤلاء «المتكاتبين» رأى موفق نجله ، ولا مذهب مؤيد نناقشه ، وإنما هم يفكرون ويكتبون بأسلوب أعجمى فى لفظ عربى يتعثر بين اللحن والركاكة . فحسبنا أن نسجل هذه الظاهرة دون تعليق عليها ولا بيان لها .

الفن القصصى والروائى

سبق القول فى حظ العرب من هذا الفن ، وقلنا إن قصورهم فيه كقصورهم فى الشعر القصصى لأسباب واحدة ودواع متفقة . فلما أثمرت بواكير النهضة الحديثة اقتبس أدباؤنا فيما اقتبسوا من أدب الغرب القصة الأفرنجية بقواعدها ومناهجها وموضوعاتها . وكان أول من فعل ذلك اللبنانيون لسبقهم إلى مخالطة الأوربيين والأخذ عنهم ، كفرنسيس مراش الحلبى المتوفى سنة ١٨٧٢ ، وسليم البستانى المتوفى سنة ١٨٨٤ م وجرجى زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ . ثم عالجها الكتاب المصريون بعد ذلك علاج المحاكاة لما قرأوا من تلك القصص . وكان أول ماظهر طائفة من القصص والأقاصيص المترجمة . بعضها كان أشبه بالاقتباس لبعده عن أصله بالحذف أو بالزيادة أو بالتغيير كغصن البان لنجيب الحداد ، والفضيلة لمصطفى المنفلوطى . والبؤساء لحافظ ابراهيم ، و بعضها دقيق الترجمة شديد المطابقة كمرغريت للدكتور أحمد زكى ، وابن الطبيعة لابراهيم عبد القادر المازنى ، وآلام فرتر ورفائيل وأقاصيص من الأدب الفرنسى لصاحب هذا الكتاب . وقد كانت هذه القصص المنقولة على علاتها أساساً للنهضة القصصية الحديثة فى الشرق العربى احتذاها الشباب واستوحاها الكتاب ، لأن المدرسة العربية فى مصر وفى غير مصر

---

(١) أنظر كتابنا (دفاع عن البلاغة) .

ظلت على أساليب البلاغة القديمة فلم يدخل فى برامجها الأدبية تعليم الفن القصصى والروائى على الطريقة المرسومة فى المدرسة الأوربية . فلما ارتقى الفن الكتابى فى الأسلوب الذى علمته فى الفصل السابق ، وأخذت القصة العربية تتميز بطابعها وتستقل بموضوعها ظهرت طائفة من القصص الفنية القوية كزينب لمحمد حسين هيكل ، والأيام لطه حسين ، وإبراهيم الكاتب للمازنى ، وسارة للعقاد ، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم ، وبداية ونهاية لنجيب محفوظ .

أما المقامات فقد انقضى أمرها وذهب عصرها بذهاب الصناعة اللفظية من الأدب الحديث . وكان آخر من قلد الحريرى فيها الشيخ ناصيف اليازجى ، ونقولا الترك من الكتاب اللبنانيين . أما المصريون فقد اقتبسوا الطريقة ، ولكنهم وسعوا الحادث ونوعوا الموضوع ، كما فعل محمد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام ، وحافظ إبراهيم فى ليالى سطيح ، فقد احتفظا بالمنهج والأسلوب ، وأسهبا فى الموضوع بالاستتباع والاستطراد حتى أصبح عملهما وسطاً بين المقامة والقصة .

تلك حال الفن القصصى . وأما الفن الروائى أو المسرحى ، فظل غريباً عن الأدب العربى لا يألفه ولا يعرفه حتى علمه من الأدب الغربى عن طريق المشاهدة والنقل . فهبت طائفة من الذين درسوا الآداب الغربية أوزاروا البلاد الأجنبية يزاولونه بالمحاكاة والاحتذاء دون أن يتجهزوا له بجهازه ، ويستعينوا عليه بأداته ، فالتوى عليهم وأعضل حتى كاد يسمهم بالعجز عنه . اللهم إلا ما كان من أمر شوقى فقد حاول أن يسد النقص الموروث فى الشعر العربى فاستحدث الشعر التمثيلى وخطابه فى طريق الكمال خطوة موفقة بنظمه روايات : على بك الكبير ، وكليوبطرة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة . والست هدى . ثم توفاه الله قبل أن يبلغ به الغاية . وعلى نهجه المعبد سار الشاعر عزيز أباظه فى رواياته قيس ولبنى والعباسة ، والناصر وشجرة الدر . وقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة تهيىء للفن القصصى والروائى أسباب الوجود بمكافأة الكتاب ومساعدة الممثلين فعسى أن يسفر أملها عن وجه النجاح فتتم بداءة الخديو إسماعيل ، فى إيجاد هذا الفن الأدبى الجميل .

الفصل الرابع

أساطين النهضة الحديثة
فى مصر والشام والعراق والمغرب

ممن نبغ من المصريين فى هذا العصر وقوى هذه النهضة بروحه وروحه ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صاحب التاريخ المعروف باسمه ، درس فى الأزهر دراسة كاملة ، ثم اتصل بالفرنسيين أيام احتلالهم مصر فاستكتبوه فى الديوان . ثم انقطع للتأليف فصنف كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ثم توفى سنة ١٨٢٥م . ثم الشيخ محمد المهدى شيخ الجامع الأزهر وأحد أعضاء الديوان الخصوصى لنابوليون ، ولد قبطياً ثم أسلم ودرس فى الأزهر حتى رأسه . ألف كتاب تحفة المستيقظ الآنس ،فى نزهة المستنيم الناعس ، وهو أشبه ألف ليلة وليلة،وكانت وفاته سنة ١٨١٥ م . ثم الشيخ حسن العطار وهو ناظم ناثر ، ولد بالقاهرة ثم تعلم بالأزهر واتصل بالفرنسيين ورحل إلى الشام فأحدّ ذلك من فهمه وزاد فى علمه . ثم تولى التدريس فى الأزهر ورقى إلى أن صار شيخاً له ، وتوفى سنة ١٨٣٤ م . ثم السيد على الدرويش شاعر الأمير عباس الأول ، نشأ فى القاهرة وعاش موفور الكرامة بشعره . وقد جمع شعره أحد تلاميذه فى ديوان سماه : الإشعار بحميد الأشعار . وكانت سنة ١٨٥٣ م . ثم الشيخ شهاب الدين صاحب سفينة الملك ، ولد بمكة ثم وفد إلى مصر ليتعلم فى الأزهر فنبغ فى الأدب وألم بالحساب والهندسة والموسيقى ، ثم اشتغل بالتحرير فى الوقائع والتصحيح فى مطبعة بولاق حتى توفى سنة ١٨٥٧ م . ثم رفاعة بك الطهطاوى أحد أركان النهضة العلمية ، ومدير المدرسة التجهيزية ، ومنشىء الوقائع المصرية، ولد بطهطا وتعلم فى الأزهر ، وأرسله محمد على فيمن أرسل إلى فرنسا فأتم دراسته ثم عاد فعكف على التحرير والترجمة والتأليف والتعليم حتى وافاه حمامه سنة ١٨٧٢ م . ثم

الشاعر محمود صفوت الساعاتى نشأ فى القاهرة وتوفى بها سنة ١٨٨٠م . ثم الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى الشاعر المطبوع واللغوى الحجة والمؤلف النابه ، ولد فى أبيار من أعمال الغربية ثم ثقف العلم بالأزهر واتصل باسماعيل فجعله إمامه ومفتيه . ثم أتاه اليقين سنة ١٨٨٨ م . ثم العلامة الشيخ حسين المرصفى شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين وصاحب الوسيلة الأدبية فى العلوم العربية . تخرج فى الأزهر وعلم به . ورزق مارُزقه مكفوفوالبصرمن لطف الحس وذكاء الفؤاد . توفى سنة ١٨٨٩ . ثم الأديب الشاعر عبدالله باشافكرى ناظر المعارف فى عهد إسماعيل ، ومؤلف الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية . توفى سنة ١٨٨٩ م . ثم المصلح الكبير على مبارك باشا منظم المدارس المصرية ، ومنشىء المكتبة الخديوية (دارالكتب) ، ومؤلف الخطط التوفيقية ، وقصة علم الدين . شارك فى علوم كثيرة ، وتقلب فى مناصب خطيرة ، منذ ولاية محمد على إلى عهد توفيق . ثم توفى سنة ١٨٩٣ م . ثم الأديب القدير السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية ، وله ترجمة خاصة . ثم المترجم البارع محمد عثمان بك جلال ناقل أمثال لافونتين فى كتابه العيون اليواقظ ، ومترجم ترتوف و بول وفرجينى إلى العامية ، ومؤلف السياحة الخديوية فى الأقاليم المصرية ، توفى سنة ١٨٩٨ م . ثم السيدة الفاضلة عائشة التيمورية ، نبغت فى الشعر العربى والتركى وخلفت فى كل منهما ديوانًا . ولها غيرهما كتاب نتائج الأحوال فى الأدب. ولدت بمصر سنة ١٨٤٠ م ، وتوفيت بها سنة ١٩٠٢ . ثم الاجتماعى الألمعى والكاتب المفكر قاسم بك أمين محرر المرأة المصرية ، وأحد رسل الإصلاح الاجتماعى ، ومؤلف كتابى تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، وأثرهما فى النهضة النسائية معروف . توفى سنة ١٩٠٨ . ثم الخطيب المِصْدَع ، والسياسى المجرب ، والوطنى الصادق ، والصحافى البارع ، مصطفى باشا كامل ، وله ترجمة خاصة . ثم الفقيه المحقق ، والمترجم البارع ، فتحى باشا زغلول ، شارح القانون المدنى ، ومؤلف كتاب المحاماه ، ومترجم

كتب جوستاف لوبون، ومحرر القوانين المصرية، توفى سنة ١٩١٤ م. ثم الكاتب الرشيق السيد مصطفى المنفلوطى ، وله ترجمة خاصة . ثم العبقرى الفذ والمحامى المدرِّه والأصولى البارع ، والخطيب المصقع ، والكاتب النابغ والسياسى المحنك، سعد باشا زغلول وله ترجمة خاصة. ثم اللغوى المؤرخ المحقق أحمد باشا تيمور صاحب الخزانة التيمورية . ومعجم اللغة العامية ، والمؤلفات القيمة ، والمقالات الممتعة فى اللغة والتاريخ . توفى سنة ١٩٣٠ م . ثم الكاتب الناقد الرقيق محمد بك المويلحى صاحب حديث عيسى بن هشام ، توفى سنة ١٩٣٠ م . وله ترجمة خاصة. ثم أمير الشعراء وخليفة المتنبى أحمد بك شوقى وله ترجمة خاصة . ثم شاعر النيل ، وأديب الشعب ، محمد حافظ بك إبراهيم وله ترجمة خاصة . ثم الأديب المطلع والمثقف النابغ أحمد زكى باشا صاحب الخزانة الزكية ، ومحيى المؤلفات العربية، وناشر الثقافة الإسلامية ، توفى سنة ١٩٢٤.

وممن نبغ من اللبنانيين والسوريين المعلم الشاعر بطرس كرامه الحمصى مادح الأمير بشير الشهابى ومعلم ولده وموضع ثقته . جمع شعره فى ثلاثة دواوين ولم يطبع إلا واحد منها. توفى سنة ١٨٥١. ثم الفيلسوف الشاعر فرنسيس مراش الحلبى أقدم دعاة الحديث ، وأول رسل التجديد ، ومؤلف طائفة من الكتب المفيدة. توفى ضريراً سنة ١٧٨٣ م . ثم الصحفى المنشىء أديب اسحق ، رئيس قلم الإنشاء فى نظارة المعارف المصرية على عهد توفيق ، ولد بدمشق ودرس فيها ثم رحل إلى مصر فلقى جمال الدين، وكان له أثر ظاهر فى النهضة الأدبية الحديثة، توفى سنة ١٨٨٥ م. ثم المصلح الاجتماعى والكاتب السياسى الشيخ عبد الرحمن الكواكبى صاحب كتابى (طبائع الاستبداد) (وأم القرى) ، جاب أكثر الممالك الإسلامية ، ثم ألقى عصاه بمصر سنة ١٩٠٢ م . ثم الكاتب الأديب جميل المدور صاحب حضارة الإسلام فى دار السلام ، ولد ببيروت وتوفى فيها سنة ١٩٠٧م. ثم الأديب الكبير ، والصحفى البارع ، والمترجم القدير ، الشيخ نجيب الحداد، امتاز بكثرة ما نقل ووضع من الروايات التمثيلية ، ثم توفى فى ريعان شبابه سنة ١٨٩٩م

ثم العلامة المؤرخ الحجة واللغوى الثبت الشيخ طاهر الجزائرى عالم دمشق وأديبها توفى سنة ١٦٢٥ م . ثم المؤرخ النابه ، والصحفى النابغ ، والقصصى المبدع ، جرجى بك زيدان ، منشىء الهلال ، ومؤلف طائفة من الكتب القيمة فى التاريخ والأدب، واللغة والاجتماع، ورائد الفن القصصى التاريخى فى الشرق . توفى سنة ١٩١٤ م . ثم الفيلسوف المحقق ، والصحفى المجدد ، الدكتور يعقوب صروف منشىء المقتطف وأحد رسل العلم الحديث ، توفى سنة ١٩١٧ م .

وممن نبغ فى العراق آل الآلوسى ، وأشهرهم العلامة الفقيه شهاب الدين الآلوسى صاحب التفسير الشهير الموسوم بروح المعانى فى تسعة مجلدات . توفى ببغداد سنة ١٨٥٤ م . ثم حفيده السيد محمود شكرى الآلوسى أديب العراق ومؤلف كتاب بلوغ الأرب فى أحوال العرب فى ثلاثة مجلدات، توفى سنة ١٩٢٣ م . ثم الشاعر الرقيق عبد الغفار الأخرس المتوفى سنة ١٨٧٣ م . ثم الشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى المتوفى سنة ١٩٣٧ م ، وله ترجمة خاصة . ثم الشاعر الاجتماعى معروف الرصافى المتوفى سنة ١٩٤٥ م وله ترجمة خاصة . ثم العلامة اللغوى الأب أنستاس مارى الكرملى عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة المتوفى سنة ١٩٤٧ م .

وممن نبغ فى المغرب الكاتب السياسى المصلح محمد بيرم مؤلف الرحلة الموسومة بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار ، فى خمسة أجزاء . وفد إلى مصر فأنشأ بها جريدة « الأعلام » واتخذها مُقامه حتى توفى سنة ١٨٨٦ . ثم الوزير العالم خير الدين باشا صاحب كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك ، وهو من خير ما كتب فى بابه . سمت به كفايته إلى أن تقلد الوزارة فى تونس ، والصدارة العظمى فى الآستانة ، وتوفى سنة ١٨٩٠ م . ثم الفقيه السياسى المصلح السيد عبد الحميد باديس الجزائرى المتوفى سنة ١٩٤٠ م . ثم الشاعر الشاب الثائر الحر أبو القاسم الشابى التونسى المتوفى سنة ١٩٣٤

ثم بقيت طائفة من نابغى الكتاب والشعراء والأدباء والخطباء ، آثرنا أن نخصهم بشىء من التفصيل والتحليل .

الكتاب

جمال الدين الأفغانى

حياته وأعماله

ولد السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان فى بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية . ثم درج فى بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة . ثم تحول أبوه إلى كابل وهو فى الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادىء العلوم العربية والأدبية والشرعية والعقلية على منهاج محيط شامل . ثم حذق فى مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألم بالإنجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث . ثم أخذ يطوّف ما شاء الله أن يطوّف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وإنجلترا وفرنسا وروسيا فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب . ثم كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم ، جرىء الصدر لأنه حر، ندى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرشى ، أبى الضيم لأنه أمير ، حادّ الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل . ولم يبتغ من وراء هذه الصفات — كما قال — إلا سكينة القلب. وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول[1] . ومن امتزاج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض ، وامتد أمامه الأفق ، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله ، والشرق الإنسانى

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ .

كله ، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر ، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرّة المستبد .

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة ![1] .

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قصر جهده فى تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة . والواقع الذى لا شك فيه أنه فكر ثم قدّر ثم دبر ، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم ، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم .

تولى الوزارة وهو فى ريّق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم ، فجمع نفسه على الاستقلال ، ودار أمره على الشورى ، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة ، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرّق الكلمة وطرد الأمير . وخرج السيد إلى الهند يبتغى السكينة عند تاجر صديق ، فاستقبله الانجليز على الحدود ، وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة . فسألهم الإقامة شهرين ، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه ، وإصغاءهم الشديد إليه ، قصّروا هذه المدة وأمروه بالخروج . وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال لزعماء الهنود وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل ، لو أن ملايينكم مُسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند . ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » !

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة . ثم عين عضواً فى مجلس المعارف ، فرأى فى التعليم رأياً وخطب فى الصناعة خُطبة ، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين . وتولى قيادة الإرجاف شيخ الاسلام لحاجة فى نفسه ، فافترى على الرجل الأباطيل ، ودس حواليه التمائم ، فلم يجد الأفغانى بداً من النزوح إلى القاهرة

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٣٣ .

وهنا وجد الصدر الأرحب فى رياض باشا ، فتجلت عبقريته فى التعليم والتنبيه والتوجيه . وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة فى البيت وفى القهوة . فعشا على ضوئها الهادى طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة . ثم اتخذ من المحفل الماسونى الذى أنشأه منارة لهذه الشعلة،فقسم الاخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة . فشعبة الحربية تنظر فى ظلامة الضباط المصريين ، وتنذر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة . وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم فى العمل والمرتب . وراع أولى الأمر ما قرأوا فى تقارير الشعب ، وما سمعوا من لغط الموظفين ، وما رأوا من قلق المثقفين ، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه فى ذلك فقال له فيما قال: «إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب فى حكم البلاد عن طريق الشورى » . ثم ازداد جمال الدين إمعاناً فى حملته ، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته ، حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثمانى سنوات إلى أن ضاق الانجليز بسعة نفوذه ، فزينوا للخديو أن يخرجه من مصر فأخرجه .

وانتقلت الشعلة إلى باريس ،وسطعت فى (العروة الوثقى)،وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض فى جنبات الشرق كما تومض المنارة فى ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستزاره قيصر الروس واستخبره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوى عبد الحميد ما بين عينيه ؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع ، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور فمرض بالسرطان فى الآستانة وتوفى به فى اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٩٧م

نموذج من نثره

كتب إلى عبد الله باشا فكرى يعتب عليه وقد بلغه أن رجلا ذمه أمام الخديو عَلَى مسمع منه ، فسكت ولم يدافع عنه :

مولاى ! إن نسبتك إلى هوادة فى الحق وأنت — تقدست جبلتك — فطرت عليه وتخوض الغمرات إليه ، فقد بعت يقينى بالشك . وإن توهمت فيك حيداناً على الرشد ، وجوراً عن القصد وأنا موقن أنك ما زلت على السداد غير مفْرِط ولا مفرّط فقد استبدلت علمى بالجهل . ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم فى الحق لومة لائم ، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر ، ولو ألّب الباطل الكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسى وكذبنى من يسمع مقالتى ، لأن العالم والجاهل والفطن والغبى كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ، ونقاوة سريرتك ، واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت ، لا تفارق المكارم ولو اضطررت وأنت مجبول عَلى الخير لا يحوم حولك شر أبداً ؛ ولا تصدر عنك نقيصة قصداً ، ولا تَهن فى قضاء حق ، ولا تنى عن شهادة صدق — ومع ذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمرى ، وعرفانك بسريرتى وسرى ، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً ، ولا أسررت لأحد فى خفيات ضميرى ضراً . وتركتنى وأنياب النذل اللئيم (فلان) حتى نهشنى نهش السبع الهرم المظام ، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقانى وإغراء من أعدائى أحزاب (فلان) ! ما هكذا الظن بك ، ولا المعروف من رشدك وسدادك ؛ ولا يطاوعنى لسانى — وإن كان قلبى مذعناً بعظم منزلتك فى الفضائل ، مقرا بشرف مقامك فى الكمالات — أن أقول : عفا الله عما سلف ، إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة إزاحة للشبهة ، وإدحاضاً للباطل ،

وإخزاء للشر وأهله . وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل . ثم إنى يا مولاى أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم ، وداعياً لكم — والسلام عليكم وعلى أخى الفاضل البا، أمين بك .

الأستاذ الإمام محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م)

نشأته وحياته

وُلد محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر ونشأ نشأة الأوساط من القرويين ، فاستظهر القرآن فى كتَّاب القرية ، وأُرسل فى طلب العلم إلى الجامع الأحمدى فالأزهر الشريف ، ولكنه مُنِىَ فى أول دراسته بمعلمين غير أكفاء لقنوه المسائل من غير تفهيم فسئمها وفرّ . فلما ذاق حلاوة العلم صبر عَلَى مرارة التعلم ، واستغرق وسعه فى الدرس حتى نال فى قليل من الزمن كثيراً من العلم . ولم يكن منهاج التعليم الازهرى فى ذلك العهد كفيلا بتخريج الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم ، وثيق الحجة ، ساحر البيان ، غزير العلم ، كريم الخلق ، ثابت البصيرة ؛ ولكن السيد جمال الدين الافغانى حكيم الشرق وفيلسوف الإسلام هو الذى جمله بهذه الصفات وكمله بتلك العلوم . ورد ذلك الحكيم مصر فى عهد إسماعيل فورد شِرْعته أذكياء الطلاب، فكانوا دعاة النهضة الحديثة وهداتها . وكان الإمام آثرهم عنده وأوفرهم حظاً منه ، حتى قال فيه وهو مفارق مصر : « إنى خلفت فى مصر خيراً كثيراً فى علم الشيخ محمد عبده » . فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف الاستاذ النظر فى العلوم واستقى الدين من مشارعه الصافية حتى أصبح إماماً فى العلوم العقلية والنقلية والاسانية ، فنال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ . ثم اختير مدرساً للأدب والتاريخ بدار العلوم

ومدرسة الألسن ، وأسندت إليه بعد ذلك رياسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح اللغة العربية .

ثم أخذت مبادىء الافغانى تزكو فى القلوب وتهفو بالنفوس ، حتى أفضت إلى الثورة العرابية ، وكان الاستاذ ممن شايع وبايع وأفتى بخلع الخديو توفيق فحكم عليه بالنفى . فقصدسورية ولبث فيها ست سنين شرح فى أثنائها كتابى نهج البلاغة ومقامات البديع . ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين ، فأنشآ معا جريدة (العروة الوثقى) ونشرا بها دعوة الدين والعلم الادب والإصلاح ، فاهتزت لها القلوب الطيبة فى العالم الإسلامى ، ولكنها لم تدم طويلا . واستهوى الاستاذ ما رأى وسمع من حضارة الغرب وعلومه فطمعت نفسه إلى الاخذ منها بنصيب ، فابتغى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسى فتعلمه فى بضعة أشهر . ثم شمله العفو الخديوى فعاد إلى وطنه نير القلب غزير العلم محنك السن ، وعين مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، وعنى بتدريس البيان وتفسير القرآن بالازهر . فكان درسه مجمعاً لرجال القانون والادب والصحافة والتعليم . وتولى منصب الإفتاء فظل فيه حتى توفاه الله بالسرطان فى الإسكندرية ودفن بالقاهرة .

صفاته وأخلاقه

كان الاستاذ ربع القامة ، أسمر اللون ، قوى البنية ، حاد البصر ، بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، ذكى القلب ، شديد العارضة ، قوى الحافظة . وكان أشبه بابن خلدون فى كبر نفسه ، وصفاء عقله ، وبعد نظره ، وقوة جأشه ، وكرم خلقه ، وصراحة قوله ، حتى فى خصوصية زيه . وقد كابد مثله فى رضا الحق ومحاربة البدع سخط الخاصة وغضب العامة ، شأن زعماء الإصلاح فى كل أمة .

أثره فى اللغة والأدب

كانت اللغة فى عهده فريسة العجمة رهينة البلى فجاهد فى إنقاذها وإحيائها

حق جهاده : كان وهو يحرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر فى الصحف ويكتب فى الدواوين ، ويدبج الفصول فى نقد الأساليب وخطأ التراكيب ، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها ، ويكتب غيرها فى موضعها تعليما للكتاب وتدريباً للناشئة . ثم سلك فى التدريس غير سبيل الازهريين ، فقرأ كتابى عبدالقاهر فى البلاغة بأساوب يملك الاسماع والقلوب ، وفسر كتاب الله بلسان رسوله . فكان فى درسه خطيباً جزل المنطق قوى العارضة لا تدركه حبْسةٌ ولا يرهقه حصَرٌ . فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم بتبيينه . وهو الذى ساعد على إحياء الكتب العربية ، وسن فى الازهر تدريس الادب فاعتضد فى الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطى ، واعتمد فى الثانى على أستاذنا سيد بن على المرصفى .

أثره فى العلم والدين

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل ، فأطلع الأستاذ من فكره وعلمه نيراً بدد غيوم الباطل ، وجدد رسوم الحق . ورأى العلم قد أخذ ينفضُ إلى الدين رأسه ، فوقف بينهما موقف المؤلف الموفق ، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبل ، وأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل ، وكتب رسالته فى التوحيد بقلم عبد القاهر فقرب العقائد من الأفهام ، وحسر عنها ظلال الابهام . وسمع ألسنة المبشرين والمستعمرين تمتد إلى جوهر الإسلام بالإفك ، فقطعها بالأدلة النواهض والحجج الملزمة . وكتاب (الإسلام والنصرانية) ورده على هانوتو الفرنسى من تلك الأسلحة التى أجهزت عَلَى تلك الشُّبه المدفوعة .

وجملة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين يصطفيهم الله من خلقه لنصرة حقه ، فيجددون حبل الدين ، ويشيدون أركان العلم ، ويدفعون عن الأرض الفساد .

أسلوبه

الأستاذ فى الترسل أسلوب خاص كأنه قِطع الرياض ، تقرأه فى الردود والمقالات : وقد ينحو فى رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع ويكلف بالصنعة؛ ويقصد قصد الجاحظ فى تأليفه ، فتتساوق أغراضه ، وتتراصف فِقره . فهو متصرف فى أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب . أما الشعر فما علمناه يقرضه . ولكن الناس رووا له أبياتاً قالها فى سياق الموت وهى :

ولست أبالى أن يقال محمدٌ ... أبلّ أو اكتظت عليه المآتم

ولكن ديناً قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضى عليه العمائم

فيارب إن قدرت رُجْعَى قريبة ... إلى عالم الارواح وانفض خاتم

فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً ... رشيداً يضىء النهج والليل قاتم

نموذج من نثره

كتب إلى بعض علماء الشام جواباً عن كتاب هنأه فيه بمنصب الافتاء ، وقد شكا فيه الإمام ما كابده من عنت الشيوخ فى سبيل الاصلاح :

أنصفنى قومك إذ سُروا بنيلى الافتاء ، ولعل ذلك لشعورهم بأننى أغير الناس على دين الله ، وأضراهم بالدفاع عن حماه ، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها ، وأحذقهم فى انتهازها لإبلاغ الحق أمله ، أو يبلغ الكتاب أجله . على أنهم منى بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد . وكل ذى دين يشتهى أن يرى لدينه مثل ما أحث إليه عزيمتى ، وأخلص له فى العمل لتحقيقه نيتى ، خصوصاً إن كفى فيه القتال ، ولم يكلف بشد رحال ولا بذل أموال .

أما قومى فأبعدهم عنى أشدهم قرباً منى . وما أبعد الانصاف منهم ! يظنون بى الظنون ، بل يتربصون بى ريب المنون ، تسرعاً منهم فى الأحكام ، وذهاباً مع

الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك الملام . أقول فلا يسمعون ، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون إلى حيث يهلكون . شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل ، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل فى مثلهم :

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

وأقول ولا فى الخير .

وإنما مثلى فيهم مثل أخ جهله إخوته ، أو أب عقته ذريته ، أو ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته ، مع حاجة الجميع إليه ، وقيام عمدهم عليه . يهدمون منافعهم بإيذائه ، ولو شاءوا لا ستبقوا باستبقائه ، وهو يسعى ويدأب ، ليطعم من يلهو ويلعب . على أنى أحمد الله على الصبر ، وسعة الصدر ، إذا ضاق الأمر ، وقوة العزم ، وثبات الحلم . وإن كنت فى خوف من حلول الأجل ، قبل بلوغ الأمل ، خصوصا عندما أرى العمل فى أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً ، لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً . أفزع لذكرى ذلك وأجزع ، ويكاد قلبى يتقطع . ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين ، وأنه لا يضيع أجر العاملين ، فيثلج صدرى وأمضى فى جهادى الدائم . ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . . .

وليتنى كنت أشكو إلى الله جهل العالمين وحمق المعلمين ، فى مثل هذه الجاهلية التى بعث النبى صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها ، وإزالة أيامها . تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيدا ، ولكن كان فهم القوم حديدا . لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه ، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعى أجابوه . كان القرآن يصدع أفئدتهم فيلين من شدتهم ، ويفل من شِرّتهم ، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة . وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلا عرفوا الحق فأنكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه . ولو سمعوا لفهموا ، ثم لم يجدوا بداً من ينصروه وإن الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم ، كلاهما قليل فى بنى آدم . أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم ، وضعف العقل ، واختلال نظام

الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة ، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة. وغاية ما يطلبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا ، وأن تقضى حاجاتهم إذا سألوا ، وأن ترفع مكانتهم وإن نزلوا . وإن استعداد السامع للفهم يستدرك المقال ، ويسدد الفكر للنضال فى الجدال ، أما عيشك فيمن لا يفهم فإنه ينضب منك ينبوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ، ويزهق روح العقل .

الشيخ على يوسف

١٢٨٠ — ١٣٣١ ﻫ (١٩١٣ م)

نشأته وحياته

ولد هذا السياسى النابه والصحفى النابغ فى بلدة بلصفورة من أعمال مديرية جرجا من أسرة زكية المغرس رقيقة الحال ، ولم يكد يحول على مولده الحول حتى فجعه الموت فى أبيه ، فارتحلت به أمه إلى أخواله فى بنى عدى من أعمال منفلوط حيث درج وشب وحفظ القرآن وشدا شيئاً من مبادىء العلوم . وفى عام ١٢٩٩ ﻫ بعثوا به إلى الأزهر ، فطلب العلم على طائفة من صفوة الأشياخ بضع سنين ألم فيها بالفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتوحيد ومبادىء الفلسفة ، إلا أنه أحس فى نفسه السمو والطموح ، ورأى فى الأزهر الجمود والخمود ، فصدف عن حياة الأزهريين ووصل أسبابه ببعض أبناء السراة يساهرهم ويسامرهم ويقول الشعر فيهم ، حتى هبط مصر المرحوم أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب وأنشأ جريدة (القاهرة الحرة) فاتصل به الشيخ على وأعانه على تحريرها فكسبه ذلك ملكة الذوق الكتابى ، وأسرار الفن الصحافى ، فأخرج صحيفة سماها (الآداب) ظلت تصدر حتى سنة ١٣٠٧ ﻫ . ويومئذ أراد الله لهذه النفس الغلابة والهمة الوثابة أن تحطم القيود وتتجاوز الحدود وتتعجل القدر ، فصحت عزيمته

الشيخ على أن يصدر هو والشيخ أحمد ماضى أحد رفقائه فى الأزهر جريدة يومية سياسية دعواها « المؤيد » .

ظهر العدد الأول من هذه الصحيفة فى ربيع الآخر سنة ١٣٠٧ ﻫ أوفى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م ولا عدة لها من مال ، ولا ناصر لها من حكومة، ولا عون لها من حزب ، ولا مشجع لها من جمهور فلقى الرجل فى سبيلها برحاً شديداً وجهداً باهراً حتى أسعفه الله حينئذ بصحبة المحامى المدره سعد افندى زغلول . والكاتب الألمعى إبراهيم افندى اللقانى وأضرابهما ، فأمدوه بالمال والكتابة ؛ ولكن الخلاف دب دبيبه بين الشريكين فلم يتفقا إلا على أن يكون المؤيد خالصاً للشيخ على إذا أدى لشريكه مائة جنيه عيناً . فكاد يصبح الأمر فوت يده لولا أن تلك اليد البيضاء يد سعد زغلول امتدت إليه ثانية فى أحلك ساعات اليأس ، فألفت إليه بصرة فيها المال كله . وسار المؤيد بعد ذلك فى طريق النجاح مسدد الخطى مؤيد العزيمة يحدوه (رياض) رئيس الحكومة بنفوذه ، ويمده أعيان البيان بالمقالات الممتعة، كسعد بك زغلول . والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان، والسيد توفيق البكرى ، وفتحى بك زغلول ، وإبراهيم بك المويلحى؛ وقاسم بك أمين ، واسماعيل باشا أباظه، ومصطفى لطفى المنفلوطى . فانتشر فى العالم الإسلامى انتشاراً لم تعرفه صحيفة قبله . وبلغ ما يطبع منه فى اليوم ، وعهده عهد أمية وجهالة ، ثمانية آلاف نسخة ، وأبلى فى الدفاع عن الإسلام والذياد عن العرش بلاء أرضى عن صاحبه الخليفة والخديو والأمة ، فجملوا اسمه بالألقاب ، وزينوا صدره بالأوسمة ، وعطروا ذكره بالثناء . ولكن تجار الفساد أرهجوا بينه وبين الأجانب فرموه بالتعصب ، واستعدوا عليه القناصل ، فكان يتغلب على هذه العراقيل والاباطيل بصدق عزيمته وقوة حزمه .

ثم أصهر إلى آل السادات من الصوفية فكان لهذا الصهر قضية وشهرة ، ولكنه انتهى على ماعوده الله بالفلج والظفر فاسترد الزوجة ، واغتصب السجادة الوفائية

وعُرف الشيخ على بالولاء للقصر والإخلاص فى خدمة العرش حتى حل من الخديو عباس محل الناصح الأمين . وآل أمر صحيفته إلى أن أصبحت من القصر سدانه المساول ولسانه الناطق .وعاش هذا الرجل العصامى النابغ على كثرة حاسديه وقوة منافسيه وَلَددِ مخالفيه موفور الكرامة مرفوع المكانة جليل الخطر فى نفوس الجميع حتى اختاره الله إلى جواره فى يوم السبت ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣م.

أخلاقه وفضله

كان الشيخ على حظ عظيم من نبل الخلق وفى ذلك سر نجاحه . كان دمث الطبع ،متواضع النفس ، رحب الصدر، جم المروءة ، شديد الوفاء ،مرهف الذهن ، سريع الفطنة ، شديد الاتكاء على نفسه ؛ وكان بعيد الحور ، فرماه خصومه، بالمكر والدس ، واسع الأناة فى السياسة فرموه بالغلول والخيانة.وكان سباقاً إلى الفضل دعَّاء إلى الخير لا ينسى الناس له أثره فى إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجعل التعليم فى المدارس باللغة العربية ، ولا يزالون يذكرون فى ذلك قوله : « إن تعليم الأمة بلغتها ينقل العلم إليها ، أما تعليمها بلغة أخرى فإنما ينقل أفراداً منها إلى العلم » .

أسلوبه وعلمه

لم يجر الشيخ فى دراسته الأزهرية إلى الغاية ، فلم يتعمق فى علم ، ولم يتبسط فى أدب ، ولم يبرز فى فن من فنون الحياة ، ولا فى لغة من لغات الناس؛ ومع ذلك كان أكتب الصحفيين جميعاً ! كان له أسلوب خاص لا تميزه صنعة ،ولا تموهه صبغة ، ولا يجمله وشى ، وإنما يسحرك بلطف مدخله ، وحسن ترسله ، وسداد بحثه ، وَوثيق حجته ، وقوة أسره ، وكان من الكتاب الجدليين (Polèmiste) الذين أوتوا قوة الحجاج وشدة العارضة وصدق النظر ، ولكم وقف من الكتابُ موقف جرير من الشعراء يجادلهم وحده حتى يقرعهم بالحق

وقد عالج الشعر فى صدر شبابه فلم تسترض له قوافيه ، ولم يعدُ شأو الأزهريين فيه . وقد جمع مانظمه فى ديوان سماه نسمة السحَر نشره سنة ١٣٠٣ ﻫ

نموذج من نثره

قال من رده على خطبة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية فى مصر على عهده وهى التى ألقاها عَلَى مسرح الأبرا فى حفلة وداعه :

تقفون والفلك المحـــرك دائر وتقدِّرون فتضحك الأقدار !

وقف الخطباء مساء السبت الماضى موقف الممثلين فى دار التمثيل الكبرى (الأوبرة الخديوية) يحكمون على الماضى والمستقبل حكم الأقدار فى الكائنات ، و يبرمون وينقضون ، ويرفعون ويخفضون ، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ، ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا ما يكرهون كما قالوا ما يحبون .

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين لأنهم كانوا كذلك فى حقيقة الواقع . وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان ، بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذى كان آخر الخطباء فى الحفلة كلاماً وأشدهم إيلاماً وأكثرهم آلاما .

وقف ليمثل آخر سلطة له فى هذه الديار ولسان حاله يقول :

« ما فى وقوفك ساعة من باس »

مثّلها فى مكان هو أليق ما كان عظة لقائل ، ومظهراً لسلطان راحل ، ومجد زائل ، وأصدق ماضربُ له الأمثال : « لكل مقام مقال » .

ومنها : أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ، ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عدائياً من اللورد لم ير الراءون ولم يروِ الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام !.

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ فى أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معاً يقدم عليه سواه فى الكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيباً من كلامه فى احتفال كهذا. ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة فى موقفة السواد الأعظم من الأمة المصرية ، والسواد الأعظم يخالفه فى الرأى والقول . ودعنا من قول الكونت دى سريون إنه يتكلم عن فئة من الأوربيين بما تشعر من حسنات الاحتلال عليها، أوهو أراد إنجاح السفارة الإنكليزية بباريس فى وساطة لهدى حكومة الجمهورية بعد ما حالت هذه الحكومة دون إنعام ملك أسبانيا وكل إنعام تلاه من الدول الأجنبية عليه فهو ينتظر اللجيون دى تور بصبر نافذ .

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التى جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله فى مصر .

فبينما كانت الأمة المصرية واقفة موقف الآمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجمود الأبدى ، ونحو الأمة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدى؛ بينما هى ترجو من جنابه أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التى جرحها، ويضمد الكلوم التى فتحها فى جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات ، وجامعتها كشكولا بين الجامعات .وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ فى إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجماً فيها غير عادل ولا متلطف، وبينما كان كل هذا إذا ببركان « البيرقراطية » التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز فى تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجر بركانه وقذف بلظاه على الأحياء والأموات .

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام، ويجاذب داعى الحمام ، فجال فى خاطره أنه مفارق قصراً تجرى من تحته الأنهار ، وملكاً خضع له فيه الليل

والنهار ، وتارك خصوماً قد يتوهمون أنهم نازعوه فغلبوه ، أو يتوهم هو أنه حالمهم فأغضبوه .

وقف اللورد وله نفسان : نفس نزاعة إلى حب البقاء ، وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء ؟

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم ، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم ، فسر وساء ، وترخص وتشدد ، وعدد وندد ، ووعد وتوعد ، وأرغى وأزبد ، وحذر وأنذر ، وحكم وقدر .

ربما أخرج الحزينَ جوى الحز ... ن إلى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما ... نَ فأنحى على رقاب الجياد[1]

إبراهيم المويلحي

١٢٦٢ — ١٣٢٣ هـ

نشأته وحياته

وُلد هذا الكاتب الكبير في بيت من بيوت التجارة الوطنية من أسرة ناعمة العيش واسعة الثروة موصولة الجاه بالأسرة الخديوية المالكة ، فتدرب منذ إيفاعه على شئون التجارة وتمرس في فنونها ، إلا أن طبعه القلق اللجوج ، ونفسه المتوثبة الطموح ، لم يطاوعاه على الرضا بالربح المشروع فقذف بماله في وجوه (المضاربات) فما ارتدَّ إليه منه غير صفقة المغبون . فعاش عيشة الكفاف والتعفف حتى هبت عليه نفحة من جود اسماعيل فجعله قاضياً في محكمة الاستئناف . ولكنه اختلف هو ورئيسه اختلافاً لم ينته إلا باستقالته . فقلده الخديو عملا آخر فناله فيه ما ناله في التجارة والقضاء . وجاءت وزارة شريف تريد أن تضع الدستور الأول فكان

---

(١) نشرت بالمؤيد في ٧ مايو من سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٧٥ .

المويلحى ممن اختيروا لوضع (اللائحة الوطنية)؛ ولكن آماله كانت تسفر له دائماً عن وجوه الفشل فابتغى الوسيلة إلى الرزق فى الكتابة والنشر فأنشأ (جمعية المعارف) لطبع الكتب القيمة وإذاعتها فى مطبعة اشتراها لنفسه . ثم اتفق مع المغفور له محمد بك عثمان جلال مترجم مُلْيير وصاحب العيون اليواقظ، على إنشاء جريدة (نزهة الأفكار)؛ ولكن الخديو إسماعيل خشى شرها فألغاها . فلما كانت سنة ١٣٩٦ هـ وخرج الخديو مخلوعاً من ملكه إلى إيطاليا أرسل فى طلب إبراهيم ليتخذه كاتب رسائله، فقام له بهذا العمل بضع سنين أنشأ فى خلالها وهو فى إيطاليا جريدتى « الاتحاد » « والأنباء » فلم تمتعا بالحياة غير قليل . ثم رحل إلى الآستانة سنة ١٣٠٤ فأكرم عبد الحميد وفادته وجعله عضــواً فى مجلس المعارف فلبث فيه تسع سنين اتصلت فيها أسبابه برجال (المايين) ورؤساء الحكومة . ثم ارتد إلى مصر وقد خيط الشيب فى رأسه ، ونالت الأيام من جسمه ، فأنشأ (مصباح الشرق) وهى صحيفة أسبوعية كان يدبجها باللفظ الرشيق والأسلوب الأنيق ويرسلها بالسهام النافذة فى الاجتماع والنقد والسياسة . فقضت حاجة فى نفوس الأدباء، ونهجت لهم الطريق السوى فى الإنشاء، ووطأت له هو أكناف الرؤساء والكبراء . واستمر عَلَى إصدارها حتى طويت صحيفة حياته .

أسلوبه

كانت الكتابة فى عهد المويلحى لا تزال ترسف فى أغلال الصنعة، وتكابد أعراض الوهن ، فلم يستطع قلمه أن يخرج عن سلطان البديع ، ولا أن يبرأ من تكلف الحلْية الظاهرة . إلا أن تصرفه فى الأمور ، وتقلبه فى البلاد ، واختلاطه بألوان الناس ، واتصاله برجالات البلاد ، ومغامرته فى السياسة ، وتمرسه فى الصحافة ، فتقت قريحته ، وذللت معانيه ، وسهلت أسلوبه وأمكنته من عنان البلاغة فصرّفها حيث شاء ولا سيما فى الرسائل ، فقد تفنن فى جميع ضروبها وأحسن فى سائر مناحيها . والمويْلحى على ما به من ضيق المضطرب فى المعانى ، وضعف

السليقة فى الابتكار ، أشبه بالبارودى فى الشعر : جدد ما درس من أساليب الكتابة ؛ وبيّن ما طمس من معالم البيان ، وكان ركناً شديداً من أركان هذه النهضة المباركة .

آثاره

جل ما أثر عنه مقالاته السياسية والاجتماعية التى نشرها فيما أنشأ من الصحف كنزهة الأفكار والاتحاد والأنباء ومصباح الشرق ، أو فيما أعان عليه منها كضياء الخافقين فى إنجلترا والعروة الوثقى فى فرنسا . وله غير ذلك كتاب « الفرج بعد الشدة » فى وزارة رياض باشا ، وكتاب « ما هنالك » وصف فيه حال الآستانة ورجال المابين قبل الدستور العثمانى .

حفنى ناصف

١٢٧٢ — ١٣٣٧ هـ

نشأته وحياته

وُلد محمد حفنى ناصف بن الشيخ إسماعيل ناصف عام ١٢٧٢ للهجرة فى ضاحية من ضواحى القاهرة تدعى بركة الحج يتيماً فقيراً ، فكفله خاله وجدته لأبيه . ثم دخل كتاب القرية فتعلم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ جزءاً من القرآن . ثم فر إلى الأزهر فى الحادية عشرة من عمره فمكث فيه ثلاث عشرة سنة ؛ ثم سلك نفسه فى الداخلين (دار العلوم) فثقف علومها وعين أستاذاً للغة العربية فى المدارس الأميرية . ثم اختير للتدريس فى مدرسة الحقوق فوقع فى نفسه أن يشرك طلبتها فى دروسهم . فدرس القانون وترك التدريس وانتخب كاتب سر للنائب العمومى . ثم عين قاضياً سنة ١٨٩٢ م فى المحاكم الأهلية . وبلغ من أمره فى القضاء أن صار وكيلا لمحكمة طنطا الأهلية . وفى غضون ذلك انتدب لتدريس

الأدب العربى فى الجامعة المصرية وهى أهلية ، فألقى فيه محاضرات ممتعة جمعت فى كتاب خاص . ولما أقعد الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية الأكبر فى وزارة المعارف خلفه الأستاذ حفنى بك ، فازهرت دولة الأدب واعتز جانب اللغة . وقضى هذه الفترة القصيرة فى التنقيب والتنقيح حتى شارف الستين فأحيل على المعاش وما عمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين . ثم وافاه أجله فى أواخر نوفمبر من سنة ١٩١٩ م ودفن فى مقبرة الشافعى .

أخلاقه

كان رحمه الله فكه الحديث ، مليح النادرة ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ، كثير الدعابة ، رضىّ الخلق ، مشاركاً فى كل علم وفن ، جارياً مع القديم والحديث .

نثره وشعره

حفنى بك ناصف ركن من أركان النهضة الأدبية الحديثة . أحياها بأبحاثه ومؤلفاته ، وقواها بقصائده ومقالاته . وهو ضليع فى فنون اللغة ، خبير بقواعد اللسان ، بصير بأسرار الكلام ونقده . وأسلوبه فى الرسائل يجرى على منهاج المتأخرين من كتاب العصر العباسى فى التكلف بالسجع والقصد إلى البديع . وله أسلوب مرسل فى المقالات يجرده من زخرف الصناعة فيسيل رقة وسلاسة . أما شعره فنمط من الأسلوب النثرى المنظوم ، تكثر فيه المُلح والمحسنات اللفظية ويظهر الضعف فى تراكيبه أحياناً ، إلا أنه على الجملة سلس مطبوع .

مؤلفاته

له مع غيره سلسلة فى قواعد اللغة العربية كانت تدرس فى المدارس المصرية ، وكتاب (مميزات لغة العرب) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الذى أقيم فى فينا ١٨٨٦ م وقد كان كاتب سر الوفد الذى مثل مصر فى هذا المؤتمر ، وكتاب

(حياة اللغة العربية) وهو مجموع محاضراته التى ألقاها فى الجامعة المصرية ، وكتاب القطار السريع فى علم البديع ، ورسالة فى البحث والمناظرة ، وأخرى فى المنطق ، وكتاب الأمثال العامية ، وبديع اللغة العامية . وأكثر كتبه غير مطبوع .

نموذج من شعره

قال يخاطب أحد الرؤساء :

أحييتَ آمالى وكنت أمتّها   من طول مالاقيت من إخوانى
أدلى بإخلاصى لهم وأذود عن   أعراضهم بجوارحى ولسانى
محّضتهم ودى فلما أيسروا   كانت بدايةُ أمرهم نسيانى
حسبى من الدنيا صديق ثابت   فردٌ فكنهُ ولا احتياج لثان

وقال أيضاً :

أتقضى معى إن حان حينى تجاربى   وما نلتها إلا بطول عناء ؟
ويحزننى ألا أرى لى حيلةً   لإعطائها من يستحق عطائى
إذا ورّث المثُرون أبناءهم غنىً   وجاهاً ، فما أشقى بنى الحكماء

ومن نثره رسالة عزى بها الشيخ على يوسف فى ولده :

خفف الله لوعتك ، وأرقأ دمعتك ، وجنبك الجزع ، ووقاك الهلع ، وألهمك الصبر ، وأجزل لك الأجر ، ورزقك من البنين ، فى مستقبل السنين ، ماتقر به عيناك ، ويقوى به عناك . وأنت والحمد لله فى قوة ، وبقية من الفتوة ، تمكنك من الأبوة ، لخير البنوة . على أن لك فى عالم السياسة ، وضروب الكياسة ، فى هذه البلاد ، ألوانا من الأولاد ، وآثاراً كبرى ، تضمن لك الذكرى ، وتجعل لك على مدى السنين ، لسان صدق فى الآخرين . والسلام عليك ورحمة الله .

باحثة البادية

١٨٨٣ — ١٩١٨ م

نشأتها وحياتها

هى السيدة الفاضلة مَلَك ناصف بنت الشاعر الكاتب حفنى بك ناصف .

وُلدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٦ وتلقت مبادىء العلوم فى مدارس أولية مختلفة . ثم دخلت المدرسة السنية فى أكتوبر من سنة ١٨٩٣ م ونالت منها الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م وهى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات إلى نيل هذه الشهادة . ثم انتقلت إلى قسم المعلمات من هذه المدرسة فنالت منها إجازة التدريس ومارست بعد ذلك التعليم فى مدارس البنات الأميرية . وفى سنة ١٩٠٧ م بنى بها عبد الستار الباسل وهو سرىٌّ من سراة قبيلة الرماح بالفيوم ، فتركت التدريس وعكفت عَلىَ الكتابة والتأليف ، وعاشت مع زوجها عيشة الزوجة المخلصة البرَّة حتى توفيت بالحمى الإسبانية فى أكتوبر من سنة ١٩١٨ م وهى فى زهرة العمر ونضرة الشبيبة .

مكانتها فى العلم والأدب

أظهر ماتدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عذوبة الروح وسراوة الخلق وذكاء الطبع وصحة الدين والرغبة فى الإصلاح . تعهدها والدها الكريم منذ طفولتها فغذاها بأدبه ، ونفث فيها من روحه ، فأخذت تعالج القريض وهى فى الحادية عشرة من عمرها . ثم توافرت عَلىَ صناعة الإنشاء فبلغت منها مكانة تحسدها عليها الرجال . عنيت بإنهاض المرأة المصرية بعد قاسم أمين ، فكانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل فى بيئة لاتزال رجعية . ألقت فى هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات فى إدارة الجريدة التى كان يصدرها حزب الأمة

ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد ، وكتبت عنه طائفة من المقالات فى هذه الصحيفة بإمضاء « باحثة البادية » فصار لقباً غلب عليها .

جمعت هذه المقالات فى كتاب عنوانه « النسائيات » ونشرت منه جزأه الأول . ثم شرعت فى آخر حياتها تؤلف كتاباً مطولا سمته « حقوق النساء » أنجزت منه ثلاث مقالات ثم حالت المنية عن إتمامه .

نموذج من كلامها

من قولها فى كتاب النسائيات :

ما أنقى الهواء ، وأعذب الماء ، وأصفى السماء فى القرى ! وما أكذب الحياة وأقرب الوفاة فى المدن ! القرى جميلة لأنها على الفطرة . أما المدن فلا تعدم أثراً للتكلف والرياء . أين دوىُّ الكهرباء ، من خرير الماء ، والدخان المتعاقد فوق المداخن ، من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رءوس النخل الباسقات ؟ وأين وحل الشارع وعثيرُها من أرض كسيت ببساط النبات ؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى أزهار الحقول ؟ بل ما أضل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور ، من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية فى الفضاء !

ومن قصائدها فى حال المرأة قصيدة مطلعها :

أعملتُ أقلامى وحينا منطقى	فى النصح والمأمول لم يتحقق
أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم	صوتاً يهز صداه عطف المشرق ؟
أيسركم أن تستمر بناتكم	رهْن الأسار ورهن جهل مطبق ؟
هل تطلبون من الفتاة سفورها ؟	حسن ، ولكن أين بينكم التقى ؟
لا تتقى الفتياتُ كشف وجوهها	لكن فساد الطبع منكم تتقى
تخشى الفتاة حبائلا منصوبة	غشيتموها فى الكلام برونق

لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم ... وبناتكم وتسابقوا للأليق
ودعوا النساء وشأنهن فإنما ... يدرى الخلاص من الشقاوة من شقى
ليس السفور مع العفاف بضائر ... وبدونه فَرْط التحجب لا يقى

مصطفى لطفى المنفلوطى

١٨٧٦ — ١٩٢٤ م

نشأته وحياته



ولد السيد مصطفى لطفى بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٦ م ونشأ فى بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتى سنة . ونهج المنفلوطى سبيل آبائه فى الثقافة فحفظ القرآن فى المكتب . وتلقى العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقى باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشىء الرسائل ، وتسيرله شهرة فى الأزهريين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطى من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نفوقه لدى صاحب (المؤيد) ، وهؤلاء الثلاثة كانوا

أقوى العناصر فى تكوين المنفلوطى الأديب بعد استعداد فطرته وإرشادوالده. وفى أثناء طلبه فى الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمى الثانى بقصيدة نشرها فى إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى فى السجن مدة العقوبة. ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطى فيه على رجائه وسنده، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن، فهب يبتغى فى جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجح. ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربياً لها. ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب. ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله، حتى إذا قام البرلمان عينه سعد باشا فى وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو فى العقد الخامس من عمره.

أخلاقه

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره و باطنه؛ فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزى، لا تلمح فى قوله ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة. كان صحيح الفهم فى بطء، سليم الفكر فى جهد، دقيق الحس فى سكون، هيوب اللسان فى تحفظ. وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس فى مظهر الغبى الجاهل، فهو لذلك كان يتقى المجالس و يتجنب الجدل و يكره الخطابة: ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته.

أسلوبه وأدبه

كان المنفلوطى أديباً موهوباً، حظ الطبع فى أدبه أكثر من حظ الصنعة؛ لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة. وكان النثر الفنى على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضى الفاضل، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون؛

ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروبا على أحد القالبين ، إنما كان أسلوب المنفلوطى فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره ، بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال

عالج المنفلوطى الأقصوصة أول الناس وبلغ فى إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأ كنشأته فى جيل كجيله . وسر الذيوع فى أدب المنفلوطى أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب ، وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ويمثل العيوب فى أسلوب طلى وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة . أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطى لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوى البصر بأدبها . لذلك تجد فى تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ فى غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالا مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح فى تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجملة القول أن المنفلوطى فى النثر كان كالبارودى فى الشعر : كلاهما أحيا وجدد ، ونهج وعبد ، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) فى ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره فى المؤيد من الفصول فى النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطى) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار ، وبول وفرجينى (الفضيلة) لبرناردى سان بيير ، وسيرانو دبرجراك (الشاعر) لأدمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى ثراء الأدب العربى ثروة ، وكانت للفن القصصى الحديث قوة وقدوة .

نموذج من نثره

الغنى والفقـــير

مررت ليلة أمس برجل بائس ، فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً ، فرثيت لحاله ، وسألته ماله ، فشكا إلى ألم الجوع ، ففثأته عنه ببعض ماقدرت عليه ، ثم تركته وذهبت إلى صديق لى من أرباب الثراء والنعمة فأدهشنى أنى رأيته واضعاً يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير ، فسألته عما به ، فشكا إلى البطنة ، فقلت « ياللعجب ! لو أعطى ذلك الغنى ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ماشكا واحد منهما سقماً ولا ألماً . لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام مايشبع جوعته ويطفىء غلته ؛ ولكنه كان محباً لنفسه مغالياً بها فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير ، فعاقبه الله على قسوته بالبطنة ؛ حتى لايهنىء للظالم ظلمه ، ولا يطيب له عيشه ، وهكذا يصدق المثل القائل . « بطنة الغنى انتقام لجوع الفقير » .

ماضنت السماء بمائها ، ولا شحت الأرض بنباتها ، ولكن حسد القوى الضعيف عليهما فزواها عنه واحتجنهما دونه ، فأصبح فقيراً معدماً شاكياً متظلماً ، غرماؤه المياسير الأغنياء ، لا الأرض والسماء .

ماأظلم الأقوياء من الإنسان ، وما أقسى قلوبهم ! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه فى مضجعه أنه يسمع أنين جاره ، وهو يرعد برداً وقرا ؛ ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام ، قديده وشوائه ، حلوه وحامضه ، ولا ينغص عليه شهواته علمه أن بين أقربائه وذوى رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقاً إلى فتات تلك المائدة ، ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها ؛ بل إن بينهم من لاتخالط الرحمة قلبه ، ولا يعقد الحياء لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب ، وصناديقه من الجواهر ، وغرفه من الأثاث والرياش ، ليكسر قلبه و ينغص عليه عيشه ، ويبغض إليه حياته ؛ وكأنه يقول فى كل كلمة من كلماته وحركة

من حركاته : « أنا سعيد لأنى غنى . وأنت شقى لأنك فقير » .

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسنا ، لأنى لاأعتمد فضلا صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان . وإنى أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلا إلى الإحسان إلى نفسه ، وهو المستبد الجبار الذى لايفهم من الإحسان إلا أنه يستعبدالإنسان . ورجل يحسن إلى نفسه ، ولا يحسن إلى غيره ، وهذا الشره الذى لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح فى سبيله الناس جميعا ، ورجل لايحسن إلى نفسه و لا إلى غيره ، وهذا البخيل الأحمق الذى يجيع بطنه ليشبع صندوقه .

أما الرابع الذى يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكاناً ، ولا أجد إليه سبيلا ، وأحسب أنه هو الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونانى ديوجين الكلبى حينما سئل مايصنع بمصباحه وكان يدور به فى بياض النهار فقال : « أفتش عن إنسان » .

عبد العزيز شاويش

المتوفى سنة ١٩٢٩ م

نشأته وحياته

ولد عبد العزيز بن خليل شاويش فى الاسكندرية من أسرة مغربية الأصل تشتغل بالتجارة . ثم تعلم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن فى أحد الكتاتيب ، ثم طلب علوم الدين والعربية فى جامع الشيخ بالاسكندرية فشدا شيئا منها أهله إلى أن يفد إلى القاهرة ويدخل الجامع الأزهر . وكان أذكياء الأزهريين يومئذ يعدون أنفسهم إلى الدخول فى (دار العلوم) لأنها كانت أقصر الطرق إلى التعليم والمحاماة ، وأنجع الوسائل إلى التجدد والرفاهية ، فدخلها الشيخ عبد العزيز ، واشتهر بين لداته بالجد والاستقامة ، والغيرة على الدين والكرامة .

ولما نال إجازتها تولى التدريس فى مدرسة الناصرية ردحاً من الدهر ، ثم اختير فى بعثة إلى انجلترا ليتخصص فى التربية والآداب ، فتعلم اللغة الإنجليزية واطلع منها على الآداب الأوربية فازداد علمه واكتمل بيانه وتنوعت ثقافته . ثم رجع إلى مصر فعين مفتشاً بوزارة المعارف . وعاد ثانية إلى انجلترا ليعلم اللغة العربية فى جامعة (أكسفورد) ثم انتهى أمره إلى أن يعود إلى مصر ويرجع إلى التفتيش وكان بينه وبين زميله المرحوم عاطف بركات منافسة فى الطلب وفى الوظيفة؛ وكان بين عاطف بركات و بين وزير المعارف وهو يومئذ سعد باشا زغلول قرابة واشجة، فظن الشيخ عبد العزيز أن لهذه القرابة أثراً فى تقديم منافسه عليه فاستقال من العمل فى وزارة المعارف سنة ١٩٠٨ وانضوى إلى لواء الحزب الوطنى . ثم أصبح بعد موت الزعيم مصطفى باشا كامل رئيساً لتحرير (اللواء) . ثم جرّت عليه صراحته فى التحرير وشجاعته فى الحق وحماسته فى السياسة ، متاعب كثيرة منها الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر فى جريمة من جرائم الرأى . فلما خلوا سبيله رحل إلى أوربا . وشبت الحرب العالمية الأولى فشق عليه الرجوع فظل هناك يقاسى مكاره الغربة من فراق الأهل وإلحاح الفقر وخذلان الصديق ، حتى وقفت رحا الحرب فعاد إلى وطنه مضعضع الآمال خائر القُوى ، فتجهمت له بعض الوجوه ، وانقبضت عنه أكثر الأيدى ، وحاول أن يعود إلى السياسة من طريق البرلمان فلم يفلح ، فانصرف إلى اكتساب الرزق من ناحية الصحافة حتى أدركته رعاية الملك فؤاد فعين مراقباً للتعليم الأولى فى وزارة المعارف ؛ فاضطلع بأعباء هذا المنصب المرهق بضع سنين . ثم أصابته علة القلب فتوفاه الله فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر يناير من سنة ١٩٢٩ .

أخلاقه

كان رحمه الله جميل السمت حسن الشارة متواضع النفس حلو الحديث لطيف الروح شديد الحياء ندى الراحة ، جريئاً فى الدفاع عن دينه، شجاعاً فى الذياد

عن وطنه ، صريحاً فى الإبانة عن رأيه . سباقاً إلى كريم المساعى ، فشارك فى كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية ، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة . وقد كان فى طبعه حدة تظهر على قلمه أو لسانه إذا أوذى فى كرامته أو وطنيته أو عقيدته .

أسلوبه

كان أسلوبه خطابياً يؤثر بالعاطفة أكثر مما يؤثر بالمنطق . وكان يجرى فيه مجرى الأسلوب المنسوب إلى الإمام على فى نهج البلاغة . وهو من الكتاب القلائل الذين اطلعوا على آدب الفرنجة وتأثروا بها . وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث . كان من علماء العربية وفقهاء الدين وأعلام الصحافة فعالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة ، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية باختيار اللفظة المناسبة والاقتصار على الجملة الدالة .

مؤلفاته

من مؤلفاته التى نعرفها كتاب (غنية المؤدبين) فى التربية العلمية والعملية ؛ وكتاب (الإسلام دين الفطرة) فى الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه . وكتاب (أسرار القرآن) فسر فيه بعض آى الذكر الحكيم تفسيراً ملائماً لروح العصر .

نموذج من نثره

قال فى فاتحة مقالاته فى جريدة اللواء يوم استقال من وزارة المعارف :

« بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادُها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس . فى أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس ، بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس . وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد

العام ، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه . أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر ، منبريا فى ميدانها ، فإما إلى الصدر ، وإما إلى القبر . موقنا بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين ، من الظفر والفتح المبين » .

ومن مقاله بعنوان « مدرسو اللغة العربية المصريون فى بلاد الإنجليز » :

« نصح إلىّ المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد ، أن أقتدى بما أراه من الأخلاق الفاضلة فى تلك الأمة العظيمة ، فماذا جرى ؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادونى تمسكا بدينى . رأيتهم شديدى الحرص على لغتهم فزادونى حرصاً على لغتى . أبصرتهم يتفانون فى الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف فى أموالهم ورقابهم فأخذت أحاكيهم فى هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه . رأيتهم يحبون الصراحة ، ولا يخشون معتبة ، ولا يتهيبون متعبة ، مادام الحق لهم فأخذت أحاكيهم فى تلك الفضائل التى نصح بها إلى عميدهم بنظارة المعارف العمومية ! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل ، ويحضون على الفضيلة ، فعدت إلى بلادى ، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع ، فكان حقاً على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم ، ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم بالإفاضة والإسهاب فى مدح من نجح فى تقليدهم ومحاكاتهم فى فضائلهم ، ممن يرحلون إلى بلادهم من المصريين ! » .



الأدباء

ناصيف اليازجي

١٨٠٠ — ١٨٧١ م

نشأته وحياته

ولد ناصيف بن عبدالله اليازجي بكفر شيما من قرى لبنان ونشأ فى بيت فضل وعلم وأدب ، وبدأ يتعلم الهجاء على أحد القساوسة ، ومبادىء الطب على أبيه ، وصبت نفسه إلى الآداب فطفق يطلبها ويحصلها ، والكتب يومئذ نادرة وتجارتها بائرة ومطلبها بعيد . فكان إذا وقع فى يده مخطوط حفظه أو نسخه أو لخصه ، حتى غزرت مادته ، وكملت آلته ، وبلغ حظه من المنثور والمنظوم ، فاستكتبه الأمير بشير الشهابى وهو فى أوج عزه فكتب له ولزمه اثنتى عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنة ١٨٤٠ ، فنزل الشيخ بأهله إلى بيروت وانقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء ومساجلة الشعراء حتى مُنى فى أعقاب عمره بفالج نصفى عطل شطره الأيسر . ثم فجع فى بكر أولاده الشيخ حبيب ، فضعضعت هذه الفاجعة قواه وهدت ركنه ولم يعش بعده إلا يسيراً .

نثره وشعره

ترسم الشيخ خطوات الحريرى وانتهج نهجه ، فأولع بالبديع ، وافتتن فى الصناعة ، وكلف بالغريب . وعالج المقامات فأنشأ منها ستين مقامة أجاد فيها التقليد وأتقن الاحتذاء وبلغ من الحلية اللفظية الغاية . وأعجب بالمتنبى فى الشعر كما أعجب بالحريرى فى النثر ، ولكن تقليده لأبى الطيب كان أضعف ، وتخلفه

عن مجاراته كان أظهر . فجاء شعره على طول معالجته له وقوة طبعه فيه أشبه بشعر الحريرى وأضرابه ، وبخاصة تلك القصائد التى تكلف فيها التاريخ الشعرى، فقد غالى فى ذلك وأسرف حتى كان يضمن البيتين ثمانية وعشرين تاريخاً أو ينظم القصيدة فيلتزم فى كل شطرة من شطراتها تاريخاً كقصيدته فى تهنئة إبراهيم باشا بفتح عكاء ، أو ينظم القصيدة كلها من الحروف المهملة كقوله :

حول در حل وَرد   هل له للحر ورد

على أن له قصائد تهب عليك من خلال أبياتها نفحات أبى الطيب فيجزل لفظها ويقوى أسلوبها وتفيض بالمعانى المبتكرة والحكم البالغة والأمثال السائرة .

علمه ومؤلفاته

آثار اليازجى تدل على مادة غزيرة فى اللغة ، واطلاع واسع فى الأدب ، وإتقان عجيب لعلوم اللسان . فله كتاب مجمع البحرين وهو مجموع مقاماته الستين التى قلد بها الحريرى . وله (الجمانة) (وجوف الفرا) وهما أرجوزتان أولاهما فى الصرف وأخراها فى النحو ، و(فصل الخطاب)وهو مختصر فى النحو والصرف، (وعقد الجمان) فى علم البيان ، (ونقطة الدائرة) فى العروض والقوافى، (وقطب الصناعة) فى المنطق. ثم دواوين شعره وهى (نفحة الريحان)و(فاكهة الندماء فى مراسلة الأدباء) و (ثالث القمرين) . وأكثر كتبه مؤلف على نمط مدرسى ولا تزال تدرس فى معظم المدارس اللبنانية المسيحية .

نموذج من كلامه

قال من قصيدة يمدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية :

بناء العلى بين القنا والبوارق   على صهوات الخيل تحت البوارق
ولله سرٌّ فى العباد وإنما   قليل محل السر بين الخلائق
يقلب هذا الدهر أحوالنا كما   تقلب فينا لا حقاً إثر سابق

ولولا اختيار الدولة ابن سريرها لما اعتمدته فى المعانى الدقائق
كريم تولى الأمر يصلح أمره كفتق تولته أنامل راتق
أقام السرايا ينفر الموج خيلها بكل لواء فوق لبنان خافق
يحدث أهل الغرب فى كل ليلة بما فعلت غاراته فى المشارق
فيعجب من أفعاله كل عاقل ويثنى على أفضاله كل ناطق
تضيق بحار الشعر عنه وتستحى ببحر لها فى بحر كفيه غارق

أحمد فارس الشدياق

١٨٠٤ — ١٨٨٧ م

نشأته وحياته

ولد هذا الكاتب اللغوى فى عشقوت من أعمال لبنان من أسرة مارونية. ثم دخل مدرسة عين ورقة فتلقى مبادىء القراءة، وشدا شيئاً من اللغة والنحو على أخيه أسعد. وبدأ يقرض الشعر وهو فى العاشرة من عمره. وصغت نفسه منذ طفولتها إلى حفظ المفردات والمترادفات فحصل منها قسطاً وفيراً ظهر أثره بعد فى خطبه وكتبه. وحدث أن أخاه أسعد وهو وليه وصفيه ترك مذهب والديه واعتقد المذهب الإنجيلى فاضطهدته عشيرته وكهنته حتى مات مقهوراً فى محبسه. فشق ذلك على فارس فخرج مغاضباً إلى مصر تحت حماية المرسلين الأمريكان ورعايتهم، فقضى بها حقبة من الدهر بين تعلم وتعليم. ثم بعث به الأمريكان سنة ١٨٣٤ إلى مالطة ليصحح ماتخرجه مطبعتهم فيها. وأرسلت فى طلبه وهو هناك جمعية التوراة بلندن ليحرر ترجمتها العربية فرحل إليها وأقام بلندن ما أقام ثم انصرف عنها إلى باريس، وكان يزورها يومئذ أحمد باشا باى تونس فاتصل به الشدياق ومدحه فنفق لديه، وظاهر الأمير نعمه عليه، حتى قال الشاعر: «ما كنت

أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها » ثم اعتقد الإسلام وهو فى تونس وسمى نفسه أحمد . وظل يكتب فى الرائد التونسى ويتقلب فى نعمة الباى ، وفضله يظهر وذكره يذيع حتى طلبته الصدارة العظمى فرحل إلى الآستانة وأنشأ جريدة « الجوائب » وأودع فيها من فنون النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحمد ، وتناقلته بُردُ الشرق والغرب . وكان فى سياسة الشرق مرجعاً وحجة. فسعى إليه المجد والثراء ، وخطب وده الأمراء والعلماء ، وكافأته الدولة العلية بالألقاب والأوسمة . ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو فى أعقاب عمره ، فما زالت تصدر عن براعة ولباقة وقوة حتى عطلت سنة ١٨٨٤ على أثر الحوادث السودانية . ثم ورد الشدياق بمصر وقد تنفس به العمر وخدد وجهه الكبر ، فأحسن المصريون وأميرهم لقاءه ووفادته ، وأكرموا مثواه وإقامته ، ثم ارتد إلى الآستانة فوافته بها منيته .

نثره وشعره

كان الشدياق متضلعاً من فنون الأدب ، متصرفاً فى فنون الإنشاء من هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة . حافظاً لمفردات اللسان ، بصيراً بمذاهب البيان ، يجيد النظم والنثر . وكان أسلوبه منسجم التراكيب ، متساوق المعانى ، موفور الازدواج ، شديد الإطناب ، كثير الاستطراد ، ظاهر المبالغة . أما شعره فأدنى رتبة وأقل جودة وأضعف ابتكاراً من نثره . فهو فى النثر مجدد وفى النظم مقلد وفى كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد .

مؤلفاته

له غير الفصول التى نشرتها الجوائب فى ثلاث وعشرين سنة كتب قيمة تدل على سعة طلاعه وطول باعه . وأشهرها :

كتاب (سر الليال فى القلب والإبدال) وهو كتاب لغوى تحليلى يشتمل

على سرد الأفعال المتداولة والأسماء المستعملة واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو تنسيق مادة . وقد طبع بالآستانة سنة **١٢٨٤ هـ** ثم كتاب (الساق على الساق فيما هو الفارياق) . والفارياق كلمة نحتها من فارس الشدياق وأطلقها على نفسه . أنشأ هذا الكتاب الضخم أثناء سياحته فى أوربا فوصف فيه أسفاره وأخباره وما كابده فى صدر حياته ، وندد برجال الكنيسة أخذاً منهم بثأر أخيه . ثم أورد الألفاظ المترادفة فى كل موضع على حدة كأصناف المأكول والمشروب والمشموم والحلى والجواهر ، وذلك أجل ما فى الكتاب . وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب وتطرفه فى المجون واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر عن مثله ، ولا يليق بفضله .

ثم كتاب (الجاسوس على القاموس) جمع فيه المآخذ التى أخذها على قاموس الفيروزابادى . ثم (كشف المخبا عن أوربا) وهو وصف شامل لسياحته فى البلاد الأوربية . و (الواسطة فى أحوال مالطة) وهو وصف لهذه الجزيرة أراضيها وأهليها وحاضرها وماضيها .

نموذج من كلامه

من الناس من يبالغ فى مدح وطنه ، ويحن إليه حنينه إلى سكنه ، فيصف مروجه ورياضه ، وبروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعه وتلاله ، وربوعه ودياره ، ونباته وأشجاره ، وبقوله وثماره ، ودوحه وأطياره ، وطيب هوائه ، ولذة مائه ، ويزعم أن فصوله كلها كالربيع حسنا ، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمنا ، وأن شهراً فيه خير من ألف عام فى غيره ، وأن كل بلد مستمد من خيره ، ومحتاج إلى ميره ، ثم يزفر زفير الهائم الحيران ، ويصرخ صراخ الولهان : ألا إن حب الوطن من الإيمان . لقد جبت السهول والحزون ، وركبت الذلول والأمون ، وطوفت فى الأمصار ، وجوّلت فى الأقطار ؛ وضربت فى مناكب الأرض مستقصياً ، واختبرت أحوال من عليها مستفتيا ؛ فلم أجد عيشا هنيئاً إلا فى بلادى . هى البلاد

التى تغزلت بها الشعراء ، فقال فيها فلان أبياتاً ، وقال فيها فلان قصيدة غراء ، واسمع ماقيل فى جداولها ونواعيرها ، وبلابلها وعصافيرها ، وخمائلها وأزاهيرها ، وصروحها وقصورها ، ومصانعها ودورها ، وظبائها ومراتعها ، وزكائها ومواقعها ، وفى أريج آفاقها ، وبهيج أشفاقها ، ونضرة حدائقها ، وبهجة شقائقها ، فإذا قلت له : كيف جارك الأدنى ؟ لعله كان لك عوناً وخدناً ! قال : ويلى إنه شرّ جار ، وهو على البلاد عار وشنار . فكيف جاره الذى يليه ؟ عسى أنه ممن تؤالفه وتصافيه ! قال ويلى إنه شر من أخيه . فكيف أهل الحارة طراً ؟ قال : ويلى إنهم كانوا كلهم على شراً ، ولم أجد منهم إلا ضرّاً . فكيف أهل المدن والأمصار ؟ قال : وَيلى إنهم أولو غبن وغش وتغرير وإخفار ، ما تعامل منهم من أحد إلا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار . هذه حالة سكان البلاد ، الحاضر منهم والباد ، فلا تكثرنّ من السؤال ، ولا يخطرنّ ببالك غير هذه الحال . فإن شئت قلت له . ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن ، وأهلها على هذه المساوىء الشوائن ؟ قال : إن أهلها الأولين كانوا من الخيرين ، فحرثوها وزرعوها ، وعمروها وأمرعوها ، ثم فسد الزمان فجاءت خلفاتهم فاسدة ، لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة . ولكن مامعنى الزمان ؟ وهو لم يكن صالحا قط منذ خلق الإنسان ، والتواريخ على ذلك شاهدة ، ونصوصها عليه متساندة متعاضدة . ثم فكيف فسدت الناس وأنت بقيت من بينهم صالحاً ، ترى كل من سواك طالحاً ، ولو كنت من الصالحين ، لما رأيت فى غيرك خلقا يشين . فإنما ينظر فى عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالا .

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

كذلك قال الشاعر الحكيم : فما أنت فى طعنك على جنسك إلا مليم .

وإن امرأ يحسب جميع أهل بلاده دونه ، لجدير بأن يشيعوا فتونه ويذيعوا جنونه .

بطرس البستانى

١٨١٩ — ١٨٨٣ م

نشأته وحياته

ولد العالم الضليع واللغوى المحقق بطرس بن بولس البستانى المارونى بقرية من قرى لبنان تسمى الدبية على عهد الأمير بشير. ثم أدخل مدرسة عين ورقة فلبث فيها عشر سنين تعلم فى أثنائها العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، وتفقه فى الفلسفة واللاهوت والفقه، وتبحر فى التاريخ والجغرافية والحساب؛ ووقع فى نفسه أن يخدم الكنيسة، ولكن بدا له فأحجم وانصرف إلى التعليم. ثم وفد إلى بيروت واتصل بدعاة المذهب الإنجيلى من الأمريكان فدرس على بعض أساتذتهم الانجليزية والعبرية واليونانية وبعض العلوم الحديثة، ثم دخل فى نحلتهم ودعا بدعوتهم وساعدهم على ترجمة التوراة. ثم أنشأ فى سنة ١٨٦٣ مدرسة عالية سماها (المدرسة الوطنية) نالت بحسن إدارته وعظيم عنايته شهرة مستفيضة، فتقاطر إليها الناس من الشام ومصر والآستانة واليونان والعراق. ثم تخلى عن رياستها لابنه سليم البستانى وتفرغ هو للمطالعة والكتابة والتأليف، ففرغ فى عام ١٧٦٩ من تأليف معجمه المحيط. وفى سنة ١٨٨٠ أنشأ مجله علمية أدبية سياسية دعاها الجنان وعهد بإدارتها وكتابتها إلى ابنه سليم؛ ثم عززها بعد بصحيفة الجنة وجريدة الجنينة. وشرع بعد ذلك فى وضع (دائرة المعارف) وهو عمل خطير يُعجز الفرد وينوء بالجماعة فى قبيل كقبيله وجيل كجيله. ولكن حذقه لأشهر اللغات، واعتصامه بالصبر والثبات، ذللا له العقاب وسهلا عليه الصعاب، فأصدر منها ستة مجلدات. ونزل به موت الفجاءة وهو يعمل فى السابع فقام به من بعده بنوه وفقد الشرق بموته ركناً من أركان نهضته وعلماً من أعلام هداه.

علم وفضل

نبغ البستانى فى عصر فشت فيه الجهالة وغشى الناس الظلام فحمل المصباح وأنار الطريق ، ونصب نفسه للهداية والدعاية فألف الكتب، وأصدر الصحف، وأنشأ المدارس ، وملأ حياته النافعة بجليل الآثار وخطير الأعمال ، وفى ذلك دليل على نفس عبقرية وعزيمة فتية وإرادة قوية . فمن تلك الآثار الخالدة : محيط المحيط، وهو معجم لغوى على النمط الحديث استوعب فيه قاموس الفيروزابادى وصحاح الجوهرى ورتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الثلاثى المجرد ، وجمع فيه كثيراً من الكلمات العامية وما يقابلها من اللغة الفصيحة ، وكشف عن أصول كثيرة من الكلمات الأعجمية التى لم تعرف من قبل ، ووضع طائفة من المصطلحات للعلوم الحديثة . وقد استخرج منه لطلاب المدارس مختصراً سماه قطر المحيط . ومنها دائرة المعارف ، وقد أصدر منها كما علمت ستة مجلدات وأتم ابنه سليم السابع والثامن وقضى نحبه فى التاسع ، فأتمه بنوه الباقون بمعونة ابن عمهم سليمان البستانى مترجم الألياذة ، ثم وقف عملهم عند ذلك . فلما وفد إلى القاهرة سليمان البستانى أراد أن يتم هذا العمل الجليل فأصدر هو ورجلان من بنى عمومته الجزأين العاشر والحادى عشر ، ثم حال نقص الأداة دون التمام .

وللبستانى غير هذين الأثرين العظيمين كشف الحجاب فى علم الحساب ، ومفتاح المصباح فى الصرف والنحو ، وعدد عديد من المقالات والرسائل .



إبراهيم اليازجي

١٨٤٧ — ١٩٠٦ م

نشأته وحياته

وُلد العلامة اللغوى الناقد الكاتب الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجى ببيروت عام ١٨٤٧ م فى بيت معمور بالفضل ، مشهور بالأدب ، وتلقى العلم عن أبيه الشيخ ناصيف عميد الأسرة اليازجية . ثم عكف على كتب اللغة والأدب ، فأتقن علوم اللسان ، وعرف مطارح الإساءة والإحسان ، وحفظ كثيراً من جيد المنثور والمنظوم . ثم قام بتدريس اللغة العربية فى المدرسة البطريركية . حتى إذا قام الآباء اليسوعيون على ترجمة التوراة منافسة للترجمة الأمريكية التى قام بها المرسلون الأمريكيون عهدوا إليه بضبط ألفاظها وتنقيح عباراتها فقضى فى هذا العمل تسع سنين كان فى أثنائها يعالج النظم والنثر والبحث والنقد ، وينشر ما يريد من ذلك فى المجلات التى شارك فى تحريرها كالمصباح والطبيب فى بيروت . ثم هاجر إلى القاهرة فى عام ١٨٩٤ م ، وأنشأ مجلة البيان سنة ١٨٩٧ مع الدكتور بشاره زلزل . ثم استقل بمجلة أخرى دعاها (الضياء) وظل يصدرها إلى أن انتقل إلى دار القرار سنة ١٩٠٦ .

أدبه وعلمه

كان الشيخ إبراهيم عليما بأسرار العربية ، عارفاً بمفرداتها وفرائدها ، حافظاً لنوادرها وشواردها ، واقفاً على صحيحها وفاسدها . فكان يتعقب الكتاب والشعراء فى مجلتيه البيان والضياء ، يدلهم على الخطأ ويرشدهم إلى الصواب . وكثيراً ما كان يحتدم الجدل بينه فى الضياء وبين الشنقيطى فى مصباح الشرق ، لتحرير لفظة ، أو تصحيح رواية ، أو تنقيح نص : وبفضل هذا التعقب شعر

الأدباء بمراقبة النقدفأخذوا أنفسهم بالتدقيق والتروية والمراجعة . واستفاد المعلمون مما أحصاه من الأخطاء الشائعة فى لغة الصحف والكتب ، فأشاعوا تصويبها فى مؤلفات الأساتذة وكراسات التلاميذ . ورأى اليازجى محصول المنشئين والصحفيين من اللغة قليلا فاختار لهم طائفة من التعابير البليغة المأثورة فى كتاب سماه (نجعة الرائد فى المترادف والمتوارد) كما جمع ماأحصاه من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء فى كتاب سماه (لغة الجرائد) والشيخ إبراهيم بعد ذلك طويل الباع فى الصناعتين ، له شعر جزل محكم ، ونثر مطبوع رائق .

نموذج من كلامه

كتب يعزى بعض أصدقائه :

من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع ، فلم يصحب دهره على غرة ، ولم يفتر من الأقدار بفترة ؛ لم تكبر عليه الرزيئة إذا اغتالت ، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت ، فإن للدهر رقدة وهبَّة ، وإن الليالى كمنة ووثبة . ومثلك من أدرك مبادىء الأمور ومصايرها ، وعرف موارد الحياة ومصادرها ، وإنما الموت طور من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة فى الوجود. ولا أزيدك علما بالكون وشرائعه ؛ والكائن وطبائعه ، إنما هى ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله ، وحل بساحته القضاء فأذهله . وحسبى من التعزية على بما عندك من موارد العلم المتاح ، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح. وما أخلقنى بأن أقول : إن رزءك هذا قد زادنى شجنا على أشجانى ، ونكأ ما تماثل من قرحة أحزانى . ولكنى قد صيرنى الدهر إلى حال ، لا تعمل فيها حال ، ولا أبالى معها بسلم ولا قتال ، فكأنما إياى عنى أبو الطيب حيث قال:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

حمزة فتح الله

١٨٤٩ — ١٩١٨ م

نشأته وحياته

ولد الأستاذ اللغوى الشيخ حمزة فتح الله بالاسكندرية عام ١٨٤٩ ونشأ بها نشأة الأوساط ، فحفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية واللسانية ، ثم عزم الرحلة إلى تونس فلبث فيها بضع سنين حرر فى أثنائها جريدة الرائد التونسى . ثم عاد إلى الأسكندرية واتصل بالخديو توفيق ، فأوحى إليه أن يحرر جريدة الاعتدال عام الثورة العرابية ذياداً عن عرشه وتأييداً لسياسته ، فما حال عليها الحول .

وفى سنة ١٨٨٦ مثل الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى فينا كما مثلها مرة أخرى فى هذا المؤتمر نفسه حين اجتمع فى استكهلم سنة ١٨٨٩ . ثم رأى أن يزاول التعليم بعد الصحافة فعين سنة ١٨٨٨ مدرسا بمدرسة الألسن فدار العلوم . ثم انتقل إلى التفتيش فمكث به إلى أن أحيل على المعاش سنة ١٩١٢ م فعكف على البحث والقراءة حتى وافاه أجله فى إبريل من سنة ١٩١٨ م وقد كف بصره .

أخلاقه وعلمه

كان رحمه الله سليم الصدر ، كريم الخلق ، غيوراً على اللغة ، ولوعاً بالأدب مُغْرى بالبحث ، فسرت هذه الصفات إلى أكثر تلاميذه ، فرفعوا شأن اللغة ، وأحيوا موات الأدب . ألف كتاب (المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية) أثناء تدريسه بدار العلوم . ثم كانت له اليد الطولى فى تنقيح كتب الدراسة بالمعارف .

عالج النظم على طريقة المتقدمين ، والنثر على طريقة المتأخرين ، فكان وسطاً فى الحالين ، كما يتضح لك ذلك من هذين النموذجين :

نموذج من كلامه

خير ما أثر عنه من الشعر قصيدة أنشدها فى مؤتمر المستشرقين يقول فى مطلعها :

حَمْد السُّرى يا أخيَّ العود والناب   أنساك وعثاء إغباب وإخباب

ومنها فى الحكم :

ومن يرُد نيل مجد وهو فى دعة   فقد بغى من صفاة دَرَّ أحلاب
والمرء فى موطن كالدر فى صدف   والتبر فى معدن والنبع فى غاب
والسيف مثل العصا إن كان مغتمداً   وزامر الحى لا يحظى بإطراب
وأزهد الناس فى علم وصاحبه   أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

وكتب إلى السيد عبد الحميد البكرى معتذراً :

مولاى : أما الشوق إلى رؤيتك فشديد ، وسل فؤادك عن صديق حميم ، وود صميم ، وخُلّة لا يزيدها تعاقب المَلَوَين ، وتألق النَّيِّرين ، إلا وثوقاً فى العُرا ، وإحكاماً فى البنا ، ونماء فى الغراس ، وتشييداً فى الدعائم . ولا يظنن سيدى أن عدم ازديارى ساحته الشريفة ، واجتلائى طلعته المنيفة ، لتقاعس أو تقصير ، فإن لى فى ذلك معذرة اقتضت التأخير . والسيد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقه ، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة . وبعد فرجائى من مقامكم السامى ألا تكون معذرتى هذه عائقاً لكم عن زيارتى ، فكم مِنَّةٍ طوقتمونيها ، ولكم فيها فضل البداءة وعلىَّ دوام الشكران والسلام .



الخطابة والخطباء

ظلت الخطابة فى أول هذا العصر على ما كانت عليه فى آخر العصر العباسى لاتتعدى الجوامع والبِيَع ، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة . فلما دعا داعى الثورة العرابية ظهرت الخطابة السياسية على ألسنة زعمائها ، وأشهرهم السيد عبد الله نديم والشيخ محمد عبده وأديب إسحق واللقانى . ثم مرّن عليها كثير من الوعاظ والأدباء وأقاموا المجامع الأسبوعية للخطابة فى الأخلاق والدين والاجتماع والسياسة ولكن الخطابة لم تجْلُ عنها أعقاب العلة المزمنة إلا فى عهد الزعيم الوطنى الكبير مصطفى باشا كامل المتوفى سنة ١٩٠٨ م ، فقد كانت له أمضى سلاح فى جهاده . وأقوى معين فى إيقاظ بلاده . ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية ، ونهوضه بالحركة الاستقلالية ، أخذ شبابنا ولا سيما المحامين يتدربون عليها حتى نبغ منهم الآن طائفة صالحة . ولعل الشرق لم يشهد فى عصر من عصوره خطيبا حافل القريحة ، قوى العارضة ، جهورى الصوت ، قبل المغفور له سعد باشا زغلول . وإنا لنتوقع للخطابة فى عهد نظامنا الدستورى رقياً سريعاً ؛ فإن الحرية السياسية ، والمنافسات الحزبية ، والمناقشات البرلمانية ، من أبلغ العوامل أثراً فى رقى الخطابة . ولولاها ما كان دِيمُستين فى اليونان ، ولا شيشرون فى الرومان ، ولا علىّ فى العرب .

عبد الله نديم

المتوفى سنة ١٨٩٦ م

نشأته وحياته

ولد السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم فى الاسكندرية ، ونشأ بها نشأة الأوساط فتعلم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن فى الكتاب وهو يومئذ

المدرسة الأولى لأبناء الشعب . ولما أيفع دخل معهد الاسكندرية في جامع الشيخ فأدرك قسطاً موفوراً من علوم الدين واللسان . وطغى ميله الأدبي عَلى ميوله الأخرى فحفظ الأشعار وروى الأخبار وعالج النظم والنثر . ثم داخل العلماء وطارح الأدباء حتى شغله ذلك عن العكوف على الدرس . وأعجله طلب الرزق عن متابعة الطلب في المعهد فانصرف عنه إلى تعلم فن البرق (التلغراف) فتعلمه وتكسب عن طريقه حيناً من الدهر في (تلغرافات الحكومة) ، ثم فصل عن هذا العمل فتعاطى التجارة في مدينة المنصورة فلم تربح تجارته ولم يسلم رأس ماله ، فعاد إلى الاسكندرية وكان أولو الفضل قد أسسوا في ذلك الحين جمعية إسلامية خيرية لإنشاء المدارس للبنين والبنات فشارك النديم في هذا العمل وتولى نظارة المدرسة الأولى لهذه الجمعية . وأمدته الحكومة بالمكان والمال عَلى ألا تكون مقصورة على المسلمين ؛ ثم جعلها الخديو توفيق تحت رعايته . وكانت هذه الجمعيه من المحاريب السياسية والاجتماعية يجتمع فيها الناس ليلا ليسمعوا الخطب في مختلف الشؤون من أمثال عبدالله نديم ، وأحمد سمير ، وأديب إسحق ، وإبراهيم اللقاني .

ثم ألف السيد عبد الله رواية تمثيلية عنوانها (مصر وطالع التوفيق) مثلها طلاب هذه المدرسة ، كان مغزاها الأسى على تقهقر مصر وتحكم الأجنبي بها . ثم أخذت آراء الأفغاني تهفو بالنفوس وتعصف بالرءوس ، فشغُل النديم عن الجمعية والمدرسة وأنشأ جريدة (التنكيت والتبكيت) وهي أسبوعية كانت تلبس الجد ثوب الهزل . ثم استبدل بها (الطائف) فكانت بوقا من أبواق الثورة العرابية ، وميداناً من ميادين الحركة الوطنية . وكان هو خطيب الثورة الصارم اللسان الجريء الجنان القوي الأثر . ولما خبت نارُها وقُبض مشعلوها اختفى عبد الله نديم عشر سنين قضاها متنكراً في كل زي ، متنقلا في كل بلد ، حتى قبض عليه فحبس أياماً وعفا عنه الخديو على أن يخرج من مصر إلى حيث شاء . فأقام في فلسطين حقبة من الزمن عاد بعدها إلى القاهرة مطلق السراح ، فأنشأ بها مجلة أدبية سماها (الأستاذ) انتشرت في مختلف البيئات والجهات انتشاراً عجيباً أقض مضاجع

الحكومة فنفته مرة أخرى من البلاد . فرحل إلى الآستانة ونفق عند السلطان فعين مفتشاً للمطبوعات فى الباب العالى وظل فى منصبه إلى أن قبضه الله إليه .

أخلاقه ومواهبه

كان السيد عبد الله نديم خطيباً موهوباً ذلق اللسان ، فصيح العبارة ، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، شديد التهكم ، عاضه الله من قلة العلم وضيق الاطلاع سلامة الطبع فى الأدب وسماحة القريحة فى الكتابة وغزارة البحر فى الخطابة . ثم تقلبت به الأحوال السياسية والاجتماعية فاتصلت أسبابه برجال الحكم ، وطال اختلاطه بقادة الشعب ، وكثر اضطرابه فى مختلف الأرض . وتخلل طبقات الناس فبلا أخلاقهم وسبر أهواءهم . وكان لذلك كله أثر بالغ فى علمه بمخبآت الضمائر ، ومقتضيات الأحوال ، وأخذه بأعنة الكلام يصرفه فى أى معنى شاء ، حتى قال فيه السيد جمال الدين الأفغانى : « مارأيت طول حياتى مثل النديم فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكما بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب » .

نموذج من كلامه

قال من رسالة له عمد فيها أن يقتبس الفاصلة الثانية من القرآن :

لا حول ولا قوة إلا بالله ، اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر ، وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف والخز بالخشف ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبرة . سمعاً سمعاً ، فالوشاة إن سعوا لا يعقلوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . عجيب لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . وأنت ياعزيز العليا ، ووحيد الدنيا ، قد بينت لك فعلهم ، فبما رحمة من الله لنت لهم . ولكنهم طمعوا فى عميم طولك ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك .

مصطفى كامل

١٨٧٤ — ١٩٠٨

نشأته وحياته



ولد زعيم النهضة المصرية وموقظ الروح الوطنية ، مصطفى كامل بالقاهرة سنة ١٨٧٤م فى بيت اشتهر بكرم الأصل وعفة النفس وصحة الدين ، ثم تلقى دروسه الابتدائية والثانوية فى المدارس المصرية ، ثم دخل مدرسة الحقوق فنال إجازتها وسنه لم تتجاوز التاسعة عشرة. وكان فى أثناء الطلب قد اشتهر بين الطلاب والكتاب بقوته فى الكتابة وقدرته على الخطابة ، فنشر كثيراً من المقالات السياسية فى صحيفتى الأهرام والمؤيد ، وأصدر مجلة أدبية شهرية سماها (مجلة المدرسة) أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة ، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسمون خطاه. ولما نال شهادة الحقوق لم يتجه إلى العمل فى القضاء ولا فى المحاماة ، وإنما اتجه إلى خدمة وطنه من طريق السياسة والصحافة ، فسافر إلى أوربا مراراً يدعو إلى مصر بالكتابة فى صحفها والخطابة فى محافلها . وداخل رجال السياسة فى فرنسا وانجلترا يستمد منهم التوجيه والعون ، ومن هؤلاء أمه الروحية السيدة جولييت آدم الفرنسية التى يقول لها فى بعض رسائله : « إننى لا أزال صغيراً ، ولكن لى أملا كبيراً . أريد أن أوقظ فى مصر الشيخة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا

أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له فى نفسى من الحب الشديد الذى سيتغلب على كل حب سواه » .

ثم أنشأ (اللواء) فى ثلاث نسخ : بالعربية والإنجليزية والفرنسية ، فدافع بها عن بلاده ، وجاهد فى سبيل حريتها حق جهاده ، حتى أدرك ، هو فى طراءة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل . وكان فى مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة فى سبيل الثراء والحكم ، ولكنه زهد فى ذلك كله زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات للقدوة والعبرة . ولما بلغ هذا الجهاد المتصل وهذا الجهد المرهق من جسده الناحل ألف (الحزب الوطنى) ليحمل عنه الأمانة ويبلغ بعده الرسالة ؛ ولكن المنية لم تمهله بعد ذلك إلا أياماً فاخترمته رضى الله عنه وهو دون السابعة والثلاثين من عمره .

مصطفى كامل الخطيب

كان مصطفى كامل خطيباً طلق البديهة ، رائق المنطق . ندى الصوت ، عذب النبرة ، أنيق اللهجة ، لا يتلكأ ولا يلحن ولا يتلعثم . وكان كاتباً حلو اللفظ رقيق الأسلوب ، قوى الروح ، صادق الفكرة ، نبيل الغرض ، وبهذه المزايا الموهوبة والمكسوبة ، استطاع أن يحيى الموات ، ويجمع الشتات ، وينعش خمود الشعب بالآمال المطمعة ، ويقارع طغيان المحتل بالحجج الملزمة .

نموذج من خطبه

قال من خطبة له ألقاها بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر من سنة ١٩٠١ :

بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ! لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر ! يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها ! وهل يستطيع مصرى ألا يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها ، فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

ألا أيها اللائمون ! انظروها وتأملوها ، وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأناً ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعبها الذى يسكنها و يتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها ، وسلم أزمتها للأجنبى :

إنى لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً !

سعد زغلول

المتوفى سنة ١٩٢٧ م

نشأته وحياته



ولد سعد زغلول فى (إبيانة) من أعمال مديرية الغربية وتلقى فى كتاب القرية مبادىء الثقافة العامة وأولها حفظ القرآن الكريم ؛ ثم أرسله أبوه إلى الأزهر فدرس علوم الدين واللغة والمنطق ثم صارت له فى الجدل والمناظرة شهرة . واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى حين هبط مصر فلزمه وأخذ عنه وتأثر به وكان سعد بفطرته مجبولا على مناصرة الحق ومجاهدة الباطل ومحاربة النقص . عين بعد أن ترك الأزهر محرراً فى الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام فكان يكتب فى الاستبداد

والشورى والأخلاق ، وينتقد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة ، وكان حكمه حكم القاضى الجزئى فنزل الحق من عدله وعقله فى حمى أمين . ثم أصغى لقضية الحق فى الثورة العرابية ففصل من وظيفته وسجن فى (الضبطية) سبعة أشهر . ولما أطلق من سجنه زاول المحاماة ، ولم يكن يشترط فى مزاولتها حينئذ إلا أداء امتحان فى المحكمة فكان أول محام أقرته المحاكم الأهلية فى مصر .

ثم أختير نائب قاض فى محكمة الاستئناف . ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص والدرس المحيط والاستنباط الدقيق والحكم الموفق . وفى سنة ١٩٠٦ م عين ناظراً للمعارف العمومية وكانت العلوم كلها تدرس فى اللغة الإنجليزية فجعلها تدرس فى اللغة العربية ، وكان من ذلك أن ترجمت العلوم وألفت الكتب وانتعشت الثقافة . ثم عين ناظراً (للحقانية) فجد فى إصلاح نظم القضاء وتنقيح مواد القوانين لتلائم العصر وتسد الحاجة . ثم أقيل من الوزارة فانتخبته الأمة نائباً عنها فى (الجمعية التشريعية) فكان بحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومتّجه الأفئدة .

ولما أعلنت الهدنة فى الحرب العالمية الأولى ووضعت قضية العالم كله على مكاتب الغالبين فى (فرساى) تحركت مصر للمطالبة بحقها فى تقرير مصيرها ووكلت عنها وفداً يتقدم مطالبها ويحقق رغائبها برياسة سعد باشا زغلول ، فنفته السلطة العسكريه الإنجليزية فى نفر من صحبه إلى جزيرة مالطة ، فثار الشعب المصرى ثورته المعروفة سنة ١٩١٩ . وكان من آثارها أن أطلق المعتقلون وخلى بينهم وبين مؤتمر الصلح فى باريس .

وفى سنة ١٩٢٠ م دعته الحكومة البريطانية إلى لندن لتفاوضه الرأى فى المطالب المصرية فشخص إليها مع بعض أعضاء الوفد . ولكن المفاوضة لم تسفر عن تحقيق الأمانى القومية فقطعها وعاد إلى مصر فقابلته الأمة مقابلة الفاتح الظافر . واستأنف

الجهاد على الخطة التى رسمها فأقض مضاجع الانجليز فنفوه مرة أخرى إلى جزيرة سيشل مع نفر من أصحابه فلبثوا فيها مدة ، ثم نقل هو إلى جبل طارق . وأطلق سراحهم جميعاً بعد ذلك ، فشخص سعد باشا إلى فرنسا من فوره فظل فيها حينا ثم ارتد إلى مصر . وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت من جانبها تصريح ٢٨ فبراير من سنة ١٩٢٢ بتحفظاته الأربعة ، فأعلن الملك فؤاد الأول استقلال البلاد وأصدر الدستور فى سنة ١٩٢٣ . وأسفر الانتخاب عن فوز الوفد بالكثرة فتولى سعد رياسة الوزارة فى أوائل سنة ١٩٢٤ م ، ثم اعتزلها فى السنة نفسها وتولى رياسة مجلس النواب وظل فيها حتى اختار الله له ما عنده .

منزلته فى الخطابة

لم ير التاريخ المصرى ، بل الشرق ، قبل سعد خطيبا ، بلبل اللسان ، رفيع الصوت ، حافل البديهة ، دامغ الحجة ، أنيق اللهجة رائع البيان، حسن السمت ، يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الاقناع والامتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الإيقاع .

ذلك لأن سعداً كان رجل جلاد وجدل . تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبى اللسان والقلم ، وتنفس به العمر فى ميادين الحق . فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة ، وتثقفت بالتجربة ، وتقوت بالمرانة ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذى يهضب[1] بالكلام أربع ساعات متواليات ، لا يتلكأ ، ولا يتلجلج ، ولا يتكثر باللغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع . وكان مع ذلك يخطب كما يكتب ، ويكتب كما يخطب ، متوحيا فى الأمرين براعة التفكير ، وبلاغة الأداء ، وجمال الأخيلة وابتكار التعابير ، وصحة الأقيسة ، وقوة الأدلة .

(١) فلان يهضب بالشعر أو بالخطب : يسح بها سحاً .

نموذج من نثره

وجه رحمه الله هذا النداء إلى الأمة المصرية عقب عودته إلى مصر فى صدر سنة ١٩٢١ م :

رحبت الأمة بعودة نوابها ترحيباً فاق كل ترحيب ، وأعجز وصف كل كاتب وخطيب ، فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضمائرهم النيرة ، وباعث من شعورهم الحى ، ترتعش أعصابهم حماسة ، وتخفق قلوبهم بالوطنية الصادقة ، للالتفاف حول من اتخذوهم رمز أمانيهم ، وعنوان مبادئهم . ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تتجلى فيما استقبلنا به من مظاهر الفرح الباهر — تلك الصفات التى تضمن للشعوب تقدمها وللأمم سعادتها . وشعرت من قبلات الترحيب التى غمرونا بها بحرارة قلب يخفق فى جسم شعب عظيم . وقد اشترك الأموات والأحياء فى أن يملوا على المجموع وكل فرد واجبه نحو الوطن العزيز ، وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير فى الطريق الذى سنه الحق القويم . وإن الشرف والكرامة والإخلاص لوطننا المقدس لمما يوجب علينا طاعة هذا الأمر الكريم ، والتزام هذا الطريق المستقيم .

إننا نشكر البلاد جميعها ، قريبها و بعيدها ، على حلة الثقة التى زينتنا بها ، ونقسم بالوطن وشعائره المقدسة — ويشاركنا فى هذا القسم العظيم أصحابنا المخلصون فى جهادهم — إننا لا ندخر شيئا من وسعنا لتحقيق هذه الثقة الغالية ، ولا نتحول لحظة واحدة عن الغرض الذى وضعناه نصب عيوننا حتى نصل إليه .

إننا لم نعد إلا لنقوى بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ، ونشد أزرنا باتحادهم المتين ، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة ، ونتأكد من أن الاشتراك فى المفاوضات الرسمية التى دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادىء التى وضعتها الأمة ،

وعاهـــدناها على احترامها ، ومع الخطة التى رسمتها وتعهدنا بمتابعتها . ولا شىء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة ، وعاملة على تحقيق غايتها السامية .

لم يبق علينا إلا أن يعود كل منا إلى عمله ، ويقبل على شأنه ، فالتلميذ إلى مدرسته ، والفلاح إلى مزرعته ، والصانع إلى مصنعه . والتاجر إلى متجره ، والـكاتب إلى مكتبه ، والمرأة إلى إدارتها بيتها . وعلى الـكل من غنى وفقير أن يباشر عمله ، مراقباً أعمالنا ، واضعاً نصب عينيه المقصد الأسمى ، وأن يعتقد أنه يزيد بما يعمل فى كنوز الوطن كنزاً ، ويضم إلى قواه قوة .

إلى العمل جميعاً ، لنرفع منار الوطن ، ونعلى كلمته ، ولتحى مصر !

الفصل الخامس

الشعر

لم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم . فظل الشعر — على ندرته — كما كان فى العصر الماضى أسيرَ التقليد والصنعة . ثم أدركته نفحة من الهبّة العامة فى عهد الخديو اسماعيل ، فتردد ذكره على ألسنة شعرائه وندمائه ، كالسيد على أبى النصر[1] والشيخ على الليثى[2] . وأخذت هذه الحركة تطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية ، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية . وكان البارودى أول من أقام عمود الشعر وجدد دارس القريض ، فترسم خطى الفحول من شعراء العباسيين ، وحاكاه الناشئون من شعراء العصر ، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار الجاهليين والإسلاميين ، فأخصبت القرائح ، وأدركت السلائق ، وصحت الأذواق ، وجرى الشعر جزل اللفظ ، محكم النسج ، متين القافية ، مشرق المعانى ، متخففاً من أثقال البديع وأوزار الصنعة . ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوربية ، وتعلم اللغات الأجنبية ، ونشاط الحركة العلمية . وقصدوا إلى اكتناه النفوس وتحليل الأشخاص ، وتعليل الأشياء ، ومناجاة الطبيعة وحاد أكثرهم عن الأساليب العتيقة كالاستهلال

---

(١) ولد السيد على أبو النصر فى منفلوط ، ونبغ فى عهد إسماعيل ، ونال الحظوة لديه وعاش على جوائزه ، ورافقه فى أسفاره . ثم كانت وفاته سنة ١٨٨٠ م وله ديوان شعر مطبوع بمصر .

(٢) كان الشيخ على الليثى لطيف المعاشرة فكه المحاضرة ، خفيف الروح ، فقربه الخديو إسماعيل ، وجعله شاعره ومسامره ومسايره . توفى سنة ١٨٩٦ م دون أن يدون شعره فى كتاب .

بمقدمة خارجة عن الموضوع فى الغزل أو غيره تحتاج إلى تخلص ؛ ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حى تتساعد أجزاؤه على غرض معين ؛ ونفروا من الأغراض القديمة كالمدح والفخر والهجاء والمجون ، لتغير البيئة واختلاف التربية. وجرت ألسنتهم بالمعانى العامة ، كرثاء مجد مفقود ، وانتقاد عيب موجود ، وطلب استقلال منشود . ولكن تقدم الشعر فى الجملة كان أبطأ من تقدم النثر ، لأن الثقافة العلمية فى مصر أسبق من الثقافة الأدبية ، ولأن الشعر لا يزال من ضروب الكمال التى لا تعد فى وسائل الكسب ولا تدخل فى صميم الحياة .

ومما يملأ النفس أسفاً ودهشة أن شعراء اليوم مُنُوا بالجمود والأذهان ثائرة، وأُصيبوا بالإصفاء وأسباب القول وافرة ؛ فالشعب مضطرم الشعور ثائر الفكر يجاهد فى سبيل وجوده وحريته بدمه وماله ، وهم قاعدون تحت الجُدْرِ يتثاءبون ويتمطّون على دفء الشمس تاركين الجيش من غير موسيقى ! اللهم إلا صدحات من أمير الشعراء شوقى وشاعر النيل حافظ ، يرسلانها الحين بعد الحين فتجلو صدأ الخواطر ، وتحيى مَوات القلوب . فلما توفى الله فى سنة ١٩٣٢ حافظاً وشوقى ، وكان أسماهما علمين على الشعر فى العهد الأخير ، تسابقت القرائح الشابة إلى ملء مكانيهما ، فنشط فى مصر القريض ، وتجاوبت الأفراخ النواهض بالأغاريد ، وشرقت الصحف والمجلات بفيض هذه القرائح ، ولكن أصواتها الناعمة الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة . ولاحت فى لبنان المهاجرة مواهب النبوغ ودلائل القيادة ؛ ولكن البعد يبدد الصوت القوى ، والاغتراب يوهن الجهد الجهيد . والزمن الذى يمحص الأشياء فينفى البهرج الزائف ، ويثبت الحق الصريح ، هو الذى يعرف مكان هذه الجهود ، من عالم الفناء أو من عالم الخلود .

الشعراء

محمود سامى البارودى

المتوفى — ١٩٠٤ م

نشأته وحياته

هو ابن حسن بك حسنى مدير دنقلة و بربر عَلَى عهد محمد على باشا . وُلد بالقاهرة وَشَبَّل فى نعمة أبيه . ولم يكد يحبو للسابعة حتى فجعه الموت فيه بدنقلة فعُنى بتأديبه بعض أهله : وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضابطاً . وكان وهو غض الحداثة مولعاً بحفظ الشعر و إنشاده ، ولا نعلم مصدر هذا الميل فيه . فأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان ، مطبوعاً على الإعراب دون علم بالنحو . ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق برائق الشعر فى الأغراض المختلفة . وسافر إلى الآستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية ، وتضلع من آدابهما حتى عدَّ من شعرائهما . واتصل هناك بالخديو إسماعيل عام ١٢٧٩ هـ ، فألحقه بحاشيته وعاد به إلى مصر ، فتدرَّج فى الرتب الحربية حتى سما سنة ١٢٩٤ هـ إلى (لواء) . ورحل فى أثناء ذلك إلى فرنسا وإنجلترا ، فازداد قوة فى أدبه ، وخبرة فى فنِّه . وكان أحد ضباط الحملة المصرية التى ساعدت الدولة العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش ، فأبلى فيها بلاء حسناً . فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فوُلِّىَ مديراً للشرقية ثم رئيساً للضبطية . وفى عهد توفيق تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة (فريق) وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العرابية . ورأس النظاره بعد شريف باشا ، فما لبث غير قليل حتى ثار نقع الثورة واستطار شرر الفتنة . وأكثرُ الناس على أن البارودى أول من فتح بابها وتدرَّع جلبابها ، ولكن شعره يبرئه من ذلك كما سيجىء .

وسكنت الثورة باحتلال الإنجليز وادى النيل وقُبِضَ على مثيرى الفتنة وَحُكِم عليهم بالنفى إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر . فلبث فى منفاه سبعة عشر عاماً وبعض عام تعلم فى أثنائها اللغة الإنجليزية ، ونظم بدائع شعره فى العربية . ثم وسعته رحمة الخديو عباس الثانى فعفا عنه سنة ١٣٢٧ هـ ومنحه التمتع بالحقوق المدنية فلم يعش بعدها إلا خمس سنين قضاها فى سكون الشيخوخة وادعاً قانعاً بين مطالعة الكتب ، ومحادثة الصحب ، ومعالجة القريض . وقد كف بصره قبيل موته .

شعره

إن كان لامرىء القيس فضل فى تمهيد الشعر وتقصيده ، ولبشار فى ترقيته وتجويده ، فللبارودى كل الفضل فى إحيائه وتجديده . كان الشعر فى عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة ؛ نظمٌ مرتبكٌ ، وتكلف باد ، وصناعة فاشية ، ومعنى سقيم . فجلاه فى خاطره وصقله على لسانه ، فجاء منضد اللفظ نقىَّ المستَشَفّ . تقصص البارودى شعر ابن المعتز وأبى فراس والرضىّ والطغرائى وأمثالهم من الفحول ، فارتسم شعرهم على لوح قلبه ، وانتقش فى صفحة ذهنه ؛ وصادف ذلك منه شعوراً فياضاً وذوقاً سليماً ، فاستخرَجَ من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق الفخم . لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمه أن أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه ، وتحلق فوق أبياته[1] .

ما كان البارودى مبتكر معان ولا مبتدع أساليب ، ولكنه كان رائض قواف وصائغ قريض . قد كلِفَ بالنغمة ؛ وانصرف إلى الصنعة ، فآثر المعنى الضئيل فى اللفظ الجزل ، على المعنى البليغ فى اللفظ الغث ، وقد أجاد وأبدع فى الفخر والحماسة والوصف .

(١) إشارة إلى أن البارودى كثيراً ما يقع على معانى هؤلاء الشعراء وألفاظهم دون أن يشعر لكثرة محفوظه .

مؤلفاته

له كتاب (مختارات البارودى) فى أربعة أجزاء وهو مجموع ما اختاره الثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسى فى أغراض مختلفة . وقد نهج فى اختياره طريقته فى نظمه ، فآثر حسن اللفظ والمعنى ، وحسن اللفظ ،على حسن المعنى وقبح المبنى . وله (ديوان شعر) فى جزأين قد طبع فى مصر .

نموذج من شعره

قال فى الحماسة والفخر :

ونقعٍ كلُجّ البحر خضت غماره ... ولا معقلٌ إلا المناصلُ والجُردُ
صبرت له والموت يحمر تارةً ... وينغَلُ طوراً فى العَجاج فيسوَدُّ
فما كنت إلا الليث أنهضه الطَّوى ... وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
صؤول وللأبطال هَمْسٌ من الوَنى ... ضروب وقلبُ القرنِ فى صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحى ضميرُها ... ولا لبَّة إلا وسيفى لها عقد

وقال يرثى زوجته :

لا لوعتى تدعُ الفؤاد ولا يدى ... تقوى على ردِّ الحبيب الغادى
يادهرُ فيمَ فجعتنى بحليلة ... كانت خلاصة عدَّتى وعتادى ؟
إن كنت لم ترحم ضناى لبُعدها ... أفلا رحمتَ من الأسى أولادى ؟
ومن البلية أن يُسامَ أخو الأسى ... رَعْىَ التجلُّد وهو غيرُ جماد
هيهات بعدكِ أن تقر جوانحى ... أسفًا لبُعدك أو يلين مهادى
وَلَهى عليك مُصاحب لمسيرتى ... والدمع فيك مُلازم لوسادى
فإذا انتبهت فأنتِ أول ذِكرتى ... وإذا أويتُ فأنتِ آخرُ زادى

وقال من قصيدة أخرى يتشوق :

ردوا علىّ الصِّبى من عصرى الخالى ... هل يعود سوادُ اللِّمةِ البالى !

من يدْرِ من بات مسروراً بلذته ... أنى بنار الأسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل إلى عِدَةٍ ... بالوصل يوم أناغى فيه اقبـالى ؟
غبتم فأظلم يومى بعـد فُرقتكم ... وساء صنعُ الليالى بعد إجمالى
فاليومَ لارَسنى طوعُ القياد ولا ... قلبى إلى زهرة الدنيا بميـال
أبيتُ منفرداً فى رأس شاهقة ... مثل القَطامىِّ فوق المِرْبأ العالى

وقال يخاطب مؤججى الثورة العرابية :

نصحت قومى: قلت الحرب مفجعة ... وربما تاج أمر غير مظنون
فخالفونى وشبـوها مكابرة ... وكان أولى بقومى لو أطاعونى
تأبى الأمور على مالبس فى خَلَدٍ ... ويخطىء الظن فى بعض الأحايين
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعة ... وأصبح الشر أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمى ومن شيمى ... صدق الولاء وتحقيق الأظانين

وقال من قصيدة بعد عودته من المنفى ، ومروره بقصر الجزيرة فتذكر عهد إسماعيل :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع ... هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحداً ... ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة ... للملك منها لو فد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ... ولا سميع إذا ناديت يستمع

ومنها :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع
والدهر كالبحر لاينفك ذا كدر ... وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ... ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع

إسماعيل صبرى

١٨٥٤ — ١٩٢٣ م

نشأته وحياته

وُلد هذا الشاعر الفنان ودَرج على ضفاف النيل ، وشب فى عهد إسماعيل عهد الحضارة والعمارة والأدب، فادخل المدارس النظامية الحديثة، وتنقل فى مدارجها من (المبتديان) إلى (التجهيزية) إلى (مدرسة الإدارة) حتى شارف الثامنة عشرة من عمره . وكانت بواكير النهضة الأدبية قد بَدت فى (روضة المدارس) وهى مجلة للطلاب ينشئها صفوة الكتاب فى ذلك العهد كرفاعة بك ، والشيخ حسين المرصفى أستاذ البارودى ، وعبد الله فكرى ، وصالح مجدى ؛ وكانت تصدر مرتين فى الشهر حافلة بمختلف الموضوعات والمنتخبات من نثر ونظم ، فكان صبرى يديم النظر فيها ، ويحاول الاقتباس منها والاقتداء بها ؛ وله من ذات نفسه ملكة قوية تدفعه ، وقريحة سخية ترفده ، وذوق سليم يرشده ، فنظم بعض القصائد تهنئة للخديو نشرها فى هذه المجلة وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً . ثم رحل إلى فرنسا مع البعثة المصرية يستكمل حظه من العلوم فى جامعة «إكس» فنال منها إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م ، لابس أثناء ذلك الحضارة الأوربية ، وتذوق الآداب الفرنسية، وصادفت مواهبه الغريزية هناك رِيًّا من الجمال والعلم والفن فازدادت نمواً وخصباً . فلما رجع إلى مصر انسلك فى طريق القضاء فقطع مراحله واحدة فواحدة حتى أشرف منه على الغاية . فخرج إلى الإدارة فتولى محافظة الاسكندرية ثم نقل منها إلى وكالة الحقانية فشغلها حيناً من الدهر ، ثم نفض يده جملة من خدمة الحكومة سنة ١٩٠٧ م لبلوغه سن التقاعد . ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ويساجلهم القريض ، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره أنغاماً موقعة على قيثارة شعره . وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للأدباء ،

يفدون إليها للسمر فينشدونه أشعارهم فينقدها نقد الصيرف، ويهذبها تهذيب المعلم، حتى نعتوه بالأستاذية، وأقروا له بالأولية. وظل على هذه الحال إلى أن مُنى بداء القلب، فغالبه بضع سنين ثم صرعه سنة ١٩٢٣ وهو فى التاسعة والستين من عمره

شعره

عَهِدْنا بالشعراء الوجدانيين ينبغون فى زهرة الشباب وربيع العمر حين تكون العواطف مشبوبة، والمشاعر مضطرمة، والآمال موفورة، والحياة منضورة؛ ولكن صبرى وهو شاعر وجدانى محض لم ينبغ إلا وهو آخذ بمخنّق الأربعين. فلم تتدفق قريحته فى صباه كالبارودى، وإنما حفلت على مرور الزمان وطول المرانة وإدمان النظر. لم يكن شعره فى الشباب إلا تقليداً لم يُحكم، وتفكيراً لم ينضج، ومحاولة لم تتم. ولكن الله قد رزقه أذناً موسيقية وذوقاً سليماً(١) وطبيعة ناقدة، فصاغه من الألفاظ المتخيرة. والمعانى المبتكرة، وسار وراء البحترى ينشد الحب والموت والجمال والصداقة، ويهزج بتلك المقطوعات الغنائية التى شفّت عن روحه، وكشفت عن طبعه، وأحلته من أنداده محل الزعيم. كان صبرى كما قال مطران أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها، أو خبر ذى بال يسمعه، أو كتاب يطالعه. وكان شديد النقد لشعره، كثير التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه السليم من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وكان ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة. وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصِّد قصيدته وهو نادر.

---

(١) قال الأستاذ الرافعى فى مجلة المقتطف: لم يكن فى مصر ممن يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبرى وإبراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعاً، فالبارودى يذوق بالسليقة، وصبرى بالعاطفة والمويلحى بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة. وذلك شىء ركبه الله فى طبيعة صبرى ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس، ومن أجله كان يفضل البحترى على غيره».

نموذج من شعره

قال فى الغزل ويقال إنه فى الآنسة (مى) .

يا لواء الحسن ، أحزاب الهوى ... أيقظوا الفتنـــة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهـــوى ثاراتهم ... فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هـــذا الحسن كالماء الذى ... فيه للأنفس رى وشـــفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده ... دون بعض ، واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدحمت ... سفن الآمال يزجيهـــا الرجاء
يقذف الشوق بهـــا فى مائج ... بين لجين : عناء وشـــقاء
شـــدة تمضى وتأتى شدة ... تقتفيها شدة ، هل من رجاء
ساعفى آمال أنضـــاء الهوى ... بقبول من ســجاياك رخاء
وتجـــلى واجعلى قوم الهوى ... تحت عرش الشمس بالحـكم سواء
أقبلى نســــــتقبل الدنيا وما ... ضمنته من معدات الهنـــاء
واسفرى ، تلك حُلى ما خلقت ... لتوارى بلثام أو خبـــــاء
واخطرى بين الندامى يحلفوا ... أن روضاً راح فى النادى وجاء
وانطقى ، ينثر إذا حدثتنا ... ناثر الدر علينـــــا ما نشاء
وابسمى ، من كان هذا ثغره ... يملأ الدنيا ابتساماً وازدهاء
لا تخافى شططا من انفس ... تعثر الصـــبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا ... وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتـــــدت أمانينا إلى ... ملك ما كدرت ذاك الصفاء
أنت روحانيـــة ، لا تدعى ... أن هذا الشـكل من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن ... للملا تـكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحىْ ملك ... خلف تمثال مصوغ من ضياء

وقال فى ساعة الوداع :

أترى أنت خاذلى ساعة التو ديع ياقلب فى غد أم نصيرى
ويك ! قل لى متى أراك بجنبى راضياً عن مكانك المهجور
ساعة البين قطعة أنت قدّت المحبين من عذاب السعير
لاتحينى ، روحى الفداء لما حيـــك غداً من صحيفة المقـدور

وقال :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وقال :

تمسى تذكرنا الشباب وعهده هيفاء مرهفة القوام فتذكر
تثب القلوب إلى الرءوس إذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر

وقال فى الصداقة :

إذا خاننى خِل قديم وعقنى وفوقتُ يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانثنيت ولم أرم

وقال :

ياموت خـــذ ما أبقت الا أيام والســـاعات منى
بينى وبينـــك خطوة إن تخطها فرّجت عنى

وقال يناجى الله :

يارب أين تُرى تقام جهنم للظالمين غـــداً وللأشرار
لم يُبق عفوك فى السموات العلى والأرض شبراً خاليـــاً للنار
يارب أهلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفـكار
ومُر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبى محنـــة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار

أحمد شوقى

المتوفى سنة ١٩٣٢ م

نشأته وحياته



ولد أحمد شوقى بن أحمد شوقى بالقاهرة ونشأ بها . أما أصله فقد سمع أباه « يرده إلى الأكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على باشا فأدخله فى معيته ، وظل يتقلب فى المناصب السامية حتى أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية[1] » .

ولقد كان أبوه متلافاً فأهلك ماورث عن أبيه فكفلته فى المهد جدته لأمه وكانت إحدى وصائف القصر فى عهد إسماعيل . ولما بلغ الرابعة من عمره ، أدخل فى مكتب الشيخ صالح فى حى الحنفى . ثم تلقى بعد ذلك دروسه الابتدائية والثانوية وتقدم إلى مدرسة الحقوق فى سن باكرة فقضى بها عامين . ثم عدل إلى قسم الترجمة الذى أنشىء فيها فقضى به عامين آخرين نال بعدهما شهادتها النهائية . ثم ضمه الخديو توفيق إلى معيته وأشخصه إلى فرنسا على نفقته ليدرس الحقوق والآداب فدرس عامين فى (منبلييه) وعامين فى باريس. ثم عاد إلى منصبه فى المعية الخديوية . وظل يتدرج فى المناصب حتى تولى رياسة

(١) مقدمة الطبعة الأولى لديوان (الشوقيات) .

القلم الأفرنجى فى عهد الخديو عباس الثانى . ونفق لدى هذا الأمير حتى كانت شفاعته عند ذوى الحكم لاترد وإشارته لاتخالف . ولما شبت الحرب العالمية الأولى خلعت انجلترا بقوة الاحتلال الخديو عن عرش مصر. ورأى أولو الأمر يومئذ أن يغادر شوقى البلاد ، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مقراً له ولأسرته ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العالم . ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم ، ومدائحه المروية فى الخديو المنفى ، مازالت توهى بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب . فانصرف الشاعر بإلهامه وأنغامه إلى الشعب ، يذود عن حوضه ، ويهتف بمجده ، ويعرب عن شعوره ، وينقل عن طبعه ، ويتغنى بجهاده ، حتى حمدت له مصر والعرب هذه اليد ، فأقاموا له فى دار الأبرا الملكية مهرجانا عاماً لتكريمه اشترك فيه رجالات مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول . ولم يزل شوقى مهبط الوحى والإلهام ، وموضع الإكبار والإكرام ، حتى انتقل إلى جوار الله فى سنة ١٩٣٢ ، فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب ، حفلة تأبين بدار الأبرا الملكية دعت إليها أقطاب العلم والأدب فى الأقطار العربية ورعاها الملك بنائب عنه .

شوقى الشاعر

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقى كان تعويضاً عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبى لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحى الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب .

كان شوقى ينقل شعره عن طبع دقيق ، وحس صادق ، وذوق سليم ، وروح قوى ، فيأتى به مطرد السلك محكم السبك لايشوبه ضعف ولا لنو ولا تجوز ولاقلق . وهو كالمتنبى فى أنه تصرف بين الناس فلابس أولياءهم ، وخالط دهماءهم ، حتى عرف كيف يصف طبائعهم ، ويصور منازعهم . وهومثله فى إرسال البيت النادر ، والمثل السائر ، والحكمة العالية ، مستخلصا ذلك مما

يسوق من معانى المدح أو الوصف أو الرثاء ، دون أن يتوخاه أو يقصد إليه — وهو كذلك مثله فى أن بيته يفيض بالمعنى البعيد المبتكر فيضاناً يغرق فيه الذهن أحيانا ، فلا يصل إلى قاع ، ولا يرسى إلى ساحل . أما معانيه فكثيرها مخلوق وقليلها مطروق . وأما ألفاظه فأنماط من القول تختلف مادة وصنعاً باختلاف المواقف ، وأكثرها عليه رونق طبعه ، وسمة ظرفه ، وعذوبة روحه . وقد يعفى طبعه أحيانا فيرسل شعره كما يجىء فيأتى بما لا يتفق مع فضله .

وشوقى محافظ فى دينه ولغته وفنه ، يكثر الترديد لأسماء الأنبياء والخلفاء والكتب المنزلة ، والأماكن المقدسة ، ويؤثر النسج عَلَى منوال الفحول من شعراء بنى العباس ، والنظم فى البحور الطويلة . وقلما ينظم فى الأوزان المستحدثة أو ينوع القافية فى القصيدة . على أن هذه المحافظة لم تمنعه من تكميل نقص الشعر العربى ، فقد ظل شعرنا إلى عهده غنائياً (lyrique) يستمده الشاعر من طبعه ، وينقله عن قلبه ، حتى جاء هو فنظم ما يشبه الشعر القصصى (Epique) فى طول النفس ووطنية الموضوع وعمومية الحادث ، كأرجوزته (دول العرب) وقصيدته فى (وادى النيل) .

ثم عالج الشعر التمثيلى ، فنظم رواياته المعروفة : مصرع كليوبطرة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلى الكبير ، وعنترة ، والست هدى ، فكان بهذا التجديد الشاعر العربى الكامل . وقد جمع شعره فى ديوان يقع فى أربعة أجزاء . وله غيره فى الشعر كتاب (عظماء الإسلام) وجملة من القصائد للأطفال والأغانى .

ولشوقى نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا فى الوزن ، جمع طائفة كبيرة منه فى كتاب سماه (أسواق الذهب) . وله من النثر المرسل قصص منها . لاياس ، وورقة الآس ، ومذكرات بنتاءور ، وأميرة الأندلس :

نموذج من شعره

قال من قصيدة يصف فيها دمشق :

آمنت بالله واستثنيت جنته ‍ ‍ ‍ ‍ دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها ... الأرض دار ، لها (الفيحاء) بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بَرَدَى) ... كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتهـــا وحواشيها زمردة ... والشمس فوق لجين الماء عقيان
والحور في (دمر) أو حول (هامتها) ... حور كواشف عن ساق وولدان
و (ربوة) الواد في جلباب راقصة ... الساق كاسية والنحر عريان
والطير تصدح من خلف العيون بها ... وللعيون كما للطـــير ألحان
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً ... أفوافه فهو أصـــباغ وألوان
وقد صفى (بردى) للريح فابتردت ... لدى ستور حواشيهن أفنان
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا ... جفت من الماء أذيال وأردان

وقال يصف رحلته إلى الأندلس من قصيدة طويلة :

اختلاف النهار والليل ينسى ... اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفا لى ملاوة من شباب ... صورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت ... سِنة حـــلوة ولذة خلس
وسلا مصر : هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليـالى عليه ... رق والعهد فى الليالى تقسى
مستطار إذا البواخر رنَّت ... أول الليل أو عوت بعد جرس
أحـــرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير من كل جنس

ومنها :

كل دار أحق بالأهل إلا ... فى خبيث من المذاهب رجس

ومنها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
شهد الله لم يغب عن جفونى ... شخصه ساعةً ولم يخلُ حسى

محمد حافظ ابراهيم

١٨٧٠ — ١٩٣٢ م

نشأته وحياته

ولد محمد حافظ إبراهيم فى ديروط من أعمال مديرية أسيوط حوالى سنة ١٨٧٠ إذ كان أبوه إبراهيم فهمى من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها . ولما كان عمره سنتين توفى أبوه فقيراً فى ديروط فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكفله خاله وأدخله (المدرسة الخيرية) فمدرسة المبتديان فالمدرسة الخديوية . ثم انتقل خاله إلى طنطا فنقله معه ؛ فقضى فيها بضع سنين متبطلا يزجى فراغه بالقراءة ، و يدفع ملاله بالقريض .

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة اليأس وذلة اليتم ، فكان لايفتأ متبرماً بالعيش ، متأففاً بالناس ، متجنياً عَلَى القدر ، لا ينشىء الشعر إلا فى ذلك . ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين فتبلغ بالعمل فيها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية ، وخرج منها ضابطاً بالجيش . ثم نقل إلى الشرطة ، ثم أعيد إلى الجيش ، وأشخص إلى السودان فى الحملة المصرية بقيادة كتشنر فبقى هناك زمنا كان لاينفك فيه متبرما متمرداً ، يلح فى العودة إلى مصر . فلما أخفق مسعاه ثار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩ ، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع ، ومنه إلى المعاش .

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة المبهمة ، لا يستريض لعمل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يتشوف إلى غاية ، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس ، ويفىء إلى ظل الإمام محمد عبده فينتفع بجاهه و يعيش على رفده ، و يغشى مع ذلك أبهاء النعمة ، يسامر أهلها بعذب حديثه ، وينادمهم برقيق شعره . وفى سنة ١٩١١ عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف

يومئذ رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، ثم وكيلا للدار ، وظل فى هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد فى صدر سنة ١٩٣٢ وتوفى صيف السنة نفسها .

حافظ الأديب

عاش حافظ بحكم طفولته الشاردة المهملة عيش الكسل والتبطل ، لا يميل إلى علم ، ولا ينشط إلى عمل ، كدأب الناس قديماً من أضراب مسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، ممن عاشوا صنائع الملوك ، وحمائل عَلى الجوائز ، ووسائل للهو .

كان مبدأه الأدبى مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة . رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية فى مصر وعرش الخلافة فى الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع ، فى مدح عباس ، وتمجيد عبدالحميد . ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد ، وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ فى الإنجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه فى هذه الفترة قصائد فى رثاء الملكة فكتوريا ، وتتويج الملك إدوارد السابع ، ووداع اللورد كرومر ، عبر بها عن الرأى الأرستقراطى فى ذلك الحين . ثم خلص للشعب . فلابس دهماءه ، وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم أمانى الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره .

عكف منذ شب على دواوين الشعر ، وأجزاء (الأغانى) ينتحلها و يتمثلها ويعاود النظر فيها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام مالاغاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ينقلها عن السماع ويأخذها من الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض .

حافظ الشاعر

صياغة حافظ هى موهبته الأولى ومزيته الظاهرة . وهو فى ذلك ثانى الخمسة[1] الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لأمانى شعبه ، وتصويره لمساوىء عصره . أما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضى فى فردياته ، وآراء مقتبسة من الحاضر فى اجتماعياته . كان إذا تهيأ للشعر عمد إلى الآراء التى تختلج حينئذ فى النفوس ، وتستفيض فى المجامع ، وتتردد فى الصحف ، فيجمعها فى باله ، ويديرها فى خاطره ، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ ، ويسبكها فيجيد السبك ، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ ، وشىء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه[2]

نموذج من شعره

قال على لسان اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها .

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى	وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى	عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى	رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن	فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى	ومنكم وإن عز الدواء أساتى

(١) البارودى وصبرى وشوقى وحافظ ومطران .

(٢) راجع ما كتبناه عنه فى وحى الرسالة الجزء الأول وفى أصول الأدب (شوقى وحافظ)

فلا تـكلونى للزمان فإننى | أخاف عليـكم أن تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعةً | وكم عزّ أقوام بعزّ لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً | فياليتـكم تأتون بالـكلمات

ومن خمرياته :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى | بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام ! المدام والـكاس والطا | س وهيىء لنا مكاناً كأمس
أطلق الشمس من غياهب هذا الـ | ـدن واملأ من ذلك النور كأسى
وأْذن الصبح أن يلوح لعينى | من سناها ، فذاك وقت التحسى
وادع ندمان خلوتى وائتناسى | وتعجل واسبل ستور الدمقس
واسقنا يا غلام حتى ترانـا | لا نطيق الـكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهـم عصروها | من خدود الملاح فى يوم عرس

وقال من قصيدة (غادة اليابان) :

لا تلم كفى إذا السيف نبـا | صح منى العزم والدهر أبى
رب ساع مبصر فى سعيه | أخطأ التوفيق فيما طلبـا
مرحباً بالخطب يبلونى إذا | كانت العلياء فيـه السببا
عقنى الدهر ولولا أننى | أوثر الحسنى عققت الأدبا
إيه يا دنيا اعبسى أو فابسمى | لا أرى برقك إلا خلبـ
أنا لولا أن لى من أمتى | خاذلا ما بتّ أشـكو النوبا
أمة قد فت فى ساعـدها | بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العـلا | وتفـدى بالنفوس الرّتبـ
وهى والأحداث تستهدفهـا | تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بهـا | أم بهـا صرف الليالى لعبا

جميل صدقي الزهاوى

١٨٦٣ — ١٩٣٦ م

نشأته وحياته

ولد جميل صدقي الزهاوى فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ م ببغداد لأبوين كرديين كريمين ، ثم نشأ فى أسرة تميزت بالدين والفقه والأدب . فقد كان أبوه محمد فيضى الزهاوى مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهائها . وكان أخوه — كما حدثنى جميل — لا يتذوق الأدب ، فكان يذوده عن رواية الشعر ، ويصده عن دراسة اللغة ، ويربى عناده هو ، وتسامح أبيه ، إلا أن يديم النظر فى الأدب ، ويروض القريحة على القريض . كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب شعر وفلسفة . وكان العراق أيام الزهاوى تركى السلطان سُنى الحكومة ، فالتعليم المدنى فيه كان تابعاً فى لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبى وهواه ؛ فلم يخرج إلا رجال جيش أو رجال إدارة . أما التعليم الدينى فظل فى صحون الجوامع ، عربى اللسان ، حر النزعة ، طليق الفكر ، فتثقف الزهاوى بهذه الثقافة . تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد البوادى الملهمة . ثم نزعه عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر . ثم ابتلى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى النخاع الشوكى لازمه بقية حياته . ورمى بعد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشاءم . ثم منى فى عصره بفساد السلطان ، واستطالة الجهل ، وانحلال الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الإنذار والنصيحة .

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل كأكثر أهل الشعر ، وإنما غامر فى خطير الأمور ، فعين فى بغداد عضواً فى مجلس المعارف ، ثم مديراً لمطبعة الحكومة ، ثم محرراً بالجريدة

الرسمية ، ثم انتخب عضواً فى محكمة الاستئناف . ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الآستانة فحرك فيها لسان النقد وأقض بها مضاجع التجسس ، فانتقض أمره وساء مقامه . ولما أعلن الدستور العثمانى عين رئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية فى (المكتب الملكى) ثم مدرساً للآداب العربية فى (دار الفنون) ، ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة فى مدرسة الحقوق . ثم انتخب نائباً عن العراق فى (مجلس المبعوثان) ، وهو فى خلال ذلك كله لا يفتر ليله عن الشعر والقراءة ، ولا يكل نهاره عن الحديث والكتابة . حتى غلب الترك فى الحرب العالمية الأولى وقام عرش فيصل فى العراق فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة أما الزهاوى وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش ، اللهم إلا زمناً يسيراً عينه فيه الملك فيصل الأول عضواً بمجلس الأعيان العراقى ، ثم تخلى عنه لجرأة شعره وصراحة رأيه ، فكان لا ينفك شاكياً ذلك الحرمان متحاملا على نفسه مع انسراق القوى واستحكام العلل ، حتى توفاه الله ببغداد فى أواخر فبراير من عام ١٦٣٦ .

الزهاوى العالم

كان الزهاوى فى صدر شبابه ينظر فى العلوم الطبيعية والفلسفية ، ووسيلته إلى ذلك ما تُرجم من المقالات فى الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات إلا العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالثقافة الحديثة . ومع ذلك استبطن دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) فى الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) فى الطبيعة ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجها لذة النظر كقوله : إن علة الجاذبية ليست جذب الماد للمادة ، وإنما هى دفعها إياها بسبب ما تشعه من الالكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل .

الزهاوى الشاعر

الزهاوى شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة ، والفطنة النافذة ، وليس له الأذن التى تموسق ، ولا القريحة التى تصنع . فاللفظ قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والأسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة : وكان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف . ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه والتيه يذهب به فيحب الثناء و يبغض النقد ، فهو لفرقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى إلى التطرف ، ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ويعارض هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم ، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

نموذج من شعره

قال من قصيدة بعنوان الجهل والعلم :

يريد أناس فرقة الشعب جهدهم ... فلا عطست باليمن تلك المعاطس

ونحن الألى ما فرق الدين بيننا ... وإن كثرت بعض الأوان الدسائس

فعشنا وعاشت من عصور كثيرة ... جوامعنا فى جنبهن الكنائس

ولا يعدم الإنسان طول حياته ... صديقاً يواسى أو عدواً يعاكس

ولكننا عشنا جميعين أعصراً ... كلانا أخو صدق كلانا مؤانس

وإنا سنحييـــا والعمائم عندنا ... لهـــا حرمة محمودة والقلانس

سنحيا نعم فى وحدة عربيـــة ... لها العلم نظّام لها العدل سائس

وتغرس فى قلب الشبيبة جرأة ... على الصدق حباً أن تطيب الغرائس

نســاعدنا فيما نحــاول دولة   معظمة ترعى علاها أشاوس
قول لشعرى أيها الشعر صل وجل   فأنت بميدان الفصاحة فارس
أغاظك أن الجهل فى الناس جاهر   يقول وأن العلم فى الأذن هامس
يمارس شعرى اليوم إصلاح أمة   فلله شعرى اليوم ماذا يمارس
ستحميك ياشعرى فأنذر حكومة   تجل ربوع العلم وهى المدارس
حكومة عدل مهد الأرض حكمها   فلا البر موتور ولا البحر خانس
وليس لها فى المغربين معارض   وليس لها فى المشرقين مشاكس

ومن خطراته :

إن الصراحة تغنى   ماليس تغنى الرموز
أخو الحجا قبل أن يحـ   ـمل الأداة يروز
وعند من هو غر   يجوز ما لا يجوز
كم جامع لكنوز   يفنى وتبقى الكنوز
وقد تموت فتــاة   ولا تموت عجوز
لا تجبنن فليس الـ   ـجبان شيئاً يجوز
إنا نعيش بعصر   فيه الجسور يفوز

* * *

لقد مشيت بليــل   داج بغير دليــل
فما بعدت كثيراً   حتى ضللت سبيلى
من لى بمــاء براد   به أبل غليــلى
طلبت شيئاً قليلا   فلم أفز بالقليـــل
وكم صحبت خليــلا   فكان غير خليل
كل الأحبة أعدا   ئى عند خطب جليل
لا خير لى من بلادى   وأسرتى وقبيــلى

خـاتمة

فى الاستشراق والمستشرقين

يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره؛ ولكنه فى العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم؛ إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم؛ كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه فى غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح، وكان حظه من الثقافة يومئذ ماتضمنه حصون الأمراء المتوحشين من الكتب، وما يعلمه بعض الرهبان المساكين من قشور العلم. وانقضى القرنان التاسع والعاشر للميلاد وأولئك الأمراء فى قصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون فى الدماء، وهؤلاء الرهبان فى دورهم يمحون الكتابة من روائع الكتب لينسخوا على صفحاتها الممحوّة كتب الدين. حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العيون، فرأوا من وراء هذا الظلام الداجى بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق. فلما تبينوا أن البقعة هى جزء من أسبانيا، وأن النور قبس من نور بغداد، استيقظ فى نفوسهم طموح الكمال الإنسانى، فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب.

فى سنة ١١٣٠م أنشئت فى طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف ريموند، أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية، وأعانهم على ذلك اليهود، فبعثت هذه الترجمة فى أوربا الخامدة شعوراً لطيفاً، وروحاً طيبة. وتضافرت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر، حتى بلغ ماترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب كما أحصاها الدكتور (لكلارك) فى كتابه تاريخ الطب العربى، وأحصاها غيره أربعمائة. وكان أكثر ماترجم

فى هذه العهود كتب الرازى وأبى القاسم الزهراوى وابن رشد وابن سينا ، وما نقل إلى العربية من اليونانية لجالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس الخ .. وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجاً للتعليم فى جامعات أوربا خمسة قرون أوستة ، واحتفظ بعضها بقوته وقيمته حتى القرن التاسع عشر .

قال المؤرخ الإنجليزى ملر فى كتابه فلسفة التاريخ : « إن مدارس العرب فى أسبانيا كانت هى مصادر العلوم ، وكان الطلاب الأوربيون يُهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة . وكذلك أصبح جنوبى إيطاليا منذ احتله العرب ، واسطة لنقل الثقافة إلى أوربا . وممن ورد تلك المناهل الراهب (جربرت الفرنسى) ، فإنه بعد أن ثقف علوم اللاهوت فى (أورياق) مسقط رأسه جاب عقاب البرانس والوادى الكبير حتى ورد أشبيلية ، فدرس فيها وفى قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين . ثم ارتد إلى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسحر والكفر ، ، ولكنه ارتقى إلى سدة البابوية سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثانى . كذلك تخرج على علماء قرطبة (شانجه) ملك ليون وأستوريا ، وأولع بعض علماء إيطاليا بالعربية ، وعدوها لغة الأدب العالى ، وأوصى قومه الراهب روجر بيكون الإنجليزى بتعلم اللغة العربية وقال : « إن الله يؤتى الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين ، وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب » .

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً فى دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنية الشرق . وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية أو دينية ، فأقبلت الأمم الأوربية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس فى تعرف الشرق وارتياد أقطاره ، وكشف آثاره ، وفتح كنوزه ، وإحياء أدبه ، وطبع كتبه ، وإبراز فنه ، ثم صار الاستشراق فناً قائماً بنفسه ، يطلب به الوقوف على لغات الشرق ميتها وحيها ، والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها . وفى سبيل ذلك أسسوا المطابع[١]

(١) من أول ما طبع فى العربية (المجموع المبارك) والتاريخ لابن العميد المعروف بالمسكين ، وكتاب (تاريخ الدول) لابن العبرى و (نظم الجواهر) لسعيد بن البطريق ، ثم تاريخ أبى الفداء ومقامات الحريرى .

وأنشأوا المكتبات[1] وألفوا الجمعيات[2] وأقاموا المؤتمرات[3] وأصدروا المجلات، وجمعوا المخطوطات، ونشروا نفائس الكتب، وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ، وتحرير الأصول، وتصحيح الأخطاء، وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح، والمنهاج المنطقي الحديث، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب، في تحضير المادة، وتنظيم البحث، وتوخي الدقة، وتحري الصواب، وتقصي الفروع.

أشهر المستشرقين

اشتهر من المستشرقين الفرنسيين فيتير Veter المتوفى ١٦٦٧، وهو طبيب الدوق دورليان، نقل إلى الفرنسية تاريخ ابن المكين، وتيمورلنك لابن عربشاه، وعلم المنطق، والأمراض العقلية لابن سينا، واللامية للطغرائي وهربلو Herblot

(١) كان في مكتبات أوربا، مطلع القرن التاسع عشر، مائتان وخمسون ألف مجلد، موزعة في خزائن ليننجراد وباريس وبرلين ولندن وليبزج وميونيخ وفينا وليدن واكسفورد وأدمبرج ودبلن وكمبردج والاسكوريال، وميلانو وروما، وبرستون الخ.

(٢) هي الجمعيات الأسيوية وأقدمها الجمعية الأسيوية التي أنشئت في بتافيا عاصمة ساوة سنة ١٧٨١ ثم الجمعية الأسيوية البنغالية التي أسسها السير وليم جونس في كلكتا عام ١٧٨٤ ونشرت بحوثا من عشرين مجلدا ظهرت فيما بين سنة ١٧٨٨، وسنة ١٨٣٦، ولها (مجلة الجمعية الأسيوية للبنغال) صدر عددها الأول سنة ١٨٣٢، ولا تزال تصدر.

وفي ١٥ من مارس أقامت في لندن جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية يرعاها ملك انجلترا. ومن أعضائها النابهين مرجليوث، وبراون، ودنس روس، ونيكلسون، وجب، وفرمر. وفي سنة ١٨٢٠ أنشأ المستشرقون الفرنسيون الجمعية الأسيوية تحت رعاية الدوق دورليان وسلفستر دساسي واتخذوا لها مجلة عنوانها (الجريدة الأسيوية) Le Journal Asiatiqus نشرت فصولا قيمة في العرب والعربية. وكذلك حذت أمريكا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والدنمرك حذو إنجلترا وفرنسا فأنشأوا الجمعيات وأصدروا المجلات، وتكاتفوا جميعاً على إظهار فضائل الإسلام وإعلان مفاخر العربية. راجع كتاب (المستشرقون) للأستاذ نجيب العقيقي.

(٣) أقام المستشرقون تسعة عشر مؤتمرا في أمهات مدن الغرب أولها أقيم في باريس سنة ١٨٧٣، وآخرها أقيم في باريس سنة ١٩٠٨، وكانوا يدعون إلى كل مؤتمر أقطاب الآداب الشرقية في أقطار العالم يدلون فيها بما أعدوا من البحوث الأدبية والتاريخية والأثرية فيها، وكان لمصر حظ موفور من شهود هذه المؤتمرات وجهودها.

المتوفى سنة ١٦٩٦ كان أمينا لسر لويس الرابع عشر وأستاذاً للعربية فى معهد فرنسا ، ألف (المكتبة الشرقية) وهو معجم جامع لما فى الشرق من فلسفة وأدب واجتماع . وسديو Sédillot . المتوفى ١٨٣٢ كان متخصصا فى علم الفلك عند العرب وقد نشر نبذة فى الهندسة لابن الهيثم ١٨٣٤ و (علم الرياضيات وجامع المبادىء والغايات) فى الآداب الفلكية لأبى الحسن على . وكوسين دى برسفال deparcéval المتوفى ١٨٣٥ نقل تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين ، ونشر المعلقات السبع وأمثال لقمان . وطبع الجداول الفلكية من الزيج الحاكمى ، ومقامات الحريرى ، وترجم الجزء الناقص من ترجمة جلان لألف ليلة وليلة . وسلفستر دساسى المتوفى سنة ١٨٣٨ ، برع فى اللغتين العربية والفارسية وتخرج عليه فيهما طائفة من أعلام الاستشراق فى الغرب . ألف فى العربية كتابا سماه (الأنيس المفيد للطالب المستفيد) اختار فيه صفوة من المنظوم والمنثور ، وكتب شرحا وجيزاً على مقامات الحريرى ، ونشر كليلة ودمنة وألفية ابن مالك ورحلة عبد اللطيف البغدادى . ثم ألف ثلاث مذكرات قدمها إلى المجامع عن مصر الإسلامية إلى الاحتلال الفرنسى . ومارسل : المتوفى سنة ١٨٥٤ كان مترجم الحملة الفرنسية فى مصر ، ألف كتابا فى وصف مصر واختار طائفة من الشعر العربى ، وله مقالات قيمة عن ابن ميمون ، وابن سينا ، والضامرى ، والقزوينى . نشرها فى المجلة الآسيوية ، وكترمير المتوفى سنة ١٨٥٧ أخذ العربية عن دساسى ، وانتخب عضواً فى المجمع اللغوى الفرنسى ثم محرراً فى المجلة الآسيوية . نقل إلى الفرنسية بعض كتاب السلوك للمقريزى ، ونشر مقدمة ابن خلدون فى ستة أقسام فرنسية عربية . ومنتخبات من أمثال الميدانى ، وكتاب الروضتين لابن شامة . وله أبحاث فى المجلة الآسيوية عن النبطيين والعباسيين والفاطميين . وكتاب الأغانى ، وذوق الشرقيين فى الكتب ، وحياة المسعودى وآثاره .

ومن أشهر المستشرقين الألمانيين فريتاغ المتوفى سنة ١٨٦١ تلقى العربية عن دساسى ، وعين أستاذاً لها فى كلية بونه . نقل ديوان الحماسة لأبى تمام بشرح التبريزى ، وزبدة الطلب فى تاريخ حلب لابن النديم ، وفاكهة الخلفاء لابن

عربشاه . وقد وضع معجما عربياً لاتينياً فى أربعة أجزاء . **وجوستاف فلوجل** المتوفى سنة ١٨٧٠ نشر كشف الظنون ، والفهرست لابن النديم ، ومؤنس الوحيد للثعالبى ، وطبقات الحنفية لقطلوبغا ، والقرآن . **وفلايشر** والمتوفى ١٨٨٨ ، ألف فى الآداب الشرقية كتباً كثيرة ، ونشر تفسير البيضاوى والمفصل للزمخشرى . **وفرديناند وستنفيلد** المتوفى سنة ١٨٩٠ ، نشر طبقات الحفاظ للذهبى ، وسيرة ابن هشام ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومعجم البلدان لياقوت . **ونلدكى** المتوفى سنة ١٩٣١ ألف فى الألمانية تاريخ القرآن ، وتاريخ عروة بن الورد ، وبحثاً فى الشعر الجاهلى ، وبحثاً فى المعلقات السبع وغير ذلك .

وممن اشتهر من الإنجليز **أوورد لين** المتوفى سنة ١٨٧٤ عاش بمصر صدر شبابه ثم وضع كتابا فى وصف مصر ، وكتابا آخر فى عادات المصريين وشمائلهم ترجم أكثره فى مجلة الرسالة وطبع مجموعا فى مطبعتها سنة ١٩٤٩ ، ومعجما عربيا إنجليزيا ، ثم ترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية . **ووليم موير** المتوفى سنة ١٩٠٥ ومن مؤلفاته حياة النبى ، والتاريخ الإسلامى ، وتاريخ الخلافة ؛ وهى من المراجع المعتمدة فى الجامعات الإنجليزية والهندية .

وممن اشتهر من الإيطاليين **دافيد سنتلانا** المتوفى سنة ١٩٣١ ولد فى تونس ودرس فى رومة ، وكان له بالمذهب المالكى والشافعى علم واسع . عين فى سنة ١٩١٠ أستاذاً للفلسفة بالجامعة المصرية ، فألقى بها محاضرات قيمة . **ونلينو** المتوفى سنة ١٩٣٨ ، وقد دعى فى سنة ١٩٠٩ لإلقاء محاضرات فى تاريخ أدب اللغة العربية فأفاد بخبرته وطريقته كثيراً من الناس . وقد عنى بالمسائل الجغرافية والفلكية عند العرب . **واغناطيوس جويدى** المتوفى سنة ١٩٢٥ وقد انتدبته الجامعة المصرية كذلك سنة ١٩٠٨ للتدريس فيها فألقى دروسه باللغة الفصحى .

وإذا أردت استقصاء هذا الموضوع فاقرأ كتاب (المستشرقين) للأستاذ نجيب العقيقى فقد ألم بتاريخ الاستشراق إلماما ينقع الغلة ويغنى عن المزيد .

ذيـل

فى تفسير ماورد فى الـكتاب من الألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة

صفحة

٣ كنف الله : حرزه ورحمته . عرك الخطوب : شدتها وأذاها . النحلة : المذهب والديانة .

اللسن : الفصاحة

٧ النفر بالسكون : الجماعة يتقدمون فى الأمر

٩ القطر : المطر . يسيمونها : يرعونها . أخلفت السماء : أطمعت فى الغيث ولم تمطر . القرابة الواشجة : المشتبكة . الظعينة : الزوجة . البناء بالمرأة : التزوج منها .

١١ الاستقراء : تتبع الحوادث بالملاحظة لتكون منها حكما . الأنواء : جمع نوء وهو سقوط نجم فى الغرب وطلوع نجم بحياله من ساعته فى الشرق كل ثلاثة عشر يوما ، وكانوا يضيفون أفاعيل الطبيعة من المطر والرياح الى الساقط منها فيقولون مطرنا بنوء كذا

١٤ العرم : السدود تبنى فى الوادى لحبس الماء خلفها وهى الخزانات . وسيل العرم سيل عظيم هدم عرما كان أهل سبأ فى اليمن قد بنوه وأغرقهم ومزقهم فى البلاد .

١٦ المنافرة : المحاكمة فى الحسب والنسب

١٨ شن : اسم رجل ، وطبقة : اسم امرأة

صفحة

اتفقا فى الذكاء والدهاء فضرب بهما المثل . لأمر ماجدع قصير أنفه : يضرب لمن يظهر شيئا ويضمر خلافه : يداك أوكتا وفوك نفخ . أوكى السقاء : ربطه . وأصله أن رجلا نفخ سقاء وربطه ليعبر عليه النهر سابحا ، فلما توسطه انحل السقاء وأوشك الرجل على الغرق ، فاستغاث برجل على الشاطىء فقال له هذا المثل ، يضرب لمن يجنى على نفسه بإهماله .

الجدد : الأرض الغليظة المستوية

العى : العجز عن الكلام :

١٩ اللحمة : ما نسج عرضا ، والسدى : مامد من خيوط الثوب طولا : القدح المعلى : أكبر الانصبة فى الميسر . الذمار : ما يلزمك حمايته والدفاع عنه . ذات البين : العداوة والبغضاء على رأى والنسب والصداقة على رأى آخر . الأقيال : جمع قيل وهو الملك الصغير . يشد أزرها : يقويها ويؤيدها والأزر الظهر . المخاصر : العصى . والصفاح : السيوف . النشز : المرتفع من الأرض ، حسن الشارة . جميل الهيئة .

٢٠ صدف عن الدنيا : زهد فيها

٢١ داج: مظلم . وساج : ساكن والأبراج
اثنا عشر برجا تقابلها الشمس فى طريقها
طوال السنة ، المدحاة المدحوة على
خلاف القياس وهى المبسوطة
البصائر : جمع بصيرة وهى العلم والخبرة
ورد الماء : أتاه ليشرب ، وصدر عنه :
رجع ، ومعناه هنا الموت وعدم الرجوع
منه ، الغابر : المقيم . العيلة . الفقر .
أجدكما منصوب على نزع الباء ، ومعناه
أبجد منكما هذا ؟ أو منصوب على
المصدر ومعناه مالكما ؟ أجد منكما
هكذا ؟ الكرى : النوم . والصدى :
الصوت والمقار، الخمر . العولة : البكاء
٢٢ الأشلاء : الأعضاء بعد البلى والتفرق :
والصهباء : الخمر . واستهتر فى اللهو :
أمعن فيه واسترسل . النجعة : طلب
الكلأ فى موضعه . الارتياد : البحث
عن المكان المناسب للانتجاع . وعفو
الرأى : عاجله . واكتظم بادرتنا
اغفر زلتنا ، والبادرة ما يبدو منك
عند الغضب . الوقص : الكسر.
والصفاة : الحجر ، والقضم : كسر
الشىء بأطراف الأسنان . والهضم :
الظلم . المقلص: الفرس المشرف الطويل
القوائم . والعاتق الكامل . والنجاد :
حمالة السيف .
٢٣ السابغة : الدرع . وعداء علندى :
فرس طويل شديد . والنهد : الفرس
الجميل الجسيم المشرف . والشطب :
جمع شطبة : وهى طريقة السيف فى متنه.
الجلة : جمع جليل وهى العظام من الإبل.
والنيب : جمع ناب وهى الناقة المسنة
٢٤ تجشأ : تكلف الجشاء وهو اخراج
صوت مع ريح من فمه عند الشبع

صفحة
« تكرع » .
الحشف: أردأ التمر. راش السهم : ألزق
عليه الريش . الريث: البطء . الحوبة الذنب
٢٥ سدنة بيته : خزانه والقائمون عليه .
الحرس : الدهر . والخور : الضعف .
التواكل : أن يتكل كل على الآخر .
أحداث الدهر : نوائبه . الغرض :
الهدف . تعاوره . تتداوله .
٣٠ يزدهيهم : يستخفهم . عفو البديهة وفيض
الخاطر : ارتجالا من غير روية المآد:
المموج . أصادى . أداجى وأخاتل .
٣٢ وعوثة الصحراء : صعوبتها وتوعرها :
السمة . العلامة .
٣٢ الحلبة : ميدان السباق . القباطى هى
الستور والأثواب والطنافس التى
اشتهرت مصر بصنعها قبل الإسلام
وبعده ، مفردها قبطية وقد وردت
بهذا اللفظ فى قول زهير بن أبى سلمى
ليأتينك منى منطق قذع .
باق كما دنس القبطية الودك .
٣٤ الغيث هنا : البقل والمرعى والوسمى :
أول مطر الربيع . والرائد : من يبعثه
أهله فى طلب المرعى : الأسحم هنا :
السحاب الأسود اللون . العجازة :
الفرس الشديد العضل . أترز الجرى
لحمها : أيبسه وأضمره . الأكرع ، جمع
كراع : أطراف القوائم . الحال الثوب
الناعم من ثياب اليمن .
٣٥ الصوار : القطيع من بقر الوحش .
الجزى : نوع من العدو . الاجلال ،
جمع جل : وهو ما يوضع فوق ظهر
الفرس ساتراً له . القرهب : الطويل

صفحة

الضخم من الثيران . القـرا : الظهر
الروق : القرن . الأخنس : منخفض
قصبة الأنف . الذيال : طويل الذيل .
فعاديت منه ، عادى بين الصيدين تابع
العدو فى طلق واحد . فتخاء الجناحين :
لينتهما فى طول . للقوة . السريعة التى
تخطف كل شيء . طأطأ فرسه :
وخزه وحركه للعدو . الشملال : السريعة
الخفيفة . الأنيعم وأورال : موضعان .
الخزان : جمع خزز بالضم والفتح :
ذكر الأرانب . حجرته : اختفت فى
أحجارها . أبيت اللعن : كلمة يدعى
بها للملوك ، أى حفظت مما تلعن به .
تستك : تضيق ، الأقارع : بنو قريع
ابن عوف وكانوا قد وشوا به إلى
النعمان ، تخادع . تشاتم : الحوامم جمع حامة ،
وهى الغل فى اليد . الأمة الدين
والاستقامة . الصاف وثبرة : ماءان على
طريق مكة ؛ والألال : جبل . السمام :
طائر أكبر من الخطاف سريع الطيران .
خوصاً عيونها : ضيقات . رذايا :
جمع رذية ، وهى المطروح المتروك من
الإبل الهالك فى أثناء الطريق .

٣٦ الحنى : جمع حنية ، وهى القوس . العر :
داء جلدى يصيب الإبل فى مشافرها
وقوائمها .
الضالع : الجائر المذنب . السيب :
العطاء . التصريد : الشرب دون الرى
كنع المسك بالشيء : تراكم ولزق.
رث الحبل : بلى ، والمراد العهد
متع الضحى : بلغ آخر غايته . العصبة
بفتح فسكون : الشجرة تعلق فى شيء
عال فتكون كالخيمة عليه ، وهو الشجر
المتسلق كاللبلاب مثلا . مذود . اسم
جبل . الأنأب : شجرة العم : العظيم .

صفحة

المحـرم : الممنوع قطع سوقه .
كابة : موضع . لم تخبط : لم
تعصب فروعه وتضرب بالعصى فتكسر.
لم يتعضد . لم يقطع . عارض : اسم أخ
للشاعر . رهط بنى السوداء أصحاب
أخيه عبد الله .

٣٧ الأحاليف : المتحالفون على نصرة بعضهم
لبعض . قبلا : عياناً ومقابلة . هزية :
حى من بنى جشم .
القعدد : الجبان يقعد عن نصر قومه .
الصياصى جمع صيصاة . شوكة يسوى
بها الحائك نسجه . البو : ولد الناقة
أو البقرة يحشى جلده تبناً فتجد رائحته
فيه فتدر اللبن له . البرم . من لا يدخل
مع القوم فى الميسر ضناً بالجزور ، وكانوا
يطعمون لحومها للفقراء تناوحت الريح :
هبت من كل ناحية ، وذلك زمن الشتاء .
العضاة : الشجر الشائك . الضريع :
نبات خبيث لا تقربه الدواب . المعضد :
المقطع . كميش الإزار : قصيره ، وذلك
كناية عن العفة والنجدة . طلاع أنجد:
كناية عن اقتحام الصعاب . السيد
العمرد : الذئب الشرس فى عسلانه ،
يريد به فرسه . الشظى : العظم اللازق
بالساعد أو الساق . العبل : الضخم
الشوى: الأطراف النسا . عصب يجرى
فى الفخذ والساق . والشنق : المقبض ،
المنقبض . المقلد : العنق .

٣٨ المصدر : الأسد . الجبيل فنهمد .
موضعان . طحا به قلبه . ذهب به كل
مذهب . شط وليها: بعد وصالها. المغمر
من الرجال: الأحمق الذى يستجهله الناس.
ما أنت أم ما ذكرها ؟ ما استفهامية
للتعجب ، وأم للاضراب بمعنى بل أى
ما شأنك ، بل ما الداعى لذكرها إياك

صفحة

وهى من ربيعة وأنت من تميم
القليب . البئر: الجسرة : الناقة القوية : الرداف : كل شيء يكون خلف الراكب . الخبيب : السير السريع الوجيب : خفقان القلب .

٣٩ التهدة : الفرس الحسن الجسم . البواء السواء والكفء . شمصها : ضربها ونخسها. العادية :القوم يعدون وكذلك الخيل . سوم الجراد انتشاره فى طلب المرعى. وزعتها : كففتها ومنعتها سبأ الخمر : اشتراها . الايسار : الذين يضربون القداح فى القامرة .
أقليه : أبغضه . شالت نعامتنا : تفرقنا واختلفنا : الهامة : فيما يزعم العرب طائر كالبوم يخرج من قبر القتيل إذا لم
حذ بثأره فلا يزال يصيح ويقول أسقونى حتى يثأر له .

٤٠ لاه ابن عمك : أصله لله ابن عمك فحذفت اللام الخافضة فى لحن الكلام . الديان القائم بالأمر، المسغبة : المجاعة العزاء الضيق والشدة .
زيد على مائة : زيادة عليها .

٤١ سفوان : اسم مكان. والكماة الفرسان جمع كمى . الحدثان : الحوادث . المقاديم : جمع مقدام . والمراد بالروع هنا الحرب . وأبيض فياض : نقى من العيوب كريم والمعتفون طالبو المعروف. ما تغب فواضله : ما تنقطع عطاياه . المقامات : جمع مقامة وهى الجماعة فى مجلس واحد . والانتياب : القصد إلى الموضع . المكثرون . الأغنياء . ومن يعتريهم : يقصدهم من الفقراء . لم يليموا : لم يقعوا فى اللوم . ولم يألوا لم يقصروا الخطى : الرمح نسبة إلى الخط وهى جزيرة فى البحرين شهرت بعمل الرماح

صفحة

والوشيج :شجر الرماح، ومعنى المثل لا يلد الكريم إلا الكريم » . لاح الشىء : لمحه وأبصره . واليفاع · التلال . والمقرور : من أصابه البرد . يصطليانها يستدفئان بها .

٤٢ والأسحم الداجى: الليل الشديد السواد. وكف مبيدة : متلفة . الهجان : البيض الكرام من الابل ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والجمع . الأوارك . جمع آركة ، وهى التى رعت الأراك . الموماة : المفازة . جحيشا : فريداً . والمنخرق : السريع . الشد : العدو . حاص عينيه الكرى : خاطها على الاستعارة . الشيحان: الغيور على حرمه. الربيئة : الطليعة . تاج : اسم مكان وما تمر وما تحلى: أى لا تنفع ولا تضر وأحساب نيتن مع البقل : أحساب غير أثيلة أحدثها الغنى .
والواسل . الطالب الراغب من الله . تصفر منها الأنامل : كناية عن الموت .

٤٣ الحصائل جمع حصيلة : وهى ما كسبه المرء من حسنات وسيئات . يقسم أمره : يديره . هبلته أمه : ثكلته وفقدته . والوائل : الناجى . والموائل المنجى . تزعك العوازل : تكفك الحوادث . الخابور نهر بين رأس عين والفرات . والكاس ما يبنى به من النورة وأهلا لها : الخورنق والسدير: قصران عربيان جاهليان : والصبا : الريح الشرقية. الدبور: الريح الغربية . وألوت به : ذهبت به
الكلكل : الصدر. انجل : انكشف الإصباح: الصبح. وأمثل : أفضل. مغار القتل: محكمه . ويذبل جبل فى نجد

صفحة

٤٤ الوكنات . الأعشاش . والمنجرد : القصير الشعر . والأوابد : الوحوش ومعنى قيد الأوابد أنه يلحقها فيمنعها من الفرار فكأنه قيدها .

والهيكل : الضخم . والمكر : كثير الكر . والمفر: شديد الفر. الأيطلان : الخاصرتان . والارخاء : الجرى . والسرحان : الذئب . والتقريب : العدو والتتفل : الثعلب

الحدوج : جمع حدج وهو مركب النساء كالمحفة . والخلايا : السفن العظام . والنواصف : مسايل الماء ومجاريه فى الجبال . وود : اسم مكان .

عدولية : نسبة إلى عدول ، رجل كان مشهورا بصنع السفن . وابن يامن : رجل ملاح كان يتخذ السفن الكبار

الحباب : الموج . والحيزوم : الصدر والمفايل : لاعب الفيال وهى لعبة كان يلعبها صبيان الأعراب ، يخبئون الشيء فى التراب ثم يقسمونه بأيديهم ويقولون: أين هو ؟

النطفة : الماء النقى لا كدورة فيه والمزن السحاب . والجودى : اسم جبل . ودامس : مظلم

اللصاب جمع لصب . وهى شقوق فى الجبل، والقارس . البارد. الكواكب ما طال من النبات ، والنبات العميم : المكتهل التام . والأصل جمع أصيل آخر النهار .

صعر خده : تاه وتكبر . والعرانين : الأنوف . الميسم : أثر الوسم وهو الكى . استقاد : اقتص الشجاع : الحية صمم : عض وثبت

٤٥ ينضحون عنهم: يدافعون. عهد الثقافة : عهد التلمذة والتدرج .

صفحة

٤٦ شام البرق : نظره

والقال : الجبال والجال هنا : الحقير

٤٧ فصل بالجنود : رحل بها . تمرأ لحمه : تقطع وسقط . وجفنة متفجرة : لصمة ملأى . وطعنة مستنفرة : سريعة .

٤٨ مساجلة الشعراء : أن يتناشد الشاعران بيتاً فبيتاً أو شطراً فشطراً يبدأ الأول ويكمل الثانى .

المها : بقر الوحش . سقط اللوى : منقطع الرمل : والدخول وحومل : موضعان فى بلاد العرب ،

أزمعت : نويت أجملى: ترفقى . أعشار القلب . أجزاؤه مقسمة إلى عشرة .

الخليقة : الطبع . وسلى ثيابك الخ كناية عن المفارقة .

٤٩ كذلك جدى : حظى .

جمل وأعفر : موضعان بالشام .

وحوران : كورة من أعمال دمشق .

والآل : السراب، واللبانات : الحاجات المنوية. وحماة وشيزر: بلدان بالشام .

والدرب: باب السكة الواسع وكل مدخل إلى بلاد الروم . درب الماء النابع الذى لاينقطع . السراة وذوو المثالة. أشراف القوم وكبارهم طأطأ من إشرافه: خفض تعاليه . ظلال الخفض : السعة والنعيم . درج بالتممة بينهما : سعى بها .

٥١ كليني : دعيني . وهم ناصب : متعب . وبطء الكواكب: كناية عن طول الليل أراح : رد . وعازب: بعيد. الأشائب : الأخلاط من الناس .

البيض : السيوف . الفلول : الثلوم : القراع : المجالدة . الأحلام : العقول غير عوازب ، غير ذاهلة ولا غائبة

رقاق النعال : كناية عن الترف والحجزات جمع حجزة : وهى معقد الأزار

صفحة

طيب الحجزة . كناية عن العفة ، ويوم
السباسب عيد الشعانين ، وكان من عادة
النصرانيين أن يحيوا ملوكهم فيه برفع
أغصان الريحان . ضربة لازب . أى
شىء ثابت لازم

٥٢ الجدة : الغنى ، ورحب الأناة : حليم
وراجح الحصاة : وافر العقل .
اللفظ الحوشى : ما يتحاشاه الكاتب
لغرابته أو ثقله وهجر الحديث فاحشه
وتعمل الشعر تكلفه .

٥٤ السحيل . المفتول فتلا واحداً : والمبرم
المفتول على قوتين ، وهما مستعارات
للضعيف والقوى . منشم اسم امرأة
عطارة اشترى منها قوم عطراً وتحالفوا
على قتال عدوهم : وجعلوا آية الحلف
غمس الأيدى فى ذلك العطر وقاتلوا حتى
فنوا . فضرب المثل فى الشؤم بعطر
منشم . التلاد : المال الموروث . والأفال
والمزنم المشروط الأذن

٥٥ خبط عشواء : تسير على غير هدى
كالناقة التى لا تبصر أمامها . يفره :
يحفظه .

٥٦ ثقف الشعر : تعلمه وأتقنه . ابيضت
عيناه : كناية عن العمى .

٥٧ الفرق : الخوف . المألكة : الرسالة .
وتأتكل : تحترق من الغضب الأثلة :
واحدة الأثل ، شجر عظيم صلب
وتحت الأثلة : كناية عن القذف
والغيبة . وأطت الإبل : أنت وحنت .
الوعل : تيس الجبل . فتل جمع فتول :
وهو الكثير الفتل .
الأرمد : من به رمد فى عينه والسليم :
الملدوغ ، سمى بذلك تفاؤلا ببرئه .

صفحة

والمسهد ، الساهر . الخلة : الصداقة
ومهدد : اسم امرأة
تردد الدهر : تغير وتقلب :

٥٨ الكلالة : التعب ؛ والضمير فى لها يعود
على ناقته . والوجى : وجع الخف
ورقته من كثرة السير
تراحى : تستريحين . والفواضل :
العطايا . ماتغب ماتنقطع . أغربة العرب :
سودانها . مسعر حرب : مضرمها
ومشعلها . الصر : شد ضرع الناقة حتى
لا يرضعها ابنها :

٥٩ ترين على القلوب : تغشيها . يتذامرون :
يحض بعضهم بعضا على القتال .

٦٠ الأشطان : الحبال التى يرفع بها الماء
من البئر . واللبان : الصدر . والأدهم
الفرس الأسود . بثغرة نحره : أعلاه .
أزور : مال . التحمحم : حنين الفرس
ليرق له صاحبه . ويك : اسم فعل
مضارع بمعنى أتعجب والكاف للخطاب
الشيظمة : الفرس الطويل والأجرد
قصير الشعر . الحتف : الموت ألقى
حياءك : ألزميه .
لا أبالك : جملة يراد بها التنبيه لا
التعنيف . تلاحظوا : نظر بعضهم بعضاً
بمؤخر عينه من شدة الهول . معم مخول :
كريم الأعمام والأخوال . ساهمة الوجوه
عابسة . والطوى : والجوع

٦١ الحباء . العطاء . أخذ وجهه : سار فى
طريقه . حاد البادرة : سريع الغضب . خولة :
اسم امرأة

٦٢ هوجاء مرقال : ناقة شديدة السرعة .
العتاق : الجوارح من الطير والنجائب
من الخيل . الوظيف : مستدق الذراع
والساق من الخيل والإبل وغيرها .

صفحة

الموردالمعبد : الطريق الموطوء المستوى . العشون : شمرات طوال عند مذبح البعير . وصهابية : نسبة إلى صهاب وهو فحل مشهور . موجدة القرا : قوية الظهر . الوخد : سعة الخطو . موارة اليد : سهلة السير سريعته . الأنام : العنق الطويل . التلاع : مجارى المياه من رءوس الجبال إلى الأودية . استرفد : طلب الرفد وهو المعونة . الحانوت : حانة الخمار . الطريف : المال المكسوب والمتلد : المال الموروث . البعير المعبد : المطلى بالقطران . بنوغبراء : كناية عن الفقراء . الطراف : القبة من الجلد

٦٣ الدجن : إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء . البهكنة : المرأة الفضة . المحنب من الخيل : المنعطف العظام ، وذلك ممدح له . سيد الغضى : الذئب يعتام الكرام : يصطفيهم ، والعقيلة : كرام المال . الطول : الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه ، والثنيان : طرفاه ، الموت أعداد النفوس : أى بعددها ، فلكل نفس موته ، طريقة قومه : كبيرهم ورئيسهم .

٦٥ غمر البديهة : فياض القريحة أنظرنا : أمهلنا . المخاريق : جمع مخراق وهو سيف من خشب يلعب به الصبيان والجهل : معناه الشدة والسفة . لين القناة : كناية عن الذل ، الخسف : الظلم والهوان

٦٦ ارتجلها عفو الساعة : أنشدها ارتجالا . ينضح عن قومه : يدافع عنهم .

صفحة

٦٧ ليقيد منها : ليقتص منها . استل من قلبه السخيمة أخرج الضغن منه. الأراقم: بطون من تغلب . ويغلون : يبالغون . والإحفاء : إلحاح .

٦٨ رقش الكلام : زوره وزخرفه . لاتخلنا على غرائك : أى لا تظن أنا نحفل باغرائك ، ملك مقسط : عادل . الخطة . الامر . والأملاء : الجماعات والمفرد ملأ . الطيخ : التكبير والتعاشى : التعامى: الحلف : المحالفة. والكفلاء : جمع كافل وهو الضامن . الجناح : الذنب . وكندة : قبيلة . الرغاء . صوت البعير . والنجاء : الإسراع فى السير . والموائل : الهارب الفزع . والحرة : الأرض ذات الحجارة السود : والرجلاء الغليظة الشديدة . والطود : الجبل . المعترين : الفقراء .

٦٩ مشيع القلب : شجاع . اللزاز : من يلزم الشىء ويعتمد عليه فيه والجشام : المتكلف للامور ، والمقذمر : المغضوب فى همه . لا يطبعون : فلان يطبع إذا لم يكن له نفاذ فى مكارم الأمور . والبوار . الفساد .

٧٠ أفظعت العشيرة : أصيبت بأمر فظيع .

٧١ لا تلبق مما تملك شيئاً : لا تبقى . آليت : حلفت

٧٢ احتقروه : طلبوا منه القرى وهو طعام الضيف ، صرف الحديث : المختلق المزور . السنة : المجاعة . اقشعرت الأرض : تقبضت من عدم المطر .

صفحة

حدبا حدابير : ناقة حدباء : وحدبار :
بدت حراقفها من الهزال . ليلة صنبر :
باردة . تهورت النجوم : أى ولى أكثر
الليل . كسرت البيت : جانبه
وجآليته : نحو عنقه

٧٤ ينهنهه الزجر : يكفه . الصدى : الجسد
من الإنسان بعد موته

٧٥ ترق . تعوذ . الأنى : الحلم . العوراء :
الكلمة أو الفعلة القبيحة ، الأود :
الأعوجاج .
المسوح : ثياب الرهبان . سقط فى
يده : ندم

٧٦ أوهاق المنية : حبالها . نابى القافية :
قلقها .

٧٧ اليافع : الغلام إذا ترعرع وشارف
البلوغ . وتعل : تسقى المرة بعد المرة .
وتنهل : تشرب أول الشرب .
المطروق : المصاب

٨٠ الحميم المكظوم : الماء الحار المحبوس .
الأيلاف : رحلتان تجاريتان لقريش فى
الشتاء لليمن وفى الصيف لحوران

٨١ يؤرثون النار : يشعلونها

٨٧ الجزع بالفتح : الخرز اليمانى والصينى
فيه بياض وسواد . منجما : مفرقا
بجزءا على حسب الحوادث

٨٩ المصادع جمع مصدع : وهو البليغ القوى.
السكات والحصر : العى والعجز

٩٠ أحلاماً طافية : عقولا طائشة

٩٢ العسب جمع عسيب . وهو جريدة النخل
قد نزع خوصها : واللخاف : حجارة
بيض رقاق

صفحة

٩٨ المنبت : المنقطع عن أصحابه فى السفر :
الظهر: الدابة . الجمل لأنف : لمخزوم :
تشدق الرجل : لوى شدقه للتفصح .
تفيهق فى كلامه : توسع وتنطع . الفرس
الشموس : الذى لا يمكن أحداً
من ظهره ، وضده الذلول

٩٩ الصفق فى الأسواق : البيع والشراء

١٠٢ أنغض رأسه إليه . حركه تعجبا
واستهزاء

١١٠ الفرزمة : أول عهد الشاعر بصنع الشعر
أشفى على الخطر : أشرف عليه

١١٤ المزاء (بالضم) : اسم للخمر اللذيذة
الطعم . السكر (بفتح السين والكاف) :
نبيذ يتخذ من التمر والتوت

١١٥ القطين جمع القاطن . وهم أهل الدرا

١٦ الغوارب : جمع غارب ، وهو الكاهل .
المسطار : الخمرة الصارعة لشاربها .
الفتاة الخفرة : الحيية

١١٧ الأتن : جمع أتان . أنثى الحمار. الأعيار :
جمع عير ، وهو الحمار .

١١٩ رجلى ترعية : يجيد رعاية الإبل
الهراش : الخصام والقتال ، وهو
مستعار من هراش الكلاب . القلف :
عدم الاختتان

١٢١ القرمل : شجر ضعيف لا شوك له
وينفضخ إذا وطىء . الفياش : فخر
الرجل بما ليس عنده . صغى البعيث :
مال وخضع . اللأمة : الدرع

١٢٣ ابن اللبون : ولد الناقة إذا استكمل
العام الثانى . لز فى قرن : شد فى حبل
البزل : جمع بازل وهو البعير انشق نابه

صفحة

يدخوله في السنة الخامسة . القناعيس
جمع قنعاس : وهو العظيم من الإبل
١٢٥ كسعه : ضرب دبره بصدر قدمه
وطرده . النفل (بالفتح) : الغنيمة
١٢٦ كأس الذيفان : السم
١٣٧ طارت نفسه شعاعا : تبددت من
الخوف أو نحوه . لن تراعي : لن
تفزعي . والخنع : الذل . واليراع :
الجبان . يعتبط . يموت من غير علة
سقط المتاع : رديئه
١٣٨ الشليل : الدرع . أجم المعروف :
كرهه . والعوراء : الكلمة القبيحة
وكره : تتابعه . للندى والسدى :
رطوبة الجو، والمراد بهما المعروف .
والخود : المرأة الناعمة. وعقبة القدر:
ما بقي فيها من المرق وذلك كناية عن
الجدب . الفتن : الغصن .والورقاء :
الحمامة .
١٣٩ تحزموا : تماسكوا . المروة : الحجر
١٤٠ يغضني : يسد خياشيمي . فشـاول
بقبس : دافع بهم ومارس
١٤٣ ميعة الحب : أوله وأصله . والغلواء :
الشدة . المنادح : المفاوز
١٤٥ لا طباخ لهم: لافائدة ولاقوة . والدندن:
أصل الصليان وهو من البقول .
البوادر : الحدة
١٤٦ منوا بداء السياسة : أصيبوا به ،
١٤٧ كأسا روية : ملأى . ويب غيرك،
الويب كالويل وزناً ومعنى، لعاً لك :
دعاء للعاثر لينهض
١٤٨ فوز : مات . الآلة الحدباء : النعش

صفحة

١٤٩ تنهنه دموعها : تكفكفها
١٥٠ الجرس هنا بمعنى النغم . أمثل قومه :
أشرفهم
١٥١ تعرقني الدهر : من قولهم تعرق العظم
أخذ ما عليه من اللحم نهشاً بأسنانه
الخز : الحرير . والبز : الكتان
١٥٣ مغلغلة : رسالة . عبد الدار : قبيلة .
١٥٤ لا يطبعون : لا يفسدون . جلق :
اسم دمشق . وشم الأنوف : كناية
عن الشهامة .
١٥٦ الجنب : الغريب . متحي وامراسي
للمتح : إخراج الماء من البئر. وأمرس
البكرة : أعاد حبلها إلى مجراه .
الآسي الطبيب.الأرماس:القبور.هرته
الكلاب : نبحته . العرف : المعروف
١٥٧ الحفيظة : الغضب . خلا ذرعه :
فرغ باله
١٥٨ العواتق : الأوانس . نوطة : تعلق
١٥٩ تبع نساء : يزور النساء ويتبعهن .
يخصر : يبرد
١٦٠ توألت : طلبت النجاة . أريتك :
بمعنى خبرني . تغور النجم : أفول .
الكاعب : الفتاة الناهد . والمعصر
من بلغت شبابها . المشاش : رؤوس
العظام
١٦١ سليط اللسان : بذيئه
١٦٢ العارم : الشديد . والذكر : الشديد
القتال. حشد على الحق: سراع الإجابة
عند النداء . عياذو الخنا : كارهون
للفحش . أنف : أباة الضيم . شمس

صفحة

العداوة : ألداء الخصام • علة : عامة • المساحى : الفؤوس

١٦٥ مقذع : مفحش • نكباء حرجف : ريح باردة شديدة الهبوب • الصقيع : الثلج • سروات النيب : ظهور الجمال :

١٦٦ ونطف الرجل : أتهم بريبة • والعبيط اللحم • القصباء : العزة • المصير ، واحد المصران : الأمعاء • والألق : الجنون أو شبهه • بحمراء الفروع : نار القرى • ينجاب : ينكشف • والقتم : الغبار

١٦٧ صعر خده : أماله عن الناس كبراً • الأخادع • جمع أخدع وهو شعبة فى العنق من الوريد

١٦٨ يرامى قرنه عن كثب : ينازل خصمه من قرب

١٦٨ اللقحة : الناقة. والرعاء : جمع راع • أرث النار أو الحرب : أضرمها •

١٦٩ المقرف : النذل ومن أبوه غير عربى • والوزار : كثير الإثم

١٧٠ كبش الجحفل : قائد الجيش • نقض مرة : وهن قوة • القطين : الخدم والحشم والأتباع • السمت : هيئة أهل الخير

١٧٢ الضراعة : الذل

١٧٣ الكرابيس : جمع كرباس وهو الثوب الخشن الغليظ من القطن • رغيب العين : طماع

١٧٤ العنجهية : الجفوة والخشونة • الاعتراس : صعوبة المراس • ريق

صفحة

الغرة : رونق الشباب • والبياض : الشيب

١٧٥ تنوص : تتحرك • صيدحى الضحى : الصياح الرفيع الصوت الأباس : القيدنة السبنتاة : الجريئة من كل شيء وغرضه الناقة • أمارت : أسالت • الكراس بالكسر : الفحل • القوداء : طويلة الظهر والعنق • انفجت بالبناء للمجهول : رفعت • الزحاليف : جمع زحلوفة وهى المكان المنحدر الملس • الصفصف : المستوى من الأرض • الدخاس جمع دخس وهو المزاق • الأحفاء : جمع حفص وهو البعير الضعيف : استعاره هنا للجبان. النأى : الصدع . ورأبه : اصلاحه

١٧٦ المين الماء الجارى • لوث المياه : لمها وتكويرها

١٧٧ ظمء حياته • من يوم ولادته إلى يوم وفاته يحبو للساشمه : يقاربها •

١٧٨ أحلى درعه : أفرغ باله • الكل : المرء

١٧٩ المربوع والربعه : الرجل بين الطول والقصر • المشذب : الشديد الطول فى نحافه لشعر الرجل : الذى كأنه مشط فتكسر قليلا ليس بسبط ولا جعده • العقيقة : شعر الرأس والمراد إن انفرقت من ذات نفسها فرقها وإلا تركها معقوصة • الحاجب الأزج : المقوس الطويل الوافر الشعر • القرن : اتصال شعر الحاجبين وضده البلج • أقنى العرنين : سائل الأنف مرتفع الوسط • الأدعج : الشديد سواد

صفحة

الحدقة ٠ كث اللحية : كثيفها ٠ ضليع الفم : واسعه ٠ الأشنب ذو الشنب وهو رونق الأسنان وماؤها ٠ والمفلج : فرق بين الثنايا ٠ المسربة : خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة ٠ الدمية : المصورة من العاج . البادن . ذو اللحم : المماسك الذى يمسك بعضه بعضا ٠ الكراديس رءوس العظام . شثن الكفين والقدمين : غليظهما ولحيمهما ٠ سائل الأطراف : طويل الأصابع . خمصان الأخمصين : متجافى أخمص القدم ٠ والاخمص هو الموضع الذى لاتناله الأرض من وسط القدم ٠ مسيح القدمين : أملسهما ٠ التقلع : رفع الرجل بقوة ٠ التكفؤ : الميل الى سنن المشى وقصده ٠ الهون : الرفق والوقار ٠ ذريع المشية ٠ واسع الخطو من صبب : من علو يختمه بأشداقه ٠ يستعمل جميع فمه للتكلم لا يقتصر على تحريك الشفتين

١٨٠ يند : ينفرد ويشرد

١٨١ مات حتف أنفه ٠ مات على فراشه لأن العرب يزعمون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جرحه ٠ حمى الوطيس ٠ اشتدت الحرب ، والوطيس : التنور أو المعركة هدنة على دخن : سكون لعلة لا لصلاح والدخن : الحقد ٠ رفقاً بالقوارير : جمع قارورة ، وهى المرأة تشبيها لها بالزجاج لضعفها ٠ الختن : زوج البنت أو زوج الأخت ٠ لحنه أخته : لامته

١٨٢ شاهت الوجوه : قبحت

صفحة

١٨٣ الدهماء : عامة الناس ٠ الغلس : ظلام الليل ٠ السبال : جمع سبلة وهى طرف الشارب

١٨٤ آس بين الناس : ساو بينهم ٠ الفلق : الفجر والفصب

١٨٥ اقدعوا القوس : كفوها واردعوها ٠ ناوص الجرة ثم سالمها : الجرة خشبة فى رأسها كفة تصاد بها الظباء ٠ وناوصها تنأى ٠ جاذبها ومارسها ٠ يضرب هذا المثل لمن يخالف القوم عن رأيهم ثم يرجع إلى قولهم ويضطر الى الوفاق ٠ استوثق الأمر : أمكن وانتظم

١٨٧ الداء الدوى : الدفين الذى لا يطب له والنزعة : جمع نازع وهو : رافع الماء من البئر ٠ الأشطان الحبال ٠ والركى : بئر غير مطوية اللقاح : النياق مرهت عينه : ابيضت حماليقها ٠ عض الأيدى : كناية عن الندم ٠ يسى لسكم طرقه : عهدها ٠ خيل شمس : جمع شموس وهو الذى يمنع ظهره ولا يكاد يستقر ٠ والذلل جمع ذلول وهو المروض الطيع

١٨٨ ركلها : رفسها برجله

١٨٩ ضربت فيه بعرق أشب ٠ أى ذى التباس فنسبه غير صريح

١٩٠ الراى الجميم : الحازم ٠ واللسان الدرب : الحاد ٠ لم الشعث : جمع المتفرق

١٩١ دلج الليل : سير آخر الليل للغارة ٠ كنس كنوساً : تغيب واستتر ٠ ومكانس الريب : محال المنكر ٠

صفحة

جعلت ذلك دبر أذنى : لم أصغ إليه ولم أعرج عليه .

١٩٤ تنكب قوسه : حملها على منكبه . ذيم : اسم فرس أو ناقة . لفها . جمعها . حطم : مسرع . الوضم : خشبة يقطع عليها اللحم . العصلبى : الشديد الأروع : الذكى . الدوى : الصحراء . والخروج منها كناية عن الخبرة والصبر والجلادة : كقولهم : طلاع الثنايا . العرد : الشديد . البكر : الفتى من الإبل . الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس يعلق فى الخباء فإذا دنت الإبل منه حرك فنفرت من صوته (أى لا يخاف مما لا يخيف) فررت : أى اختبرت فوجدت ذكياً : الكنانة : جعبة السهام . عجم عيدانها : عضها لينظر أيها أصلب . أمرها : أقواها

١٩٥ الإيضاع : نوع من السير : السلمة : شجرة القرظ تعصب ثم تخبط بالأرض أو بالعصى ليسقط ثمرها . ومعنى الجملة أنهم كهذه الشجرة لا ينتفع منها إلا بالشدة . غرائب الإبل تضرب أشد الضرب عند الهرب . وعند الخلاط لا أخلق : لا أقدر ولا أفصل . فريت : قطعت

١٩٧ الألوية السود : أعلام العباسيين

١٩٨ تحور : ترجع

١٩٩ الأفاويق : جمع فيقة وهى اللبن . رحمتنا : رفستنا الطير . بارحة : كناية عن سوء الحال . الأسار : القيد .

٢٠١ أوسطهم داراً : كناية عن السؤدد والشرف :

صفحة

لاتنفسوا : نفس عليه خيرا : حسده عليه ولم يره له أهلا . تتسللون لواذاً : تهربون خفية .

٢٠٢ الظليم : ذكر النعام . أحمرها وأسودها : عجمها وعربها . تعنو : تخضع . وتجب القلوب : تخفق . داخرين له : أذلاء .

٢٠٤ الجريرة : الذنب : فسودوا كباركم : اجعلوهم سادة لكم . المسألة : سؤال الناس استجداء .

٢٠٥ ضم نشرهم : جمع متفرقهم :

٢١٠ ينمون : ينتسبون . وقسرا : غصباً وقهراً . ثل : هدم

٢١١ آرية نسبة إلى الآريين وهم قدماء الجنس الهندى الأوربى

٢١٣ الفلج : النصر الكبت : الإذلال .

٢١٤ الجنة : طائفة من الجن

٢١٦ قمع : قهر وذلل . تلكأ : أبطأ وتوقف .

٢١٧ المزاوجة : اتفاق الكلمات وزناً لا رويا . الملح جمع ملحة وهى ما حسن من الأحاديث .

٢٢٠ العظائم : الشدائد . والسخائم : الضغائن . اشكيناك : أزلنا شكايتك وأعتبناك : قبلنا عتابك .

٢٢١ الحفيظة : الغضب والموجدة . عروة هذا القميص : يريد الخلافة . خبىء الغمد : السيف .

صفحة

الرفيج : شجر سهل وهو القتاد . الهلوك المرأة التي لا تملك نفسها عن زوجها .
٢٢٣ الآن ظرف متعلق بأمن أى الآن أمن الأحمر والأسود .
٢٢٤ باب الأبواب : ثغر من ثغور بحر قزوين وكانت مدينة شهيرة تعرف الآن بدربند . الغارب : الموج . تحوذ : تسوق . وملكنا البحر: توسطناه . البحرين : البحر والمطر
٢٢٥ الثمال: من يعول عليه . وسروات : جمع الجمع لسرى وهو السخى ذو المروءة . وسريات جمع سرية وهى الرفيعة القدر . القلب . العسكر . والظهر : الدابة . واليد : النعمة . والأعضاء : الأعوان . والجوارح : الأعضاء . والحاجب: الخادم . والعين: الذهب . والراحة ضد التعب . صلد الزند : كناية عن الخيبة . اليمين : القوة : واليسار : الغنى . المرافق ما يرتفق به . الثنية الفتية من النوق . والناب الناقة المسنة . العيش الأخضر : كناية عن المعيشة الطيبة والمحبوب الاصفر : الذهب . فودى : جانب رأسى . والعدو الأزرق : الشديد العداوة . والموت الأحمر : القتل بالسيف .
٢٢٦ احتجن المال . ضمه إلى نفسه . تقفعت : تقبضت . الخلة : الحاجه والنقص
٢٢٩ الأساود جمع أسود : وهو العظيم من الحيات . الفادح : الثقيل . والعياء الذى لا يبرأ منه . عارى :

صفحة

يجادل . وينازع . وبذ : غلب . وعاديا : واثبا . ويدلى : يحضر ويحتج
٢٣٠ أثيراً : مقربا . الفالج : داء يحدث فى أحد شقى البدن فيبطل إحساسه .
٢٣٠ تبلغت به العلة : اشتدت مخانة : مزاح وهزل :
٢٣١ فل : ثلم وشاة : حد . على رسلى برفق وتؤدة .
٢٣٢ لساجلتك . باريتك وعارضتك . المصارمة : المقاطعة . يديل : أدال الله فلاناً من فلان جعل له الكرة عليه القلى : البغض .
٢٣٢ الجادة : وسط الطريق . البنيات . الطرق الصغار تتشعب من الجادة . الجهارة: حسن القد والمنظر . يتنبل : يتشبه بالنبلاء .
٢٣٤ المدارج : الطرق . يتوقل: يتصعد اضطلع بكذا : احتمله ونهض به عشارها: جمع العشراء للناقة متى مضى على حملها عشرة أشهر . القولنج: مرض مؤلم من أمراض المعدة . النقرس داء يأخذ فى أصبع الرجل . الديباجة هنا حسن الأسلوب . الوشى : نقش الثوب من كل لون . الغرار : المثال الذى تضرب عليه النصال لتصلح
٢٣٥ يمت : مت إلى فلان بكذا وصل إليه وتوسل . غلول : خيانه . استئصالك: أستطلامك . حلبت شطريها : مربك خيرها وشرها . ظل ذو ثلاث شعب: دخان جهنم على وجه التشبيه .
٢٣٦ حلى بصدرك : أعجبك . سريخ : معجل

صفحة

الحشاشة والذماء : بقية الروح فى جسم المريض : البرحاء : شدة الأذى والمشقة .

أعضلتهن : عضل المرأة حبسها عن الزواج .

٢٣٩ الغلواء : السرعة والذهاب إلى الغاية . منى : أصيب .

٢٤٠ شام البرق : نظره . الإيماض : البريق

٢٤١ عوارف : جمع عارفة وهى الصنيع والجميل

٢٤٢ ألقى عصاه : كناية عن الإقامة بعد الظعن . عفو الساعة : بسرعة من غير كلفة . ابن بجدتها : العالم بالشىء المتقن له . والبجدة باطن الشىء .

٢٤٣ السكدية : التسول . السماط : الشىء المصطف وما يوضع عليه الطعام . الأشراط : العلامات .

٢٤٤ المقة : المحبة . دخلة الرجل نيته ومذهبه . النحلة : النوع أو المذهب . الأزر : الظهر والقوة . التولب : الخنزير : أقنى حياءك : الزمه . خزاً وبزاً : حريراً وكتاناً . مطارف : جمع مطرف وهو رداء مربع من الخز فى طرفيه علمان . تعزى : تنسب . العافون . جمع عاف وهو طالب الرزق

٢٤٥ خضرة الدمن : ما نبت فى المزبلة من العشب . المعيدى : رجل من معد يضرب به المثل فى حسن الصيت وقبح المرأى .

٢٤٦ الغلائل : جمع غلالة وهى الثوب الرقيق . الأحاجى : جمع أحجية وهى

صفحة

الكلمة المغلقة يتحاجى الناس بها .

٢٤٧ التنويل : العطاء . الاعتيار : القصد والزيارة :

٢٤٨ المسغبة : الجوع

٢٥٠ مؤاتاة : مساعدة . الأخبية المطنبة : الخيام المضروبة .

٢٥٢ يتقيلون : يتشبهون . تجرم : انقضى . عييت : عجزت . مهلهلة النسج : سخيفته

٢٥٤ أشرع الرمح : شهره . البنود : الأعلام

٢٥٥ الكماة : الأبطال .

٢٥٦ حسبة : إدخاراً عند الله . الأطمار : الثياب البالية .

٢٥٧ الآبق : الهارب . النواطير : جمع ناطور وهو حافظ الكرم والنخل . بشمن : امتلأت بطونهن . الصيد : جمع أصيد وهو الشريف العزيز . جدا كل جبس : عطاه كل بخيل دنىء : بلغ . جمع بلغة وهى ما يتبلغ به من العيش . صبابة العيش : بقيته وآخرته . طففتها : نقصتها .

٢٥٨ الرحل هنا : المنزل . وحضرت الهموم رحلى : طرقتنى . المدائن : مدائن كسرى وهى إلى جنب بغداد الأبيض : ايون كسرى . والعنس . الناقة الصلبة . درس : قفر . خافضون فى ظل عال : منعمون فى قصر مشيد . يحسر العيون ويخسى : يردها حاسرة خاسئة لارتفاعه . خلاط ومكس مكانان .

صفحة

حلل : جمع حلة، وهى مكان النزول والقرية . البسابس : القفار . عنس قبيلة من اليمن : والبحترى طائى يمنى . غدون أنضاء ليس : صرن باليات . الدرفس : راية الفرس إغماض جرس : سكوت . المشيخ : البطل . يغتلى ارتيابى : يزداد . وتتقراهم تفحصهم ، أبو الغوث: أبن البحترى . ولم يصرد : أى لم يسق دون الرى : والعسكران : مكان . الاخس: أخذالشىء فى نهزة ومخالسة أضوأ الليل : أضاءه .

٢٥٩ الجوب: السكانون والمكان الوطىء وأرعن جلس : جبل شاهق. يتظنى الخ ... يظنه القادم عليه إنسانا مزعجابفراق حبه أو بتطليق زوجه. الدمقس : الحرير . ورضوى وقدس : جبلان البرس : القطن النكس : الوضيع . ووقوف : جمع واقف . وخنس : مستترون . القيان : المغنيات . يرجعن : يغنين وحو ولعس : جمع حواء ولعساء لسوداء الشفة ، وكانت صفة مستحسنة . غير نمى لأهلها عند أهلى : يشير إلى قصة سيف بن ذى يزن وأستعانته بكسرى فى طرد أرباط ملك الحبشة من اليمن بعد أن ملكها ، والبحترى كما نعلم يمنى . السنخ : الأصل .

٢٦٠ حالية العذارى ، لابسة الحلى منهن . الجديدان : الليل والنهار .

٢٦١ الشملال : الناقة السريعة. لم أعتمد أى لم أتعمده .

صفحة

٢٦٢ قد حال ف : تغير . الطرق : الماء خوضته الإبل وبولت فيه . اللكنة: العجمة والعى . الزق (بالضم) : الخمر

٢٦٥ النقع : الغبار . الرجعة : الرجوع إلى الدنيا بعد الموت . نافقة : رائجة

٢٦٧ نفسى : فرجى وخففى

٢٦٧ صعر خده: أماله عن الناس من كبر . السليقة : الطبيعة . الأتون : أخدود الجبار والجصاص .

٢٦٩ الوظيفة: للرتب من مال أوطعام . وفرة جعدة : الوفرة ما سال على الأذنين من الشعر ، والجعدة ما كان فيها التواء وتقبض

٢٧١ اليم : البحر . الآل : السراب تحيف : تظلم

مخايل : دلائل على النجح

٢٧٣ نفق عنده: حظى لديه . دالة : جرأة

٢٧٤ ضرب على وتره: جرى على طريقه. الدن : وعاء الخمر الكبير. الطف (بالفتح) : الرفق

العتقة : الخمر القديمة . المزاج : مزج الخمر بالماء .

٢٧٥ الصهباء : الخمر . الاصطباح : شرب الخمر صباحا

المها : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية. تدريها: تختلها. القلانس: جمع قلنسوة وهى من أغطية الرأس . كالقبعة . نهز بالدلو : ضرب بها

صفحة

في الماء لتمتلي . أسمت : أرعيت .
السراح : الماشية السائمة
٢٧٦ السراة : جمع سرى وهو الشريف السخى . الطيرة : مايتشاءم به من الفأل الردىء
٢٧٧ المهرجان : عيد الفرس . القيان: جمع قينة وهى المغنية ، النكتة : النقطة البيضاء فى الأسود
الخلصان : الخالص من الأخدان يستوى فيه الواحد والجماعة
يلحون : يلومون
٢٧٩ الآذريون : زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وهو عباد الشمس . الغالية : أخلاط من الطيب . الدكن : جمع أدكن ، وهو المائل إلى السواد . الخود : المرأة الشابة . يدحو : يبسط قوراء : متسعة . الرشاء : الحبل
٢٨٠ رنقت ، مستعار من رنق الطائر إذا خفق بجناحيه ولم يطر الورس: نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن ويصبغ به . مزعزع : محرك : شول : نقص . تشعشع العمر : تقضى إلا أقله صور: جمع صوراء؛ وهى المائله الملتفته. روان: نواظر. بين هنا : بمعنى تبين أى ظهر . ومنه المثل (قد بين الصبح لذى عينين) مشعشع : مخلوط بعضه ببعض . أذكى : عطر . ريان ظله : وارف ظله . ربعى : نسبة إلى الربيع . حثحث : حرك . الصنج : صفيحة مدورة من الصفر يضرب بها على أخرى للطرب . شدوات : تغريد .

صفحة

٢٨٢ الغلالة : الثوب الرقيق
٢٨٣ الحندس الظلام. المنجل: آلة الحصاد حائت : منعت .
٢٨٧ أسرار الوجه: الخطوط التى فى الجبهة الجادى: الزعفران. نسبة إلى الجادية قرية بالشام . أنماط : جمع نمط وهو ضرب من البسط . الاستبرق : غليظ الديباج . النشزات الأمكنة المرتفعة . الفيصل : اللسان مجازاً. أعنق : طويل شامخ .
٢٨٨ مالأه عليه ؛ ساعده . العطل : الخلو من الزينة . شرع : سواء . رأد الضحى أوله الطفل : قبيل الغروب . الرسيم : نوع من سير الإبل . الأنيق : جمع ناقة
٢٨٩ المحتد الأصل . المجتدى : طالب العطاء . اكبت : أذل . الغضاضة المنقصة . فكأن قد . كأنها قد زالت .
٢٩١ الأربع الأدراس : المنازل المقفرة المشكاة : الكوة غير النافذة . النبراس : المصباح
٢٩٢ حصف عقله : قوى . الكلف : شيء يعلو الوجه كالسمسم . أجياد الكواعب : رقاب الحسان
٢٩٣ القتاد : شجر شائك. الوفر : المال الكثير . مخلق لديباجتيه : مبل لصفحتى وجهه ، وذلك كناية عن الابتذال سرمد: دائم بفدح: يثقل. فجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين .

صفحة

٢٩٥ يتزاور : يموج ويميل
٢٩٦ الغث من الكلام . التافه . الحبك الطرق، جمع حبكة. الجواشن: الدروع. ريق الغيث : أوله
٢٩٧ لجب: ذو لجب وهو الصوت . تدعى : تنتسب . العثير : الغبار
٢٩٨ الحدود . الأحكام الشرعية
٢٩٩ عقود عمره : عقد العدد عشرة. يتجشم : يتكلف الصعب. الرواض مذللو الخيل ومملو ركوبها. أفعم وطابه : ملأ وعاءه . أخلاف : جمع خلف وهو حلمة ضرع الناقة
أشلى عليه الكلاب : أغراه به . لم يقم له وزناً : لم يحفل به .
٣٠١ يطيش سهمه . يخيب . الإحالة : التكلم بالمحال. الثقلان : الإنس والجن . تتيمه : تذلله وتخضعه . كميت الخمر : ما فيها سواد وحمرة
٣٠٢ يسبيه : يفتنه : قرن الشمس : قرصها
٣٠٣ لصطنعه لنفسه : أختص به
لواعج : جمع لا عج وهو الهوى المحرق
٣٠٤ المرار : آخر الشهر وهو المحاق الإسار : القيد. الإهاب : الجلد. الحسو : الشرب شيئاً بعد شيء الطنبور : آلة للطرب ذات عنق طويل وستة أوتار من نحاس لا يزكو به : لا يليق به . يز مصون شعره : يبتذله .
٣٠٥ العراء : الفضاء
٣٠٦ العباب : معظم الماء . معصفر : مصبوغ بالعصفر وهو نبت أصفر يصبغ به . عاج : مال
٣١١ العير حمار الوحش . ساف :شم . الخزامى : نبت طيب الرائحة. العود المسن من الإبل
أديم الأرض : سطحها .الرمات : ما بلى من العظام
٣١١ الفرقدان : كوكبان متلازمان . المدلج: السائر آخر الليل . الشرى مأسدة جانب الفرات . الصلال : جمع صل وهو الحية الخبيثة
٣١٢ المسودة : هم العباسيون لاتخاذهم السواد علماً وشعاراً
٣١٦ الفلق : الصباح . الأرق ، السهاد والسهر .السدف : شدة الظلام. تمريها : تستدرها .
٣١٧ القيان : المغنيات .
اللهوات : جمع لهاة وهي أقصى سقف الفم . ذو النون : يونس عليه السلام . والنون الحوت . الجداء جمع جدي. السراحين: جمع سرحان وهو الذئب .
٣١٨ مبغوم النداء : لم يفصح عما يريد يأسو الجرح : يضمده
٣١٩ أخياف : مختلفون
خاسوا : نكسوا وغدروا. انتهاس نهش . انبجاس : انفجار . همع الدمع : سكب . الريم : الغزال
٣٢٣ الجمانة : حبة من فضة على شكل اللؤلؤة . الرشأ :الغزال الأبيض
٣٢٤ الرديني : رمح منسوب لمردينة،

صفحة

وهى امرأة كانت تثقف الرماح .
الشطب : خطوط السيف

٣٢٨ الصوادى : العطاش . يطبى : يستهوى

٣٢٩ شوازيا : مرتفعات . خزراً : جمع أخزر وهو ضيق العين . حشرة آذانها : لطيفة صغيرة . قب الأياطل ضامرات البطون والخصور . الأنسر جمع نسر وهى لحمة فى باطن حافر الفرس من أعلاه الخلوق : الطيب . الشلو : بقية الجسم المأكول . القسور : الأسد

٣٣٠ ذات بينهما : الصلة والقربة ضافية الذيل ، طويلته

٣٣٢ التأسى : التجلد أنبت : انقطع النسرين : ورد أبيض عطر قوى الرائحة .

٣٣٣ الزقوم : شجرة فى النار يطعم منها أهلها . والغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار . السناء : الرفعة والسنى الضوء . القذال : مؤخر الرأس . العلاوة : أعلى الرأس أو العنق .

٣٣٥ يمتاح فضله : أتاه يطلبه . الفنك : دابة يفترى جلدها أى يلبس فروا

٣٣٧ مسجور : ملآن . سرحت أغصانها : امتدت وطالت

٣٣٨ تفرى : تكشف . الخضارم : البحار

٣٤٠ اللمى : الريق المجرة : نجوم كثيرة لاترى بمجرد البصر ، وإنما ينتشر ضوؤها فيرى كأنه خط أبيض

صفحة

٣٤١ الشنب : بريق الأسنان . واللعس : سمرة فى الشفة . الوعساء : رابية من رمل لينة . الرضاب : الريق . الليل مشمط الذوائب : لاح فجره . الجوزاء : برج من أبراج السماء

٣٤٢ انكدرت الشهب : هوت : وتساقطت الافرند : جوهر السيف ووشيه . الريطة : الملاءة

٣٤٣ همى الغيث : سقط . الحيا : المطر

٣٤٤ الثوب المعلم : المنقوش ، كنن فيه : ستر . برما : ضجرا . العفاء : الهلاك والبلى

٣٤٥ الدبر : جماعة النحل . الضرب الهبر أن ينقطع منه اللحم لشدته . السياق : النزع والاحتضار

٣٤٩ الاستنان : من استنان الفرس وهو قمصه وعدوه ونشاطه

٣٥٢ الصبوح : الشراب صباحاً . الأيك : الشجر الملتف الكثير . المخلق : المعطر بالخلوق الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . الظلم (بالفتح) : الريق

٣٥٥ الشذا : الرائحة

٣٥٦ الإثم : الخمر مجازاً

٣٥٨ الرزأة : المصيبة

٣٥٩ الغفوة : النومة . الروح (بالفتح) المساعدة . الإيوان : الصفة العظيمة . الأوار : اللهب

٣٦٠ موقرة : محملة تجهم لها : استقبلها بوجه كريه يتقلص : ينزوى ويتراجع

٣٦١ اللسن : الفصاحة ، خامره الداء ،

صفحة

خالط جوفه ، استشرى الفساد : تفاقم وعظم . الشارع : موارد الشاربين .

٣٦٣ قبع فى كسر بيته : انزوى واحتبس براذين : جمع برذون وهو دابة دون الفرس وفوق الحمار

٣٦٤ حباء : عطاء . تقية : مداراة . حدبا عليه : عطفا عليه . سليط اللسان : طويله وحديده التنطس: التأنق فى كل شىء .

٣٦٥ عنى : كلف العناء . من مليه: عدد له ما أعطاه. راش: أغنى: النشب: المال

٣٦٦ السواد : ما بين البصرة والكوفة وما حولها من القرى . النبط : جيل من العجم ينزلون بالبطائح من العراقين وقيل أنهم عرب . يتحرجون: لايرون فيه حرجاً ولا بأس

٣٦٧ لأخذت عليه : آخذته . مراغ : مذهب

٣٦٨ أرادهعلى كذا. حمله عليه . التجبيه: المقابلة المكروه

٣٧٢ الخبز القفار : غيرالمأدوم. السارية: العمود

٣٧٥ الغضا: شجرعظيم من الأثل. غض : طرى. الجنى : الثمر . تقتحمه العين: تزدريه : انساغ : سهل دخوله فى الحلق . اللها : جمع لهاة لمابين مقطع أصل اللسان إلى أقصى الحلق

٣٧٨ أصفاه : أسبغه وأطاله

٣٧٩ مهاواة الملوك : مسايرة لهم . المسكوكات : النقود. والسجلات :

صفحة

الأوراق الرسمية. الماديات الأشياء القديمة نسبة إلى عاد. أغفال الرواة : جمع غفل لغير المجرب . المفتريات: مختلفات الأحاديث. الجرح والتعديل فى الحديث: تنقص الراوى أو تزكيته

٣٨٠ كل عليها : عبء . الجد العاثر : الحظ السىء

٣٨٢ الربعة : لا بالطويل ولا بالقصير . يرتضخ : ينزع إلى العجم فى ألفاظ من ألفاظهم

٣٨٣ أحفظ : أغضب. ما عتم : مالبث. اليقين : الموت

٣٨٤ حسن البزة :حسن الهيئة . أنفسح درعه : طال باعه ، أندر: أتى بالنادر

٣٨٥ السمت : هيئة اهل الخير

٣٨٧ أنضوى إليه :انضم . صدع . جاهر أمضى الركائب فى طلبها أطال السفر فى البحث عنها . حداه إلى كذا ، دعاه إليه. العامهة : الحائرة . ظهراء نصراء . إشراف : تعالى. بشكائم: الشكيمة الحديدة المعترضة فى فم الفرس . غفلا : لم يسم واضعوها الدثور : الدروس

٣٨٨ الدهماء : جماعة الناس ، ولا بدع: لا غرابة

٣٩٠ أسكل عنه : نكص وجبن. أبيقورى: شهوانى نسبة إلى أبيقور أحد فلاسفة اليونان ، مستهتر: لا يبالى بما فعل

٣٩١ خانقاه : مكان الصوفية . توسط باحتها وشارف غايتها : كنايتان عن التضلع منها . شخص : ذهب

٣٩٢ التناسخ: انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر . تقمصت : انتقلت

صفحة

أو لبست . الحلولية : فرقة من المتصوفة تقول إن الله حال في كل شيء متحد بكل جزء ويجوز أن يطلق على كل شيء أنه الله

٤٠١ انتكثت قوته: انتقض أمره . الأرزاء: المصائب ، عفى على الأثر : محاها

٤٠٢ النعرة : الخيلاء والكبر ، الردء: العون ، الوزر : الملجأ

٤٠٣ رنقت عليه المنية : رفرفت عليه كالطائر ، والذماء : بقية الروح الأرضة : دويبة تأكل الخشب والكتب وزحوا: هلكوا من الإعياء

٤٠٤ أغطشت . أظلمت ، دياجير : جمع ديجور وهو الظلام . شارق : كوكب ، بارق : برق ، ما كان أروح : ما كان أسر

٤٠٥ تخونتها : تنقصتها

٤٠٦ بلة الفصاحة : قليل منها : الإحماض: الانتقال من الجد إلى الهزل

٤٠٩ السراوة المروءة والسخاء

٤١٠ أقيال : جمع قيل وهو الملك من ملوك حمير

صفحة

٤١٢ انثالت على : تتابعت وكثرت

٤١٦ ارفض عنها الوهن : زال الضعف

٤١٨ ذكا : اشتعل . العفاء : البلى . خبا : خمد ، الأريكة : سرير منجد مزين ، خبا أوارها : ضعف شأنها

٤١٩ الخانعة : الذليلة

٤٣٠ النافق : الرائج

٤٣٧ تجلو عنها أعقاب الملة: تبرأ من بقاياها

٤٣٨ دمستين : أخطب الناس في اليونان ولد سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٣٢٢ قبل الميلاد شيشرون : أفصح خطباء الرومان ولد سنة ١٠٦ وتوفى سنة ٤٣ قبل الميلاد

٤٣٩ الاصفاء ، أصفى الشاعر : انقطع شعره

٤٤٠ شبل في نعمة أبيه : ربي يحبو للسابعة : يناهزها

٤٤٤ أضرابهم : أجرأهم ، يبلغ الكتاب أجله : يبلغ الحكم أمده . اللدد: الخصومة الشديدة

٤٥٢ رجال المابين . موظفو البلاط العثماني أيام الخلافة .

رقم الإيداع : ١٥٩٣ ٨١
الرقم الدولي ISBN ٩ ٧ ٧٢٧٩ - ٣٧ - ٢

مطبعة نهضة مصر
١٨ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة
ت ٩٠٣٣٩٥ - ٩٠٨٨٩٥